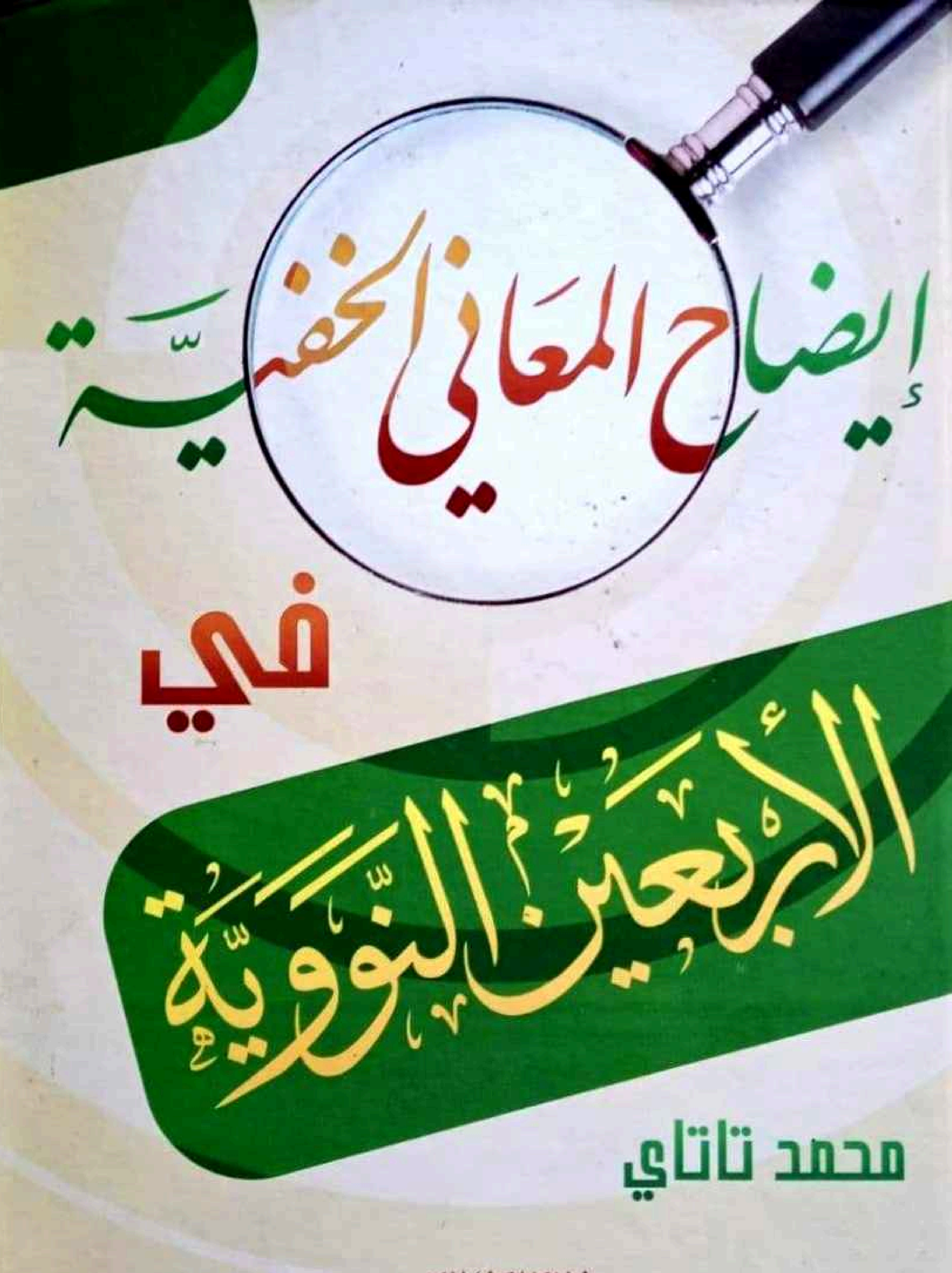

إيضاح المعاني الخفية
في
الأربعين النووية
محمد تاتاي
دار الوفاء

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله الذى أسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة ، لا نحصى ثناء على جليل آلائه وجميل وجهه إلا بما أثنى على نفسه .

والصلاة والسلام على رسول الحكمة وسراج الأمّة ، محمد بن عبد الله وآله ومن والاه .

وبعد :

فها هى الطبعة الثانية من كتاب « إيضاح المعانى الخفية فى الأربعين النووية » أقدّمها لقرائى الأكرمين ، بعد نفاد الأولى وما صدر منها تباعا فى فترة وجيزة ــ والحمد لله .

وأنا أبتهل إلى العلىّ القدير أن يجعله عملا خالصا لوجهه الكريم ، وشفيعا فى اليوم العظيم ، ولا أدّعى حظا للنفس من نجاحه الباهر ، بل أعزوه بصدق إلى اعتبارات غير ذاتية وأسباب توفيقية هيّأها الله له ــ سبحانه وتعالى .

أولها : سحائب بركة الإمام النووى ــ رحمة الله عليه ــ وسرّ إخلاصه وصفائه وعلوّ كعبه وسمو منزلته ، ولا زالت محبته تتملك شغاف قلبى كل يوم أملا فى نهج القائل :

أحب الصالحين ولست منهم لعلى أن أنال بهم شفاعة
وأكْرَهُ من تجارته المعاصى ولو كنّا سواء فى البضاعة

ثانيها :الإقبال المتزايد من خيرة أبناء الأمة الإسلامية المخلصين على مشكاة السنة حفظا وترسّما وتفقّها ، وعرضًا لمستجدات العصر بلغة العصر على الموازين الشرعية المرنة والأدلة الأصولية ، ومن أهمها بعد القرآن الكريم أحاديث الرسول العظيم صلوات الله وسلامه عليه ، وكأنّى بالإخوة وقد استحسنوا هذا الأسلوب الجديد يحمّلوننى مسؤولية جسيمة وأمانة عظيمة ستعظمها أعين الكبراء ، بله عن أقرانى ، تجاه هذه الثروة النبوية الجليلة،لكن همّتى تعلّقت دوما بالسّعى الحثيث للالتحاق بركب خدمة القرآن والحديث ، وذى خطوة أخرى على الدرب أعكف على إنهائها وهى بعنوان :

« البشائر النبوية فى الأربعين التاتائية »

ثالثها :الأرواح الطيبة التى ألفناها من أهل الفضل فى مصر الحبيبة عموما ودار الوفاء على وجه الخصوص ، وفيهم يصدق قول القائل :

لا عيب فيهم غير أن من زارهم نسى الأهل والوطن

لكن أنَّى للثناء أن يسعفنى، فعزائى دعائى: اللهم اجعل هذا البلد آمنا وسائر أوطان المسلمين، وأعزّ به الإسلام والمستضعفين، واحمه من كيد الكائدين يا رب العالمين.

رابعها : ومن الاعتبارات دعاء الشيخ الوالد وبعض السّادة الأماجد الذين أدين لهم ببالغ الشكر وسابغ الحمد ، حيث طوقوا عنقى بجليل نصحهم ، وجميل تقديرهم .

خامسها : وفى ذات الوقت فإنّى أضع نصب عينىَّ مقولة العارف بالله ابن عطاء الله السكندرى : خف من وجود إحسانه إليك ، ودوام إساءتك معه ، أن يكون ذلك استدارجا لك

وتأتى هذه الطبعة بعد أن أعدت النظر فيه رجاء أن أبلغ الكمال أو أقاربه، فصحّحتُ الأخطاء المطبعية ، واستدركت بعض ما فرطت ، فإن أصبت فمن الله ﴿ **وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ** ﴾ ، وإن كانت الأخرى فإنما هى نفسى ، وأستغفر الله العظيم .

ورجائى من شيوخى بالأزهر الشريف ، ومن كل ناظر يطلع على عيب أن يدلنى عليه ويرشدنى إليه ، وله منّى أطيبِ الثناء وأخلص الدعاء ، فلله در ابن الخطاب الذى كان رجّاعا إلى الحق والصّواب حين قال :« رحم الله رجلا أهدى إلى عيوب نفسى ».

اللهم إنا نسألك الإقبال عليك بملاطفات الإحسان لا بسلاسل الامتحان، والرجوع إليك فى البدايات ، والنجاح فى النهايات ، آمين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

فرنسا ٨ رجب / ١٤١٧ هـ

٢٠ / ١١ / ١٩٩٦ م

محمد تاتاى « تَتيات »

تقديم

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وصفيه وخليله ، صلوات الله وسلامه عليه وآله وصحابته أجمعين .

أما بعد :

فإن الحافظ لهذا الدين هو الله ربّ العالمين ، قيّض لسنة سيّد المرسلين حماة مخلصين، وجهابذة من الحفاظ والمحدّثين ،حيث أنفقوا فى جمْعها وشرحها وتصحيحها الأعوام والسنين ، فأثمرت جهودهم المباركة مئات المؤلفات ، وعشرات المجلدات فى الحديث وعلومه .

وإذا كانت السّنة هى ترجمان القرآن الكريم ، فإن جهد أولئك الرجال هو ترجمان السنّة ، وخادمها ، وحارسها ، من أجل ذلك كان الاشتغال بهذا العلم من أشرف القربات وأفضل الطاعات .

ولقد منّ اللّه علىّ بالتشبّه بأهل العِلم وأولى الفهم ، أملا فى النجاح والفلاح :

وتَشبهُوا إن لمْ تكُونُوا مِثْلَهُمْ إنَّ التشبه بِالْكِرامِ فَلاحُ

وذلك حينما استأنست فى وحشة الغربة بكتاب الأربعين النّووية ، بل وترجع علاقتى به إلى حدَاثتى حيث شغفت به ، ووجدت نفسى مشدودًا إلى كل حديث فيه لا أحمل فراقه لغيره إلا كفراق المشتاق ، بعد أن يعانى كل المشاق .

فشرعت فى شرحه أواخر ١٩٨٥ م غير أن أعباء الدعوة وتبعاتها ــ فى فرنسا على الخصوص ــ وكثرَة الترحال أخرانى عن إتمامه إلى نهاية ١٩٩٢ م ، فلله الحمد والمنة .

ولكن لماذا الأربعين النووية بالذات ، رغم أنّه ليس أوّل ولا آخر من صنّف فى الأربعينات ــ بل سبقه فى تصنيفها خلق كثير. منهم عبد الله بن المبارك ، ومحمد بن أسلم الطوسى، والحسين بن سفيان النسوى ، وأبو بكر الآجرى ، وأبو بكر محمد بن إبراهيم الأصفهانى ، والدارقطنى، والحاكم ، وأبو نعيم ، وأبو عبد الرحمن السلمى ، وأبو سعيد المالينى، وأبو عثمان الصابونى، ومحمد بن عبد الله الأنصارى ، وأبو بكر البيهقى .

إلا أن الأربعين النووية انفردت بميزات عديدة من أهمها :

١ـ اشتمالها على جُلّ ما يحتاجه المؤمن فى عاجلته وآخرته من أصول العقائد والأحكام والمعاملات والأخلاق .

٢ـ وهى من جوامع الكلم ونفائس الحكم الذى فضل به سيد الوجود عليه الصلاة والسلام، ففى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبىّ ﷺ قال : «بعثت بجوامع الكلم » . قال النووى رحمه الله : جوامع الكلم فيما بلغنا أن الله تعالى يجمع له الأمور الكثيرة التى كانت تكتب فى الكتب قبله فى الأمر الواحد والأمرين ونحو ذلك .

٣ـ وجاءت أحاديثها كلية جامعة ؛ لأنّ عليها مدار الإسلام ، أو نصفه أو ثلثه ، أو ربعه .

٤ـ فاشتهرت وكثر حفاظها ،ونفع الله ببركة نيّة جامعها وحسن قصده رحمة الله عليه، وتلقاها العلماء بالشرح ، والتوضيح ، والتأليف حتى قيل : إنهم عدّوا لها واحدًا وخمسين شرحا منها المطبوع والمخطوط والمفقود .

وهذا الكتاب الذى بين يديك هو الشرح الثانى والخمسون أسميته : (إيضاح المعانى الخفية فى الأربعين النووية) ونهجت فيه بمنهجية جديدة تختلف عن الشروح السابقة من أوجه عديدة .حيث استفتحت بترجمة حياة الإمام النووى رحمة الله عليه ، وأوردت تقديمه لأربعينيته ، ثم ترسمت المنهج التالى :

كتابة الأحاديث بالترتيب دون حصر أو تبويب ، ثم تخريجها وبيان مرتبتها عند حذاق المحدثين ، وترجمة موجزة للراوى ،وبيان سبب ورود الحديث إن وجد .

ثم شرح ألفاظها وتوضيحها توضيحا لغويًا ، ومن ثمّ نخلص إلى إيضاح الدروس النبوية وتصنيفها وفق الموضوعات المختلفة والجوانب المتعددة التى قد تعزب عن كثير من المتعلمين وتغيب عن أذهان المعاندين لهذا الدين ؛ فأسوق الدروس : العقائدية ، والفقهية ،والسلوكية ،والاجتماعية ،والأخلاقية ، والفكرية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والحضارية ، والقضائية. .و . .وفقه الدعوة ، ثم أختم بمحاولة تطبيق هذا الحديث على الواقع المعاش لأمة الإسلام اليوم ، وإلقاء نظرة من خلال الحديث النبوى لأوضاعنا ، وما جنيناه من تنكبنا عن نهج نبينا عليه السلام ، قال تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور : ٦٣] .

ولقد توخيت فيه التوضيح والتقريب للقارئ الكريم ما استطعت ، فإن وفقت فبمدده تعالى وسداده ، وإن نـد قلمى وجانبنى الصواب فعزائى فى قول ابن رجب

الحنبلى فى كتابه : (القواعد فى الفقه) مَا نصّه : (ويأبى الله العصمة لكتاب غير كتابه ، والمنصف من اغتفر ، قليل خطأ المرء فى كثير صوابه) .

وأبتهل إلى الله سبحانه وتعالى أن يتقبّله قبولا حسنًا ، ويجعله ذُخرا ومُدخرًا ، ويغفر لى ولوالدى ، ولمشايخى ، ولإخوانى ، وأقاربى ، وأحبابى ، ولمن سعى فى نشر هذا الشرح ، أو فى قراءته ، أو اقتنائه ، وفهمه . آمين ، وصلّ اللهمّ وسلم على سيّدنا محمد وآله ، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين .

المؤلف : **محمد تاتاى**

تولوز ــ فرنسا

٥ / ٢ / ١٩٩٣ م

تَرجَمَةُ الإمام النَّووى

نقلا عن تذكرة الحفاظ للحافظ الذهبى

نسبه ، مولده ، ابتداء اشتغاله ، حرصه على العلم :

. النووى الإمام الحافظ الأوحد القدوة شيخ الإسلام علم الأولياء محيى الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مرى الحزامى الحواربى الشافعى، صاحب التصانيف النافعة.

مولده فى المحرم سنة إحدى وثلاثين وستمائة، وقدم دمشق سنة تسع وأربعين فسكن فى الرواجية يتناول خبز المدرسة، فحفظ التنبيه فى أربعة أشهر ونصف، وقرأ ربع المهذب حفظا فى باقى السنة على شيخه الكمال بن أحمد ثم حج مع أبيه وأقام بالمدينة شهرا ونصفا ومرض أكثر الطريق ، فذكر شيخنا أبو الحسن بن العطار : أنّ الشيخ محيى الدين ذكر له أنه كان يقرأ كل يوم اثنى عشر درسا على مشايخه شرحا وتصحيحا؛ درسين فى الوسيط، ودرسا فى المهذّب ، ودرسا فى الجمع بين الصحيحين ، ودرسا فى صحيح مسلم، ودرسا فى اللمع لابن جنى، ودرسا فى إصلاح المنطق، ودرسا فى التصريف، ودرسًا فى أصول الفقه، ودرسًا فى أسماء الرجال، ودرسا فى أصول الدين .

قال: وكنت أعلق جميع ما يتعلق بها من شرح مشكل وتوضيح عبارة وضبط لغة، وبارك الله تعالى فى وقتى ، وخطر لى أن أشتغل فى الطب ، فاشتغلت فى كتاب القانون، وأظلم قلبى وبقيت أيّاما لا أقدر على الاشتغال ؛ فأشفقت على نفسى وبعت القانون فنار قلبى .

شيوخه :

سمع من الرضى بن البرهان ، وشيخ الشيوخ عبد العزيز بن محمد الأنصارى ، وزين الدين بن عبد الدائم ، وعماد الدين عبد الكريم الخراسانى، وزين الدين خلف بن يوسف، وتقى الدين بن أبى اليسر ، وجمال الدين بن الصيرفى ، وشمس الدين بن أبى عمر ، وطبقتهم .

وسمع الكتب الستة، والمسند ، والموطأ ، وشرح السنة للبغوى، وسنن الدارقطنى ، وأشياء كثيرة .

وقرأ الكمال للحافظ عبد الغنى علاء الدين ، وشرح أحاديث الصحيحين على المحدث ابن إسحاق إبراهيم بن عيسى المرادى ، وأخذ الأصول على القاضى التفليسى ،

وتفقه على الكمال إسحاق المعرّى ، وشمس الدين عبد الرحمن بن نوح ، وعز الدين عمر بن سعد الأربلى ، والكمال سلار الأربلى ، وقرأ اللغة على الشيخ أحمد المصرى وغيره ، وقرأ على ابن مالك كتابا من تصنيفه ، ولازم الاشتغال والتصنيف ونشر العلم والعبادة والأوراد والصيام والذكر والصبر على المعيشة الخشنة فى المأكل والملبس كلية لا مزيد عليها ، ملبسه ثوبه خام ، وعمامته سبجانية صغيرة .

تلاميذه :

تخرج به جماعة من العلماء منهم : الخطيب صدر سليمان الجعفرى ، وشهاب الدين أحمد بن جعوان ، وشهاب الدين الأربدى وعلاء الدين بن العطار ، وحدث عنه ابن أبى الفتح ، والمزى ، وابن العطار .

اجتهاده ، حفظه ، زهده :

قال ابن العطار : ذكر لى شيخنا رحمه الله تعالى أنه كان لا يضيع له وقتا لا فى ليل ولا فى نهار حتى فى الطريق، وأنه دام ست سنين ثم أخذ فى التصنيف والإفادة ، والنصيحة وقول الحق. قلت : مع ما هو عليه من المجاهدة بنفسه والعمل بدقائق الورع والمراقبة وتصفية النفس من الشوائب ومحقها من أغراضها كان حافظا للحديث وفنونه ورجاله وصحيحه وعليله ، رأسا فى معرفة المذهب .

قال شيخنا الرشيد بن المعلم : عذلت الشيخ محيى الدين فى عدم دخوله الحمام وتضييق العيش فى مأكله وملبسه وأحواله وخوفه من مرض يعطله عن الاشتغال فقال : إن فلانا صام وعبد الله حتى اخضر جلده،وكان يمتنع من أكل الفواكه والخضار ويقول: أخاف أن يرطب جسمى ويجلب النوم .

وكان يأكل فى الليلة والليلة أكلة ، ويشرب شربة واحدة عند السحر . قال ابن العطار: كلمته فى الفاكهة،فقال: دمشق كثيرة الأوقاف وأملاك من تحت الحجر والتصرف لهم ولا يجوز إلا على وجه الغبطة لهم ثم المعاملة فيها على وجه المساقاة وفيها خلاف، فكيف تطيب نفسى بأكل ذلك وقد جمع العطار سيرته فى ست كراريس ؟!

تصانيفه :

من تصانيفه : شرح صحيح مسلم ، ورياض الصالحين ، والأذكار ، والأربعين ، والإرشاد فى علوم الحديث ، والتقريب ، والمبهمات ، وتحرير الألفاظ للتنبيه ، والإيضاح فى المناسك ، وله ثلاثة مناسك سواه ، والتبيان فى آداب حملة القرآن ، والفتاوى ، والروضة أربعة أسفار ، وشرح المهذب إلى باب المصراة فى أربع مجلدات، وشرح قطعة من البخارى وقطعة من الوسيط ،وعمل قطعة من الأحكام ، وجملة كثيرة

من الأسماء واللغات، ومسودة فى طبقات الفقهاء ومن التحقيق إلى باب صلاة المسافر .

ورعه :

كان لا يقبل من أحد شيئا إلا فى النّادر ممن لا يشتغل عليه ، أهدى له فقير إبريقا فقبله، وعزم عليه الشيخ برهان الدين الإسكندرانى أن يفطر عنده فقال : أحضر الطعام إلى هنا ونفطر جملة فأكل من ذلك وكان لونين وربمّا جمع الشيخ بعض الأوقات بين إدامين .

مواقفه مع الملوك فى الأمر بالمعروف :

وكان يواجه الملوك والظلمة بالإنكار ويكتب إليهم ويخوفهم بالله تعالى ، كتب مرة: من عبد الله يحيى النووى . سلام الله ورحمته وبركاته على المولى المحسن ملك الأمراء بدر الدين أدام الله له الخيرات وتولاه بالحسنات وبلغه من خيرات الدنيا والآخرة كل آماله ، وبارك له فى جميع أحواله آمين . وينهى إلى العلوم الشريفة أن أهل الشام فى ضيق وضعف حال بسبب قلة الأمطار ، وذكر فصلا طويلا وفى طى ذلك ورقة إلى الملك الظاهر ، فردّ جوابها ردّا عنيفا مؤلما فتكدّرت خواطر الجماعة .

وله غير رسالة الملك الظاهر فى الأمر بالمعروف، وكان شيخنا ابن فرح يشرح على الشيخ الحديث فقال نوبة: الشيخ محيى الدين قد صار إلى ثلاث مراتب كل مرتبة لو كانت لشخص لشدت إليه الرحال: العلم، والزهد ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وفاته :

سافر الشيخ فزار بيت المقدس وعاد إلى نوى فمرض عند والده ، فحضرته المنية فانتقل إلى رحمة الله فى الرابع والعشرين من رجب سنة ست وسبعين وستمائة ، وقبره ظاهر يـزار . قاله الشيخ قطب الدين اليونينى ، وقال : كان أوحد زمانه فى العلم والورع والعبادة والتقلل وخشونة العيش ، واقف الملك الظاهر بدار العدل غير مرة فحكى عن الملك الظاهر أنه قال : أنا أفزع منه .

ولى مشيخة دار الحديث . قلت : وليها سنة خمس وستين بعد أبى أسامة إلى أن مات قدس الله سرّه .

مقدمة الأربعين النووية

الحمد لله رب العالمين ، قيوم السموات والأرضين ، مدبّر الخلائق أجمعين ، باعث الرسل صلوات الله وسلامه عليهم إلى المكلفين لهدايتهم وبيان شرائع الدين ، بالدلائل القطعية ، وواضحات البراهين ، وأحمده على جميع نعمه ، وأسأله المزيدَ من فضله وكرمه، وأشهد أن لا إله إلا الله الواحد القهار ، الكريم الغفار ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وحبيبه وخليله ، أفضل المخلوقين المكرم بالقرآن العزيز ، المعجزة المستمرة على تعاقب السنين ، وبالسنن المستنيرة للمسترشدين ، المخصص بجوامع الكلمِ وسماحة الدين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر النبيّين والمرسلين، وآل كلٍ ، وسائر الصالحين .

أما بعد :

فقد روينا عن على بن أبى طالب ، وعبد الله بن مسعود ، ومعاذ بن جبل ، وأبى الدرداء، وابن عمر، وابن عباس، وأنس بن مالك، وأبى هريرة، وأبى سعيد الخدرى، رضى الله عنهم ــ من طرق كثيرات بروايات متنوعات ــ أن رسول الله ﷺ قال : «من حفظ على أمتى أربعين حديثا من أمر دينها بعثه الله يوم القيامة فى زمرة الفقهاء والعلماء»، وفى رواية: « بعثه الله فقيها عالما »، وفى رواية أبى الدرداء: « وكنت له يوم القيامة شافعا وشهيدا »، وفى رواية ابن مسعود: « قيل له : ادخل من أى أبواب الجنة شئت »، وفى رواية ابن عمر: « كتب فى زمرة العلماء، وحشر فى زمرة الشهداء » .

واتفق الحفاظ على أنه حديث ضعيف، وإن كثرت طرقه وقد صنف العلماء رضى الله عنهم فى هذا الباب ما لا يحصى من المصنفات؛ فأول من علمته صنف فيه: عبد الله بن المبارك ، ثم محمد بن أسلم الطوسى العالم الربانى ، ثم الحسن بن سفيان النَّسوى ، وأبو بكر الآجرى ، وأبو بكر محمد بن إبراهيم الأصفهانى ، والدارقطنى ، والحاكم ، وأبو نعيم ، وأبو عبد الرحمن السّلَمىّ ، وأبو سعيد المالينى ، وأبو عثمان الصّابونى ، ومحمد بن عبد الله الأنصارى ، وأبو بكر البيهقى ، وخلائق كثيرةً لا يحصون ، من المتقدمين والمتأخرين .

وقد استخرت الله تعالى فى جمع أربعين حديثا ، اقتداء بهؤلاء الأئمة الأعلام وحفاظ الإسلام .

وقد اتفق العلماء على جواز العمل بالحديث الضعيف فى فضائل الأعمال ، ومع هذا فليس اعتمادى على هذا الحديث ، بل على قوله ﷺ فى الأحاديث الصحيحة : «ليبلغ الشاهدُ منكم الغائب » ، وقوله ﷺ : « نضر الله امرأ سمع مقالتى فوعاها فأدّاها كما سمعها » .

ثم من العلماء من جمع الأربعين فى أصول الدين ، وبعضهم فى الفروع ، وبعضهم فى الجهاد ، وبعضهم فى الآداب ، وبعضهم فى الخطب ، وكلها مقاصد صالحة ، رضى الله تعالى عن قاصديها، وقد رأيت جمع أربعين أعم من ذلك كله ، وهى أربعون حديثا مشتملة على جميع ذلك ، وكل حديث منها قاعدة عظيمة من قواعد الدين ، وقد وصفه العلماء رضى الله عنهم بأن مدار الإسلام عليه ، أو هو نصف الإسلام أو ثلثه أو نحو ذلك ثم ألتَزم فى هذه الأربعين أن تكون صحيحةً ، ومعظمها فى صحيحى البخارى ومسلم رحمهما الله تعالى .

وأذكرها محذوفة الأسانيد ؛ليسهل حفظها ، ويعم الانتفاع بها إن شاء الله تعالى، ثم أتبعها بباب فى ضبط خفّى ألفاظها (١) ، وينبغى لكل راغب فى الآخرة أن يعرف هذه الأحاديث ، لما اشتملت عليه من المهمات ، واحتوت عليه من التنبيه على جميع الطاعات، وذلك ظاهر لمن تدبّره ، وعلى الكريم اعتمادى، وإليه تفويضى وإسْنَادى، وله الحمد والنّعمة ، وبه التوفيق والعصمة .

---

(١) لم يعثر شراح الأربعين على هذا الباب .

الحديث الأول

عن أمير المؤمنين أبى حفص عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم يقول :

« **إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه** » رواه إماما المحدثين ؛ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة البخارى ، وأبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى النيسابورى فى صحيحيهما ، اللذين هما أصح الكتب المصنفة .

سند الحديث :

هذا الحديث تفرد بروايته يحيى بن سعيد الأنصارى ، عن محمد بن إبراهيم التيمى، عن علقمة بن أبى وقاص الليثى ، عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وليس له طريق يصح غير هذا الطريق، كذا قال على بن المدينى وغيره، وقال الخطابى: لا أعلم خلافا بين أهل الحديث فى ذلك، مع أنه قد روى من حديث أبى سعيد وغيره، وقد قيل : إنه قد روى من طرق كثيرة، لكن لا يصح من ذلك شىء عند الحفاظ.

ثم رواه عن الأنصارى الخلق الكثير والجم الغفير ، فقيل : رواه عنه أكثر من مائتى راو، وقيل : رواه عنه سبعمائة راو ، ومن أعيانهم : الإمام مالك والثورى والأوزاعى وابن المبارك والليث بن سعد وحماد بن زيد وشعبة وابن عيينة وغيرهم ، واتفق العلماء على صحته وتلقيه بالقبول .

ترجمة الراوى :

هو عمر بن الخطاب ، ولد بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة . وفى السنة السادسة بعد البعثة المحمدية، وعقب أربعين رجلا وإحدى عشرة امرأة ، فتح الله عليه واعتنق الإسلام ، ويرجع سبب إسلامه إلى أن أخته فاطمة بنت الخطاب ـ رضى الله عنها ـ زوجة سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة كانت قد أسلمت هى وزوجها ، فسمع عمر بذلك فقصدها ليعاقبها فقرأت عليه القرآن ، فأوقع الله فى قلبه الإسلام ، فأسلم ثم جاء إلى رسول الله ﷺ فى دار عند الصفا فأظهر إسلامه ، فكبر المسلمون فرحًا بإسلامه ، ثم خرج إلى مجامع قريش فنادى بإسلامه، وكناه النبى ﷺ بأبى حفص، والحفص من أسماء الأسد ؛ لما كان عليه عمر من الشدة فى الحق ، ولقبه أيضا

بالفاروق ؛ لأنه بإسلامه فرق بين الحق والباطل ، بين الجاهلية والإسلام ، بين النور والظلام ،وعمر أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ـ رضى الله عنهم أجمعين ـ وأحد الخلفاء الراشدين ، وأحد أصهار النبى ﷺ ، وأحد كبار علماء الصحابة حيث روى لنا عن رسول الله ﷺ خمسمائة وتسعة وثلاثين حديثا ، وتكفى ابن الخطاب إشادة قولة عبد الله بن مسعود : كان إسلام عمر فتحا ،وهجرته نصرا ، وإمارته رحمة للمسلمين .

سبب ورود الحديث :

قال ابن مسعود رضى الله عنه : من هاجر يبتغى شيئا فإنما له ذلك ، هاجر رجل ليتزوج امرأة يقال لها: أم قيس ، فكان يقال له : مهاجر أم قيس . ورواه الطبرانى بلفظ: كان فينا رجل خطب امرأة يقال لها : أم قيس ، فأبت أن تتزوجه حتى يهاجر فهاجر فتزوجها فكنا نسميه مهاجر أم قيس .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

إن الذى أراد الله به خيرا فتح بصيرته وتفقه وتمعّن فى مدلولات هذا الحديث النبوى الشريف ليعجز عن حصر العبر وتحديد الدروس والمواعظ والقوانين والقواعد التى تشير إليها ألفاظ الحديث من قريب أو من بعيد .

ولله درّ الإمام الشافعى رضى الله عنه حين أدرك قسطا وافرا من هذه الموسوعة النبوية فقال : يدخل هذا الحديث فى سبعين بابا من أبواب الفقه .

وقال جماعة من العلماء: هذا الحديث ثلث الإسلام، واستحبّ العلماء أن تستفتح المصنّفات بهذا الحديث كما فعل الإمام أبو عبد الله البخارى فى أوّل كتابه الصحيح .

وعليه فإننا مهما عدّدنا وبيّنا ـ مما ألهمنا الله ـ من أهداف هذا الحديث بالذات فإننا سنبقى على الساحل دوما ؛ أن حديث المصطفى عليه السلام هو تعاليم وشروح وتوضيحات رسول بعث للناس كافة على اختلاف قدراتهم العلمية،والعقلية، والحضارية. ومن هذه الدروس والعبر نذكر :

العقائدية :

يقرّر هذا الحديث الشريف أن قبول الطاعات يتوقّف أساسا على الإخلاص لله ـ عز وجل ـ قال تعالى: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ**﴾[البينة: ٥]، وقال عز من قائل: ﴿ **فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ . أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ** ﴾[الزمر: ٢، ٣].

ويحذرنا من آفات قلبية خطيرة والتى هى :

أ ــ **العجب** : حيث تعوذ النبى ﷺ غير ما مرّة من العجب ؛ لأنه قد يكون سببا فى إحباط الأعمال .

ب ــ **الرياء**: وقد يريد المرائى بطاعته الناس فحسب،وقد يريد الناس ورب الناس، وكلاهما محبط للعمل لما رواه ﷺ عن رب العزة تعالى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عَمِل لى عملا أشْرَك فيه غيرى فأنا منه بَرِىء »(١) ؛ لأن الحق سبحانه غَنِى عن الوالد والولد والشريك ، وعن العمل الذى أشرك فيه غيره .

ولأن الإخلاص هو قطب الدين ﴿ **قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي** ﴾ [الزمر : ١٤] ؛ ولذلك ذمّ الله المرائى فى صلاته فقال : ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ . الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ** ﴾[الماعون : ٤ ــ ٦] ، ﴿ **وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ [النساء : ١٤٢] .

مثلما ذم المرائى فى صدقاته حيث قال : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ [البقرة : ٢٦٤] .

ويحضرنى فى هذا المقام سؤال وجيه وجّه لسلطان العلماء العز بن عبد السلام : عمن صلّى فطوّل صلاته من أجل الناس فقال : أرجو ألا يحبط عمله .

الفقهية :

النّية عند الفقهاء تعنى تمييز العبادات من العادات ، وتمييز العبادات بعضها من بعض، فالغسل مثلا قد يكون للتبرد أو للنظافة أو لرفع الجنابة ، أو لسنة الجمعة . . . إلخ . . . ولا يميزه إلا النية .

أ ــ إذًا فالنية أساس العبادات فى الإسلام ؛ ولهذا اتفق العلماء على أن العبادة المقصودة لنفسها كالصلاة ،والصيام ،والحج، لا تصح إلا بنية،واختلفوا فى الطهارة مثل من يكون على جنابة فينساها ويغتسل للنظافة، فقال مالك والشافعى وأحمد: النية شرط لطهارة الأحداث كلها،وقال أبو حنيفة: لا تشترط فى الطهارة بالماء بخلاف التيمم .

ب ــ ومحل النية القلب،فإذا نوى المصلى أو الصائم بقلبه دون أن يتلفظ بلسانه

---

(١) رواه ابن ماجه .

كفته تلك النية باتفاق .

غير أن العلماء ــ رحمهم الله ــ اختلفوا فى استحباب التلفظ بالنّية، فقالت طائفة من أصحاب أبى حنيفة والشافعى وأحمد : يستحب ليكون أبلغ ، وقالت طائفة من أصحاب مالك وأحمد: لا يستحب ذلك بل التلفظ بها بدعة؛ وذلك لأسباب عدة :

* لأنه لم ينقل عن رسول الله ﷺ ولا عن واحد من أصحابه وتابعيهم أنه تكلم بلفظ النية لا فى صلاة ولا طهارة ولا صيام .
* ولأن النية قبل التلفظ بها تكون فى القلب ، فإذا نطق بها فكأنه أراد تحصيلها ؛ لأنها ليست فى قلبه وتحصيل الحاصل محال ، فلذلك يقع كثير من النّاس فى أنواع من الوسواس .
* ولاتفاق العلماء على أنه لا يسوغ الجهر بالنية لا لإمام ولا لمأموم ولا لمنفرد ، ولا يستحب تكرارها ، وإنما الخلاف بينهم فى التكلم بها سرا هل يكره أو يستحب كما بينا ذلك سابقا .

جـ ــ ثم إن قول النبى ﷺ : « وإنّما لكل امْرِئٍ ما نَوى » دل على عدم جواز النيابة فى العبادات ، ولا التوكيل فى نفس النية ، قد استثنى من ذلك : الزكاة ، وذبح الأضحية فيجوز التوكيل فيهما فى النية والذبح والتفرقة مع القدرة على النية ، أما الحج فلا تجوز النيابة فيه عن الحى سواء كان المحجوج عنه مستطيعا أو لا ، وسواء كان الحج فرضا أو نفلا ، ولا يصح إلا عن ميت أوصى بالحج مع الكراهة ، كما يكره للنائب أن يبدأ بالحج الذى أوصى به الميت ويؤخر حجه المفروض عليه .

د ــ فإذا رفض المتعبد نيته ، أى أبطلها أثناء وضوئه أو صلاته أو صومه بطلت تلك العبادة بخلاف الحج فإنه لا يضر فيه رفع النية ، وأما إذا أبطلها بعد أداء الصلاة أو الطهارة والصوم فلا ضرر فى ذلك .

هـ ــ وأما فى باب الأيمان فتعين النية فى أمور منها :

١ ــ يمين اللغو : الذى لا كفارة فيه وهو كما عرفه ابن عباس : قول الرجل فى درج كلامه واستعجاله فى المحاورة : لا والله ، وبلى والله . دون قصد لليمين .

وقال المروزى : لغو اليمين التى اتفق العلماء على أنها لغو هو قول الرجل : لا والله ، وبلى والله ؛ فى حديثه وكلامه غير معتقد لليمين ولا مريدها .

وروى ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب أن عروة حدثه ؛ أن عائشة زوج النبى ﷺ قالت : أيمان اللغو ما كانت فى المراء الهزل، والمزاحة، والحديث الذى لا ينعقد

عليه القلب .

٢ـ ومثل يمين اللغو فى عدم الحنث وعدم لزوم الكفارة الاستثناء بإن شاء الله ، ولكن بشرط أن يكون تعليقه على مشيئة الله بنية الاستثناء ، لا بنية التبرك .

فمثلا إذا قيل لأحد : احلف أنك ستأتينا يوم الجمعة مثلا فقال : والله لآتينكم يوم الجمعة إن شاء الله تعالى .

فينظر فى قصده بإن شاء الله هل هو حل اليمين، أم للتبرك وكذا من غير قصد.

٣ـ والنية هى أول مخصصات اليمين المطلقة قبل العرف وقبل بساط اليمين أيضا.

مثال ذلك : إذا حلف حالف بأنه لا يأكل اللحم فإنه يَنوى ، فإذا قال : إنّه قصد لحم الطَّيْر فيصدق فى الفتوى والقضاء .

ومن حلف لزوجته أنه إذا تزوّج عليها فإن التى يتزوجها طالق ، ثم طلق الزوجة المحلوف لها ، وتزوج أخرى وقال : قصدت حال يمينى إن تزوجت عليها وهى فى عصمتى، والآن قد خرجت من عصمتى فإن ذلك ينفعه.

وـ وتدخُل النية فى الطلاق من عدة وجوه :

١ـ النية أو ما يعبر عنه (بالقصد) هو الركن الثانى من أركان الطلاق . فلا يلزم من نطق بألفاظ الطلاق الصريحة ، أو الكنايات ، ولم يقصد حل العصمة ، إما لجهله بمدلول ما نطق كتلقين الأعجمى . أو لبلاهته . أو هذيانه لمرض .

٢ـ أما إذا قصد الطلاق فيلزمه بأية عبارة كانت ولو بقوله لها: اسقنى، أو اطعمنى.

٣ـ وينوى فى الكنايات الخفية (١) .

٤ـ ولو رأى امرأة يظنها امرأته فطلقها ثم بانت أجنبية طلقت امرأته ؛ لأنه إنما قصد طلاق امرأته نص على ذلك أحمد .

٥ـ ومجرد نية الطلاق من غير عزم ولا تلفظ لا يلزمه .

الاجتماعية :

إن التعبير بلفظ « امرئ » فى قوله ﷺ : « وإنّما لكل امرئ ما نوى » دقيق جدا حيث شمل المرأة والرجل على حد سواء ، وهذا وحده كفيل ببيان ما تحظى به المرأة فى الشريعة الإسلامية من مكانة هامة ، وعناية تامة ، قال تعالى : ﴿ **وَمَن يَعْمَلْ مِنَ**

(١) راجع ذلك بالتفصيل : فى باب الطلاق فى الكتب الفقهية المعتمدة .

الصَّالحَات مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤].

وقال عز وجل فى بيان الدور الاجتماعى الخطير الذى تتقاسمه المرأة مع الرجل ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة : ٧١] .

كما نص القرآن الكريم على أحقيتها بالتمتع بالملكية الفردية: ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾ [النساء : ٣٢] بخلاف الجاهليتين :

أما الجاهلية الأولى ــ التى سبقت الإسلام ــ : فلقد كانت تبحث فى إنسانية هذا الكائن «المرأة » ، وإن كان كذلك فهل لها روح ، أم أنها لا تتعدّى أن تكون متاعا مقصورا على رفاهية الرجل ؟

حيث جاء فى شرائع الهند: أن الوباء والموت والجحيم والسمّ والأفاعى والنار خير من المرأة .

والنصوص الدينية (المحرفة) هى الأخرى تنعتها بأقبح النعوت،وتحملها جريرة الرجل ووبال الكون ، ففى التوراة مثلا وبالضبط ما جاء فى سفر الجامعة ما يفوق الوصف : (درت أنا وقلبى لأعلم ولأبحث ولأطلب حكمة وعقلا ولأعرف الشر أنه جهالة والحماقة بأنها جنون ، فوجدت أمرّ من الموت المرأة التى هى شباك وقلبها أشراك ويداها قيود . . . رجلا واحدا بين ألف وجدت ، أما امرأة فبين كل أولئك لم أجد).

وأما الجاهلية الثانية ــ التى تمنّ على المرأة اليوم بالحرية والمساواة ــ : فإنها تحب أن تحمد بما لم تفعل . ففى بريطانيا كان قد أصدر الملك هنرى الثامن أمرا بتحريم مطالعة الكتاب المقدس على النساء .

وفى القانــون المدنــى الفرنسى تقـرر المـادة السابعة عشـرة بعـد المائتين أن :(المــرأة المتزوجةــ حتى ولو كان زواجها قائما على أساس الفصل بين ملكيتها وملكية زوجها ــ لا يجوز لها أن تهب ، ولا أن تنقل ملكيتها ، ولا أن ترهن ، ولا أن تمتلك بعوض أو بغير عوض ، بدون اشتراك زوجها فى العقد ، أو موافقته عليه موافقة كتابية) .

السياسية :

١ــ نستشف مـن التعبير النبوى البليغ : « فمن كانت هجرتـه إلى الله ورسوله » أن الوطنية ليست هى الرباط المتين الذى يقعدنا عن التحرك العملى فى الميدان الإسلامى، وأن الوطن ليس بالضرورة هو مسقط الرأس ، بل إن وطن المسلم هو الموقع

الاستراتيجى المناسب للدعوة فى سبيل الله، وأن أى أرض ولو كانت مكة نفسها لَيْسَتْ وطنا للمسلم ما دامت أرضا جدباء لا تصلح لغرس هذه الدعوة الربانية ، وما دامت تتسع لأبى جهل وأتباعه، وتضيق ذرعا بمحمد ﷺ وأوليائه، وفى هذا أسهب ابن تيمية القول حين تعرض لشرح هذا الحديث النبوى حيث قال :

(وكون الأرض دار كفر ودار إيمان أو دار فاسقين ليست صفة لازمة لها ، بل هى صفة عارضة بحسب سكانها ، فكل أرض سكنها المؤمنون المتقون هى دار أولياء الله فى ذلك الوقت ، وكل أرض سكنها الكفار فهى دار كفر فى ذلك الوقت ، فإن سكنها غير ما ذكرنا وتبدّلت بغيرهم فهى دارهم .

وكذلك المسجد إذا تبدّل بخمارة أو صار دار فسق أو دار ظلم أو كنيسة يشرك فيها بالله كان بحسب سكانه ، وكذلك دار الخمر والفسوق ونحوها إذا جعلت مسجدا يعبد الله فيه جل وعزّ كان بحسب ذلك ، وكذلك الرجل الصالح يصير فاسقا والكافر يصير مؤمنا أو المؤمن يصير كافرا أو نحو ذلك، كل بحسب انتقال الأحوال من حال إلى حال، وقد قال تعالى : ﴿ **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ** ﴾ [النحل : ١١٢] نزلت فى مكة لما كانت دار كفر وهى ما زالت فى نفسها خير أرض الله وأحب أرض الله إليه، وإنما أراد سكانها، فقد روى الترمذى مرفوعا أنه قال لمكة وهو واقف بالجزورة: «والله إنك لخير أرض الله إلى الله ورسوله».

وكان مقامه بالمدينة ومقام من معه من المؤمنين أفضل من مقامهم بمكة لأجل أنها دار هجرتهم ؛ ولهذا كان الرباط بالثغور أفضل من مجاورة مكة والمدينة ، كما ثبت فى الصحيح : « رباط يوم وليلة فى سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه ، ومن مات مرابطا مات مجاهدا ، وجرى عليه عمله، وأجرى رزقه من الجنة وأمن الفتّان »(١)، وفى السنن عن عثمان عن النبى ﷺ أنه قال: « رباط يوم فى سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل » (٢) .

وقال أبو هريرة: لأن أرابط ليلة فى سبيل الله أحب إلىّ من أن أقوم ليلة القدر عند الحجر الأسود ؛ ولهذا كان أفضل الأرض فى حق كل إنسان أرض يكون فيها أطوع لله ورسوله ، وهذا يختلف باختلاف الأحوال، ولا تتعيّن أرض يكون مقام الإنسان فيها أفضل .

---

(١) رواه البخارى: كتاب الجهاد، باب٧٣، ومسلم فى الإمارة حديث رقم ١٦٣، والدارمى فى الجهاد باب ٣١ .
(٢) رواه الترمذى فى فضائل الجهاد باب ٢٦ حديث رقم ١٦٦٧ ، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب».

إنما يكون الأفضل فى حق كل إنسان بحسب التقوى والطاعة والخشوع والخضوع والحضور، وقد كتب أبو الدرداء إلى سلمان : هلم إلى الأرض المقدسة ، فكتب إليه سلمان: إن الأرض لا تقدّس أحدا وإنما يقدّس العبد عمله، وكان النبى ﷺ قد آخى بين سلمان وأبى الدرداء ، وكان سلمان أفقه من أبى الدرداء فى أشياء من جملتها هذا، وقد قال الله تعالى لموسى عليه السلام : ﴿ **سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ** ﴾ [الأعراف: ١٤٥]، وهى الدار التى كان بها أولئك العمالقة، ثم صارت بعد هذا دار المؤمنين، وهى الدار التى دل عليها القرآن من الأرض المقدسة، وأرض مصر التى أورثها الله بنى إسرائيل ، فأحوال البلاد كأحوال العباد ، فيكون الرجل تارة مسلما ، وتارة كافرا ، وتارة مؤمنا ، وتارة منافقا ، وتارة برّا تقيّا، وتارة فاسقا ، وتارة فاجرا شقيّا [١] .

٢ـ إن المسلم الصادق مهاجر للمعاصى والمآثم ومن قبيل هجران المعاصى هجران أهل المعاصى؛ حيث يسعى إلى التغيير بما فيه من وسع وطاقة وبما لديه من وسائل الدعوة ويعمل ليلاً ونهارا وسرا وجهارا لإرشاد الطغاة ونصحهم ، فإذا لم يجد من أهل البغى إلا الإصرار والاستكبار فما عليه إلا أن يمْتثل لقول الحق سبحانه : ﴿ **وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا** ﴾ [النساء : ١٤٠]. عليه أن يهجرهم فلا يواليهم ولا يناصرهم ولايعضدهم بأقل ما يملك ولا يمشى فيما فيه نفوذهم وأهواؤهم، ولله در المهاجرين للشيطان وأوليائه من ذوى الجاه الكاذب والسلطان الجائر، قال ابن القاسم: سمعت مالكا يقول: لا يحل لأحد أن يقيم بأرض يُسَبّ فيها السلف. فما بال بعض علمائنا اليوم يقيمون فى أرض لا يسب فيها السلف ويسجن فيها الخلف فحسب، بل ويتهجّم فيها على شرع الله ، وينتَقص فيها من قدر رسول الله عليه السلام، ويوصف فيها حكم الإسلام بأقبح النعوت بالقسوة ، والعجز، والنقص، والتناقض، وعدم مسايرة العصر ، وملامسة الواقع. وليتهم قاموا وسكتوا ـ إذًا ـ لهان الخطب ، ولكنهم قاموا وصفّقوا وحيّوا وسبحوا بحمد الطغاة وهللوا .

والله إننا لنموت ـ أيها الأخوة ـ كما نام ولنُبعثن كما نستيقظ ولنسألن عن هذا التخاذل والتكاسل، وساعتها قل لى بربّك: أى جواب ألاقى وإياك به المولى القوى القهار؟

---

(١) من رسالة شرح حديث : « إنما الأعمال بالنيات » لابن تيمية ، ص ٤٣ ، ٤٥ .

﴿ إنَ الَذين توفَاهُمُ الْمَلائكةُ ظالمي أَنفُسهِمْ قَالُوا فيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَا مُسْتَضْعَفِينَ في الأَرْضِ قَالُوا ألمَ تكنْ أَرْضُ اللَّهِ واسعةَ فَتُهَاجِرُوا فيها فأُولَئكَ مأْواهُمْ جَهَنَمُ وَساءتْ مَصيرًا ﴾ [النساء: ٩٧]؛ لأنه لا عذر أبداً لغير المستضعفين أن يتقاعسوا عن الهجرة ما دام البديل موجودا ﴿ وَمَن يُهاجرْ في سبيل اللَّهِ يَجدْ في الأَرْضِ مُراغمًا كَثيراً وَسَعةً ومن ﴾ [النساء : ١٠٠] .

٣ ــ ثم إن تحديد النيّة وإخلاصها معناه أنه لا هجرة إلى الله ورسوله والنفس أو الهوى ، أو الشيطان . أو الطاغية فلان .

من هنا تدرك سرّ عدم اتباع سنة التدرج فى نزول الأحكام العقائدية من إيمان بالله، وصفاته ، وكتبه ، ورسله ، وبالسمعيات فى حين أن تشريع الأحكام الشرعية الأخرى تتدرّج من عموم إلى خصوص ، ومن إطلاق إلى تقييد .... لأن التوحيد حقيقة لا تتجزأ مطلقا وليس فيها أدنى مساومة أو تنازل كما يريد البعض تجزئتها ، فرغم مشقّة عدم إسلام الجاهليين على رسول الله ﷺ ورغم المتاعب التى لحقته ومن تبعه من جراء استمساكهم بتكامل العقائد الإسلامية ، ومع كل ذلك لم ينزل ﷺ عند مساومة الكفّار له ، فقوله الحق سبحانه: ﴿ قُلْ يَا أَيُّها الْكَافِرُونَ . لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ . ولا أَنتُمْ عابدُونَ ما أَعْبُد . ولَا أنا عابدٌ مَا عَبَدتُّم . ولَا أَنتُمْ عَابدُون مَا أعْبُد . لَكُمْ دينُكُمْ وَلِي دين ﴾ [سورة الكافرون] .

فليس هناك مع الله حاكم مستبدّ متأله متجبّر يسن قوانين أرضية بشرية ترضيه وتوافقه وتعارض الله عز وجل . كما أنه ليس هناك مع القرآن الكريم دساتير ، وليس هناك مع السنة مواثيق ، وليس هناك مع النبى ﷺ مشايخ طرق أو قباب وأضرحة تقرب لها القرابين بأسمائها من دون الله عز وجل .

٤ ــ « فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ...» كما أن العطف بالواو دون تكرار «إلى » « فهجرته إلى الله ورسوله » بينما ربط بين المرأة والدنيا بـ « أو » : يدل على أن المهاجر لا يهاجر إلى شخص الرسول ﷺ بل يهاجر إلى الله وإلى حكم الله، وعليه فالحاكم المسلم لا يمثل فى حكمه شخصيته ولا أهواءه وأغراضه ولا جماعته وحزبه ، بل هو خليفة الله فى هذه الأرض ؛ المطبق لأمر الله ، وكل مؤمن آمن بالله ربّا وبمحمّد رسولا وجب عليه الانقياد لهذا الحاكم؛ لأنه المنفذ لشرع الله وإلى هذا أشار الخليفة الأول رضوان الله عليه بقوله فى خطبته: (أطيعونى ما أطعت الله فيكم) .

الاقتصادية :

يتحامل أعوان الغرب الصليبى الذين ورثوا حقده على الإسلام متّهمين إياه بالعجز والقصور فى مجالات عدة . . أبرزها المجال الاقتصادى ، وهؤلاء الحديث معهم لا يجدى كثيرا ؛ لأنهم غير مخيرين فيما يقولون من جهة ، ومن جهة أخرى أعمى الغيظ أبصارهم وطمس بصائرهم،ولكن لهؤلاء وأولئك نقول : إنّنا غير تبع لكم ولن نستجديكم ونلهث وراءكم لنصطلى بنار رأسماليتكم أو اشتراكيتكم ؛ لأننا ننعم بنظام اقتصادى إسلامى شامل يتأسّس على أخلاقيات يراقب ـ على ضوئها ـ الصانع ، والزارع، والتاجر ربّه ، وتبعث تلك المراقبة فى نفسه الحرص على بذل قصارى جهده فى تحسين عمله وإتقان صنْعته ؛ لأن نيته فى عمله ليست للكسب وحده أو للدعاية والشهرة، بل يسعى لمرضاة ربّه وتنفيذ أمره فى تحقيق الفروض الكفائية المتعلقة بحاجيات المجتمع الإسلامى . . .من هندسة، وميكنة، وصيدلة، وزراعة . . . وما إلى ذلك.

القضائية :

حقا إن مدار صحة الأعمال وقبولها على النيات ، ولكن هذا بالنسبة لعالم الغيب والشهادة . أما القاضى المسلم ـ بحكم بشريته ـ لا يحكم للناس بحسب نياتهم ، ولا يقاضيهم بما فى صدورهم ، بل بحسب الدلائل المادية والمعطيات التى تتوفر لديه من بينة وشهود أو يمين. فعن أم سلمة أن النبى ﷺ قال: « إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلىّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضى له على نَحْو ما أسمع ، فمن قضيت له بِحق أخيه شيئا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النّار » (١) .

مثاله : كما إذا ادّعى رجل أنه زوج لامرأة من النساء ، وكانت دعواه زورا وبهتانا، وأقام على دعواه الكاذبة شاهدى زور وأنكرت المرأة تلك الدعوى ولكنهّا عجزت عن تجريح البيّنة ، أو كان القاضى لا يرى التجريح عنده ، وحكم بناء على ما توفر له من قرائن للمدعى بالزوجية ، فهذا الحكم المبنى على الظواهر وإن كان صحيحا فإنه لا يحل حراما ، وبالتّالى لا يجوز للمدعى وطؤها لعلمه باطنا أنها أجنبية عنه ، ولا يجوز لها أن تمكنّه من نفسها إلا إذا كانت مكرهة .

وما يقال فى الأعراض يقال أيضا فى الأموال. قال النووى: والقول بأن حكم الحاكم يحلل ظاهرا و باطنا مخالف لهذا الحديث الصحيح وللإجماع المذكور ولقاعدة أجمع عليها العلماء ووافقهم القائل المذكور وهى: أن الأبضاع أولى بالاحتياط من الأموال .

(١) رواه البخارى ومسلم وغيرهما .

الأخلاقية :

يعلمنا الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام خلقا فاضلا وأدبا رفيعا وحكمة بالغة ألا وهى احترام شعور الآخرين وعدم التعرض لأهل الإسلام بما يكرهون ، حيث كان النبى ﷺ حتما على دراية بذلك المهاجر أو بتلك المخطوبة التى اشترطت الهجرة، ومع ذلك لم يذكر الرجل صراحة بل كناه بغرضه: مهاجر أم قيس « ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها » .

فقة الدعـوة

١ ــ إن أبعاد هذا الحديث النبوى الشريف ترسم منهاجا خاصّا للدعوة فى سبيل الله، وبمقتضاه يسعى الداعية إلى تحقيق الأمور الجسام قبل الحديث عن اللحى والجلابيب، ويعمل علَى تغيير المنكر، فيبدأ بالمحرمات وأولها وأخطرها الشرك الظاهر وأنواعه الخفى وأشكاله قبل أن يحدث الناس فى حكم الدخان والعمامة ، والخوض فى حكم الخل والكولونيا .

٢ ــ على الداعية أن يتخذ لتحقيق أهدافه الربانية وسائل ربّانية لا أن يتبع سبلا غير شرعية؛ لأن الغاية فى الإسلام مهما كان شأنها لا تبرر الوسيلة مطلقا بخلاف بعض الفلسفات الأرضية البشرية الأخرى . هذا وقد نعق بعض الجهال التبع بهذا المبدأ فنادوا بأخذ الأموال الربوية الفائضة على رؤوس الأموال وصرفها فى الوجوه الخيرية المختلفة بحجة أن تركها لأرباب البنوك الغربية فيه تشجيع لهم ودعم للعصابة اليهودية التى تهيمن على إدارة هذه البنوك العالمية (الربوية) ، ونسوا أو جهلوا أن الدخول والموافقة المبدئية على هذا الاتفاق حرام . ثم إن هذه المشاريع الخيرية التى ستصرف على حد زعمهم عليها هذه الفوائد منها المساجد ، والمساجد لا يجوز بناؤها بأموال الزكاة وفق مذهب الإمام مالك رضى الله عنه لعلة أن الزكاة نفاية طهّر المزكى ماله منها، ولو تركها فيه لأهلكته؛ لقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]؛ ولأن الله أمرنا أن نطهّر بيوته طهارة معنوية وحسية ، قال تعالى : ﴿ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ [البقرة : ١٢٥] .

٣ ــ الداعية المتبصّر ثاقب النظر يخطط وينظر إلى الأمور من كل جوانبها ويقدّر السلبيات كما يقدّر الإيجابيات حتى لا تضيع قطرة دم مسلم هدراً فيتحمّل وزرها ، بل إذا رأى أنه لا مفرّ من الهجرة هاجر فى سبيل الله ، وله فى سيد المهاجرين الأولين

خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام حيث حكى القرآن الكريم قوله: ﴿ **وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ** ﴾[الصافات : ٩٩] ، وخلد القرآن هجرة موسى عليه السلام أيضا : ﴿**فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ** ﴾[القصص : ٢١]، وها هو القائد المحنك خالد بن الوليد رضى الله عنه فى غزوة مؤتة يرجع بالجيش إلى الوراء حتى انحاز إلى قرية مؤتة ثم مكث يناوش الأعداء سبعة أيام ثم تحاجز الفريقان لأن جحافل الشرك ظنّت أن الإمدادات تتوالى على الجيش الإسلامى ، وهكذا جنّب خالد بعسكريته هزيمة ساحقة كاد أن يمنى بها الجيش الإسلامى، فلما عاد الجيش إلى المدينة قابلهم المسلمون يعيرونهم: يا فرّار ، فقال عليه السلام : « بل هم الكرار ».

٤ ــ وعلى الداعية الخطيب أن يتجنّب التشهير بالخاطئين وكشف عوراتهم والتحدّث بأخطائهم وتشخيصهم أمام الملأ كما يفعله كثير، لا أقول من المتحمّسين، بل من المتهوّرين الذين يسعون للاعتلاء على حساب أعراض الناس وكراماتهم و.. وأضحت سبل الشهرة والشعبية عند من تداخلت نياتهم مقصورة على الجرح، والسباب، والتكفير... والحال أن هذا الفريق ليس له فى الثقافة إلا فك حروف الهجاء وكم جرّ هؤلاء من مصائب جمة على الإسلام ، وعلى رصيد الدعوة الإسلامية من الشباب النّير . وأنا أعرف العديد من هذا النّمط الذى حقق للمتربّصين بهذا الدين الكثير... وأساء إلى هذا الدين من حيث يريد الإحسان وصدق فيه قول الحق : ﴿ **قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا . الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا** ﴾[الكهف : ١٠٣، ١٠٤] .

فدفعت الأمة ثمنا غاليا لحماقاتهم ... ومنزلقاتهم .

تطبيق

أ ــ كثيرا ما نجد من يترك الخمر بعد إدمان ، فإذا استفسرته عن سرّ امتناعه ــ مستبشرا بهدايته ــ فاجأك بما يخيب ظنك مبينا أنه تدارك خطرا صحيا أكده له الأخصائيون من سرطان ، وضعف للقلب ، وتوتر للشبكة العصبية . ويكف البعض عن الزنا خوفا من الفضائح ، ووجسا من اطلاع الحليلة على الخليلة . إذًا فهجرة هؤلاء من قبيل هجرة خطيب أم قيس فقط .

ب ــ بعض طلابنا ــ هدانا الله وإياهم ــ يحجّون منابع العلم ويتكبدون الأتعاب

ولا همّ لهم سوى شهادات وأوراق تؤهلهم لمناصب ومراتب ، وليس لهم وراء ذلك حبّة خردل من الإخلاص؛ لذا تزداد نسبة الأميين بين هؤلاء الجامعيّين مثلما يرتفع عدد المهاجرين منهم يوما بعد يوم ؛ لأنهم وَجَدوا أن الهجرة إلى الغرب تحقق لهم أسنى مطالبهم ، ولتذهب بلاد الإسلام إلى الجحيم .... ذلك هو شعار الكثير من كفاءاتنا وأرصدتنا الفكرية .... وهم بذلك يخْلون السّاحة للأذناب ... فإنا لله وإنا إليه راجعون.

الحـديـث الثـانـى

عن عمر رضى الله تعالى عنه أيضا قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفّيه على فخذيه وقال: يا محمد أخبرنى عن الإسلام ؟ فقال رسول الله ﷺ: « **الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحجّ البيت إن استطعت إليه سبيلا** » قال: صدقت، فعجبنا له يسأله ويصدّقه، قال: فأخبرنى عن الإيمان ؟ قال: « **أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره** » قال: صدقت، قال: فأخبرنى عن الإحسان ؟ قال : « **أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك** » قال: فأخبرنى عن الساعة ؟ قال: « **ما المسؤول عنها بأعلم من السائل** » قال: فأخبرنى عن أماراتها ؟ قال: « **أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان** ». ثم انطلق فلبثت مليّا ثم قال: « **يا عمر أتدرى من السائل ؟** » قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «**فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**» رواه مسلم.

هذا الحديث تفرّد به مسلم عن البخارى بإخراجه، فخرجه من طريق كهمس، عن عبد الله بن بريدة، عن يحيى بن يعمر قال: كان أوّل من قال فى القدر بالبصرة معبد الجهنى فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميرى حاجين أو معتمرين، فقلنا: لو لقينا

جلس إلى النبّى : أى قدامه.

الإيمان : لغة : مطلق التصديق ، وشرعا ـ كما ذكر فى الحديث ـ : فهو التصديق بالأمور المذكورة.

ربتها : سيدتها ، وأحسن ما قيل فيها : إنه كناية عن العقوق .

الحفاة : جمع حاف وهو من لا نعل برجله.

العراة : جمع عار وهو غير مستور الجسد .

العالة : جمع عائل : أى الفقير .

يتطاولون فى البنيان : أى يتباهون فى ارتفاعه فخرا ويتكاثرون به .

مليا : أى زمانا طويلا.

أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء فى القدر، فوافق لنا عبد الله ابن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنهما ـ داخلا المسجد ، فاكتنفته أنا وصاحبى ـ أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله ، فظننت أن صاحبى سيكل الكلام إلىّ ـ فقلت : يا أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرؤون القرآن ويتقفرون العلم وذكر من شأنهم، وأنهم يزعمون ألا قدر وأن الأمر أنف ، قال : إذا لقيت أولئك فأخبرهم أنى برىء منهم ، وأنهم بُرآء منى ، والذى يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبا فأنفقه ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر ، ثم قال : حدّثنى أبى عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ، فذكر الحديث بطوله، ثم خرجه من طرق أخرى بعضها يرجع إلى عبد الله بن بريدة ، وبعضها يرجع إلى يحيى بن يعمر، وذكر أن فى بعض ألفاظها زيادة ونقصانا ، وخرجه ابن حبّان فى صحيحه من طريق سليمان التيمى عن يحيى بن يعمر .

سبب ورود الحديث :

لقد كان تعطش الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ لمعرفة دينهم يحثهم على الإلحاح فى سؤال الرسول عليه السلام حتى نزل قول الحق سبحانه : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً** ﴾ [المجادلة : ١٢] تأديبا ربانيا لهم وملفتا انتباههم إلى وجوب مراعاة الأوقات المناسبة للزيارة والسؤال ، فأصبحوا يتحاشون أن يسألوا النبى ﷺ فنزل جبريل ليربيهم ويعلمهم أحكام شريعتهم وطريقة السؤال نفسه. كما كانت بعض النفوس تتطلع إلى معرفة الساعة وموعدها فجاء جبريل عليه السلام ليقطع أمل الآملين فى ذلك .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

العقائدية :

١ـ إن تقدير المولى عز وجل للأمور كلها قبل خلق السموات والأرض فيه تحدّ بيّن للطغاة والملاحدة والمشركين الذين يدعون القدرة على كل شىء وبأيديهم أعناق الناس وآجالهم وسعادتهم وشقاوتهم . . . لأن المقدر فى الأزل لم يترك مجالا لقول قائل : خططت كذا مع الله ، أو فعلت معه كذا وكذا .

٢ـ المؤمن الصادق قوى الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره حلوه ومره ، هو ذلك الذى يسلم زمامه لربه فلا يتسخط ولا يلطم خده أو يشق جيبه عند ابتلاء الله له ، ولايحتجّ على الله شأن بعض الجهال حيث يقول : ماذا فعلت يا ربى حتى أستحق كذا

وكذا . . . .؟ أو حتى يقع بى هذا . . . ؟ أستغفر الله العظيم .

٣ـ فى هذا الحديث ما يفيد التحدى لأولئك الذين يدعون علم الغيب والاطلاع على كل شىء من المشعوذين والكهان والسحرة . . . . فهذه الآجال ، وهذه الساعة فهلا استطعتم إجلاء حقيقتها وأجلها ؟ !

علم السلوك :

١ـ ليس الإيمان فى لبس خشن الثياب وإرهاق النفس برياضات وإلزامها بمأكولات، كما يلبس البعض على العامّة ، قيل : إن الحسن جذب فرقدا فأخذ بكسائه وقال له : يا فرقد يا فريقد يا بن أم فريقد إن البرّ ليس فى لبس هذا الكساء ، إنما البرّ ما وقر فى الصدر وصدقه العمل .

وفى هذا المعنى أنشد الشيخ ابن الحاج فى كتابه (المدخل) :

ليس التصوف لبس الصوف ترقعه ... ولا بكاؤك إن غنى المغنّونا

ولا صياح ولا رقص ولا طرب ... ولا اختباط كأن قد صرت مجنونا

بل التصوف أن تصفو بلا كدر ... وتتبع الحق والقرآن والدينا

وأن ترى خاشعا . . . . مكتئبا ... على ذنوبك طول الدهر محزونا

ثم إن الإحسان بنوعيه مبين فى هذا الحديث الشريف ، فمن طهر قلبه وزكى نفسه، وامتاز بشفافية الروح ازداد تعبّدا وخضوعا وطاعة ، لا كما تدعى بعض الطرقية المضلّلة وروّج لها الزنادقة اليوم حيث يفسّرون كلام الله ـ عز وجل ـ بما يرضى أهواءهم ونزواتهم وميولهم فيفسرون قوله تعالى : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر : ٩٩] ، ويدعون أن اليقين هنا ليس هو الموت ولكنه درجة سامقة فى الإيمان ، وعليه فالمؤمن مأمور بالعبادات لغاية وصوله تلك المرحلة ،وساعتها يتحرر من جميع التكاليف والواجبات ؛ ولذلك يصنفون الذكر والذّاكرين إلى مراتب ودرجات :

الأولى : هى لا إله إلا الله،ثم يرتقى المريد درجة أعلى فيصبح ذكره بهذه الكيفية.

الثانية : حيث يختصر التهليل إلى : الله . . الله . . . مقتصرا على اسم الجلالة إلى أن يحظى بمنزلة أرفع .

الثالثة : وساعتها يكتفى بذكر الضمير : هو . . هو . . آه . . آه . . مصحوبا بالترنح ، والتمايل على إيقاعات معينة متناسقة مع نقر للدفوف . .وتصفيقات . . ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [الأنفال . ٣٥]

وليس له بعد ذلك إلا اليقين الذى تسلقه الأسياد والقياد ؛ لأن اليقين مسقط للتكاليف ناسخ للفرائض... ولا يصلها ـ أى درجة اليقين ـ إلا خواص الخواص .. الذين يعاقرون الخمرة وأى خمرة ؟ ! إنها ... لا تكاد تلمسها أصابعهم حتى تنقلب إلى عسل مصفى أو ماء زلال ... سبحان الله ؟ !

ألا تبت ألسنة تموه على الأمة بهذا الدجل فى عصر النور ... !

الاجتماعية :

« وأن تلد الأمة ربتها » . هذه الفقرة تدلّ بوضوح على انخرام القيم الاجتماعية، وتشير إلى انقلاب خطير فى مستقبل المجتمعات (المنتسبة للإسلام) حيث يتسّيد الأراذل ويستنسر البغاث . ولا رادع ، ولا قامع ، ولا مانع ، وتنقلب الموازين ولا مكانة حينئذ للدعاة ، ولا للعلماء ، ولا للصالحين الأتقياء ، ولا لذوى الخبرة والحنكة. هذه هى النقلة التى تعانيها أمة الإسلام اليوم .

حيث تهمش الخيرة من أبنائها ، ويقضى عليهم بالسجن والنفىْ ... والتعذيب والتنكيل .... وتحديد الإقامة ، وينعم فى بترولها ... ويعبث بخزائنها الأرذلون .

تَموت الأسْد فى الغاباتِ جوعا ولحم الضّأن يُرمى للكلاب

وعن حذيفة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لكع ابن لكع »(١) .

السياسية :

« وأن ترى الحفاة العراة العالة ..... » .

١ ـ إن تولّى غير الأكفاء المؤهلين على أمر من أمور الأمة شىء غير طبيعى ولا منطقى، وكأن الرسول ﷺ ينصح مجتمعات العالم جمعاء والإسلامية على الخصوص إذا كانت هذه المجتمعات خيرة تريد أن تقاد إلى الخير، وأن تسمو إلى قمم الحضارة والقيم، وأن تعيش عيشة الشرفاء الكرماء ترضى فيها ربّها عليها أن تولى قائدا ربانيا !

وعلى هذا قس أى بلدة، وأية جمعية ومؤسسة تريد ذلك أيضا، وجب عليها ترشيح المناسب بذكائه وفطنته وذلك بعد إيمانه وخلقه ، وفكره والتزامه بالمنهج القرآنى وتقلده المنصب المناسب فإن لم تفعل فلتنتظر السّاعة، ولتحصد الخراب ، ولترتقب الفشل وسوء العمل، وصدق رسولنا إذ قال ﷺ: «إذا وسّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»(٢).

(١) رواه الترمذى .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة .

٢ ــ ثم إن امتلاك الحفاة العراة لمقاليد الحكم عن طريق المال لا يكون إلا عنوة أو خدعة حيث لا يرضى بذلك عاقل، وهذا إخبار منه ﷺ بواقعنا الحالى المعاش، حيث الانقلابات العسكرية، ومهازل الانتخابات المفبركة والتى لا تحيد عن ٩٩، ٩٩٪ تفرز العديد من تلك النماذج !

الاقتصادية :

« . . . وأن ترى الحفاة العراة » .

لقد مكن الاقتصاد الحر من اتساع الهوة بين الغالبية الساحقة المسحوقة من الشعوب الغربية، وأرباب رؤوس الأموال وحقق للفرد ما سلبه للمجتمع، فحظى الفرد فى الرأسمالية بالتقديس المطلق ، وقد تقاس مكانته بمعيار أرصدته، ومن ثم فليس له من سبيل لإبقاء مقامه إلا المال . . والمال فحسب ، فيسعى للمراباة . . . والاختلاسات . . و. . . . . وهضم الحقوق والتحايل فى أداء الواجبات .

أما النظام الاقتصادى الشرقى (بل العبث الشيوعى) فلم يصمد قليلا حتى تداعى بعد أن وقع فى مطب سالفه . فانقلب التقديس فى منهجه من الفرد إلى الجماعة ، وأثرت طبقة الثراء الفاحش على حساب أخرى . . وعورضت سنة التسخير والتكامل، وطغى الأغنياء المحدثون . . . !

النفسية :

إن الإيمان بما قضى ربنا وقدّر هو أكبر مهدئ نفسى يكسب المؤمن الراحة الداخلية والطمأنينة والقرار، فإذا ما سعى فى أى سبيل كان الدافع له هو الإيمان بالقضاء والقدر، وإذا لم يتحقق له ما يريد أوكل ذلك إلى القضاء والقدر ــ أيضا ــ دون تفريط فى الأسباب، ومن هنا لا يداخله يأس ولا قنوط ولا قلق .

الفكرية :

« وأن ترى الحفاة . . . يتطاولون فى البنيان » . تشير هذه الجملة بالذات إلى مستوى الانحطاط الفكرى عند هذا النوع من القادة وولاة الأمر ، فعوض التفكير فى تحقيق وسائل النهوض بالأمة الإسلامية، وإعمال الفكر وإمعان النظر فى واقعها المرير لاستجلاء الأدواء ووصف الدواء ، عوض هذا ترى هؤلاء الرعاة يتسابقون فى امتلاك القصور والدور الفاخرة فى عواصم الغرب الصليبى، بل وصل الأمر إلى شراء المنتزهات والخمارات . . . العائمة . . . ظنّا منهم وزعما أن خزائنهم تغنيهم عن الفكر والتحضر؛ لأنها تستجلب لهم المعدات الجاهزة ، وتوفر لهم نتاج الحضارة الصناعية المتقدمة .

وهم بهذا قد جنوا على الأمّة جناية مركّبة خطيرة حيث كبلوا العقول ، وأهملوا الحقول ، وأهدروا الطاقات ، ورهنوا مستقبلنا بمخابر الغرب ومصانعه ، وانعكفوا على شهواتهم حتى الثمالة .

التربوية :

أ ــ يؤكد علماء التربية على أن الطريقة الحوارية فى التعليم أجدى بكثير من الطريقة الإلقائية القديمة ،ومن هذا الحديث الذى هو سؤال من جبرائيل عليه السلام ، وجواب من معلم البشرية عليه الصلاة والسلام نستخلص أهمية هذه الطريقة ، وسبق الرسول ﷺ لعلم التربية ، وعلم النفس بقرون .

ب ــ إن السؤال عن موعد الساعة الغيبى يعد مضيعة للوقت وإجهادا للفكر فيما لا يجدى ، لهذا السبب صرف النبى ﷺ وجهة نظر السائلين عن الساعة إلى ما هو أولى ، فعن أنس رضى الله عنه أن رجلا سأل رسول الله ﷺ :متى السّاعة؟قال: «وما أعددت لها ؟ » قال :لا شيء إلاَّ أنى أحبّ الله ورسوله ، قال : « أنت مع من أحببت » (١) ، ومع هذه اللفتات التربوية النبوية ، فإننا نجد خلافا كبيرا وكلاما كثيرا بين بعض المفسرين الأقدمين حول لون كلب الكهف ، وهدهد سليمان ، وناقة صالح عليهما السلام ، والسحاب الذى أباد الله به قوم عاد . . . و . . .

فقـــه الدعـــوة

١ ــ على الداعية أن يحافظ على زى العلماء ولا يستهين به لما له من أهمية فى التأثير حيث يضفى عليه الوقار والسكينة ، ويدخـل فى نفوس سامعيه الاحترام ، قال ابن عبدالسلام: لا بأس بلباس شعار العلماء ليعرفوا بذلك فيسألوا ، فإنى كنت محرما فأنكرت على جماعة محرمين لا يعرفوننى ما أخلوا به من آداب الطواف فلم يقبلوا ، فلما لبست ثياب الفقهاء وأنكرت عليهم ذلك سمعوا وأطاعوا ، فإذا لبسها لمثل ذلك كان فيه أجر؛ لأنه سبب لامتثال أمر الله والانتهاء عما نهى الله عنه.

٢ ــ إن جلسة جبرائيل عليه السلام، وطريقة مخاطبته للنبى ﷺ كندائه باسمه: يا محمد ! . . . فيها تعليم للدعاة كيف يتحمّلون ويتواضعون ويحلمون على السائل ، وإن تجاوز ما ينبغى تجاههم من الاحترام والتقدير .

٣ ــ العالم بحق الذى يحترم علْمه وشخصه هو الذى يقف عند حد علمه ولا يفتى إن سئل إلا بما علم وأيقن ، ولا يجد فى نفسه حرجاً أن يقول : لا أدرى ؛ لأنه لا يضيره أساسا وقعها وصداها ، لا كما نجد بعض من نصبوا أنفسهم فقهاء يختلقون

(١) رواه البخارى ، ومسلم .

الفتاوى اعتباطا وليس لهم وازع أو ضابط .

٤ ــ نجاح الداعى فى دعوته مرهون بصدقه ومراقبة ربه ، أى نعم ! ولكن هذا لا يجدى وحده ، بل يتوقف أيضا على فقهه ودرجة فهمه لما يدعـو . فكم من أناس يدعون لما لا يعلمون . . . يدعون إلى تحكيم الإسلام وهم موقنون بنجاعته وقدرته على تحقيق العدالة الاجتماعية والرخاء والعزة . . . و. . . و. . . هذا شىء جميل ! ولكن كيف يحقق الإسلام ذلك ؟ لا يملكون تصّورا واضحاً عن أسس المجتمع الإسلامى، وحكومته، وسبل تكوينه . . وترتيب أولويات إقامته . . . واقتصاده . . . وثقافته . . . و . . . و . . . إذًا فلا ينتظر من هذه اللهجة الخطابية والطرق الوعظية أن تعطى فهما حقيقيا للإسلام فى حياتنا اليومية الواقعية . . . بل تمنى الأمة الأمانى التى تقعسها عن الحركة وإرادة التغيير . وأما الذين يملكون هذه الأدوات الدعوية ثم لا يجيدون العرض ولا يحسنون الطرح ، ولا يتحيّنون الفرص ، فإنهم لا يقلون خطرا عن أولئك السابقين، ومثلهم كمثل التاجر الذى لا يحسن عرض سلعته ولا يدرى عن الإشهار والإعلان شيئا . أو كالذى يرافع على قضية عادلة وهو أبله مغفّل لا يعى حيثيات الحكم ولا أساليب الدفاع . . . . لقد كان لزيارة جبرائيل ,طريقة الجلوس والسؤال وقع كبير على الصحابة حيث لفت الانتباه ، وشد الأبصار وسلب الأذهان .

تـطـبـيـق

١ ــ إذا كانت قمة الإيمان درجة الإحسان الأولى ، فإن أقوامًا معاصرين يدعون غير ذلك ، حيث يؤمنون بالحلول ــ أى :حلول الله تعالى فى جلابيبهم ، وأرواحهم، وأجسادهم ــ فيقول قائلهم : ما فى جبتى غير الله ، أنا الله . .وأن أرواحهم لامست ذات الله العلية ــ أستغفر الله العظيم ــ واتحدت معه فصارا كيانا واحدا . والحلول الذى هو فكرة إلحادية وثنية أصلا تسللت إلى العقيدة النصرانية حيث يؤمن النصارى بحلول الربّ فى المسيح عليه السلام ، وكذا حلول المسيح فى القربان الذى يقدمونه (الخبز) تسرب إلينا عبر الغلاة من المتصوفة الجهلاء بحقيقة العقيدة .

٢ ــ رغم ورود الآيات القرآنية العديدة فى خصوصية علام الغيوب بموعد يوم القيامة ، فإن سؤال الملك للرسول ﷺ جاء ليقطع دابر الأمل فى النفوس المتطلعة إلى معرفة ميعادها وليصرفها عن الخوض فى الأمور غير المفيدة،ومع ذلك وجدنا فى عصرنا هذا من يتخرص بعمر الكون ، ويتفذلك بحسابات ونظريات فارغة ﴿ **قُتِلَ الْخَرَّاصُون . الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ . يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّين** ﴾ [الذاريات: ١٠ ــ ١٢].

٣ ـ من الطبيعى أن الأراذل لا يتمكنون من استلام مقاليد الحكم وامتلاكهم لناصية الشعوب ، وتصرفهم فى خزائنها إلا فى غيبة أهل الفضل والعدل والصلاح والتقوى ، وتنحيهم أو تنحيتهم من الميدان ! وفعلا هو ذا الحاصل حيث لا نجد العلماء والدعاة إلا فى أحد المواضع الثلاثة :

أولها : دهاليز القصور وحواشى الكراسى ، وهم الذين آثروا اتباع السلطان على القرآن،وإرضاء الحكام على حساب الإسلام ، فدللوا على رأسمالية الإسلام للرأسماليين، واشتراكيته لليساريين ، وجوزوا الربا للمرابين . . و . . و . . وسفك الدماء وانتهاك حرمات الأبرياء للاستبداديّين، ولا تعجب أن تسمع يوما بفتاوى تنصر الإسلام أو تهوده . . وهذا الصنف العجيب أنكى على الإسلام من الحكام !

ثانيها : وفريق ثان ألزم نفسه خويصتها وقبع فى بيته يقيم صلواته ، ويرتل القرآن الكريم ، وعزاؤه الدعاء على الظلم والظالمين .

ثالثها : الزنازين وظلمات السجون . تلك هى أماكن الدعاة المخلصين الذين صدعوا بشجاعة لا للرعاع . . . لا للأراذل . . لا للئام .

ولـم يـرددوا مبـدأ ... دارهم ما دمت فى دارهم
وحيهم ما دمت فى حيّهم ... واضحك للقرد فى دولته

بل شعارهم دوما : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » !

الحـديث الثـالث

عن أبى عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب ـ رضى الله تعالى عنهما ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا اله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمـضـان**» رواه البخارى ومسلم .

ترجمة الراوى :

ولد عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قبل البعثة بسنة ، وأسلم بمكة مع أبيه عمر أو قبيله ، وحسن إسلامه وكان غلاما يافعا وهاجر مع المهاجرين وهو رابع العبادلة الأربعة: عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وسيأتى ذكر بعض مناقبه رضى الله عنه.

دروس وعبر من كلام سيد البشر

العقائدية :

أ ـ إن الإسلام ينبنى على تلك الأسس ويقوم عليها، فلا عبرة بإسلام من أنكرها أو أنكر جُزءا منها. ثم إن هذه القواعد نفسها إنما تستمد وجودها وتستبقى كيانها بمدى متانة القاعدة الأولى: «الشهادتين»؛ لأنها تعتبر قطب الرحى بالنسبة للركائز الأخرى؛ لذا كان لزاما على المؤمن أن يحرص على تمتينها فى قلبه وتثبيتها بداخله،ويعمل على إبقائها نقية صادقة من شوائب الشرك وأنواعه ـ أعاذنا الله منها ـ وطبيعة البناء دوما لا يبنى على أية أرضية كانت قبل أن يتأكّد من عدم اهتزازها وتصدعها من جهة،وقبل أن يجرى عليها عملية المسح والتنظيف . وعليه فلا عبرة بصلاة من خالط قلبه شىء من الوثنية والإلحاد ولا تجدى أعمال الخير والمساعدات الإنسانية التى يقوم بها المشركون

بنى: أى أسس الإسلام على دعائم خمسة تأسيسا معنويًا .

الإسلام : المراد به هنا الدين كله .

إقام الصلاة : أى بالمحافظة عليها وأدائها فى أوقاتها وكيفياتها المحددة شرعا .

إيتاء الزكاة : إخراجها وإعطاؤها لمستحقيها .

حج البيت : قصد البيت لأداء النسك .وجاء الحج مقدّما فى هذه الرواية على الصوم لما فيه من تحمل المشاق والإتعاب وبذل الأموال.

أصحابها شيئا ؛ لأنها أقيمت على شفا جرف ، وفى هذا يقول الحق سبحانه : ﴿**وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا**﴾ [الفرقان : ٢٣] ، وقال عز من قائل : ﴿ **أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ** ﴾ [التوبة : ١٠٩] .

ب ــ لا خلاف فى كفر من أنكر وجوب الصلاة بين أهل العلم إنما الخلاف فى حكم من تركها عمدا فأبى أن يصليها لا جحودا لفرضها بل تكاسلا وتهاونا كما هو حال الكثير من الناس . فذهب الإمام أحمد بن حنبل ، وإسحاق ، وابن المبارك إلى أنه كافر، وذهب الجمهور من السلف والخلف منهم ــ مالك والشافعى وأبو حنيفة وأصحابه ــ إلى أنه يفسق ولا يكفر .

* واحتج أهل المذهب الأول بالأحاديث التالية: ما رواه جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة » ، وما رواه الترمذى عن عبد الله بن شقيق العقيليّ قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يرون شيئا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة ،وبما جاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبى ﷺ أنه ذكر الصلاة يوما فقال : « من حافظ عليها كانت له نورا وبرهانا ونجاة يوم القيامة ، ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نورا ولا برهانا ولا نجاة ، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبى بن خلف »(١) .

* أما الجمهور، فقد فهموا من الكفر الوارد التغليظ والتوبيخ، أى: أن أفعال تارك الصلاة كأفعال الكفار ، لا الكفر الحقيقى ويعضد هذا المذهب عمومات : منها ما روى عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة والنار حق ؛ أدخله الله الجنة على ما كان من العمل » (٢) ، وعن أنس بن مالك أنه ﷺ قال ــ ومعاذ رديفه على الرحل ــ : «يا معاذ» قال: لبيك يا رسول الله وسعديك ثلاثا ثم قال: « ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله إلا حرّمه الله على النار » قال : يا رسول الله ، أفلا أخبر بها النّاس فيستبشروا ؟ قال :« إذًا يتكلوا» فأخبر بها معاذ عند موته تأثّما ، أى: خوفا من الإثم بترك الخبر به(٣) .

(وعلى الجملة ، فاسم الكفر إنما ينطلق بالحقيقة على التكذيب ، وتارك الصلاة

---

(١) رواه أحمد . (٢) متفق عليه . (٣) متفق عليه .

معلوم أنه ليس بمكذب إلا أن يتركها معتقدا لتركها ،هكذا فنحن إذًا بين أحد أمرين : إن أردنا أن نفهم من الحديث الكفر الحقيقى يجب علينا أن نتناول أنه أراد عليه الصلاة والسّلام من ترك الصلاة معتقدا لتركها فقد كفر ، وإما أن يحمل على اسم الكفر على غير موضعه الأوّل ، وذلك على أحد معنيين : إمّا على حكمه حكم الكافر ـ أعنى فى القتل وسائر أحكام الكفار وإن لم يكن مكذبا ـ وإما على أن أفعاله أفعال كافر على جهة التغليظ والردع له ، أى : أن فاعل هذا يشبه الكافر فى الأفعال ، إذْ كان الكافر لا يصلى كما قال عليه الصلاة والسلام: «لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » ، وحمله على أن حكمه حكم الكافر فى أحكامه لا يجب المصير إليه إلا بدليل ؛ لأنه حكم لم يثبت بعد فى الشرع من طريق يجب المصير إليه ، فقد يجب إذا لم يدل عندنا على الكفر الحقيقى الذى هو التكذيب أن يدل على المعنى المجازى لا على معنى يوجب حكما لم يثبت بعد فى الشرع ، بل يثبت ضدّه وهو أنه لا يحل دمه إذ هو خارج عن الثلاث الذين نص عليهم الشرع ، فتأمل هذا فإنه بين ـ والله أعلم)(١) .

الفقهية :

« إقام الصلاة » .

تعبير لا يوحى بأداء الصلاة على أية حال ، بل يفيد الاعتناء والحرص والتعهد ومراعاة السنن والفضائل بله عن الواجبات ،حتى يؤديها المصلى على أحسن وجه وأتم صورة ، بطهارة كاملة ، ونية صادقة خالصة ، وطمأنينة وسكينة ، وبذلك ينجو المصلى المقيم لصلاته مما أوعد الله به الساهين المتلاعبين ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُون** ﴾ [الماعون : ٤ ، ٥] .

التربويـــة :

« بنى الإسلام » .

على المدرس والواعظ إذا أراد أن يبلغ رسالته ويفهم جماعته، أن يراعى جميع الأذهان المتفاوتة والمدارك المتباينة ، حتى لا يفتن العامّة فى دينها ويشككها فى عقيدتها بخطاب فكرى صرف ..... وليستعن بالتمثيل وتشبيه المعانى التجريدية بالأمور المحسوسة ليقربها للعقول ، وحتى يجعلها فى متناول الجميع ؛ لأن الفكر السّطحى والبسيط يصعب عليه تخيل المفاهيم بسرعة ، ولا ينجح فى هذا إلا الذين أوتوا حظا من البلاغة .

---

(١) بداية المجتهد ونهاية المقتصد ١ / ٦٦ .

السياسية :

١ ــ اعتبر الإسلام الصلاة التى هى عبادة بدنية قاعدة ، وكذا الزكاة التى هى عبادة مالية قاعدة أخرى ، والحج أيضا الذى هو مركب منهما قاعدة من قواعد الإسلام الجليلة، وهذا الاعتبار يدل بجلاء على أن هذا الدين لا يكتمل بنيانه إلا باجتماع قواعده، فإذا ادعى دعى أنه يستعيض عن قواعد الإسلام بالصلاة ، فهو هادم للدين مقوض لأسسه بلا عذر ، متهاون متلاعب ، ولا تقوم صلاته مقام الصوم أو الزكاة ، إن ملك نصابها أو مقام الحج إن توافرت لديه شروطه ، وبهذا نخلص إلى القول : إن شريعة الإسلام تؤخذ كلها لا جلها ، فديننا متكامل لا يتجزأ مطلقا من أجل هذا عاب القرآن على المبعضين المجزئين : ﴿ **أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾[البقرة :٨٥] ،وذا بعينه ما تفعله بعض الطوائف الإسلامية وحكامها اليوم، حيث تعمل بجانب من الجوانب الإسلامية التى لا تزيحها من قمم الاستعلاء ، كنظام الأحوال الشخصية مثلا وشهود الجمع والأعياد للتخدير والتبرير وتمرير لائكية الغرب ورأسماليته أو شيوعيته وقوانينه ومبادئه التى تتعارض وقيمنا وأخلاقنا وعقيدتنا، فإذا أنكر الناكرون وتعالت تحذيرات الناصحين قمعت أفواههم بالحديد، وأثنى الإمعّيون على إسلام صاحب الجلالة والفخامة؛ لأنه يحرص على أداء شعائر الجمعة قبالة الأضواء الباهرة والعدسات اللاقطة . . أما الزكاة فقد تركت للمبادرات الشخصية والقناعات الفردية فى حين تجيّش جيوش الضريبة . . وأسدل الستار على عزيمة الخليفة الأوّل القائل : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، إنها وربى ردة ؛ ولكن لا أبا بكر لها !

٢ ــ إن دعوة الإسلام واضحة ، وأهدافها بينة ، وذى أسس البناء الإسلامى الشامل بين أيدى العالم كله مبسوطة بين أولياء الإسلام وأعدائه . . . فأى نظام وأية منظمة أو جمعية كالإسلام يعلنون بصدق وصفاء عن استراتيجيتهم ؛ لأنه لا غموض فيه، وليس لنا ما نكنه ونخفيه ، ودعوتنا شمس وضّاءة يشع نورها على من فى هذه الأرض كلها إلا الذين جعلوا أصابعهم فى آذانهم . . ! فى الوقت الذى تتأسس فيه جمعيات إنسانية خيرية وتضفى على نفسها بهرجة البراءة . . . ولكنها باب فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ؛ لأنها لا تبيح بأهدافها الحقيقية ولا تكشف عن أنيابها الطبيعية حتى تسلب الفرد إرادته والشعب حريته فهى تتبع الخطة القائلة : تمسكن حتى تتمكن ! وما يقال عن هؤلاء يقال فى بعض الطوائف الإسلامية والحركات الدعوية ، والتى تكن آراء شاذة لا تبوح بها إلا من أنست ذوبانه فى إطارها . . . حتى لا تصدم

الناس بما تخالف به الأمة ، فلا تكشف لك هذه الطريقة عن عقيدتها فى الحلول بداية مثلا، ولا تصارحك تلك الجماعة بموقفها من الجهاد فى سبيل الله .. وهكذا ، أو تكفير أهل المعاصى ... حتى تطمئن لقناعتك .

فقه الدعــوة

١ ــ فى الحديث النبوىّ إشارة إلى أن القواعد الإسلامية ثابتة ومحددة ومبّينة ، حتى لا يعتبر الدعاة الإيمان بمبادئ حركاتهم والسير على منهاجهم قاعدة أخرى من قواعد الدين ، وقد وقع فى هذا المزلق بعض رجال الإصلاح حيث انتقص إيمان كل من لم يعلن ولاءه لفكرته وعده من المشركين أو الجاهليّين . وإنى وإن كنت أجل هؤلاء الرجال إلا أننى لا أميل مع شططهم . ولاشك أن الواقع الذى كان يحيط بهؤلاء هــو دافعهم لرد الفعل القوى .

٢ ــ الداعية المفكر هو الذى ينظر دعوته ويبنيها على أسس مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ، وتجارب الدعاة المخلصين .

٣ ــ الذين تحملوا أعباء هذه الدعوة المفترض فيهم فقه الأولويات، فيسعى كل إلى تأسيس أسس الدولة الإسلامية فى القلوب وتوطين النفوس عليها ، وذلك ما يعجل بقيامها على أرض الواقع .

٤ ــ إننا نرفض بتاتا أسلوب التنازلات والمساومات على أية قاعدة من قواعد الدين بأى شكل من الأشكال ومهما كانت مبررات العملاء والمتخاذلين ، الذين يرضون بأقل القليل من حكام السوء ويطرونهم بالثناء والشكر على أدائهم لبعض الفرائض الدينية ، فإذا أمهرالأمير مصحفا باسمه أو شيــد مسجدا يخلده تعالت أصوات المسادحين ونثر عليه علماؤه ألقاب الخلافة والإمارة والإيمان ، أما إذا أسرف فى مجونه وأتلف ملايين الأمة فى حيوانيته ... فمشايخنا مشغولون بأحكام السواك، والكولونيا، واللحى وحكم الصلاة وراء الملتحى ، وغيره ! !

فما لهؤلاء لم يعتبروا بموقف الداعية الأعزل الذى وقف للطاغية فرعون : إنه موسى عليه السلام الذى لم تنسيه تربية فرعون له فى بيته مسؤولية الدعوة : ﴿ **وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ** ﴾ [الشعراء : ٢٢] .

وما لأولئك لم يعوا قوله تعالى: ﴿ **أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [التوبة : ١٩] .

تطبيـق

إننى أحمل عدوان الغرب الصليبى علينا واحتقاره لمقدساتنا على الأمة الإسلامية نفسها، التى عملت على توفر أسباب المهانة وأهملت أسباب العزة كما أحملها ضياع أمانـة الخلافة الإسلامية ؛ لأنه ما هدم الأعـداء البناء الإسلامى وأجهزوا على هيكل الخلافة إلا بعد أن هدم المسلمون أنفسهم قواعد الدين : التوحيد ، الصلاة ، الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والزكاة . . .و . . . و ﴿ **فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ** ﴾[مريم : ٥٩] .

الحـديث الـرابـع

عن أبى عبد الرحمن عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه قال :

حدثنـا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم،وهو الصادق المصدوق:« **إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مـضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقى أم سعيد، فوالله الذى لا إله غيره : إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها** » رواه البخارى ومسلم.

ترجمة الراوى :

هو عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، والمكنى بأبى عبد الرحمن ،كان سادس ستة شرح الله صدورهم لهذا الدين ، وشهد جميع المشاهد مع رسول الله ﷺ بما فى ذلك بيعة الرضوان وبدرا ، وكان من المحظوظين بالقرب إلى رسول الله ﷺ ، وله مناقب كثيرة سنتعرض لبعضها فى حينها ــ إن شاء الله.

الصـــادق : فى حديثه لمطابقته للواقع .

المصـــدوق : مصدوق فيما يأتيه من الوحى ؛ لأن الله صدقه فيما وعد .

يجمـع خلقه : أى المادة المكوّنة لخلقه وهى المنى .

فى بطـــن أمـه : فى رحم أمه .

عـلـقة : قطعة من الدم لم يجف ، وسميت بذلك ؛ لعلوقها بالرحم .

مـضغـة : قطعة لحم تشبه الممضوغ فى القدر والرخاوة .

يرسل إليه الملك : يؤمر بالتصرف فى النطفة .

فينفخ فيه الروح : كناية عن إيصال الروح إلى الجسد .

الـرزق . هو ما ساقه الله للعبد فانتفع به .

الأجـل مدى الحياة .

شـقـى . الشقى ــ والعياذ بالله ــ من ماتَ على الكفر ، وعكسه السعيد .

فيسبق عليـه أى فيغلب المكتوب ما اقتضاه عمله من دخول الجنة أو النار .

ذراع : كناية عن زمن قليل .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

العقائدية :

« يرسل . . . يؤمر » .

هكذا بإسناد الفعل لله الذى هو مدبر الكون ، ومصوّر الأجنة فى الأرحام ، لا لإرادة الملك وقوته ، قال تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ [آل عمران : ٦] . هذا مع الملك المقرّب بله عن الإنسان ، ولكننا بلينا بأقوام لا عقل لهم ولا عقيدة يدعون أن ما يسمّى بأصحاب الديوان عندهم أو رجال الدّاله لهم القدرة على التأثير فى جريات الأقدار والتقديم والتأخير فيما قضى ربنا وقدّر فى الأزل ، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

علم السلوك :

أ ــ إن أعمال المؤمن لا توزن بمجرّد الحركات الفارغة والتموجات المصطنعة ، والآهات المفتعلة ، بل إن العبرة ــ أساسًا ــ بما فى السرائر كل ذلك من قوله ﷺ: «فيعمل بعمل أهل الجنّة » .

ب ــ لا يأمن المؤمن الصادق مكر الله مهما صلحت أعماله وأقواله بل يجل دائما من سوء عاقبته، فقد كان سفيان الثورى كثير البكاء والجزع؛ فقيل له : يا أبا عبد الله، عليك بالرجاء ،فإن عفو الله أعظم من ذنوبك ، فقال : أو على ذنوبى أبكى لو علمت أنى أموت على التوحيد لم أبال بأمثال الجبال من الخطايا . وكان حبيب العجمى يقول: من ختم له بـ « لا إله إلا الله » دخل الجنة ، ثم يبكى ويقول : من لى بأن يختم لى بلا إله إلا الله . وكان سفيان يشتد قلقه من السوابق والخواتيم ، فكان يبكى ويقول : أخاف أن أكون فى أم الكتاب شقيا ، ويبكى ويقول : أخاف أن أسلب الإيمان عند الموت . وأما مالك بن دينار فقد كان يقوم الليلة قابضا على لحيته ويقول : يا رب قد علمت ساكن الجنة من ساكن النّار ففى أى الدارين منزل مالك ؟ وخرج الإمام أحمد من حديث أم سلمة أن النبى ﷺ كان يكثر فى دعائه أن يقول: « يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » فقلت : يا رسول الله ، أو إن القلوب لتتقلّب ؟ قال : « نعم ما من خلق الله من بنى آدم من بشر إلا أن قلبه بين إصبعين من أصابع الله ــ عز وجل ــ فإن شاء الله ــ عز وجل ــ أقامه وإن شاء أزاغه ، فنسأل الله ربنا ألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب»، قالت: قلت يا رسول الله: ألا تعلمنى دعوة أدعو بها لنفسى ؟ قال : « بلى قولى: اللهم رب النبى محمد ﷺ اغفر لى ذنبى وأذهب غيظ قلبى ، وأجرنى من مضلات الفتن ما أحييتنى » . فأين هذا

مما يدعيه بعض البدعيين أو ينسبونه لمشايخهم ويجزمون بدخولهم الجنة ، بل وأنهم يدخلون من يشاؤون ببركاتهم ودعواتهم ، فهؤلاء قد ضمنوها لأنفسهم بالتبعية وذلك هو الضلال المبين.

الفقهية :

أولا : بيان الرسول ﷺ لمراحل تكوين الجنين يفيدنا أحكاما فقهية هامة منها:

الـديــة :

إذا مات الجنين ــ فى بطن أمه ــ بسبب الجناية على أمه عمدا أو خطأ ، ولم تمت أمّه، وجب فيه غرة (وسيأتى بيان الغرة) سواء انفصل عن أمّه وخرج ميتا ، أم مات فى بطنها، وسواء أكان ذكرا أم أنثى. فأما إذا خرج حيّا ، ثم مات ، ففيه الدية كاملة ، فإن كان ذكرا وجبت مائة بعير ، وإن كان أنثى : خمسون ، وتعرف الحياة بالعطاس أو التنفّس ، أو البكاء، أو الصياح ، أو الحركـة ونحـو ذلك ، واشترط الشافعى فى حالة ما إذا مات فى بطن أمه ، أن يعلم بأنّه قد تخلق وجرى فيه الروح ، وفسره بـ (ما ظهر فيه صورة الآدمى من يد وأصبع) ، وأما مالك ، فإنه لم يشترط هذا الشرط ، وقال : (كل ما طرحته المرأة من مضغة، أو علقة ، مما يعلم أنه ولد ففيه الغرة)، ويرجح رأى الشافعى بأن الأصل براءة الذمة وعدم وجوب الغرة ،فإذا لم يعلم تخَلقه ، فإنه لا يجب فيه شىء [١] .

قـدر الغـرة :

والغرة : خمسمائة درهم ، كما قال الشعبى والأحناف ، أو مائة شاة ، كما فى حديث أبى بريدة عند أبى داود،والنسائى ، وقيل : خمس من الإبل . وعن أبى هريرة رضى الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ قضى أن « دية الجنين غرة : عبد أو وليدة » ، وروى مالك ، عن ابن شهاب ، عن سعيد بن المسيّب؛ أن رسول الله ﷺ قضى فى الجنين يقتل فى بطن أمه بـ «غرة عبد أو وليدة» فقال الذى قضى عليه: كيف أغرم ما لا شرب ، ولا أكل ، ولا نطق ، ولا استهل ، ومثل ذلك يطل [٢] ؟ ! ، فقال الرسول ﷺ: « إن هذا من إخوان الكهان » . هذا بالنسبة لجنين المسلمة ، أما جنين الذمية ، فقد قال صاحب بداية المجتهد : قال مالك والشافعى وأبو حنيفة : فيه عشر دية أمه ،

---

(١) وقد أجمع العلماء على أن الأم إذا ماتت ، وهو فى جوفها ، ولم تلقه ولم يخرج فلا شىء فيه ، واختلفوا فيما إذا ماتت من ضرب بطنها ثم خرج الجنين ميتا بعد موتها ؛ فقال جمهور الفقهاء: لا شىء فيه، وقال الليث بن سعد وداود : فيه غرة ؛ لأن المعتبر حياة أمه فى وقت ضربها لا غير .

(٢) يطل : يهدر .

لكن أبا حنيفة على أصله ؛ فى أن دية الذمّى دية المسلم . والشافعى على أصله ، فى أن دية الذمّى ثلث دية المسلم ،ومالك على أصله ،فى أن دية الذمى نصف دية المسلم.

على من تجب الدية :

قال مالك وأصحابه ، والحسن البصرى : تجب فى مال الجانى . وذهب الحنفية ، والشافعية والكوفيون إلى أنها تجب على العاقلة؛ لأنها جناية خطأ (١) ، فوجبت على العاقلة. وروى عن جابر رضى الله عنه أن النبى ﷺ جعل فى الجنين غرة على عاقلة الضارب ، وبدأ بزوجها وولدها . وأما مالك والحسن : فقد شبّهها بدية العمد إذا كان الضرب عمدًا والأول أصح .

لمن تجب :

ذهبت المالكية والشافعية وغيرهم إلى أن دية الجنين تجب لورثته على مواريثهم الشرعية ،وحكمها حكم الدية فى كونها موروثة.وقيل : هى للأم لأن الجنين كعضو من أعضائها فتكون ديته لها خاصة .

وجوب الكفارة :

اتفق العلماء على أن الجنين إذا خرج حيّا ثم مات ففيه الكفارة مع الديّة ، وهل تجب الكفارة مع الغرة إذا خرج ميّتا أو لا تجب ؟ قال الشافعى وغيره : تجب ؛ لأن الكفارة عنده تجب فى الخطأ والعمد . وقال أبو حنيفة : لا تجب ؛ لأنه عليه حكم العمد. والكفّارة لا تجب فيه عنده واستحبّها مالك؛ لأنه متردّد بين الخطأ والعمد(٢) .

ثانيا : هل تعتد الحامل بوضعها لمضغة مثلا ؟ من البديهى أن عدتها وضعها لقوله تعالى: ﴿ **وَأُوْلاَتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ** ﴾ [الطلاق : ٤] سواء كانت عدة وفاة أم عدة طلاق، حيث جاء فى مصنف الشيخ خليل ــ رحمة الله عليه ــ: وعدة الحامل فى وفاة أو طلاق وضع حملها كله وإن دما اجتمع. وذكر فقهاء الإسلام أن علامة كون الدم حملا تعرف ببقائه وعدم ذوبانه إذا صب عليه الماء الحار ، دون أن يحدد المالكية زمنا معينا للمضغة المخلقة ، بينما ذهب أصحاب الشافعى، وأحمد بن حنبل إلى أنه لا تنقضى العدة ولا تعتق أم الولد إلا بالمضغة المخلقة، وأقل ما يكون أن تتخلق وتتصور فى أحد وثمانين يوما.

ثالثا : تتعلق بمعرفة أقــل مـدة الحمل وأقصاه أمــور عــدة كإلحاق الولد ، وتمام

(١) سقوط الجنين ليس عمدا محضا ، وإنّما هو عمد فى أمه خطأ فيه .

(٢) فقه السنة ، سيد سابق ٢ / ٥٦٥ ــ ص٥٦٧ .

العـدد . . . و . . . و . . . . وقد دل قوله تعالى : ﴿ **اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ** ﴾ [الرعد : ٨] على أن الحامل قد تضع حملها لأقل من تسعة أشهر وأكثر .

* أما أقل الحمل فقد استنبط العلماء من قوله تعالى : ﴿ **وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا** ﴾ [الأحقاف: ١٥] ، ﴿ **وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ** ﴾ [البقرة : ٢٣٣] على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، وأجمعوا على ذلك روى محمد بن إسحاق ، عن معمر بن عبد الله الجهنى قال : تزوّج رجل منا امرأة من جهينة ،فولدت له لتمام ستة أشهر فانطلق زوجها إلى عثمان رضى الله عنه ، فذكر ذلك له،فبعث إليها فلما قامت لتلبس ثيابها بكت أختها،فقالت:مايبكيك فوالله ما التبس بى أحد من خلق الله تعالى غيره قط،فيقضى الله ــ سبحانه وتعالى ــ فىّ ما شاء ،فلما أتى بها عثمان رضى الله عنه أمر برجمها،فبلغ ذلك عليّا رضى الله عنه ، فأتاه فقال له:ما تصنع ؟ قال : ولدت تماما لستة أشهر وهل يكون ذلك ؟ فقال له على رضى الله عنه : أما تقرأ القرآن ؟ قال: بلى . قال : أما سمعت الله عز وجل يقول : ﴿ **وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا** ﴾، وقال : ﴿ **حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ** ﴾، فلم نجده بقى إلا ستة أشهر ، قال : فقال عثمان رضى الله عنه :والله ما فطنت بهذا ، علىّ بالمرأة ، فوجدوها قد فرغ منها ، قال: فقال معمر: فوالله ما الغراب بالغراب ولا البيضة بالبيضة بأشبه منه بأبيه ،فلمّا رآه أبوه قال: ابنى والله لا أشك فيه ، قال : وابتلاه الله تعالى بهذه القرحة بوجهه الآكلة، فما زالت تأكله حتى مات(١) هذا فى أقل الحمل. وأما أكثره فقد دار حوله خلاف كبير، روى ابن جُريج عن جميلة بنت سعد عن عائشة قالت : يكون الحمل أكثر من سنتين قدر ما يتحول ظِل المِغزَل؛ ذكره الدارقطنى، وقالت جَميلة بنت سعد ــ أخت عبيد بن سعد، وعن الليث ابن سعد ــ إن أكثره ثلاث سنين ، وعن الشافعى أربع سنين ؛ وروى عن مالك فى إحدى روايتيه ، والمشهور عنه خمس سنين ، وروى عنه لاحدّ له ، ولو زاد على العشرة الأعوام؛ وهى الرواية الثالثة عنه ، وعن الزهرى ست وسبع .قال أبو عمر: ومن الصحابة من يجعله إلى سبع ؛ والشافعى: مدّة الغاية منها أربع سنين . والكوفيون يقولون : سنتان لا غير ، ومحمد بن عبد الحكم يقول : سنة لا أكثر ، وداود يقول : تسعة أشهر ، لا يكون عنده حمل أكثر منها . قال أبو عمر : وهذه

(١)أخرجه الحافظ الموصلى ، وروى من غير هذا الوجه فى مسند الإمام أحمد .

مسألة لا أصل لها إلا الاجتهاد والرد إلى ما عرف من أمر النساء وبالله التوفيق . روى الدارقطنى عن الوليد بن مسلم قال : قلت لمالك بن أنس: إنى حدثت عن عائشة أنها قالت : لا تزيد المرأة فى حملها على سنتين قدر ظل المغزل ، فقال : سبحان الله ! من يقول هذا ، هذه جارتنا امرأة محمد بن عجلان ، تحمل وتضع فى أربع سنين، امرأة صدق ، وزوجها رجل صدق ؛ حملت ثلاثة أبطن فى اثنتى عشرة سنة ، تحمل كل بطن أربع سنين، وذكره عن المبارك بن مجاهد قال: مشهور عندنا كانت امرأة محمد بن عجلان تحمل وتضع فى أربع سنين ، وكانت تسمى حاملة الفيل ، وروى أيضا : أن رجلا جاء إلى عمر بن الخطاب فقال : يا أمير المؤمنين إنى غبت عن امرأتى سنتين فجئت وهى حبلى فشاور عمر الناس فى رجمها ، فقال معاذ بن جبل : يا أمير المؤمنين إن كان لك عليها سبيل فليس لك على ما فى بطنها سبيل فاتركها حتى تضع، فتركها، فوضعت غلاما قد خرجت ثنيتاه ، فعرف الرجل الشبه فقال : ابنى ورب الكعبة، فقال عمر : عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ ؛ لولا معاذ لهَلك عمر . وقال الضحاك : وضعتنى أمّى وقد حملت بى فى بطنها سنتين ، فولدتنى وقد خرجت سنى . ويذكر عن مالك أنه حمل به فى بطن أمه سنتين ، وقيل : ثلاث سنين. ويقال: إن محمد بن عجلان مكث فى بطن أمه ثلاث سنين فماتت به وهو يضطرب اضطرابا شديدا ، فشُقّ بطنها وأخرج وقد نبتت أسنانه ، وقال حماد بن سلمة : إنمّا سمى هَرِم بن حيان هرما؛ لأنه بقى فى بطن أمه أربع سنين وذكر الغَزْنوى أن الضحاك ولد لسنتين (١) .

رابعا: أجاز جماعة من الصحابة والتابعين والفقهاء العزل،واشترط مالك والشافعى إذن الحرة ؛ لأنهم يرون أن الإنزال من تمام لذتها . وذلك لقوله ﷺ: « لا عليكم ألا تفعلوا فإنمّا هو القدر » و« إذا أراد الله خلق شىء لم يمنعه شىء ». وسئل ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ عن العزل ، فقرأ قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** ﴾ [المؤمنون : ١٢ ــ ١٤]، ثم قال : فهل يخلق أحد حتى تجرى فيه هذه الصفة ؟ وروى عن رفاعة بن رافع قال: جلس إلىّ عمر وعلى والزبير وسعد ونفر من أصحاب رسول الله ﷺ فتذاكروا العزل. فقال: لا بأس به،فقال رجل: إنهم يزعمون أنها المؤودة الصغرى، فقال على رضى الله عنه:لا تكون موؤودة حتى تمرّ على التّارات السّبع: تكون سلالة من طين ، ثم تكون نطفة، ثم تكون علقة، ثم تكون مضغة، ثم تكون عظاما، ثم تكون لحما، ثم تكون خلقا آخر، فقال عمر رضى الله عنه : صدقت أطال الله بقاءك .

(١) تفسير القرطبى ٩ / ١٨٩ .

خامسا : وأما الإجهاض: وهو إسقاط ما فى بطن الحامل بعد التخلق ونفخ الروح. فحرام بلا خلاف، جاء فى تعليق الشيخ ابن باديس ـ رحمه الله ـ على قوله تعالى: ﴿**وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ**﴾ [الإسراء : ٣١] ما نصه: (إما بالقتل بعد الولادة، وإما بإفساد الحمل بعد التخليق وهو حرام باتفاق)(١) . وقد صرح الحنابلة بأنه إذا صار الولد علقة لم يجز للمرأة إسقاطه لأنه ولد انعقد. بخلاف النطفة فإنها لم تنعقد بعد ، وقد لا تنعقد ولدا .

سادسا : إذا هلك هالك وترك من بين ورثته حملا ، أوقف تقسيم الميراث حتى يظهر هذا الحمل ، حيا ، أم ميتا ، ذكرا أم أنثى . واختلف فى الأثر الذى يدل على حياته هل هو الصراخ وحده أو التنفس والعطاس ونحوهما ؛ عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ، عن النبى ﷺ قال : « إذا استهل المولود ورث »(٢) وللترمذى : « الطفل لا يصلى عليه ولا يرث ولا يورث حتى يستهلّ » .

الاجتماعية :

١ ـ إن وصف المراحل العديدة التى يتقلب فيها الجنين وهو فى رحم أمه تظهر ما تتحمّله الحامل من صعاب عديدة ومشاق كبيرة وصفها الحق سبحانه بأبلغ الأوصاف فى قوله : ﴿ **وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا** ﴾ [الأحقاف : ١٥] ، وقوله تعالى ﴿ **وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ** ﴾ [لقمان : ١٤] ؛ لذا كان لزاما على هذا المولود المحمول أن يشكر هذا الجميل ، وهو ما تؤكد عليه العشرات من الأحاديث النبوية الشريفة والمجتمع الذى عق فيه الأبناء أمهاتهم مجتمع جاحد نا كر واهى الروابط .

٢ ـ جملة : « إن أحدكم » المؤكدة بأداة التوكيد « إن » تقرر مبدأ المساواة الذى ينادى به الإسلام حيث أن الأصل واحد « المنى » فلم يميز أحدا فى خلقته مطلقا كما بين ذلك قوله تعالى: ﴿ **فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ** ﴾ [الطارق: ٥ ، ٦] ، وقوله ﷺ : « كلكم لآدم وآدم من تراب » فليس هناك دم شريف ودم حقير، ولا طبقة النبلاء والعبيد، ولا الكرام واللئام. . . ولم يأت هذا الدين إلا لتحرير العباد من استعباد العباد ولتسوية الناس فى الحقوق والواجبات. . . فأين هى المجتمعات الغربية المتحضرة التى تمارس التمييز العنصرى وتصنف العالم إلى أوّل وثالث ؟ !

---

(١) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير ، للشيخ ابن باديس .

(٢) رواه أصحاب السنن وصححه ابن حبان .

النفسية :

قوله ﷺ: « فيسبق عليه الكتاب » . يبعث فى نفس المؤمن الاطمئنان التام على قوته وأجله ومستقبله ، ويمده بالراحة النفسية الكاملة حيث لا ييأس قط من روح الله من جهة، ولا يكدّر صفو حياته ما فاته من رزق أو ولد ؛ لأن كل ذلك بتقدير المقدر عز وجل. ما أحوجنا اليوم إلى التمعن والتدبر فى قول الحق سبحانه : ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا** ﴾[الحديد : ٢٢] .

الثقافية :

كما يحثنا هذا الحديث النبوى ــ من طرف خفى ــ على التأكد من صحة معلومات المعلّم الذى يشرف على تأديب أبنائنا وتعليم فلذات أكبادنا ، أو الذى نصب من نفسه واعظا ومرشدا فى المساجد والمصليات ،ومن صواب المعلومات التى نستقيها من الكتاب أو المجلة بمراعاة المصادر المستند عليها والمقتبس منها : « الصادق المصدوق » .

فى التخطيط :

ونستلهم من هذا التدرج فى الخلق من مرحلة إلى أخرى ضرورة التأنى والتروى فى اتخاذ التدابير أو القرارات المصيرية وعدم العجالة غير المتعقلة التى تفسد التخطيط . ومن ثم فقيام الخلافة الإسلامية وإصلاح الأوضاع المتردية وتقويض الأفكار الهدامة لا يأتى من فراغ ،ولا يتحقق بشعارات وتكبيرات ، أو بإلهاب المشاعر ، وأصوات الحناجر؛ بل بالتخطيط المحكم القائم على بعد النظر ورجاحة العقل .

الطبية :

رأفة من الرؤوف الرحيم بالمرأة الحامل وتخفيفا منه عليها أن جعل الجنين يمر على تلك المراحل ويتدرج فى نموه وخلقه ، فتصور أخى الكريم مجرد تصور لو أن الله خلقه مرة واحدة بلحمه وعظامه وهيكله هكذا ؟ هل تتحمله أمه ؟ كلا بل تلفظه ولا تحفظه ، ولكنه الحكيم الخبير الذى أوسع له الرحم الضيق ، وجعله له القرار المكين إلى قدر معلوم فنعم القادر المقدّر !

فقه الدعوة

١ ــ للداعية أن يقسم بالله الذى لا إله غيره ــ إن استدعى الأمر ذلك ــ لما فى ذلك من حكم :

أ ــ دفع الشك من قلوب سامعيه .

ب ـ لِلَفْتِ الانتباه .

جـ ـ وليصفى عقائدهم من الشرك حين يقسم بما كان يقسم بـه النبى ﷺ دائما : « فوالله الذى لا إله غيره » .

٢ ـ وعليه أن يدرس نـفسيات المدعوين ، ويتفرس دائما فى وجوههم؛ لأنها المرآة الصادقة التى تعبّر عما تختلج به أفئدتهم ، فمثلا حينما نشاهد تقطب الجبين ، فمعناه مخالطة الشك لقلب ذلك الرجل ؛ ولهذا أقسم عليه الصلاة والسلام دفعا لذلك الريب وأكّد بمؤكد ثان وهو « إن » وبثالث وهو اللام فى « ليعمل » .

تـطـبـيـق

رغم أن الحق ـ سبحانه عز وجل ـ تكفل بالرزق مذ أن كان الجنين فى بطن أمّه ، ومع ذلك نجد القائمين والعاملين على إنجاح الفكرة الدخيلة « تحديد النسل » ، ورغم إيماننا الراسخ بعلمه تعالى الأزلى بشقاوة الإنسان وسعادته ، فإنه يوجد من بين المسلمين من يصدقـون الكهنة والعرافين الذيـن يدلسون على أذهــان العامــة ، وضعفاء الإيمان ، ويستغلونهم الاستغلال الفاحش !

الحديث الخامس

عن أم المؤمنين أم عبد الله عائشة ــ رضى الله عنها ــ قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « **من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد** » رواه البخارى ومسلم.

وفى رواية لمسلم : « **من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردّ** » .

ترجمة الراوية :

هى السيدة المبرأة عائشة بنت أبى بكر الصديق ــ رضى الله عنهما ــ تزوجها ﷺ بمكة وهى بنت ست سنين قبل الهجرة بثلاث سنين ودخل بها فى المدينة المنوّرة وهى بنت تسع سنين ، وكانت أحب نسائه إليه بعد خديجة ــ رضى الله عنها ــ وكنّاها النبى ﷺ بـ « أم عبد الله » بابن أختها أسماء بطلب منها لشدة حبها إياه،وتوفّى عنها الرسول ﷺ وهى بنت ثمان عشرة سنة وتوفيت بعده بأربعين سنة ، روى عنها ألفا حديث ومائتان وعشرة أحاديث . ومن مناقبها ــ الكثيرة ــ أنها كانت ــ رضى الله عنها ــ أسْخى الناس ، وها هى ذى أم ذرّ تحكى لنا ذلك قالت : بعث ابن الزبير إلى عائشة بمال ــ أراه مائتى ألف أو مائة ألف ــ فقسّمته بين الناس ، وأمست وهى صائمة وما عندها من ذلك درهم ، فرضى الله عنها وأرضاها .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

الفقهية :

١ ــ اعتبار الأمر المبتَدَع هو نفسه ردّ من قبيل المبالغة ، أى : باطل غير معتد به ، وصاحبه ليس له من الأجر شىء إنما يجهد نفسه مادّيا وجسديا ويضيع وقته وذلك كنذر القيام ، وعدم الاستظلال فى الصوم فهو غير مشروع وبالتالى فلا يطمع صاحبه فى الأجر مطلقا .

أم المؤمنين : أى كأمهاتهم فى وجوب الاحترام والتعظيم وحرمة النكاح لا الخلوة .والنظر ، وتحريم البنات.

أحدث : اخترع وابتدع من قبل نفسه .

أمرنا : ديننا ، وهو ما جاء به النبى ﷺ من تشريع الله .

ما ليس منه : ما لم يأت به القرآن الكريم ولا السنة النبوية الشريفة ولا يوافق القواعد الأصولية ،من قول أو فعل أو اعتقاد .

ردّ : أى مردود على صاحبه ، أو هو نفس الرد مبالغة ،أى : باطل غير معتد به .

٢ ــ والبدعة تطلق على ما يقابل السنة ، يوضح لنا هذا ما رواه الإمام الدارمى فى سننه عن العرباض بن سارية رضى الله عنه قال : صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الفجر ثم وعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب ، فقال قائل : يا رسول الله، كأنها موعظة مودّع فأوصنا قال : « أوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة وإن كان عبدا حبشيا ، فإنه من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافا كثيرا ، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى ، عضوا عليها بالنواجد ، وإياكم والمحدثات، فإن كل محدثة بدعة»(١) . وللعلماء فى تحديد معنى البدعة أقوال نقسمها إلى: عادية وتعبدية ، وحقيقية وإضافية ، وحسنة وسيئة ، وفعلية وتركية ، واعتقادية وقولية وعملية ، وكلية وجزئية ، وبسيطة ومركبة . . . تطلب فى مظانها (٢) .

الأصولية :

« ما ليس منه » .

أى ليس من الشرع ، وهـذا دليـل على أن الأمـورالمستجدّة التى تلحـق بالأمـور المنصوص عليها قياسا كإلحاق النبيذ غير المنصوص على حكمه بالخمر المنصوص على تحريمه لاشتراكهما فى علة الإسكار ، غير دخيلة على الإسلام ، ولا مبتدعة ابتداعا بلا علة أو سبب . يقول ابن حجر العسقلانى : البدعة أصلها ما أحدث على غير مثال سابق . ويعرفها ابن رجب الحنبلى : ما أحدث مما لا أصل له فى الشريعة يدل عليه ، أما ما كان له أصل من الشرع يدل عليه فليس ببدعة شرعا .

الاجتماعية :

دَوْمًا تَمَن الحضارة الغربية على المرأة بالتحرير والتنوير وتكيل السباب والشتائم لهذا الدين ، وتحمله تبعات استعباد المرأة واحتقارها وتجهيلها ، ولكن أى تحرير حققته المرأة غير تحررها من الشرف لتصبح ملكا مشاعا للرجال ! ! وهل بلغت نساؤنا المبتدعات مبلغ أمهات المؤمنين ؟ وهل ضاهين أسماء ونفيسة وسكينة وخولة ؟ لقد رفع الإسلام من شأن المرأة حتى بلغت شأوا عظيما حيث أصبحت الأمينة على نصف الوحى ، المعلمة للبشرية جمعـاء . . . وصدق ربنا إذ يقول : ﴿ **وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ** ﴾[الأحزاب : ٣٤] .

---

(١) سنن الدارمى للإمام الدارمى ١ / ٤٤ ، ٤٥ ، ط : دار إحياء السنة .

(٢) ككتاب: البدعة تحديدها وموقف الإسلام منها للدكتور عزت عطية ، وكتاب الاعتصام للإمام الشاطبى وغيرهما .

فقـه الدعـوة

من هذا المنطلق : « من أحدث فى أمرنا .... » يذهب الداعية فى تبيان الفروق بين القرآن باعتباره كتابا سماويا وبين القوانين والدساتير والمواثيق والأحكام الأرضية البشرية الأخرى ، ومن هذه الفوارق العديدة الشمولية ؛ قال تعالى : ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾ [المائدة : ٣] فالقرآن كتاب شامل لم يغادر صغيرة ولا كبيرة تصلح شأن الإنسانية وتسعدها وتهديها وترفع شأنها وتضمن لها القرار والاطمئنان والسعادة والرخاء والهناء فى الدارين إلا فصّلها وبينها . ومن ثم لا يحتاج من كان هذا وصفه لتكميل مكمل ، ولا لإضافة ولا لحذف رغم تباين العصور والأمصار ، بخلاف القوانين الأرضية التى يتراجع عنها أصحابها كل حين، ويعدلونها كلما أحسوا بثغراتها وإلا تجاوزها وأهلها الزمن .

تطبيـق

إننا نجد تطابقا بين محدثات الجاهليتين (الأولى والثانية) جاهلية ما قبل الإسلام، وجاهلية القرن العشرين ، حتى أضحت البدع فى كثير من الأحايين شيئا من التدين فى أعين المعاصرين بالضرورة، وتغلغلت فى أهم الجوانب العقائدية، وظلت تزحف حتى أتت على الكثير من السنن ، غير أن الله أراد لدينه أن يتجدد ، ولسنة نبيه أن تحيا فقيض من المصلحين المخلصين من يمحو آثار هذا الداء الخطير ، ويزيح الغبار المتراكم على وجه السنة المشرق ؛ حتى يظهر هذا الدين للعالمين ، كما شرحه الرسول الأمين ﷺ ،وكما دافع عنه أصحابه الميامين ، وغرّب به المجاهدون فى الأرض وشرّقوا ، فكان منهم الحفّاظ،والفقهاء الأفذاذ ، والخطباء ... و ... والربانيون المربّون... والمصلحون ــ رحمهم الله جميعا وأفادنا بعلمهم ، وتوجيهاتهم،وأرشدنا إلى أقوم مناهجهم الإصلاحية ــ وها هى الصحوة ــ بإذن الله ــ تعمّ أرجاء كثيرة من شباب العالم الإسلامى ، والحمد لله وذلك ما كنا نبغى.إلا أن حرصى الشديد ــ كمؤمن ــ على امتداد هذه الصحوة واشتداد عودها جعلنى لا أبرح هذا الموضوع بالذات حتى أسجل ملاحظتين أساسيتين :

أولا : وجوب العلم بالأحكام الشرعية ، وأنواع البدع ومدى خطورتها ، وإدراك الحجج العلمية لدحضها ، وتبلور هذه الحجج فى أذهان الدعاة ، وبالأحرى الناكرين للمنكر العاملين على تقويض صرح البدع . ومن قبيل العلم بالأحكام الشرعية أيضا إدراك الأولويات فى إنكار البدع .

ثانيا: وللإقدام على استئصال البدعة يجب التسلح بسلاح الحكمة ، والتحلى بالموعظة الحسنة فى المواعظ والمواضع التى تستدعى ذلك .

الحديث السادس

عن أبى عبد الله النعمان بن بشير ــ رضى الله عنهما ــ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « **إن الحلال بيّن ، وإن الحرام بيّن ، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب** » رواه البخارى ومسلم .

ترجمة الراوى :

هـو النعمان بن بشير ،أول مولود للأنصار بعد مقدم النبى ﷺ إلى المدينة ،وجىء به إلى رسول الله ﷺ فحنكه بالتّمر ،وهو صحابى ابن صحابى كذلك ــ رضى الله عنهما .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

العقائدية :

« إنّ الحلال بين وإن الحرام بيّن » فمن أنكر معلوما من الدين بالضرورة فقد ارتد عن الإسلام كمن استحل الخمر أو الزنا . . .أو جحد حل مجمع على إباحته ،أو وجوب مجمع على وجوبه .

علم السلوك :

أ ــ قوله ﷺ : « فمن اتقى الشبهات » لا زال الإيمان يرتفع بالمؤمن ويسمو به

الحلال : هو ما لم يرد دليل بتحريمه ، فيشمل المسكوت عنه .

الحرام : ما ورد دليل بالمنع .

مشتبهات : أى اشتبه على كثير من الناس حكمها من الحل والحرمة .

اتّقى : أى جعل بينه وبينها حاجزا : أى ابتعد عنها .

عرضه : العرض موضع المدح والذم .

وقع : الوقوع فى الشىء السقوط فيه بشدة .

الحمى : أصله أن ملوك العرب كانوا يحتجزون مواضع لرعى مواشيهم ويتوعدون من يدخلها بالعقوبة ويطلق على هذه المواضع حمى الملك فيبتعد عنها الناس خوفا من العقوبة.

محارمه : التى حرمها على النّاس .

مضغـة : المضغة هى القطعة من اللحم مقدار ما يمضغ الإنسان .

الدرجات السامقة حتى يعزف صاحبه عن بعض ما أحل الله خوفا من أن تنزلق قدمه إلى الحرام، قال الحسن البصرى: أدركنا أقواما كانوا يتركون سبعين بابا من الحلال خشية الوقوع فى الحرام. وها هو الصديق الورع أبو بكر رضى الله عنه يتقيأ ما فيه شبهة .

ب ــ إن صلاح الأعمال والأقوال متوقف على صلاح الجسد نفسه، وصلاح الجسد هو الآخر إنما يكون بصلاح القلب ، وبفساده يفسد كل شىء . ويبدأ الفساد بأصغر الذنوب . قال إبراهيم بن أدهم : قلب المؤمن نقى كالمرآة فلا يأتيه الشيطان بشىء إلا أبصره ، فإذا أذنب ذنبا واحدا ألقى الله فى قلبه نكتة سوداء فإذا تاب الله عليه محيت. فإن عاد إلى المعصية ولم يتب تتابعت النكت حتى يسودّ قلبه . فما أقل ما تنفع فيه الموعظة، قال تعالى : ﴿ **كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ [المطففين : ١٤] ، وما أشبه القلوب بالأراضى؛ لذا ذكر الرسول الكريم ــ صلوات ربى وسلامه عليه ــ القلب وأحواله بعد المرعى ليعْطينا صورة واضحة عن القلب فهو كالأرض الخصبة الطيبة إن صلح قال عز من قائل : ﴿ **وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَٰلِكَ** ﴾ [الأعراف : ٥٨] .

الفقهية:

المثل الذى ضربه رسول الله ﷺ للواقع فى الشبهات : « كالراعى يرعى حول الحمى. . . » يذكرنا بالحكم الذى فهّمه الله سليمان ــ عليه السلام ــ والذى ورد فى قوله تعالى : ﴿ **وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ . فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا** ﴾ [الأنبياء : ٧٨، ٧٩] . قال ابن عباس : النفش هو الرعى . وقال قتادة : النفش لا يكون إلا بليل ، وعن مسروق قال: الحرث الذى نفشت فيه الغنم ؛ إنّما كان كرما فلم تدعْ فيه ورقة ولا عنقودا من عنب إلا أكلته ، فأتوا داود فأعطاهم رقابها ، فقال سليمان: لا بل تؤخذ الغنم فيعطاها أهل الكرم فيكون لهم لبنها ونفعها ، ويعطى أهل الغنم الكرم فيعمروه ويصلحوه حتى يعود كالذى كان ليلة نفشت فيه الغنم ثم يعطى أهل الغنم غنمهم وأهل الكرم كرمهم . وهذا الذى رواه مَسْروق شبيه بالذى رواه الإمام أحمد وغيره عن حرام بن محيصة : أن ناقة البراء بن عازب دخلت حائطا فأفسدت فيه ، فقضى رسول الله ﷺ على أهل الحوائط حفظها بالنهار ، وما أفسدت المواشى بالليل ضامن على أهلها .

الأصولية :

«إن الحلال بين وإن الحرام بين » :

١ ــ اختلف العلماء ــ رحمهم الله ــ فى تعريف الحلال والحرام ؛ فقال أبو حنيفة

ـ رحمة الله ـ : الحلال ما دل الدليل على حله . وقال الشافعى رضى الله عنه: الحرام ما دل الدليل على تحريمه . وأميل مع رأى الشافعى ؛ لأن علماء الأصول قعّدوا قاعدة مفادها : أن الأصل فى الأشياء الحلة، والحرمة طارئة عليها، ولعلّ ابتداء الرسول ﷺ بذكر الحلال أولا يفيد ذلك .

٢ ـ « وبينهما أمور مشتبهات » إن تبيان الحلال من الحرام من صميم تحمل أمانة التبليغ والبيان لمن نزل عليه القرآن، قال تعالى: ﴿**ونزّلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء**﴾ [النحل : ٨٩] قال مجاهد : كل شيء أمروا به ونهوا عنه . وخاطبه ربه أيضا بقوله : ﴿**وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم**﴾ [النحل: ٤٤]، ونزل عليه قبل موته: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم**﴾ [المائدة : ٣] ، إذًا فالحلال مبيّن موضّح ، والحرام لا يقلّ وضوحا عنه ، والتشابه أو التعارض لا يتصوران فى ذات النصوص مطلقا ، إنما تتشابه بعض الأحكام ولم تشتهر بين علماء الشريعة الإسلامية لأسباب تعود إلى المجتهد نفسه لا إلى النص ولا إلى مدلوله منها :

أ ـ توهم ما ليس بدليل دليلا ، كأن يكون أحد الدليلين خبر آحاد وفى سنده رجل لم يشتهر بالعدالة ، ويعارض حديثا آخر صحيح النسبة للنبى ﷺ . فإن أحد الدليلين وهمى لا حقيقى فيسقط ؛ لأنه لم تثبت نسبته إلى النبى ﷺ .

ب ـ أو أن يكون النص على الحكم خفيا لم يعلمه جميع أهل العلم . وهذا أمر طبيعى، فالصحابة أنفسهم ـ رضوان الله عليهم ـ لم يدَّعِ أحدهم ـ ولو من المكثرين ـ الإحاطة بالسنة ، وكثيرا ما كان عمر بن الخطاب يجمع علماء الصحابة ليسألهم عما سمعوه عن رسول الله ﷺ فى بعض الأحكام .

جـ ـ ومنها: أنه قد ينقل فيه نصان ، أحدهما بالتحليل ، والآخر بالتّحريم ، فيبلغ طائفة منهم أحد النّصين دون الآخر فيتمسكون بما بلغهم ، أو يبلغ النصّان معا مَنْ لم يبلغه التاريخ ، فيقف لعدم معرفته بالناسخ والمنسوخ .

د ـ ومنها: ما ليس فيه نص صريح، وإنما يؤخذ من عموم، أو مفهوم أو قياس، فتختلف أفهام العلماء فى هذا كثيرا .

هـ ـ ومنها : ما يكون فيه أمر أو نهى فتختلف العلماء فى حمل الأمر على الوجوب أو الندب ، وفى حمل النهى على التحريم أو التنزيه.

و ـ ومنها : ما يعود إلى سعة اللغة العربية ، وكثرة احتمالاتها (١) .

---

(١)مأخوذ بالمعنى من : جامع العلوم والحكم لزين الدين أبى الفرج الحنبلى .

٣ـ يستدل بهذا الحديث القائلون بسد الذرائع كأصل من الأصول . والذريعة : الوسيلة ، وهى ما يكون طريقا لمحرّم أو محلل فإنه يأخذ حكمه . فما يؤدى إلى الحرام حرام ، وما يؤدى إلى الحلال حلال ، وما لا يؤدّى الواجب إلا به فهو واجب . وقاعدة سد الذرائع معتمدة فى جميع المذاهب على اختلاف فى بعض أقسامه ، واتفاق فى أقسام أخرى (١) .

الاجتماعية:

سبق وأن ذكرنا أن العِرْض هو موضع المدح والذّم من الإنسان ، وقد يكون ذلك تارة فى نفسه ، وتارة فى سلفه وأهله ، وطلب البراءة للعرض من النقص والشين معطوف على طلب البراءة للدين فى حديث سيد المرسلين ﷺ ، وهذه الصيغة كفيلة ببيان مكانة عرض الإنسان فى الإسلام ومحافظته على شرف المرء وكرامته حتى لا تخدش أو تجرح؛ بحيث حماه من ألسنة المتطاولين بالغيبة أو النميمة أو القذف أو التنابز بالألقاب ، ونهاه أن يقف مواقف الريبة والشبهة فيفتح للناس أبواب القيل والقال، ويشجّعهم على الخوض فى شخصه ، ويصدق ظنونهم . قال بعض السلف : من عرض نفسه للتهم فلا يلومن من أساء الظن به . جاءت صفية رضى الله عنها تزور النبى ﷺ فى معتكفه فى العشر الأواخر من رمضان ، ثم قامت ؛ فقام معها يودعها فمرّ بهما رجلان من الأنصار. فقال لهما رسول الله ﷺ : «على رسلكما إنها صفية بنت حيى » ، فقالا : سبحان الله يا رسول الله ! ! وهل نظن بك إلا خيرا ؟ فقال : « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدّم، وقد خشيت أن يقذف فى قلبيكما شرا». وخرج أنس إلى الجمعة فرأى الناس قد صلّوا ورجعوا فاستحيا ودخل موضعا لا يراه الناس فيه وقال : من لا يستحى من الناس لا يستحى من الله . وقال بعض العلماء: لو عرف عالم حلّ شيء ولكن فعله يجرّ إلى القدح فى عرضه وجب ألا يقدّم عليه إلا بعد أن يبيَن للناس حله بدليله بحيث يشعرهم أنه إنمّا فعله ليبيّن لهم أنه جائز.

النفسية :

النّفس البشرية مركّبة بفطرتها من ملكات نفسية متصارعة بدليل قوله تعالى:﴿ **وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَة** ﴾ [القيامة : ٢]، وقوله : ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّة** ﴾ [الفجر : ٢٧] ﴿**إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ**﴾ [يوسف: ٥٣] ؛ لذا فإن المؤمن إذا عمل بالحلال كانت جميع ملكات نفسه هادئة مطمئنة،ولكنّه إن عمل بالحرام فإنه فى الحقيقة لم يرض فى نفسه إلا

(١) انظر : تنقيح الفصول ص ٢٠٠ ، والفروق ٢ / ٣٢ .

جانب الشرّ فحسب ، ومن ثم فإنه يعانى مما يسمّى بوخز الضمير أو تأنيب الضميرأى عقوبة دوافع الخير التى لا يرضيها الحرام . والابتعاد عن الشبهات هو فى الحقيقة أكبر عامل نفسى مريح للنفس ، حيث يجنّبها من عقوبة (الأنا الأعلى) فهل يا ترى يبيت العامل المجد كاللص المحتال ، وهل ينام قاتل النفس مثلا كالمتقى لله ـ عز وجل ؟ ! وهل يستقّر للكذاب قرار كالصادق ؟ !

السياسية :

أ ـ إن مهمة التحريم والتحليل هى فى الحقيقة خصوصية من خصوصيات المولى عزوجل الذى يعلم طبيعة النفس البشرية وما يصلحها وما يضيرها. لكننا نرى فى أيامنا هذه من أعطى لنفسه حق التشريع والتحريم والتحليل،وحذف الأحكام الشرعية وتحريفها وتأويلها واتخذ من نفسه إلها ـ وإن لم يصرح بذلك ـ فيحرّم كل ما يتعارض مع أهوائه ومصالحه ، ويحلل ما يرضى شهواته وملذّاته ، ويرفع هذا الخلف شعار سلفهم فرعون الطاغية: ﴿ **مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ** ﴾ [غافر : ٢٩] من شدة وطأة الاستبداد السياسى والاستكبار العالمى أصبحت الشعوب المنتسبة للإسلام تهاب سطوة الحكام والأمراء والعظماء قبل أن تفكر فى حدود الله ومحارمه . وانتزعت منها تلك الهيبة التى جعلت بلالا وعمارا وغيرهما لا يرددون تحت السياط إلا كلمة التوحيد.

ذكرالقلب وأهميته بعد ذكر الملك فيه إشارة إلى أن صلاح المجتمع بصلاح الحاكم، كما أن صلاح الجسد بصلاح القلب والعكس أيضا صحيح .

الطبيـة :

نعم إن صلاح القلب يتوقّف عليه صلاح جميع الجسد ماديا ومعنويا، والذى أعنيه هنا الناحية البيولوجية (المادية) بحيث إذا لم تختل ضربات القلب ، ولم يتوقف عن ضخ الدم فإن جميع الخلايا بالجسم يصلها الدم ، فإذا حصل توقف فجائى أو اضطراب فى ضربات القلب فإن حياة الإنسان مهددة بالانقضاء والأطباء يدركون خطورة أدواء القلب وعلاجه .

فقـه الدعـوة

١ ـ إن نفس الإنسان بفطرتها تستحسن الحسن وتستقبح القبيح ، واعتمادا على طبيعة الفطرة السليمة على الداعى أن يسعى إلى كشف أضرار المحرمات،وتنفير النفوس منها بأساليب ناجعة، وإلى شرح محاسن الحلال وطيبته ليَستَميل النفوس إلى دعوته.

٢ ـ الزانى والسارق والعاصى ـ بصفة عامة ـ هو فى الحقيقة ضحية تآمر الأهواء

والشيطان ، وتغرير إبليس اللعين به حيث قلب له الحقائق وزين له الباطل وحببه إليه ، وعلينا نحن أن نمد له يد العون لننقذه من ذلك المزلق الخطير ، وأن نعينه على الشيطان لا أن نعين الشيطان عليه .

٣ ــ الدعاة هم المتفقهون فى الدين المتضلعون فى أحكام الشريعة الإسلامية ، فما هم من العوام الذين تعزب على أذهانهم الأمور المشتبهات ؛ لأنها إن خفيت عليهم فإنهم لايأمنون السقوط فيها وإن هم أتوها علنا جهارا فإنها تؤخذ منهم إقرارا وبَيانا بالحلية والجواز من طرف الطائفة المقلّدة ، وتؤخذ عليهم من طائفة أخرى مراقبة .

تطبيــق

١ ــ بعض المنتسبين للإسلام المعاصرين يعتقدون أن الحلال هو ما حل بالكف ، وأن الحرام هو ما حرمت منه الكف فحسب!فيجمعون الأموال من جميع أصناف الربا من الفوائد الربوية البنكية أو تبادل العملات بالتفاضل مع التأخير . أو اقتراض القروض بالزيادة . . . وليس فى حياتهم قط حد للحلال ولا للحرام ــ والعياذ بالله .

٢ ــ بعض المتنطعين لاهم لهم إلا الأخذ والرد فى الأمور المشتبهة بلا علم ولا دراية، وفى هؤلاء يقول الحق سبحانه : ﴿ **هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾ [آل عمران : ٧] .

٣ ــ الكثير الكثير ممن ينتمون للإسلام من يجاهرون بالمعاصى والمحرمات ، ويتفاخرون بانتهاك حدود الله كترك الصلاة ، وعادة شرب الخمور ، وتعاطى المخدرات والإفطار فى نهار رمضان علنا جهارا . . . وهلم جرّا . وفئة أخرى لا يعجبها ذكر ما حرّم ربنا وما أحل وتغضب لذلك وتثير الأرض نقعا. . . وتتمَالأ مع أعداء الله لإسكات الأصوات وقطع الأقوات ، ومصادرة الحريات على كل من تجرأ على إغضابها ومخالفة أهوائها ، ثم تغدوا آخر الأسبوع لصلاة الجمع. . . فسبحان الله ولا حول ولا قوة إلا بالله !

الحديث السابع

عن أبى رقية تميم بن أوس الدارى رضى الله تعالى عنه أن النبىّ صلى اللّه عليه وآله وسلم قال : « **الدين النصيحة** » قلنا لمن ؟ قال : « **لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم** » رواه مسلم .

ترجمة الراوى :

هو تميم بن أوس الدارى نسبة إلى أحد أجداده ، أو الديرى نسبة إلى دير كان يتعبدّ فيه قبل إسلامه . ويكنّى بابنته الوحيدة التى لم يعقب غيرها « رقية » ، وكان إسلامه مع أخيه « نُعيم » سنة تسع ، وكان راهب أهل عصره وعابد فلسطين ، وكان كثير التهجد ، وهو أوّل من أسرج السرج فى المسجد ــ رضى الله عنه .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

العقائدية :

إن النصح لله هو أول قاعدة يرسيها القرآن الكريم ، ودارت عليها جل آياته ، ومكث الرسول ﷺ يغرسها فى القلوب طيلة ثلاث عشرة سنة ، قال تعالى : ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء** ﴾ [البيّنة : ٥] ، فمن النصح لله النصح لوحدانيته ــ عز وجلّ ــ فى ذاته وصفاته الكمالية ، فلا يشرك الناصح لله مع الله شجرا ولا حجرا ولا مدرا ، ولا يستهدى إلا بالله،ولا يستشفى إلا إليه ، ولا يلجأ إلا به سبحانه ! والناصح لله لا يشرك فى عبادته مع الله أحدا ، لا شركا ظاهرا جليّا ، ولا مستترا خفيّا ، كالرياء وحب السمعة و. . . قال تعالى : ﴿ **فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ . أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ** ﴾ [الزمر : ٢ ، ٣] .

النصيحة : فى اللغة : هى الإخلاص ، من نصحت القول والعمل أخلصته ، وفى الشرع : إخلاص النية من الغش للمنصوح له .

النصيحة لله : إخلاص الإيمان به وتوحيده وإخلاص العبادة له .

النصيحة للكتاب : العمل بما فيه والدفاع عنه ونشر مبادئه .

النصيحة للأئمة أى الحكام بطاعتهم وإرشادهم للحكم بما أنزل الله ، أوهم العلماء بإجلالهم وحسن الظن بهم وعامتهم ، وهم ماعدا الأئمة ، وذلك بإرشادهم لما يصلحهم فى عاجلهم وآجلهم .

الاجتماعية :

النصح لعامة المسلمين بلا استثناء إنما يكون بإرشادهم لما ينفعهم فى دنياهم وأخراهم، وإعانتهم فى قضاء حوائجهم ، وستر عوراتهم ، والدفاع عن أعراضهم ، وبدفع المضار وجلب المنافع لهم ، وبأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر . ويقع كل ذلك على عاتق الداعية الحكيم ، والخطيب المرشد ، والمعلم المربّى ، والطبيب المعالج، والعامل بين محركاته، والصانع فى صناعته واختراعاته ، والأب فى أسرته وبين أبنائه، والزوج مع شريكة حياته وأم عياله ، والتاجر فى متجره ، والفلاح فى مزرعته وحقله، والطالب فى مذاكرته ، وفى مدرسته أو جامعته ، والحاكم فى مسؤوليته ، والمدير فى إدارته .

الأخلاقية :

ينْبغى للعامّة احترام علماء الإسلام العاملين وتوقيرهم ، وعدم مخالفتهم فيما أمر به القرآن وأوردته السنة ، والحذر من معاكستهم ومشاكستهم ــ كما يحلو للبعض ــ لأنهم القادة الروحانّيون الذين خوّل لهم علمهم التبليغ عن رسول الله ﷺ ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ [فاطر : ٢٨] ، ﴿ **هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الزمر : ٩] ، وليبين لنا الرسول ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ ما يجب علينا « أخلاقيا » تجاههم قال: « ولأئمة المسلمين وعامتهم » ولم يقل : ولعامتهم ؛ لأن العامّة أتباع الأئمة ، وما أفلح قوم ــ والله ــ أهانوا علماءهم ، واستخفّوا بهم ، وضربوا بأقوالهم عرض الحائط ، وما تخلّق رجل أهان من أعزه الله بفقه شريعته .

الثقافيــة :

إن النصيحة للكتاب تقتضى ما يلى :

١ ــ الإيمان بمتشابهه كالإيمان بمحكمه .

٢ ــ العمل بما جاء به من أحكام وتشريعات .

٣ ــ الدفاع عنه عنْد طعن الطاعنين ، وتأويل المحرفين ، ولا يتمّ ذلك إن اتخذنا القرآن الكريم الذى هو مصدر علوم الأولين والآخرين وراء ظهورنا ، أو زيّنا به حجراتنا ومراكبنا وتحصنا به على هيئة تمائم وتعاويذ . . . . فى حين أن القرآن الكريم لو درسنا فنونه ، وتفهّمنا علومه كفيل بتقدّمنا ، وتشبّعنا بأصول حضارتنا الإسلامية العملاقة ولما دكّت حصوننا، ولما توالت علينا هجومات خصومنا؛ الثقافية والإعلامية، المختلفة الشرسة .

السياسية :

أ ـ النصيحة لأئمة المسلمين ، أى : قادتهم وحكامهم بطاعتهم فيما يوافق الحق، وما داموا على طريق الله وطريق رسوله، قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُم** ﴾ [النساء : ٥٩]. قال البخارى عن ابن عباس : قال: نزلت فى عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدى إذ بعثه رسول الله ﷺ فى سرية، واستعمل عليهم رجلا من الأنصار ، فلمّا خرجوا وجد عليهم فى شىء، قال : فقال لهم : أليس قد أمركم رسول الله أن تطيعونى ؟ قالوا : بلى ، قال : فاجمعوا لى حطبا، ثم دعا بنار فأضرمها فيه ثم قال: عزمت عليكم لتدخلنّها، قال: فقال لهم شاب منهم : إنّما فررتم إلى رسول الله من النار ، فلا تعجلوا حتى تلقوا رسول الله ﷺ فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها ، قال : فرجعوا إلى رسول الله فأخبروه، فقال لهم: « لو دخلتموها ما خرجتم منها أبدا ، إنما الطاعة فى المعروف » ، وعن عبد الله بن عمر، عن رسول الله ﷺ قال: « السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة »(١).

ب ـ وتكون النصيحة للأئمة أيضا بإرشادهم إلى شرع الله ، وإخلاص النصح لهم وهدايتهم إن هم انحرفوا عن السبيل السماوى ، فقد قيل : إنه لما تولى هارون الرشيد جلس للناس مجلسا عامّا ، فدخل عليه بهلول « المجنون » فقال له : يا أمير المؤمنين احذر جلساء السّوء ، واعتمد جليسا صالحا يذكرّك بمصالح خلقه إذا غفلت، والنظر فيهم إذا لهوت ، فإن هذا أنفع لك وللناس، وأكثر فى الأجر مما تأتى به من صوم وصلاة وقراءة وحجّ ، إن الرجل كان يلقى الكلمة عند ذى السلطان فيعمل بها فيملأ الأرض فسادا: وقال ﷺ : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقى لها بالا فيهوى بها فى النار سبعين خريفا » ولا تكن يا أمير المؤمنين كمن قال الله تعالى فى حقه : ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ** ﴾ [البقرة: ٢٠٦]

فقال له: زدنى ، فقال : يا أمير المؤمنين : إن الله تعالى قد أقاد لك النّاس وجعل أمرك فيهم مطاعا وكلمتك فيهم نافذة وأمرك فيهم ماضيا وماذلك إلا لتحمْلهم على الإتْيان بما أمر الله والانتهاء عما نهى الله عنه ، وتعطى من هذا المال الأرملة واليتيم والشيخ الكبير وابن السبيل . يا أمير المؤمنين ، أخبرنى فلان عن فلان عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إذا كان يوم القيامة وجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد أحضر الملوك وغيرهم من ولاة أمور الناس فيقول لهم : ألم أمكنكم من بلادى وأطع

(١) رواه أبو داود .

لكم عبادى لا لجمع الأموال ، وحشد الرجال ، بل لتجمعوهم على طاعتى ، وتنفذوا فيهم أمرى ونهيى، وتعزّوا أوليائى ، وتذلّوا أعدائى، وتنصروا المظلومين من الظالمين »، يا هارون تفكّر كيف يكون جوابك عما تسأل عنه من أمور العباد فى ذلك الموقف إذا حضرت ويداك مغلولتان إلى عنقك ، وجهنم بين يديك ، والزّبانية محيطة بك تنتظر ما يؤمر بك قال : فبكى هارون بكاء شديدا ، فقال له بعض الحاضرين : كدّرت على أمير المؤمنين مجلسه ، فقال لهم هارون : قاتلكم الله إن المغرور من غررتموه والسعيد من بعدتم عنه ، ثم خرج من عنده .

فقْه الدعوة

١ ــ النصيحة مرة قل من يتقبلها، ولذلك على الداعى أن يكون حكيما فى نصحه، ويتبع سبيل الموعظة الحسنة، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل : ١٢٥] ، ولا يتسرع فى أحكامه فيواجه خصومه بالخشونة والغلظة، قال تعالى مخاطبا نبيه ﷺ : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

٢ ــ الناصح فى الغالب غير محبوب ؛ لأنه يعاكس الشهوات الحيوانية والغرائز البهيمية ، ويخاطب بلغة العقل التى لا يفهمها إلا العقلاء ، ومن هنا يتضح الداعى الصادق الذى يبتغى وجه الله من الدّعىّ المنافق الذى لا يسعى إلا إلى كسب أكبر عدد ممكن من الأنصار والمؤيدين ، وليتخذ لنفسه قاعدة شعبية عريضة عليها يقف ويستند ؛ ليحقق أغراضه السياسية وأهدافه الماديّة . وكثيرا ما نسمع بمثل هذه المؤامرات التى تحاك ضد الدعوة الإسلامية ولإجهاضها ، ولقد اتخذها بعضهم كبش الفداء فى أوّل ليلة يرتقى فيها المنصب المؤمّل .

٣ ــ على الناصح أن يتخيّر المكان والزمان والمناسبة التى يسدى فيها نصحه وإرشاده تماما ، مثلما يتخيّر الأسلوب والعبارات اللائقة ؛ لأنه كما قيل : النصيحة أمام الملأ فضيحة .

تطبيق

١ ــ لقد أصبح الحاكم فى أمسّ الحاجة إلى من ينصحه بصدق وإخلاص ، ولا يجد من حوله إلا حثالة من المتملقين المتزلفين الذين يزينون له المحرمّات ويشهّونه فى الخمر والفتيات . ولربمّا استعمله بعضهم لقضاء مآربه الخاصّة ، أو للانتقام من أعدائه ومناوئيه فيصبح الناصح (المزعوم) هو مقلب دفّة الحكم كيفما شاء .

٢ ــ وما ذلك إلا لأنّ الحكام أبعدوا عن مجالسهم الفقهاء والعلماء العاملين وضربوا على أنفسهم حصارا حتى لا تصل إلى آذانهم همسة واعظ ، ولا إشارة ناصح، أو لأنهم غلوا أيديهم وزجّوا بهم فى السجون والمعتقلات .

٣ ــ لقد طغت الأقوال على الفعال فى أيامنا هذه ولا حول ولا قوة إلا باللّه ، وأصبح الناصح غير منصوح فى حدّ ذاته ، بحيث يقف الرجل أمام الملأ فيحلل ويحرم، ويوعظ ويوجِّه ، ويبشر ويحذّر فتذرف من أقواله الدموع ، وتتسربل القلوب بالخشوع .

ثم تراه إذا فارق مجلسه فارق مبادئه ، وأقواله وخالفها بفعل الحرام وإتيان الموبقات والعياذ باللّه، قال تعالى : ﴿ **أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾[البقرة : ٤٤] ، وللّه درّ الشاعر حين قال :

ألا أيّـهـا الرجل المعلّم غـيْـره ... هلا لنفسك كـان ذا التّعـليـم
فابدأ بنفْسـك فـانهها عـنْ غيّـهـا ... فإذا انتهت عنـه فأنت حكيـم
تصـف الدواء لذى السقام وذى الضنا ... كيما يصـح بـه وأنت سقيـم

الحديث الثامن

عن ابن عمر ــ رضى الله تعالى عنهما ــ أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم قال : « **أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمّدا رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك ؛ عصموا منّى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله تعالى** » رواه البخارى ومسلم .

ترجمة الراوى :

هو الصحابى ابن الصحابى عبد الله بن عمر بن الخطاب ، ولقد سبق التعريف به، ولا بأس أن نورد شيئا من فضله ، عن ابن عمر ــ رضى الله عنهما ــ قال : كان الرجل فى حياة النبى ﷺ إذا رأى رؤيا قصها على النبى ﷺ فتمنيت أن أرى رؤيا فأقصها على النبى ﷺ وكنت غلاما أعزب أنام فى المسجد حينذاك ، فرأيت فى المنام كأن ملكين أخذانى فذهبا بى إلى النار ،فإذا هى مطوية كطى البئر ، وإذا لها قرنان كقرنى البئر، وإذا فيها ناس قد عرفتهم فجعلت أقول : أعوذ بالله من النار ، أعوذ بالله من النار ، فلقيهما ملك آخر فقال لى : لن تراع ، فقصصتها على حفصة ، فقصتها حفصة على النبى ﷺ فقال : «نعم الرجل عبد الله لو كان يصلى بالليل » قال سالم : فكان عبد الله لا ينام من الليل إلا قليلا . . . رواه الشيخان .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

العقائدية :

« وحسابهم على الله » .

١ ــ المطلع على خبايا النفوس الخبير بالخفايا هو وحده الذى إليه أمر خلائقه إن شاء عذّبهم وإن شاء عفا عنهم . وهذا التعبير النبوىّ الصحيح الصريح يرد على المعتزلة

أمرت : أى أمرنى سبحانه وتعالى ، ولم يذكره لتعيّنه وتعظيمه .

أقاتل : قال الحافظ ابن حجر : أمرت أن أقاتل الناس أى المشركين من غير أهل الكتاب كما تدل عليه رواية النّسائى : «أمرت أن أقاتل المشركين » وحكى البيهقى عن الشافعى أنه قال : ليس القتال من القتل بسبيل، فقد يحلّ قتال الرجل ولا يحلّ قتله .

عصموا منى أى منعوا منى ، أى : من جهة دينى .

القائلين بوجوب فعل الصلاح والأصلح على الله تعالى، كوجوب إثابة المطيع وعقاب العاصى . وهى فى الحقيقة من قبيل الممكنات الجائز فعلها فى حقه تعالى، إذ لو وجب فعل الصلاح والأصلح لما وقعت محنة دنياً وأخرى ولما وقع تكليف بأمر ولا نهى، وذلك باطل بالمشاهدة.

٢ ــ « . . . حتى يشهدوا » ، والشهادة لا تكون إلا عن يقين واقتناع، فلا يكفى التقليد فى الأمور الاعتقادية عن معرفة الدليل الإجمالى عما يجب لله تعالى ، وما يستحيل فى حقه وما يجوز ، والمقلد غيره فيها مختلف فى إيمانه (. . . فالذى عليه الجمهور والمحققون من أهل السنة كالشيخ الأشعرى والقاضى ، وإمام الحرمين وغيرهم من الأئمة أنه لا يصحّ الاكتفاء به فى العقائد الدينية وهو الحق الذى لاشك فيه ، وقد حكى غير واحد الإجماع عليه ، وكأنه لم يعتد به بخلاف الحشوية، وبعض أهل الظاهر إما لظهور فساده وعدم متانة علم صاحبه أو لانعقاد إجماع السّلف قبله على ضده ، وقد حصل ابن عرفة فى المقلد ثلاثة أقوال :

الأول : أنه مؤمن غير عاص بترك النظر .

الثانى : أنه مؤمن لكنه عاص إن ترك النظر مع القدرة .

الثالث : أنه كافر ، ثم قال : وبالجملة فالذى حكاه غير واحد عن جمهور أهل السّنة ومحققيهم أن التقليد لا يكفى فى العقائد ؛ ولهذا قال ابن الحاجب فى العقيدة المنسوبة له بعد قوله : إن الإيمان هو التّصديق وهو حديث النفس التابع للمعرفة على الأصحّ قال : ولايكفى التقليد فى ذلك على الأصح) (١) .

والدليل الذى لا يصح الاعتقاد إلا به هو الدليل الإجمالى الذى يحصل به الجزم فى الاعتقاد من غير تردّد ، أما أدلة المتكلمين التفصيلية فلا يجب تعلمها خلافًا لمن أوجب ذلك وجعله شرطا فى كونه من أهل القبلة .

٣ ــ جاء فى الحديث : « أمرت أن أقاتل الناس حتى . . . ويقيموا . . . ويؤتوا الزكاة . . . » فهل يفهم من هذا أن مقاتلة تارك الصلاة تعنى بالضرورة تكفيره ومن ثم خلوده فى جهنم ؟ ذلك اعتقاد المعتزلة الذين يكفرون مرتكب الكبيرة ، وهم بهذا خالفوا أهل السنة الذين يرون أن من مات من عصاة المؤمنين من غير توبة فأمره مفوّض إلى الله ــ عز وجل ــ: فلا نحكم عليه بأنه من أهل النار، أو من أهل الجنة بل

---

(١) ا . هـ من كتاب : الدر الثمين والمورد المعين شرح المرشد المعين على الضرورى من علوم الدين لابن عاشر ص ١٩، ٢٠ ، ط : دار الرشاد الحديثة بيروت .

هو تحت المشيئة : إن شاء الله عفا عنه تفضّلا ، وإن شاء عذبه بعدله ، وعلى تقدير عذابه لا يخلد فى النار مهما عصى اللّه سبحانه حيث مات على الإيمان ، بل يكون خلوده بعد التمحيص فى الجنة ، ولا يحكم عليه بكفر بسبب ارتكاب الكبائر .

الفقهية :

نستخلص من الحديث النبوى أحكاما فى غاية الأهمية منها :

١ ــ : هل الكفار مخاطبون بالفروع أيضا ؟ فيه خلاف : والأصح أنهم مخاطبون بها ، ولا عبرة باشتراط الإسلام فى وجوب الصلاة أو الصوم مثلا عند من اشترطه .

غير أنه لا ثمرة ــ فى اعتقادى ــ لهذا الخلاف على الأقل من الناحية العملية؛ لأن الكافر ــ وإن كان مخاطبا بالصلاة ــ فلا تصح منه بدون إسلام وهو مأثوم على ترك التوحيد .

أما لو سلمنا جدلا أنه غير مخاطب بها بل هو مخاطب بالإسلام ، وبإعلانه الدخول فيه يصبح مطالبا بها وبجميع الفرائض، يعضد هذا الحديث الوارد « . . . حتى يشهدوا »طبعا فإذا شهدوا أصبحوا مخاطبين بأحكام هذه الرسالة التى أقروا بها لخاتم المرسلين سيدنا محمد ــ عليه وعليهم الصلاة والسلام أجمعين .

٢ ــ المنافق الذى يعلن الإسلام ويبطن الكفر يعصم بذلك دمه وماله وحسابه عند اللّه عسير ، ﴿ **إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ** ﴾ [المنافقون : ١] .

وفى إحسان النبى ﷺ لعبد اللّه بن أبى ، ومعاملته له معاملة المسلم لا المشرك أو المرتد ــ وإن كان نفاقه مقطوعا به ــ دليل على أن المنافق إنما يعامل فى الدنيا من قبل المسلمين على أنه مسلم ، ومرد ذلك إلى ما رواه البخارى عن عمر رضى اللّه عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « إنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم » .

وعن عبد اللّه بن عدى بن الخيار ، أن رجلا من الأنصار حدثه أنه أتى النبى ﷺ فاستأذنه فى قتل رجل من المنافقين فقال النبى ﷺ: «أليس يشهد أن لا إله إلا اللّه ؟» قال: بلى، ولا شهادة له ، قال : «أليس يصلى ؟» قال : بلى ، ولا صلاة له، قال : « أولئك الذين نهانا اللّه عن قتلهم » (١) .

٣ ــ « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا . . . ويقيموا . . . » من خلال هذا

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده .

نشير إلى حكم مقاتلة من ترك الصلاة أو أى فرض من فرائض الإسلام فردا كان أو جماعة :

أولا : من ترك الصلاة معترفا بوجوبها متكاسلا عن أدائها فإنه يطالب بأدائها بسعة من الوقت ويلح عليه فى الطلب بل ويهدد بالضرب ، فإن أبى ؛ أخره الحاكم لبقاء ركعة بسجدتيها من الوقت الضرورى ويقتل حدا ، ويصلى عليه غير فاضل ويدفن فى مقابر المسلمين.

ثانيا : وأما من امتنع عن أداء الزكاة غير جاحد بفرضيتها فإنها تؤخذ منه عنوة ، ويؤدب على تركها .قال الشيخ خليل بن إسحاق المالكى فى مصنفه(المختصر): وأخذت من تركة الميت وكرها وإن بقتال وأدب .

ثالثا : وأما الجماعة التى تتواطأ على ترك الصلاة أو الزكاة فإنها تقاتل ، ولقد ثبت أن النبى ﷺ كان إذا غزا قوما لم يغر عليهم حتى يصبح ، فإن سمع أذانا وإلا أغار عليهم مع احتمال أن يكونوا قد دخلوا فى الإسلام ، قال تعالى : ﴿ **فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ** ﴾ [التوبة : ٥] .

القضائية :

« عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام ».

عصم الإسلام دماء أولئك فلا تراق، وأموالهم فلا تؤخذ بأى حال من الأحوال ، إلا بسبب حق من حقوق الإسلام ؛ كالقصاص فى النفس والعضو ، والرجم أو الجلد، وقطع يد السارق ، وأخذ المال فى جزاء المتلفات والديات . . . ولكن هل من حقها ماثبت بالإكراه والتعذيب وتحت وطأة التهديد ؟ جاء فى (المدونة) ما رواه سحنون عن الإمام مالك ــ رحمه اللّه تعالى ــ : قلت : أرأيت إذا أقر بشىء من الحدود بعد التهديد أو القيد أو الوعيد أو الضرب أو السجن ، أيقام عليه الحد أم لا ؟ قال: قال مالك: من أقرّ بعد التهديد أقيل ، فالوعيد والقيد والتهديد والسجن والضرب تهديد عندى كله. . . ثم قال : « . . . . قلت : فإن ضرب وهدد فأقر فأخرج القتيل أو أخرج المتاع الذى سرق، أيقام عليه الحد فيما أقر به أم لا ، وقد أخرج ذلك ؟ قال : لا أقيم عليه الحد إلا أن يقر بذلك آمنا لا يخاف شيئا » (١) .

فقه الدعـوة

١ ــ الداعية يحتسب أمره لربه ــ عز وجل ــ فلا ينتصر لذاته ولا يثأر لشخصه ،

(١) المدونة ١٤ / ٩٣ .

بل ينتصر للّه إذا ما انتهكت حرمات الإسلام ، ومن ثم لا يأخذ فى اللّه لوم اللائمين .

٢ ــ والدعوة ليست نظاما بوليسيا يترصّد المرء بها تحركات الناس ويتحسس خفاياهم ويقاضيهم عليها وحسابهم على الله. قال تعالى : ﴿ **فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ** ﴾ [الغاشية : ٢١ ، ٢٢] .

٣ ــ « إلا بحق الإسلام » . لقد عمت البلوى واستعين بالفتوى فى تكفير طوائف المسلمين واستحلال دمائهم وأموالهم ... وأضحى اتخاذ تلك التهم كالمروق ، والزندقة، والخروج عن النظام ... ذريعة لسفك الدماء وإعدام الأبرياء ... وقد تكون الدواعى شخصية كالانتصار للذات ، وللرأى والطريقة ، والفكرة والحركة ... فلازلنا نسمع عن أولئك الذين يتتبعون آثار كبار الرجال ، ويتلمّسون زلات أقلامهم وهفوات ألسنتهم ليصدوا عنها جمهورها ... ولقد طالت سهامهم حتى شهداء العقيدة الذين نكن لهم الود والتقدير . ورد فى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن خالد بن الوليد استأذن النبى ﷺ فى قتل رجل فقال :« لا لعلّه أنْ يكون يصلى » فقال خالد : وكم من مصلٍّ يقول بلسانه ما ليس فى قلبه ؟ فقال رسول الله ﷺ : «إنّى لم أومر أن أنقّب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم » ؛ لذا فإنى أهيب بالدعاة المخلصين أن يربؤوا بالأمة عن هذا المزلق الخطير الذى تهاوت إليه بعض الجماعات التى ما درت أو ما قدّرت قول الرسول الأعظم ــ عليه الصلاة والسلام ــ فيما رواه ابن عمر: « إذا قال الرجل لأخيه : يا كافر فقد باء بها أحدهما، فإن كان كما قال ، وإلا رجعت عليه»(١) ، وعن أبى قلابة رضى الله عنه أن ثابت بن الضحّاك رضى الله عنه أخبره : أنه بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، وأن رسول ﷺ قال: « من حلف على يمين بملّة غير الإسلام كاذبا متعمّدا فهو كما قال ، ومن قتل نفسه بشىء عذّب به يوم القيامة، وليس على رجل نذر فيما لا يملك ، ولعن المؤمن كقتله ، ومن رمى مؤمنا بكفْر فهو كقتله ، ومن ذبح نفسه بشىء عذب به يوم القيامة » (٢) .

تطبيـق

١ ــ كم هى الأرواح البريئة التى تزهق من جراء التعسّف والاستبداد فى عالمنا المعاصر، ولا مستفيد منها إلا أعداء الإسلام والمسلمين ؛ لأن فيها كسرًا لشوكة المسلمين وإجهاضا لطاقاتهم ، ونصرًا للملحَدين وانتعاشا لاقتصادهم ورواجا لمخزون السلاح عندهم. فمثلا المعارك الدامية التى دارت وتدور رحاها بين الإخوة والجيران، ومنها

(١) رواه مالك ، والبخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى .

(٢) رواه البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، وأحمد .

ماكانت اليمن الجنوبية مسرحا لها فى أواخر شهر جانفى من سنة ١٩٨٦م ، والتى حصدت زهاء اثنى عشر ألفا من أبناء هذا البلد الإسلامى . . . . فهل أريقت هذه الأنهار من الدماء لتنقذ الأقصى من براثن الصهاينة ؟ أم لتحرير شبر واحد من البلاد المغصوبة أبدا ؟ لا هذا ولاذاك ، وأمثال هذا المصاب كثير وخطير ، ولكنّنا لا نكاد نعثر على رجل رجم حتى الموت لأنه زنى وهو محصن ، ولا على قاتل قتل . . . إلا دعاية أو نكاية .

٢ ــ تناظر أبو بكر وعمر ــ رضى الله عنهما ــ فى قتال تاركى الزكاة ، وفى فهمهما لهذا الحديث : « أمرت أن أقاتل الناس » ، وأدلى كل منهما بحجته وبرهانه. . . . حتى أقنع أبو بكرـ وهو من هوـ عمر بن الخطاب بالرأى الذى شرح الله صدره إليه والقصة واردة فى الصحيحين، وفى كتب السير . . دون إرغام وإرهاب. . وسجن و. . . و. . . والقصة كما أوردها البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : لما توفى رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر الصديق رضى الله عنه بعده وكفر من كفر من العرب، قال عمر: رضى الله عنه لأبى بكر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم منّى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله عز وجل»؟ فقال أبو بكر رضى الله عنه: والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة ،فإن الزكاة حق المال، والله لوْ منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه، فقال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق. هذه الواقعة تبهر العالم المتشدق بالحرية، والأنظمة المنادية بالديمقراطية ــ وفق مفهومها الخاص ــ الموقف التاريخى الجازم الذى وقفه الخليفة الأول : أبو بكر الصديق رضى الله عنه تجاه المرتدين والمانعين للزكاة أظهر بوضوح سمات الشخصية القيادية الفذة التى كان يتمتع بها ، وهى من أهم النماذج الإسلامية التى يجب أن يستلهم منها قادة الأمة المثل فى الثبات على المبدأ مثلا . . . أين زعماء المسلمين اليوم منها . . . الذين هم من مؤتمر اللاءات بالخرطوم. . . إلى مؤتمرات التهافت على ودّ الأرجاس الصهاينة. . . . ألاتبّا لقائد هذا حاله ! !

الحديث التاسع

عن أبى هريرة عبد الرحمن بن صخر رضى الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله صلى اللّه عليه وآله وسلّم يقول : « **ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم ، فإنما أهلك الذين من قبلكم** كثرة **مسائلهم واختلافاتهم على أنبيائهم** » رواه البخارى ومسلم .

سند الحديث :

هذا الحديث بهذا اللفظ خرجه مسلم وحده من رواية الزهرى عن سعيد بن المسيب، وأبى سلمة كلاهما عن أبى هريرة ، وخرّجاه من رواية أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « دعونى ما تركتكم إنما أهلك من كان قبلكم سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » وخرجه مسلم من طريقين آخرين عن أبى هريرة بمعناه .

ترجمة الراوى :

هو عبد الرحمن بن صخر كناه الرسول ﷺ « بأبى هريرة » حين رآه حاملا هرة فى كمّه . أسلم يوم خيبر وشارك فيها مع رسول الله ﷺ ، ثم لازمه الملازمة التامة رغبة فى العلم ولذا حفظ الكثير من الأحاديث عن النبى ﷺ ولازمه ملازمة شديدة، وكانت وفاته فى سنة سبع وخمسين عن ثمان وسبعين سنة .

سبب ورود الحديث :

جاء فى بعض الروايات ذكر سبب هذا الحديث ، وهى رواية محمد بن زياد عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : خطَبنا رسول الله ﷺ فقال :« يأيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجّوا » فقال رجل : أكل عام يا رسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثا ، فقال رسول الله ﷺ: « لو قلت : نعم لوجبت ولما استطعتم » ، ثم قال : « ذرونى ما تركتكم ، فإنّما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم

ما نهيتكم الأمر بعدم الفعل أو المنع .
فاجتنبوه : ابتعدوا عنه .
الذين من قبلكم : بنو إسرائيل .

بشىء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شىء فدعوه » . وفى رواية فنزل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُم ﴾ [المائدة: ١٠١] .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

الفقهية :

إن من أهم سمات الشريعة الإسلامية اليسر والسهولة ، قال تعالى: ﴿ **وما جعل عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** ﴾ [الحج : ٧٨] ، بل تتماشى مع قدرات الإنسان وطاقته وليس فيها ما يثقل الكاهل ويعجز الشخص بحال من الأحوال ؛ لقوله تعالى : ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا** ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

وتتدرج التكاليف والواجبات من اليسير إلى الأيسر وفق الاستطاعة الفردية ، فمثلا: الطهارة التى هى أساس عماد الدين ، فإذا عجز المصلى عن الوضوء لفقده للماء، أو لعدم القدرة على استعماله : فإنه ينزل إلى حكم أخف وهو الطهارة الترابية (التيمم).

وفى الصلاة تتجلى مظاهر التخفيف ، وكذلك بقية العبادات الأخرى تبحث فى مراجعها .

الأصولية :

١ ــ ليس كل أمر هو على سبيل الوجوب ، كما أنه ليس كل نهى هو على سبيل التحريم .

ــ فالأمر يكون للوجوب وللندب .

ــ والنهى يكون للتحريم وللكراهة .

غير أن الأمر فى الفعلين محمول على الوجوب : فى الحرام والفرض ، وعلى الندب : فى المكروه والمندوب .

٢ ــ كون النبى عليه الصلاة والسلام هو الآمر الناهى « ما نهيتكم وما أمرتكم » يدل على أن السنة النبوية الشريفة هى المصدر الثانى فى التشريع الإسلامى ويكفى أن أشير هنا إلى مكانة السنة فى التشريع بالقول :

ــ إن السنة النبوية هى المبينة والشارحة للقرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿ **لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ** ﴾ [النحل : ٤٤] .

ــ وهى المفصلة لما أجمل فى القرآن الكريم . فالصلاة مثلا جاء الأمر بها فى القرآن مجملا ففصله النبى ﷺ وبين لنا هيئتها وعدد ركعاتها وأوقاتها ، وكذلك الزكاة . . و . . . إلخ .

ــ والسنة مقيدة لما أطلقه القرآن الكريم ، ومخصصة لما عممه .

٣ ــ قال بعض العلماء : يؤخذ من الحديث قاعدة : درء المفاسد مقدّم على جلب المصالح لأنه قدّم فيه النهى مع عدم تقييده بالاستطاعة (١) .

الاجتماعية :

« وما نهيتكم عنه فاجتنبوه » الاجتناب ليس هو الإحجام عن فعل المحرم فحسب، بل هو الابتعاد حتى عن مقدمات ذلك وما يجر إليه ، فهذا الزنى المحرم يقرب إليه اللمس ، والهمس ، والخلوة ، والنظرة المحمومة . . و . . . فقال تعالى : ﴿ **وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً** ﴾ [الإسراء : ٣٢] ، وبالابتعاد عن المحرمات وسبلها والطرق المؤدية لها نقطع دابر الجريمة فى المجتمع الإسلامى الذى يستأصل منه الإسلام جذور الفاحشة قبل أن تخرج شطأها وتفوح رائحتها . . ومن ثم نضمن الاستقرار النفسى ، والاجتماعى ، والأخلاقى ، فنأمن على كرامتنا من الغيبة والنميمة والقذف ، وعلى أموالنا من السلب والغصب ، وعلى أعراضنا، وعلى أنفسنا، وأرواحنا أيضا (٢) .

التاريخية :

« فإنما أهلك الذين من قبلكم » .

إشارة إلى أهمية دراسة التاريخ بالنسبة للأفراد والأمم والدول لنتفادى عثراتها ونترسم سبيل تحضرها . وصدق ربنا إذ يقول : ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ** ﴾ [يوسف: ١١١]، فعلينا أن نرجع البصركرات وكرات فى تاريخ الأمم الفارطة، وندرس أسباب انحطاطها واندثار حضارتها رغم التقدم الذى أحرزته ، والتحضرالذى بلغته فى الميدان الاقتصادى والعسكرى . . والعمرانى ، والقرآن الكريم يحضنا على ذلك فى آيات عديدة منها قوله تعالى : ﴿ **أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾ [الروم: ٩] .

﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ . الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ . وَثَمُودَ**

(١) مختصر النبراوى على الأربعين النبوية ، لعبد الرحيم فرج الجندى .

(٢) انظر بتوسيع فى كتاب : ماذا خسر العالم بالانحطاط الأخلاقى .

الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ . وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ . الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ . فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ . فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ [الفجر : ٦ ـ ١٣]، ﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ . فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴾ [الحاقة : ٩ ، ١٠] .

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل : ١١٢] .

ومن بين الأسباب التى أهلك اللّه بها بنى إسرائيل محاججتهم للأنبياء ومغالبتهم للعلماء حيث قالوا لموسى : ﴿ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [النساء : ١٥٣] ، و﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ [الأعراف: ١٣٨] ، وقصة البقرة تكفى دليلا على عنادهم وجدالهم ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ [البقرة : ٦٧] .

التربوية :

إن طبيعة الأسئلة تختلف باختلاف نفسيات وأفكار وأهداف وثقافة السائلين ، فيكون السؤال :

١ ــ للتعلم والتعرف على أحكام العبادات وفرائض الدين كالوضوء ، والصلاة ، والبيع ، والشراء ، والنكاح ، والطلاق ، ويكون عادة من الجاهل بها أو المتردد فى أحكامها ، وهنا يجب السؤال عملا بقوله تعالى : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء : ٧] .

٢ ــ ويكون للتفقه وزيادة الاطلاع لا فى العبادات أو المعاملات فحسب بل وفى القضاء ، والفتوى ، ورد الخصوم ، وتفنيد المفتريات ، وإبطال الشبهات إحقاقا للحق وإبطالا للباطل ، وإجلاء للشريعة الإسلامية، وهذا فرض كفائى فإذا قام به طلبة العلم سقط عن باقى الأمة، قال تعالى :﴿ فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٢] .

٣ ــ وقد يكون للتنطع والمحاججة والمغالبة بقصد إفحام العلماء ، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ [المائدة : ١٠١] .

ويكون ذلك بالطرق التالية :

أ ــ بافتراض العجز ، وتوقع ما لا يقع غالبا فقد سأل رجلٌ ابن عمر عن استلام

الحجر فقال له : رأيت النبى ﷺ يستلمه ويقبّله ، فقال له الرجل : أرأيت إن غلبت عنه ؟ أرأيت إن زوحمت ؟ فقال له ابن عمر: اجعل أرأيت باليمن ! رأيت رسول اللّه ﷺ يستلمه ويقبّله (١).

ولقد حدثنى أحد الإخوان أنه حضر درسا فقهيا فى باب الطهارة ، فسأل أحد الحاضرين الشيخ سؤالا افتراضيا وكأنى بـه ظـل طـوال الدرس ينسجه ويُحبكه وهو : ما الحكم إذا فقد مريد الطهارة الماء ولم يجده إلا فى جب صغيرة الفوهة لا تتسع إلا لإدخال اليد والحال أن يد الرجل الوحيدة ملطخة بالنجاسة . . . ؟؟

وشبيه بهذا سؤال أحد الحمنى عن الحصاة التى تخرج من المسجد وتظل تستغيث حتى تعاد إلى المسجد ــ حسب زعمه ــ فماذا يفعل لها . . . ؟ فأجابه المسؤول: . . . دعها حتى تنفجر حنجرتها ! فعاد يسأل : أو لها حنجرة !!

ب ــ وقد يكون بالسؤال عما لم يقع ــ لا بقصد العمل ــ كما سأل الصحابة رسول اللّه ﷺ قائلين : إنّا لاقوا العدو غدا وليس معنا مدى أفنذبح بالقصب. . . ؟

ولكن من باب الترف الفكرى ؛ ولذلك كان كثير من الصحابة والتابعين يكرهون السؤال عن الحوادث قبل وقوعها ولا يجيبون عن ذلك ، فعن ابن عمر ــ رضى اللّه عنهما ــ قال : لاتسألوا عمّا لم يكن ، فإنّى سمعت عمر رضى اللّه عنه لعن السائل عما لم يكن، وكان زيد بن ثابت إذا سئل عن شىء يقول: كان هذا ؟ فإن قالوا : لا ، قال : دعوه حتى يكون، وقال مسروق : سألت أبىّ بن كعب عن شىء فقال : أكان بعد ؟ فقلت : لا ، فقال: أجمنا ، يعنى : أرحنا حتى يكون ، فإذا كان، اجتهدنا لك رأينا ، وقال الشعبى : سئل عمار عن مسألة فقال: هل كان هذا بعد ؟ قالوا : لا ، قال: فدعونا حتى يكون فإذا كان تجشمناه لكم .

جـ ــ وقد يكون بالسؤال عن معانى الآيات المتشابهات، وفى هؤلاء قال تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾**[آل عمران : ٧] ، ولذا كره جماعة من السلف السؤال عن معانى الآيات المشتبهة ، سئل مالك ــ رحمه الله ــ تعالى عن قوله سبحانه: **﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾**[طه: ٥]، فقال: الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة ، وأراك

(١)أخرجه الترمذى .

رجل سوء ، أخرجوه عنّى .

الطبيـة :

« ما نهيتكم عنه فاجتنبوه . . . . » .

يركز الأطباء على أن الوقاية خير من العلاج ، ونحن نعتقد جازمين أن كل محّرم نهى عنه المولى ــ عز وجل ــ إلا وفيه أضرار بالغة وأخطار لاحقه . . . تفطن إليها العلم الحديث أم لم يبلغ سرها بعد واكتشفتها المخابر أم عجزت أمامها الأجهزة والمجاهر؛ فاجتنابنا للخمر ، والزنا ، واللواط ، والسحاق ، ولحوم الخنزير ، والميتة ، والدم ، والمخدرات . . . . إلخ من قبيل الوقاية من أخطار. . . السفلس ، والإيدز. . . وجميع الأوبئة الفتاكة التى تسببها تلك المنهيات .

فقـة الدعـوة

١ ــ على الداعية أن يكون حازما فى اجتناب المنهيات وقافا عند حدود الله يغضب إذا انتهكت ، ولا يتغاضى عن المتهاونين فيها أو المتلاعبين بها ، مهما كانت مراكزهم، ومهما علت مراتبهم ، وإن كنا نجد التشديد والنكيرــ من كبار العلماء وأهل الإفتاء ــ على سارق العلانية الصغير، أما سارق السرّ الذى ينهب خيرات الأمة ويستنزف دمها فإن علماءنا إن لم يكونوا من الداعين له بالبقاء والهناء ، فإنهم من المتسترين وراء : اللهم أصْلح الراعى والرعية . وأتذكر بمرارة ما قرأته عن قتل الشهيد السيد قطب ــ رحمة الله عليه ــ حيث تقتضى مراسيم الإعدام أن يتقدم إليه أحد المشايخ ليلقنه الشهادة قبل تنفيذ الحكم ، وجاء العالم الجليل ــ بلا وجل أو خجل ــ ليقول للشيخ الشهيد : قل لا إله إلا الله، محمد رسول الله، فالتفت إليه سيد ونظر إليه نظرة إشفاق ثم قال له : حتى أنت جاؤوا بك لإتمام فصول المسرحية ! لا إله إلا الله . . . إننا نعدم من أجلها ــ رحمه الله رحمة واسعة.

٢ ــ الداعية الناجح الذى يراعى قدرات الناس فلا يعسر عليهم ولا ينفرهم فيفتنهم ــ بتشديده ــ عن دينهم بترك الرخص واعتماد العزائم .

تطبيـق

١ ــ إن اجتناب المحرمات مقدم على إتيان الواجبات فمن يدعى أنه من المصلين الصائمين شأن البعض من المسلمين اليوم ثم إذا خلا انتهك الحرمات وعاث فى الأرض فسادا فليس بمقتفٍ أثر النبى ﷺ فى شىء .

٢ ــ ما أكثر المتفيقهين فى زماننا المتفذلكين الذين يحفظون بعض عوائص المسائل

ليحاججوا بها مراءاة وطلبا للشهرة، وانتصاراً للذات، لا لإجلاء الحقيقة، عن معاوية رضى الله عنه عن النبى ﷺ : أنه نهى عن الأغلوطات[١] ، وفسره الأوزاعى فقال: هى شداد المسائل . وقال الحسن : شرار عباد الله الذين يتبعون شرار المسائل يعمون بها عباد الله . وقال الأوزاعى : إنّ الله إذا أراد أن يحرم عبده بركة العلم ألقى على لسانه المغاليط، فلقد رأيتهم أقل الناس علما . قال إسحاق بن عيسى : كان مالك يقول : المراء والجدال فى العلم يذهب بنور العلم من قلب الرجل ، وقال وهب : سمعت مالكا يقول : المراء فى العلم يقسى القلب ويؤثر الضغن .

٣ ــ ما أشنع الخلاف المرير بين من ينتسبون للإسلام حتى أضحى الخلاف فى الرأى اختلافا ، وأصبح الاختلاف للتعددّ لا للتنوع وصدق فينا قول نبينا فيمن سبقنا : « فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة . . . . » .

---

(١) رواه الإمام أحمد .

الحديث العاشر

عن أبى هريرة ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال : قال رسول الله صلى اللّه عليه وآله وسلم : « **إن الله تعالى طيّب لا يقبل إلا طيبا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾** [المؤمنون: ٥١] ، **وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾** [البقرة : ١٧٢] **ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبْر يمدّ يديه إلى السماء : يارِبّ يارِبّ ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب له** ». رواه مسلم .

ترجمة الراوى :

سبق التعريف به مقتضبا ، ولا بأس أن نورد هنا بعضا من مناقبه ، كان اسمه رضى الله عنه فى الجاهلية عبد شمس أوعبد عمرو، وبلغ ما رواه من الحديث خمسة آلاف وثلاثمائة وأربعة وستون حديثا، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: يقولون : إن أبا هريرة قد أكثر والله الموعد[١] ، ويقولون: ما بال المهاجرين والأنصار لا يتحدثون مثل أحاديثه وسأخبركم عن ذلك: إن إخوانى من الأنصار كان يشغلهم عمل أراضيهم، وإن إخوانى من المهاجرين كان يشغلهم الصَّفْقُ بالأسواق،وكنت ألزم رسول الله ﷺ على ملء بطنى فأشهد إذا غابوا، وأحفظ إذا نسوا، ولقد قال رسول الله ﷺ يوما: «أيكم يبسط ثوبه فيأخذ من حديثى هذا ثم يجمعه إلى صدره فإنه لم ينس شيئا سمعه»، فبسطت بردة علىّ حتى فرغ من حديثه ثم جمعها إلى صدرى فما نسيت بعد ذلك اليوم

إن الله تعالى طيب : أى طاهر منزه عن كل النقائص متصف بكل كمال .

لا يقبل إلا طيبا : لا يقبل من أعمال العباد إلا ما كان طيبا ، وتكون أعمال العباد طيبة إذا توفر فيها هذا الشرطان: أن تكون صحيحة مشروعة ، وأن تكون خالية من الرياء .

بما أمر به المرسلين : أى انه أمر كل رسول بهذا فى زمانه .

يطيل السفر : أى يخرج الرجل مسافرا فى طاعة الله سفرا طويلا .

أشعث : أى مغبّر الرأس .

أغبر أى البدن والثوب .

وغذى : أى شبع .

فأنى يستجاب له : أى استبعاد الإجابة للدعاء .

(١) قد أكثر : أى من رواية الحديث ، والله الموعد : أى سيسألنى إن كنت كاذبا .

شيئا حدثنى به، ولولا آيتان أنزلهما الله فى كتابه ما حدّثت شيئا أبدا ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ ﴾ إلى آخر الآيتين [البقرة : ١٥٩ ، ١٦٠] [١] .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

العقائدية :

« إن اللّه تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا » .

أ ـ فاللّه سبحانه منزّه عن كل النقائص ، تعالى ربنا علوا كبيرا ، عن العدم ، والحدوث ، والفناء ، والافتقار ، والمماثلة للحوادث والشريك ، والعجز ، والكراهة ، والجهل ، والممات ، والصمم ، والبكم ، والعمى إذ يستحيل على اللّه ذلك ، ويجب له كل صفات الكمال .

ب ـ ولايقبل إلا عملا صالحا قال تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [فاطر : ١٠] والعمل الصالح هو ما توفر فيه هذان العنصران :

أولا : أن يكون موافقا للشريعة الإسلامية ولا يتعارض مع أصل من أصولها .

ثانيا : وأن يكون خالصا لوجه اللّه تعالى فلا يخامر قلب صاحبه رياء وسمعة.

وبذلك يشرك فيه غير وجه اللّه ـ عز وجل ـ ومن هنا فلا يبقى العمل عملا طيبا.

علم السلوك :

الآية الواردة فى الحديث، وهى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ [البقرة: ١٧٢] ورد فى تفسيرها أن ﴿ مِن ﴾ فيها ابتدائية وتفيد التبعيض أيضا:

أ ـ فعلى من يريد الصفاء النفسى والسمو الروحى أن يبتدئ بأكل الحلال أساسا منذ نعومة أظافره حتى تنمو أعضاؤه بالحلال ويتغذى جسمه بالحلال، فلا يتحجر قلبه ولا تجف جفونه، بل تزكو نفسه فتنبعث أعضاؤه لفعل الخير ، وورد فى الأثر: أن موسى ـ عليه السلام ـ مرّ برجل قائم يدعو ويتضرع طويلا وهوينظر إليه فقال موسى: يا رب أما استجبت لعبدك ؟ ! فأوحى الله تعالى إليه : يا موسى إنه لو بكى حتى تلفت نفسه ورفع يديه حتى بلغ عنان السماء ما استجبت له قال يا رب لم ذلك ؟ قال: لأن فى بطنه الحرام، وعلى ظهره ، وفى بيته الحرام .

ب ـ إن الذى حَظِى بمنزلة المراقبة السامقة ليعزف عن ملذات الحياة الدنيا، وعن

---
(١) رواه مسلم والبخارى والترمذى .

كثير من طيباتها فضلا عن محرماتها ، وهذا سعيا لإخلاء البطن لأنه كما قيل : البطنة تذهب الفطنة ، وعملا بقول النبى ﷺ : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع »

الفقهية :

« إن اللّه تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا »

أ ــ فلا يتقرب المؤمن لربه بعمل خبيث أو بمال حرام من سرقة أو ربا ، بل ويكره التصدق بالردىء من الطعام ، وبما فيه شبهة لقول الله تعالى :﴿ **وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ** ﴾ [البقرة: ٢٦٧] فضلا عن الحرام البيّن فالتصدق منه غير مقبول. عن ابن عمر ــ رضى الله عنهما ــ عن النبى ﷺ :« لا يقبل الله صلاة بغير طهور ، ولا صدقة من غلول »[١] ، وفى مسند الإمام أحمد رحمه الله عن ابن مسعود رضى الله عنه، عن النّبى ﷺ قال : « لا يكتسب عبد مالا من حرام فينفق منه فيبارك فيه ولا يتصدق به فيتقبل منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار ، إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ ، ولكن يمحو السيئ بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث». وسئل ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ عمن كان على عمل فكان يظلم ويأخذ الحرام ثم تاب فهويحجّ ويعتق ويتصدّق منه فقال: إن الخبيث لا يكفر الخبيث .

ولكن هل للغاصب والمرابى وغيرهما ممن اكتسب حراما من توبة ؟ وهل توبته الخروج من جميع ماله أم بقدر الحرام الذى أخذه ؟

ذلك مناط بحث وخلاف بين الفقهاء ، وفى تفسير القرطبى ما يغنى عن كثير من الكتب ، وذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ** ﴾ [البقرة: ٢٧٩]: (ذهب بعض الغلاة من أرباب الورع إلى أن المال الحلال إذا خالطه حرام حتّى لم يتميّز ، ثم أخرج منه مقدار الحرام المختلط به لم يحل ولم يطب ؛ لأنه يمكن أن يكون الذى أخرج هو الحلال والذى بقى هو الحرام، قال ابن العربى : وهذا غلوّ فى الدين ؛ فإن كل ما لم يتميّز فالمقصود منه ماليته لا عينه ، ولو تلف لقام المثل مقامه والاختلاط إتلاف لتمييزه ؛ كما أن الإهلاك إتلاف لعينه ، والمثل قائم مقام الذاهب وهذا بين حسا بين معنى ، والله أعلم .

قلت ــ والقول للقرطبى دائما ــ : قال علماؤنا : إن سبيل التوبة ممّا بيده من الأموال الحرام إن كانت من ربا فليردّها على من أربى عليه ، ويطلبه إن لم يكن

(١) صحيح مسلم .

حاضرا، فإن أيس من وجوده فليتصدقْ بذلك عنه ، وإن أخذه بظلم فليفعل كذلك فى أمر من ظلمه ، فإن التبس عليه الأمر ولم يدْركَمْ الحرام من الحلال ممّا بيده ، فإنه يتحرى قدر ما بيده مما يجب عليه ردّه ، حتى لا يشك أنّ ما يبقى قد خلص له فيردّه من ذلك الذى أزال عن يده إلى من عرف ممن ظلمه أو أربى عليه ، فإن أيس من وجوده تصدق به عنه فإن أحاطت المظالم بذمته، وعلم أنه وجب عليه من ذلك ما لا يطيق أداءه أبدا لكثرته، فتوبته : أن يزيل ما بيده أجمع ، إما إلى المساكين ؛ وإما إلى ما فيه صلاح المسلمين ، حتى لا يبقى فى يده إلا أقل ما يجزئه فى الصلاة من اللباس وهو ما يستر العورة ، وهو من سرته إلى ركبتيه ، وقوت يومه؛ لأنه الذى يجب له أن يأخذه من مال غيره إذا اضطرّ إليه ؛ وإن كره ذلك من يأخذه منه) (١) .

ب ــ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، ومن بين أسفار العبادات الطويلة السفر إلى الحج ، فهل يصح الحج بالمال الحرام ؟ لقد اختلف العلماء فيمن حج بالمال الحرام ومثله من صلى بالثوب المغصوب هل يسقط عليه الفرض أم لا ؟

عند أكثر العلماء يجزئ الحج ويأثم صاحبه ، وفيه يقول الشيخ خليل : وصحّ بالحرام وعصى .

وفى تعليق الدسوقى على تلك العبارة أورد هذه الآراء : قال الحطاب : الحج الحرام لا ثواب فيه وإنه غير مقبول . واعترضه الشيخ أبو على المسناوى بأن مذهب أهل السنة : أن السيئة لا تحبط ثواب الحسنة بل يثاب على حجه ويأثم من جهة المعصية . ا . هـ .

وقال ابن العربى : من قاتل على فرس غصبه فله الشهادة وعليه المعصية ، أى : له أجر شهادته وعليه إثم معصيته .

وإذا علمت هـذا ، فقول المصنف : وعصى معناه أنه لا يثاب عليه كثواب فعله بحلال فلا ينافى أنـه يثاب عليه وليس المراد نفى الثواب عنه بالمرة كما هـوظاهره وظاهر قول الحطاب (٢) .

جـ ــ قوله ﷺ : « يمدّ يديه إلى السماء » إشارة إلى هيئة الدعاء المحمودة التى تتضمن: تحرّى الحلال ، وألا يدعو الداعى بحرام ، وأن يكون طاهرا مستحضرا قلبه، موقنا بالإجابة، ويستفتح دعاءه بحمد الله والثناء عليه، وبالصلاة والسلام على النبى ﷺ .

(١) تفسير القرطبى ٣ / ٢٣٧ .
(٢) حاشية الدسوقى ٢ / ١٠ .

الاجتماعية :

« إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا » .

فعلى المسلم الصادق أن يكون طيبا فى عمله، وطيبا فى تعامله مع إخوانه، فلا ينطق إلا طيبا ؛ لأنه يدرك أثر الكلمة وأبعادها. قال تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ . تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ** ﴾ [إبراهيم : ٢٤ ــ ٢٦] ، ولا يخالل أو يجالس إلا طيبا ؛ لقوله ﷺ : « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل » ، وقديما قالوا : إن الطيور على أشكالها تقع ، وصدق شاعرنا العربى إذ يقول :

لا تسل عن المرء وسل عن قرينه   فكل قرين بالمقارن يقتدى

وعلى المؤمن الطيب ألا يختار خضراء الدمن فى زواجه أو الجميلة الغنية التى لاخلاق لها، لأن بحسب اختياره تظهرحقيقته ويحدد مصير عياله، قال تعالى: ﴿**الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** ﴾ [النور: ٢٦] ، ويقول سبحانه: ﴿ **وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً** ﴾ [الأعراف: ٥٨] .

السياسية :

أ ــ « وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين » . هذا مع الأنبياء والمرسلين ، فما بالك مع الزعماء والأمراء ؟ ! إن الحاكم والمحكوم فى الإسلام أمام الواجبات والمنهيات سواء، فلا تؤمر الرعية بما لم يؤمر به الراعى ، ولا يتميز الأمير عن المأمور كما يتطاول البعض الآن ، ويتخذون من رقاب الرعية عبيدا ومن أموالهم غنائم ؛ لأنهم هم المشرعون والمقننون شعارهم دوما عليكم لا علينا ، وهذا لنا ليس لكم ، لنا الحقوق وعليكم الواجبات ، ومن ثم لا يشعر الحاكم بما يعانى به شعبه، لأنه لا يتنزل من أبراجه ولا يتقاسم معه همومه ولا يشاطره أحاسيسه ، قيل : إن امرأة الملك الفرنسى لويس الثانى أطلت على المتظاهرين من قصر فرساى ، وسألت عن الدافع إلى خروجهم، فقيل لها : الجوع، فقالت : أطعموهم البسكويت !

ب ــ ولو أخذ السلطان أو بعض نوابه من بيت المال ما لا يستحقه فتصدق منه أو

أعتق أو بنى به مسجدا أو غيره مما ينتفع به الناس ، فالمنقول عن ابن عمر أنه كالغاصب إذا تصدق بماغصبه ، كذلك قيل لعبد الله بن عامر أمير البصرة وكان الناس قد اجتمعوا عنده فى حال موته وهم يثنون عليه ببرّه وإحسانه وابن عمر ساكت ، فطلب منه أن يتكلم ، فروى له حديث : « لا يقبل الله صدقة من غلول » ثم قال له : وكنت على البصرة ، وقد ورد أيضا : أن ابن عمر قال لابن عامر وقد سأله عن العتق فقال : مثلك مثل رجل سرق إبل حاج ثم جاهد بها فى سبيل الله فانظر هل يقبل منه ؟ وقد كان طائفة من أهل التشديد فى الورع كطاوس ووهيب بن الورد يتوقّون الانتفاع بما أحدثه مثل هؤلاء الملوك ، وأما الإمام أحمد ــ رحمه الله ــ فإنه رخص فيما فعلوه من المنافع العامة كالمساجد والقناطر والمصانع ، فإن هذه ينفق عليها من مال الفىء ، اللهم إلا أن يتيقّن أنهم فعلوا أشياء من ذلك بمال حرام كالمكوس والغصوب ونحوهما ، فحينئذ يتوقى الانتفاع بما عمل بالمال الحرام ، ولعل ابن عمر ــ رضى الله عنهما ــ إنما أنكر عليهم أخذهم لأموال بيت المال لأنفسهم ، ودعواهم أن ما فعلوه منها بعد ذلك فهو صدقة منهم ، فإن هذا شبيه بالغصوب ، وعلى مثل هذا يحمل إنكار من أنكر من العلماء على الملوك بنيان المساجد (١) .

الاقتصادية :

﴿ **كُلُوا من طَيِّبَات مَا رَزَقْنَاكُم** ﴾ [البقرة : ١٧٢] .

أى من بعض الطيبات بحيث لا يكون ثمة إسراف وتبذير أو شح وتقتير فى استعمال الطيبات كما نشاهده على موائد رمضان فى أهل هذا الزمان خاصة أو على موائد علية القوم وكبرائهم بحيث تصرف على زركشتها الملايين ويقيّض لها أمهر الطهاة . . . . ثم تذهب هدرا وعبثا ، وعلى جنبات الأمير المدلّل شعب مذلل يتضور جوعا ، فالأمة المسلمة اليوم بين أمير منوع وشعب جزوع ، ولا يجرؤ أحد من علماء السلطة وفقهاء الشرطة على التذكير بقول العليم الخبير : ﴿**وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا**﴾ [الأعراف: ٣١]، ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا** ﴾ [الفرقان : ٦٧] ، ﴿ **إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِين** ﴾ [الإسراء : ٢٧] ، وعزاؤهم دوما قول ربنا : ﴿ **كُلُوا من طَيِّبَات مَا رَزَقْنَاكُم** ﴾ . إن مصائبنا الاقتصادية الخطيرة هى من تخطيط أعدائنا وتنفيذ كبرائنا لتكون هذه الأمة رهينة لقمة عيشها .

---

(١) جامع العلوم والحكم ص ٩٤ بتصرف .

الطبية :

﴿ **كُلُوا منَ الطَّيِّبَات** ﴾ [المؤمنون : ٥١] .

أ ــ العبرة فى الأكل ليست فى الكثرة كما هو سائد عند البعض ، بل بالنوعية ، فالغذاء المتكامل ــ فيتامينات وبروتينات ــ كفيل بأن يمد للجسم قوته وحيويته . ولقد جرّت الكثرة من الأكل بنهم عللا كثيرة وأدواء خطيرة :

أولها : داء السمنة التى هى مشكلة العصر ، حيث إن المواد النشوية والدهنية التى لا تتحوّل إلى سعرات حرارية تختزن وتتحوّل إلى عشرات الكيلوغرامات من الشحوم فتقعد صاحبها عن العمل ، وتعوقه عن الحركة ، وتجهد قلبه ــ والعياذ بالله ــ ولقد أعلنت جل التجارب الطبية والرياضية عن فشلها لحل هذه المعضلة وأضحى هاجسها يقلق الكثير من الفتيات ، ولكن لو استطبب هؤلاء بقوله تعالى : ﴿**كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُم** ﴾[البقرة : ١٧٢] ، وبالأحاديث النبوية الواردة فى هذا الشأن لكفاهم ذلك شر ما هم فيه أو ما يحذرون ! عن المقدام بن معد يكرب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما ملأ آدمى وعاء شرا من بطنه ، بحسب ابن آدم أكَيْلات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه، وثلث لنفسَه »(١) ، وعن أبى جحيفة رضى الله عنه قال : أكلت ثريدة من خبز ولحم، ثم أتيت النبى ﷺ فجعلت أتجشأ ، فقال : « يا هَذا كفّ عنا من جشائك ، فإن أكثر الناس شِبعًا فى الدنيا أكثرهم جوعا يوم القيامة » (٢) ، وروى عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ قالت : أوّل بلاء حدث فى هذه الأمّة بعد نبيّها الشبع ، فإن القوم لما شبعت بطونهم سمنت أبدانهم فضعفت قلوبهم وجمحت شهواتهم (٣) .

ب ــ « وغذى بالحرام » :

المحرم قسمان : محرم لذاته ، ومحرم لعارض ، وهو ما يؤخذ بوجه غير صحيح كالسرقة ، والغصب ، والرشوة .... وهلم جرّا . أو بتعبير آخر هو ما يؤدى إلى محرم ذاتى . ونعود إلى المحرم الذاتى فنقول: هو ما قصد الشارع إلى تحريمه لما فيه من ضرر ذاتى كأكل الميتة، وشرب الخمر ، وغير ذلك مما يمس الضروريات الخمس وهى : حفظ الجسم، والنسل ، والمال ، العقل ، الدين . والغالب فى الحرام ــ بل المؤكد ــ المتغذى به أن يكون سمّا مضرا وميكروبا خطيرا يؤدى إلى خلل فى الجسم ، أو عطب

(١) رواه الترمذى وحسنه .

(٢) رواه الحاكم ، وقال : « صحيح الإسناد » .

(٣) رواه البخارى فى كتاب الضعفاء ، وابن أبى الدنيا فى كتاب الجوع .

فى أحد الأجهزة بسبب تلك الأمراض الفتاكة التى أعيت الأطباء وحيرت العقلاء ، لا أرى أن هذا مجال بحث بعض منها .

فقه الدعوة

١ ـ الداعى الصادق لا يأمر بالأمر إلا إذا ترجمه بلغة الفعل ، لأنها فى الحقيقة وإن كانت اللغة القولية أبلغ فى التعبير فإن الفعلية أبلغ فى التأثير ! ولذا كان جعفر الصادق ـ رضوان الله عليه ـ يقول دائما : كونوا دعاة لنا صامتّين . وها هو المجدّد الخليفة الخامس ابن عبد العزيز لا يدعو الناس إلى الشىء حتى يأتى أهله ويحثهم على تجسيده قبل أى أحد من باقى الرعية ولقد استنكر الحق سبحانه على الدعاة غير العاملين حيث قال : ﴿ **أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُون** ﴾ ؟ ! [البقرة : ٤٤]، وها هم الرسل الأصفياء عليهم السلام يؤمرون بما نؤمر ، بل ويختصون بواجبات أخرى .

٢ ـ وعلى الداعية أن يحسن عرض دعوته ، فيعرف مَاذا يقدّم وماذا يؤخّر ، وأن يستمدّ أفكاره ومبادئه من القرآن الكريم دائما ، وأن يدلّل على صدق حديثه بالآيات الكريمة ، وليكون له ذلك عليه أن يكونْ حافظا للقرآن الكريم ، أو على أقل تقدير أن يحفظ الآيات الواردة فى كل موضوع يطرقه حفظا جيّدا . وكثيرا ما يزدرى العامة الخطيب المفوه إذا كان يخلط بين الآيات القرآنية أو لا يحسن قراءتها . . . . ومن ثم قد يتعرض للنقد أو للاعتراض، ولقد حدث هذا مرة . . . حيث تلا المدرس آية لا يحفظها، فقام إليه من بين المصلّين من يصحح له خطأه ويشنع عليه ذلك ، فارتج على الرجل ولم يجد بدا إلا أن يقول معترفا : إننى لا أحفظ سوى جزءاً ، وهنا سقط فى أعين الحاضرين . . . وحتى قال قائلهم : ما دام لا يحفظ كتاب الله ، فهل يدرسنا طوال هذا العهد من كتابه . . !

تطبيق

١ ـ « إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا » .

وما يتعاطاه بعض الجهال والضالين من البدع والخرافات التى ما أنزل الله بها من سلطان لا يسمّى طيبا ، وليس من العمل الطيب فى شىء أى قول أو فعل يخالف السنة النبوية الشريفة .

٢ ـ إن الأنبياء والمرسلين على كبر قدرهم وعلو شأنهم عند الله، ومع ذلك أمروا بما أمر به أتباعهم ، فكان رسول الله ﷺ يصلى الخمس كما نصلى ويصوم الشهر

كما نصوم فهل فضل شيوخ الطرقية بدرجة اليقين المزعومة حتى على المصطفين الأخيار والمرسلين الأطهار عليهم جميعًا أفضل الصلاة وأزكى السلام ؟ !

فهلا استحييتم أيها الدجالون . . . !

٣ ــ ابتلينا فى عصرنا هذا بتفشى الربا وتعدد مسالكه ، فهذه الفوائد الربوية التى تدفعها البنوك فى البلدان العربية والإسلامية ، والتى لا يتحرّج الكثير من المسلمين فى أخذها . وربما تفلسف البعض فصرفها فى المساجد والمدارس وبناء المشاريع الخيرية المختلفة، ولكننا نقول لهم : إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا ، وجانب آخر من الجوانب الربوية، والذى هو القروض التى تعطى للفلاحين والصنّاع والحرفيّين على أن ترد بأضعاف مضاعفة، فهذه هى الأخرى أموال خبيثة لا تطيبها الحجات المتكررة ولا الركعات المتوالية .

الحديث الحادى عشر

عن أبى محمد الحسن بن على بن أبى طالب سبط رسول الله ﷺ وريحانته ــ رضى الله عنهما ــ قال : حفظت من رسول الله ﷺ : « **دع مَا يريبك إلى ما لا يرَيبُك**»رواه الترمذى والنسائى ، وقال الترمذى : حديث حسن صحيح.

سند الحديث :

هذا الحديث خرجه الإمام أحمد والترمذى والنسائى وابن حبان فى صحيحه والحاكم من حديث يزيد بن أبى مريم عن أبى الجوزاء عن الحسن بن على وصحّحه الترمذى ، وأبو الجوزاء السعدى ، قال الأكثرون : اسمه ربيعة بن شيبان ، ووثقه النسائى وابن حبّان ، وتوقّف أحمد فى أن أبا الجوزاء اسمه ربيعة بن شيبان، ومال إلى التفرقة بينهما،وقال الجوزجانى:أبـو الجوزاء مجهول لا يعرف ، وهذا الحديث قطعة من حديث طويل ذكر فيه قنوت الوتر ، وعند الترمذى وغيره زيادة فى هذا الحديث وهى : « فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة »، ولفظ ابن حبّان : « فإن الخير طمأنينة وإن الشرّ ريبة » . وقد خرجه الإمام أحمد بإسناد فيه جهالة عن أنس عن النبى ﷺ قال: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » ، وخرجه من وجه آخر أجود منه موقوفا على أنس ، وخرجه الطبرانى من رواية مالك عن نافع عن ابن عمر مرفوعا ، قال الدارقطنى: وإنما يروى هذا من قول ابن عمر وعن عمر ، ويروى عن مالك من قوله . ا.هـ .

ترجمة الراوى :

هو الحسن ابن الإمام على ــ رضى الله عنهما ــ المكنىّ بأبى محمد ولد فى

سبط : ولد الولد ، وتعنى أيضا الجماعة ، بمعنى أن الحسن رضى الله عنه فى أخلاقه وإيمانه وصلاحه كالجماعة؛ لقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ﴾.

وريحانته لشدة محبته ﷺ له فقد كان يشمه كما يشم الريحان ذا الرائحة الطيبة ، فعن أنس رضى الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ : أى أهل بيتك أحبّ إليك ؟ قال : « الحسن والحسين ». وكان يقول لفاطمة: « ادعى ابنىّ » فيشمهما ويضمهما إليه .

حفظت : أى هذا من بين ما حفظته من أقوال الرسول ﷺ ولا زلت واعيًا له .

دع : اترك واجتنب .

مايريبك : يقال :رابه الأمر يريبه ، إذا أوقعه فى الشك . فهو من الثلاثى بفتح الياء فى المضارع ، أفصح من ضمّها من أرَاب الرباعى .

رمضان سنة ثلاث من الهجرة ومات بالمدينة مسمُومًا سنة خمسين عن عمرٍ يناهز سبعًا وأربعين سنة .

ومن مناقبه ما روى عن أبى بكرة رضى الله عنه قال : سمعت النبىّ ﷺ على المنبر والحسن إلى جنبه ينظر إلى الناس مرة وإليه مرة ، ويقول : « ابنى هذا سيّد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين » (١) ، وعن البراء رضى الله عنه قال : رأيت النبى ﷺ والحسن على عاتقه يقول : « اللهم إنّى أحبّه فأحبّه » (٢) ، وعن عقبة بن الحارث رضى الله عنه قال : رأيت أبا بكر رضى الله عنه وهو يحمل الحسن ويقول : بأبى شبيه بالنبىّ ليس شبيها بعلىّ ، وعلى يضحك (٣) .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

الاجتماعية :

أ ــ من خلال الأحاديث السابقة فى ترجمة الراوى ، بل وانطلاقا مما ورد فى الرواية ــ سبط رسول الله ﷺ وريحانته ــ بالتحديد يتبين لنا مقام الحسن رضى الله عنه عند جده ﷺ ، وهو بهذا يبطل قاعدة جاهلية وينسخ عرفا باطلا حيث كان العرب الأوائل فوق احتقارهم للبنت وإهانتهم لها ، يتجاهلون فلذات أكبادها ولا يقربونهم ، وقد قال قائلهم:

أبناؤنا بنونا وبنو أبنائنا ... وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأباعد

ب ــ كما أن هذا الحديث يعد قاعدة أساسية فى المعاملات الاجتماعية بل والاقتصادية أيضا ؛ فمن ارتاب فى شخص أراد مصاهرته أو مداينته، فالأسلم له أن يترك ما يريبه من معاملته إلى ما لا يريبه وهكذا .

السياسية :

على الحاكم المسلم أن يتفطّن إلى استدراجات الأعداء لإيقاعه فى بعض الأحكام أو القرارات أو التصرفات والمواقف التى تثير عليه شكوك الرعية، وعليه أن يكون واضحا فى كل أعماله مع من يحكُم حتى لا يتّخذ المناوئون من بعض الإشكالات حجة عليه ثم على الإسلام من بعده؛ فهذا سيّد شباب الجنة،الحسن بن على رضى الله عنه يتنازَل عن الخلافة رغم قربه من النّبى ﷺ وجدارته بها لمعاوية رضى الله عنه،ومع أنه بويع من قبل أربعين ألفا من المسلمين، ومع هذا كله تنازل عنها لمعاوية كما قلت: حقنا

(١) رواه البخارى والترمذى ولفظه : « إن ابنى هذا سيد يصلح الله على يديه فئتين عظيمتين ».

(٢) رواه الشيخان والترمذى . (٣) رواه البخارى .

لدماء المسلمين وجمعا للكلمة ودفعا للفتنة، ولو لم يفعل ذلك الورع ما فعل لوقع ما لا تحمد عقباه ولقيل عنه يوم ذاك: إن هو إلا رجل محبّ للحكم مهما كانت النتائج.

فقه الدعوة

١ ـ إن العبرة ليست بكمية الحفظ ولو كانت آلاف الأحاديث المؤلفة وعشرات السور القرآنية ، ولكنها بمدى التطبيق وترجمتها إلى لغة العمل فى الحياة اليومية . وربما انطبق المثل القرآنى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة : ٥] على بعض الدكاترة المعاصرين .

٢ ـ إن دعوتنا ـ أيها الإخوة ـ ليست لاعتلاء عرش أو امتلاك مقعد ؛ لأننا بعنا أنفسنا وما ملكنا لله ـ عز وجلّ ـ ولسنا طلاب جاه ولا عبّاد مال ، ولسنا ندعو أكثر من تجديد فهم الدين الحنيف وتحكيم سلطانه القويم على جميع مجالات حياتنا الاقتصادية ، والتربوية، والسياسية ، والثقافية والاجتماعية . ولسنا نبالى أن يكون هذا الزعيم أو ذاك هو نفسه الحاكم ، المهم أن يعلن توبته فيحتكم إلى المنهج الربّانى ويعلن توبته أيضا من الولاء للأعداء ونلمس حقيقة صدقه وإخلاصه ، وليكن فى موقف الإمام الحسن رضى الله عنه إبان الخلافات السياسية خير مثال نتأسّى به فى دعوتنا ، ووالله ما جرّ الويلات الجسام من شنق وتشريد وقتل وتعذيب وتمثيل بشباب الدعوة الإسلامية المعاصرة ، إلا تطلع بعض الأكابر الشخصى وشبقهم المادى .

نحن لا نشكك فى قيادات الحركة الإسلامية ـ حاشا للّه ـ فهذا معول طالما عوّل عليه الأعداء ، ولكن لا يعنى أبدًا أنه على جماهير الأمة أن تنقاد بطواعية عمياء دون التأكد من النوايا والتعرف على الطوايا من خلال الالتزامات والتصرفات ، أو حتى بعض التلميحات بله عن التصريحات . . وهذا جانب من حوار أجرته مجلة الوطن العربى فى عددها ١٤١ الصادر بتاريخ ٢٤/١١/١٩٨٩م مع أحد أبرز الفائزين من الحركة الإسلامية فى معركة الانتخابات فى معركة بالأردن كفيل ببيان صحة ما أقول حيث سئل الرجل : قيل لى : إنه ربما يكون هناك بداية أزمة دستورية إذ أن الإسلاميين قد يرفضون أداء القسم النيابى الذى نص عليه القانون ، لأنهم يعتبرون أن الولاء هو للّه وحده.

فأجاب ـ وبنبرة هادئة ـ : يا أخى الكريم ، الحركة الإسلامية اجتمعت وقررت بإجماع النواب أن تقسم اليمين الدستورى كما ورد ـ وبنبرة شديدة ـ هذه إشاعات مغرضة ومسمومة مثلها مثل الشائعات التى تقول : إننا سنقفل الخمارات وإننا سنلبس النساء الطرحات ، وإننا سنلبس الناس النظارات . . . هل نحن جئنا من غابة ؟ نحن أناس حضاريّون ونقدّر مسؤوليتنا تجاه بلدنا وحكمنا ونظامنا ! ما هذه الحملة المسعورة ؟

وأنت لست الوحيد من طرح علىّ هذا السؤال ، سبقك هذا الصباح أربعة أو خمسة أشخاص بالنغمة نفسها . كيف لا نؤدى القسم الدستورى ونحن ترشحنا فى ظل أوضاع دستورية ونيابية نفهمها ؟ لا أساس بتاتا لهذه الشائعة وسنؤدى القسم كما ورد نحن جميعا نواب الحركة الإسلامية . هذه تعليقات خطيرة جدا تحتسب على الرجل وجماعته إن التزمت الصحيفة المذكورة بالصدق والأمانة ، والعهدة عليها .

لقد استغل البعض ممن لا علم لهم ولا فهم صدق هذا الراعى الصاحى وحرارة عاطفته الإيمانية فى جهات من أوطاننا الإسلامية ، فهؤلاء قادة الجناح (كذا) ينعمون بالفرش والأرائك والسيارات والدولارات البترولية . وهذه الآلاف من الأزهار اليانعة تحصد عن بكرة أبيها ، وقد طاف عليها طائف من الطائفية الحاقدة ، فإلى متى ونحن نلدغ من هذا الجحر !! إنا لله وإنا إليه راجعون .

٣ ـ الداعى حينما يختار رأيا فقهيا ما يخالف رأى المذهب المتبع دون أن يشرح وجهة الخلاف يعرض نفسه للريبة ، كأن يصلى تحية المسجد حال خطبة الجمعة مع مالكيين مثلا . . . ومن ثم يفقد مكانته وقدره عند العامة .

تطبيق

١ ـ إننا نرى فى أيامنا من لا يتورّع عن الاختلاء بالأجنبية ولا يتحرج أن يجلس معها فى مكتب واحد أو فى أى مكان آخر بحجة الاستفتاء مثلا ، أو التعلّم والتفقه ، فذلك مدعاة إلى إثارة الشكوك والظنون .

٢ ـ يشيع فى أوساط الطلاب المسلمين بالجامعات الغربية قول المتقولين على الله بحلية أكل اللحوم المقدّمة باعتبار عدم الاستفسار ، وهذا فى اعتقادى ليس من الفقه فى شيء؛ لأن الطريقة المتبعة اليوم فى الذبح لا توافق أحكام الزكاة فى الشريعة الإسلامية، وليست هى من ذبائح أهل الكتاب .

الحديث الثانى عشر

عن أبى هريرة ــ رضى الله تعالى عنه ــ قال : قال رسول الله صلى اللّه عليه وآله وسلم: « **من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه** » . حديث حسن ، رواه الترمذى وغيره هكذا .

سند الحديث :

هذا الحديث خرجه الترمذى وابن ماجه من رواية الأوزاعى عن قرة بن عبد الرحمن عن الزهرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة ــ رضى الله عنهم ــ وقال الترمذى: غريب، وقد حسّنه الشيخ المصنّف ــ رحمه الله؛ لأن رجال إسناده ثقات، وقرة بن عبد الرحمن ابن حيوة وثقه قوم وضعّفه آخرون . وقال ابن عبد البر : هذا الحديث محفوظ عن الزهرى بهذا الإسناد من رواية الثقات ، وهذا موافق لتحسين الشيخ له رضى الله عنه ، وأما أكثر الأئمة فقالوا : ليس هو محفوظا بهذا الإسناد إنما هو محفوظ عن الزهرى عن علىّ بن حسين عن النبى ﷺ مرسلا ، كذلك رواه الثّقات عن الزهرى منهم مالك فى (الموطأ)، ويونس ومعمر وإبراهيم بن سعد إلا أنه قال: « من إيمان المرء تركه ما لا يعنيه » ، وممن قال : إنه لا يصح إلا عن علىّ بن حسين مرسلا الإمام أحمد ويحيى ابن معين والبخارى والدّارقطنى، وقد خلط الضعف فى إسناده على الزهرى تخليطا فاحشا ، والصحيح فيه المرسل ، ورواه عبد الله بن عمرو العمرى عن الزهرى عن علىّ بن حسين عن أبيه عن النبى ﷺ فوصله وجعله من مسند الحسين بن علىّ ، وخرّجه الإمام أحمد فى مسنده من هذا الوجه، والعمرى ليس بالحافظ. وخرجه أيضا، من وجه آخر عن الحسين عن النبىّ ﷺ ، وضعفه البخارى فى (تاريخه) من هذا الوجه أيضا وقال: لا يصحّ إلا عن علىّ بن حسين مرسلا، وقد روى عن النبىّ ﷺ من وجوه أخر وكلها ضعيفة .

ترجمة الراوى :

هو سيّدنا عبد الرحمن بن صخر رضى الله عنه موسوعة السنة النبوية الشريفة ،

من : للتبعيض لأن ترك ما لا يعنى ليس كل خصال الإسلام الحسن بل هو بعضها فقط .

من حسن : ولم يقل :من إسلام المرء ؛ لأن ترك ما لا يعنى لا يتوقف عليه أصل الإسلام بل هو من حسنه .

إسلام : ولم يقل: إيمان ؛ لأن الإسلام أعمال ظاهرية والإيمان عمل القلب .

قال: كنت أدعو أمى إلى الإسلام وهى مشركة، فدعوتها يوما فأسمعتنى فى رسول الله ﷺ ما أكره ، فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكى، قلت: يا رسول اللّه ، كنت أدعو أمّى إلى الإسلام فتأبى علىّ، فدعوتها اليوم فأسمعتنى فيك ما أكره فادع الله أن يهديها، فقال: «اللهمّ اهد أم أبى هريرة» فخرجت مستبشرا بدعوة نبىّ الله ﷺ، فلما جئت الباب فسمعت أمى خشف قدمى فقالت: مكانك يا أبا هريرة وسمعت خضخضة الماء قال: فاغتسلت ولبست درعها وعجلت عن خمارها ففتحت الباب ثم قالت: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، فرجعت إلى النبى ﷺ وأنا أبكى من الفرح، قلت: يا رسول الله أبشْر قد استجاب الله دعوتك وهدى أم أبى هريرة، فحمد الله وأثنى عليه وقال خيرا ، قلت : يا رسول الله ، ادع الله أن يحببنى أنا وأمى إلى عباده المؤمنين ويحبّبهم إلينا ، قال : « اللهم حبب عبيدك هذا وأمه إلى عبادك المؤمنين وحبّب إليهم المؤمنين » ، فما خلق مؤمن يسمع بى ولا يرانى إلا أحبّنى .

دروس وعبر من كلام سيّد البشر

الاجتماعية :

إن اشتغال المرء بما لا يعنيه ــ لا فى حاله ولا فى مآله ــ من عيوب الناس والخوض فى أمورهم الشخصية الخاصة بهم ، وكشف معايبهم ، وتتبّع عوراتهم يسبّب التخاصم والتشاجر ، وقطع العلاقات الاجتماعية أو توترها . وقديما قالوا : من تدخّل فيما لا يعنيه سمع ما لا يرضيه. وحتى لا يقع كل ذلك يدعونا النبى ﷺ إلى الإعراض عما لا يعنينا بتاتا، والاهتمام بما تتعلق به عناية الشرع. ففى صحيح ابن حبان عن أبى ذر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : «كان فى صحف إبراهيم عليه الصلاة والسلام: وعلى العاقل ما لم يكن مغلوبا على عقله أن تكون له ساعات : ساعة يناجى فيها ربّه ،وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يتفكّر فيها فى صنع الله تعالى ، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب ، وعلى العاقل ألا يكون ظاعنا [١] إلا لثلاث : تزوّد لمعاد، أو حرفة لمعاش، أو لذة فى غير محرم؛ وعلى العاقل أن يكون بصيرا بزمانه مقبلا على شأنه حافظا للسانه ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه».
وعن أنس رضى الله عنه قال : توفى رجل من أصحابه ــ يعنى النبىّ ﷺ ــ فقال رجل : أبشر بالجنّة ، فقال رسول الله ﷺ : « أو لا تدرى فلعله تكلّم بما لا يعنيه أو بخل بما لا يغنيه» [٢] .

---

(١) ظاعنا : ساعيا .
(٢) أخرجه الترمذى .

الأخلاقية :

إن الإسلام ــ كدين ــ يولى الجانب الأخلاقى عناية تامة ، بل تقوم أحكامه كلها على رعاية الأخلاق والمحافظة عليها ، والفضول وحبّ التدخّل فى كل شىء يهدر ماء الوجه ويقلّل من قيمة الإنسان الأخلاقية ويحط من كرامته كإنسان فى مجتمعه .

النفسية :

إن ترك ما لا يعنى يمكننا من راحة نفسية تامّة بحيث ننام ونحن نتمتّع باطمئنان تام، ونأكل ونشرب بانشراح وحيوية فى حين أن الفضولى المتطلع إلى ما لا يعنيه من قريب أو بعيد يعيش فى قلق دائم، وحيرة قاتلة، واستفسارات رهيبة لا يجد لها جوابا: ترى ما سرّ علاقة فلان الفلانى بفلان ؟ وما هى ظروف فلان الزوجية والمالية ؟ ومن أين اكتسب هذه الأموال ؟ وما سر هذا السّرور البادى على وجه فلان هذا اليوم . . . وهكذا طبعا ولن يجد لتساؤلاته أجوبة شافية

الاقتصادية :

يحث هذا الحديث النبوى الشريف على بذل الجهد فى رفع الاقتصاد الإسلامى وذلك باستثمار عنصرين رئيسيين :

١ ــ الطاقة البشرية : فينبغى ألا نضيع هذه الجهود فيما لا يعنى .

٢ ــ الوقت : ويجب استغلال دقائق الحياة المعدودة فيما يعود بالنفع على الشخص نفسه وعلى أبنائه وعياله ، ومن ثم على مجتمعه المحيط به .

فقه الدعوة

إن مهمّة الداعية هى التبليغ عن رسول الله ﷺ وإرشاد الناس وهدايتهم ونصحهم وتعليمهم وهى أمانة فى عنقه ، فهى مما يعنيه وعليه أن يربأ بنفسه عن مجالس الأندية والأسواق التى يخوض أصحابها مع الخائضين، اللهم إلا إذا جلس ناكرا ومبصرا وداعيا إلى الله .

الحديث الثالث عشر

عن أبى حمزة أنس بن مالك ـ رضى اللّه تعالى عنه ـ خادم رسول اللّه ﷺ عن النبى صلى اللّه عليه وآله وسلم قال: « **لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبّ لنفسه** » رواه البخارى ومسلم.

تخريج الحديث :

الحديث خرجاه فى الصحيحين من حديث قتادة عن أنس ولفظ مسلم: « حتّى يحب لجاره أو لأخيه » بالشك ، وخرجه الإمام أحمد ـ رحمه اللّه ـ ولفظه : « لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يحبّ للناس ما يحبّ لنفسه من الخير » .

ترجمة الراوى :

هو أنس بن مالك الأنصارى من قبيلة الخزرج ، كناه النبى ﷺ « بأبى حمزة » وقيل: إن سبب تكنيته بذلك أنه كان يجنى بقلة تسمّى حمزة فرآه النبى ﷺ يجنيها فكنّاه بها ، خدم النبىّ ـ عليه السلام ـ عشر سنين فما سمع منه : أف مطلقا ، ولم يؤنّبه عن شىء فعله لم فعلته . ولا عن شىء تركه لم تركته .

توفىّ سنة تسعين هجرية بالبصرة ويعد آخر صحابى توفى بها ـ رحمة اللّه عليه ـ ومن مناقبه ما رواه هو عن نفسه ـ رضى اللّه عنه ـ حيث قال : دخل النبىّ ﷺ علينا وما هو إلا أنَا وأمى وأم حرام خالتى فقالت أمى : يا رسول اللّه خويدمك أنس ادع اللّه له، قال : فدعا لى بكل خير وكان فى آخر ما دعا به أن قال : « اللهم أكثر ماله وولَده وبارك له فيه» رواه مسلم .

وعنه قال : جاءت بى أمى إلى رسول اللّه ﷺ وقد أزرتنى بنصف خمارها وردّتنى بنصفه فقالت : يا رسول الله ، هذا أنيس ابنى أتيت به يخدمك فادع الله له ،

لا يؤمن أحدكم : المنفى هنا ليس هو الإيمان نفسه ؛ لأن أصل الإيمان هو التصديق باللّه تعالى . ولكن المنفى هو كمال الإيمان .

لأخيه : المراد بالأخ هنا : إما فى الإسلام ، أو فى الإنسانية ، قال ابن العماد ـ رحمه اللّه ـ : الأولى أن يحمل على عموم الأخوة حتى يشمل الكافر والمسلم ، فيحب للكافر ما يحب لنفسه من دخوله فى الإسلام وهدايته !

فقال: « اللهم أكثر ماله وولده » . قال : أنس : فوالله إنّ مالى لكثير وإن ولدى وولدَ ولدى ليتعادّون على نحو المائة اليوم .

وعنه قال : مرّ رسول اللّه ﷺ فسمعتْ أمّى أم سليم صوتَه فقالت : بأبى وأمّى يا رسول اللّه ، هذا أنيس فدعا لى رسول اللّه ﷺ ثلاث دعوات قد رأيت منها اثنتين فى الدنيا وأنا أرجو الثالثة فى الآخرة .

وعنه قال : أتى علىّ رسول اللّه ﷺ وأنا ألعب مع الغلمان فسلّم علينا فبعثنى إلى حاجة فأبطات على أمّى ، فلما جئت قالت : ماحَبَسك ؟ قلت : بعثنى رسول اللّه ﷺ لحاجة قالت : ما حاجته ؟ قلت : إنها سرّ ، قالت : لا تحدّثنّ بسرّ رسول اللّه ﷺ أحدا ، قال أنس: واللّه لو حدثت به أحدا لحدثتك يا ثابت .

وعن ثابت رضى اللّه عنه قال : قال لى أنس : يا ثابت خذ عنّى فإنك لن تأخذ عن أحد أوثق منى ، إنّى أخذته عن رسول اللّه ﷺ عن جبريل وأخذه جبريل عن الله تعالى. رواه الترمذى .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

الحبّ هنا ليس عواطف جياشة فحسب ، بل مبادرة خيرية تبرهن على صدق المحبّ فى محبّته ولنا فى هذا الحديث فوائد جمة .

العقائدية :

المنفى هنا ــ فى الحديث ــ كمال الإيمان . ونفى بلوغ حقيقته ونهايته ؛ لأن الإيمان درجات متفاوتة كما بيّن الرسول ﷺ فى أحاديث مختلفة أنه « بضع وستون شعبة أعلاها لا إله إلا اللّه ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق » .

الاجتماعية :

أ ــ عالمية الإسلام : فالإسلام ليس دينا قبليّا أوطائفيا أو عرقيا بل هو ممتدّ امتداد الوجود الإنسانى على هذا الكون ،فلا تحدّه حدود جغرافية ، ولا تمنعه عوائق لغوية أو مذهبية أو أرضية ؛لأنه يخاطب الإنسانية من حيث هى ويؤاخى بين أفرادها بإبراز مميزاتها ؟ المشتركة وخصائصها العامة ، قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا** ﴾ [الحجرات : ١٣] ، وقال أيضا : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ** ﴾ [النساء : ١] ، وجاء فى الحديث: «كلكم لآدم وآدم من تراب » .

حبّ الخير للإنسانية كلها : والخير اسم جامع للطاعات والمباحات الدنيوية منها والأخروية ؛ فالمؤمن يحب لنفسه الصحة الجيدة والمال الطيب ويحبهما لإخوانه فى الإنسانية ، بدليل كفّ يده عن أكل أموالهم بالباطل ، وعدم حسدهم وكف بصره عن أعراضهم ولسانه عن غيبتهم .

ويحب أن يكون يوم القيامة من السعداء ، ولا سعادة إلا لأهل الإيمان الصادق والعمل الصالح .

لهذا يسعى دوما لإرشاد البشرية وهدايتها لسبل الفوز بالجنة ، والنجاة من النار ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وربّما كلفه الأمر التضحية بكل ما يملك حتى بالنفس إن اقتضى الأمر .

قال بعض الصالحين من السلف : أهل المحبّة للّه نظروا بنور اللّه وعطفوا على أهل معاصى اللّه ، مقتوا أعمالهم وعطفوا عليهم ليزيلوهم بالمواعظ عن أفعالهم ، وأشفقوا على أبدانهم من النار .

إن الإسلام لا يرضى أن يكون المسلم فى مجتمعه عضوا سلبيّا لا يقدّم أى شيء إيجابى للجماعة التى يتعايش معها ، ولكن إن كان ولا بد فعليه أن يكفّ عن الناس شروره ويمنعهم مصائبه.

النفسية :

العامل بهذا الحديث النبوى تنبعث فيه الملكات الخيرية بحيوية ونشاط لتقف لنوازع الشر بالمرصاد،وتحارب فى النفس الإنسانية الأنانية المستحكمة وساعتها لا يعيش لنفسه، ولا يحيا لنفسه ، ولايعمل ويكد من أجل نفسه فحسب !

السياسية :

كما أن المسلم يحب العيش فى أمن وسلام ويعمل على تحقيق ذلك للبشرية جمعاء ، وهو بذلك يجسد أسمى تعاليم دينه الحنيف .

أما أولئك الذين يدعون الرحمة والعطف على صغار الحيوان ، فإننا نجدهم فى المقابل يسعون إلى إشعال فتيل الحرب ، ويتبارون فى صنع أخطر سلاح ، وأقواه وأسرعه فى الإبادة وأكثره فتكا .

ومن قبيل المحبة للإخوان مثل المحبة للنفس بل ومن أروعها ما ورد فى صحيح مسلم عن أبى ذر رضى اللّه عنه قال: قال لى رسول اللّه ﷺ : «يا أبا ذر إنى أراك ضعيفا وإنى أحبّ لك ما أحب لنفسى لا تتأمرن على اثنين ولا تولّين مال يتيم».

الاقتصادية :

لقد نفى الرسول ﷺ الإيمان عمن نـام شبعان وجـاره جـائـع ؛ لأن المؤمن الحقيقى لا يحب أن يفتك الجوع بإخوانه؛لأنه لا يحبه لنفسه ، بل إن المسلم فى العهود النيّرة كان يؤثر أخاه على نفسه ، ويقدم له اللقيمات التى هو فى أشد الحاجة إليها .

إن خلق الإيثار يـساهم فى انتعاش الاقتصاد المتدهْوِر للمجتمع!

وفى المقابل نجد الآلاف المؤلفة من أطنان المواد الغذائية الرئيسية فى البلاد الغربية ترمى فى البحار وتتلف كل المنتجات الفائضة عن حاجة البلد المنتج نفسه ، وغير خفى عليها تلك الإحصائيات الدورية المهولة والتى يذهب فيها الملايين ضحايا الجوع والمرض فى الدول النامية الأفريقية والأسيوية .

وهذه دويلات البشم البترولى تودع فى بنوك الغرب ما يفوق ديون العالم العربى ثلاثة أضعاف .

إذا كان هذا فى المسلمين فما على أعداء الدين من سبيل .

فقه الدعوة

١ ـ الإسلام عربى اللغة عالمى المبادئ والأفكار . فلا تقتصر الدعـوة على طائفة معينة، ولا تنحصر فى جماعة محددة ، يصدق هذا قول الحق سبحانه: ﴿ حمٓ . تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت : ١ ـ ٣] ، و﴿حمٓ . وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[الزخرف : ١ ـ ٣] ، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١] .

ولعل اجتماع الثلاثى الأول: بلال الحبشى ، وسلمان الفارسى ، وصهيب الرومى فى المدينة المنورة ، وتحت راية الإسلام رغم تباين ألوانهم ـ أسود وأصفر ، وأشقر ـ واختلاف ألسنتهم . نعم ، شتان بين الحبشية ، والفارسية ، والرومية .

فقد قيل : إن بلالا حينما أسلم قال فى رسول اللّه ﷺ بيتا بلغته :

أرَهْ بَرَهْ كَنْكَرَهْ   كَرَاكِرِىَ مِنْدَرَه

ثم عَرَّبَهَا بقوله :

إذا المكارم فى أحيائنا ذكرت   فإنما بك فينا يضرب المثل

إذًا هناك اختلاف حضارىّ كبير وانصهار هذه الحضارات فى حضارة الإسلام دليل

قاطع على عالمية الإسلام الذى جمع بين أفراد قارات العالم المعروفة فى ذلك الحين .

٢ ــ على صاحب الدعوة أن يركز فى دعوته على جانبين أساسيين هما :

أ ــ الجانب العقائدى : باعتباره القاعدة التى يبنى عليها كل ما عداها .

ب ــ الجانب الاجتماعى والأخلاقى ؛لأنه الجانب الذى يستمد وجوده ومصداقيته السابق ، لأن أى أخلاق بلا عقيدة كفروع بلا جذوع ، وأن أى عقيدة بلا أخلاق كشجرة بلا ثمار .

تطبيق

يكاد ينعدم تحقيق مفهوم الأخوة الإنسانية بله عن الإسلامية فى عصر أنهكت فيه المادة كل الروابط .

كما استفحل داء الأنانية المتسلطة ، وطغى حبّ الذات ممّا سبّب ويسبب اندلاع الحروب المدمرة والنزعات المُخَلِّفة للآلاف من الضحايا والتى يرفع أصحابها شعار(أنا ثم الطوفان) !

الحديث الرابع عشر

عن ابن مسعود ــ رضى اللّه تعالى عنه ــ قال : قال رسول اللّه ﷺ « **لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : الثيّب الزانى ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة** » رواه البخارى ومسلم .

ترجمة الراوى :

هو أبو عبد الرحمن عبد اللّه بن مسعود رضى اللّه عنه ابن غافل بن حبيب بن شمخ بن فار بن مخزوم بن صاهلة بن كاهل بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل بن مدركة بن إلياس ، يجتمع مع النبىّ ﷺ فى مدركة فليس من قريش ، وأمّه هذلية من فخذ أبيه .

ولقد هاجر ابن مسعود الهجرتين وصلى إلى القبلتين ، وكان نحيفا قصيرا لدرجة أن طوله لايزيد على جلوس الرجل الطويل ، توفى ــ رحمه اللّه ــ عام اثنين وثلاثين من الهجرة عن عمر يناهز بضعا وستين سنة ، ودفن بالبقيع وصلى عليه عثمان ــ رضى اللّه عنه وأرضاه .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

العقائدية :

١ــ فى هذا الحديث الشريف دليل آخرعلى أن الإيمان تصديق بالقلب وعمل بالجوارح ، حيث إن الحديث السابق دلّ على أن دم الرجل وماله إنما يعصمهما بقول: لاإله إلا اللّه ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، ثم ذكر فى هذا الحديث أن دم المسلم يحل بالزنا بالنسبة للمحصن ، والقتل والردّة ، إذًا فلا إله إلا اللّه تقتضى تحريم ما حرم اللّه وتحليل ما أحل اللّه سبحانه؛ لأن هذه الثلاث من حق الإسلام التى يستباح بها دم

لا يحل : نفى الحل يفيد الحرمة وهو صيغة من صيغ التحريم .

دم : أى إراقة دم امرئ مسلم . والمراد بإراقة الدم إزهاق الروح .

الثيب : هو المحصَن ، ويكون المرء محصنا إذا توفرت فيه الشروط التالية: أن يكون بالغا ، عاقلا ، تحقق منه الوطء فى نكاح صحيح .

التارك لدينه : المرتد الخارج عن دين الإسلام .

من شهد أن لا إله إلا اللّه ، وأن محمدا رسول اللّه ، والقتل بكل واحدة من هذه الخصال المذكورة متفق عليه بين المسلمين .

٢ ــ ترك الدين أى ترك الإسلام والارْتداد عنه ومفارقة جماعة المسلمين، والمرتد يقتل كفرا لا حدا ، وتكون الردة من المسلم بالقول الصريح كأن يقول : هو مشرك ، أو يهودى. . . أو كافر باللّه وبرسوله أو استحل حراما ثبتت حرمته كالزنا ، الخمر ، قتل النفس ، أوحرم حلالا، أو جحد وجوب ما علم من الدين ضرورة كوجوب الصلاة ، والصوم .... أوسب نبيا مجمعا على نبوّته ، قال الشيخ اللقانى فى جوهرته :

ومن لمعلوم ضرورة جحد ـــ من ديننا يقتل كفرا ليس حدًا
ومثل هذا من نفى لمجمع ـــ أو استباح كالزنا فلتسمع

وتكون الردة بالفعل المتضمن لها كرمى المصحف الشريف فى مكان مستقذر ، وحكم المرتد يقتل بعد أن يستتاب ثلاثة أيام من غير ضرب ولا تجويع . . . فإن تاب فيها فبها وإلا قتل بعد غروب شمس اليوم الثالث ، وسيأتى ذكر أحكام المرتد من دفن وميراث وأهلية فى الحديث السادس عشر (١) .

الفقهية :

القصاص : أجمع المسلمون على أن من قتل مسلما عمدا فقد استحق القصاص وهو القتل ، قال اللّه تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ﴾[المائدة : ٤٥] ، وذلك حتى يأمن الناس على حياتهم، قال اللّه تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ ﴾[البقرة : ١٧٩] ،ويقتل المكلف إذا قتل نفسا بغيرحقّ عمدا سواء كان القاتل أو المقتول ذكرا أم أنثى ، لما ورد فى كتاب عمرو بن حزم عن النبىّ ﷺ : « إن الرجل يقتل بالمرأة » وصح أنه ﷺ قتل يهوديا قتل جارية، ويسقط القصاص إذا عفا أولياء المقتول .

وأجمعوا على وجوب القصاص إذا كان القاتل والمقتول كافرين واختلفوا فيما إذا كان المقتول كافرا غير حربى ، كالذّمى والمستأمن ، فذهب قوم ــ منهم الحنفية ــ إلى وجوب القصاص عملا بعموم قوله تعالى : ﴿ أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ﴾ [المائدة : ٤٥] ، وقوله ﷺ : « النفس بالنفس » .

(١) انظر صفحة ١١١ .

وذهب آخرون ـ منهم الشافعية والحنابلة والمالكية ـ إلى أنه لا يقتص من المسلم بالكافر مطلقا، واحتجوا بما رواه البخارى وغيره من قوله ﷺ: «لا يقتل مسلم بكافر» واعتبروا هذا الحديث مخصّصا لغيره من العموميات الواردة فى قتل النفس بالنفس.

وذهب جمهور الفقهاء إلى أن الوالد لا يقتل بقتل ولده ، وصح ذلك عن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه . ا .هـ . من كتاب الوافى فى شرح الأربعين النووية للدكتور مصطفى البغا ، ومحيى الدين ميستو .

القانونية :

حقا لقد شرع الإسلام عقوبة القتل للزانى المحصن وللقاتل المتعمّد ما فى ذلك شك.

ولكنه فى الواقع أناط عقوبة الزنا بإقرار الزانى نفسه فى حال الاختيار دون قهر أو اضطرار ، فإذا لم يقرّ بلسانه فإنه من المتعذر إن لم نقل : من المستحيل إثبات الزنا عليه بالبينة. والبينة لا تثبت إلابشهادة أربعة شهود عدول يرون عملية الاقتراف رأى العين .

ومن يتتبّع حالات الرجم فى عهد النبى ﷺ يجد أن الحد وقع دوما بالاعتراف شأن ماعز والغامدية ـ رضى اللّه عنهما .

وتمت مراجعتهم من قبل رسول اللّه ﷺ أثناء اعترافهم مرات ومرّات : « لعلك قبّلت... لعلك .. لعلك .. » بحثا عن شبهة يَدْرأ بها الحد .

إذا فعقوبة الزنا ـ فى الحقيقة ـ ليست هدفا فى ذاتها بل وسيلة لردع النفوس الجامحة التى تفلّتت من مكبح الوازع الإيمانى عن قربان هذه الفعلة الشنيعة ؛ ولهذا فإن جرائم الزنا فى عهده ﷺ ومن بعده صحابته تكاد تعدّ على رؤوس أصابع اليد الواحدة.

أما ما وصلت إليه اجتهادات المقننين المعاصرين من سجن أو تغريم هذا بالنسبة لحالات الاغتصاب ، أما الزّنا الذى يقع بتراضى الطرفين الراشدين ! فلا ينطبق عليه مصطلح (الزنا) فى عرفهم .. !

ولايسنّون ضده أى شىء بحجة احترام الحريات الشخصية .. !

ونفس الشىء فى القتل العمد الذى تذهب ضحيته المئات من الأرواح البريئة يوميا فى العالم ، وعلة ذلك القوانين الأرضية الجائرة والمشجعة والتى عجزت عن تحقيق العدالة فى الأرض !

إن ارتفاع أبناء الزنا المهول فى الغرب اليوم ، وكذا حوادث القتل والسطو

والاغتصاب . . والجرائم الشنيعة المقززة ينادى ضحاياها بلسان الحال وبلغة الأرقام : ألا سحقا للمدنية الزائفة . . . ولقوانينها المجحفة . . . وتبت أيدى المقنّنين المتألهين وليحكم فينا حكم أحكم الحاكمين .

الاجتماعية :

« النفس بالنفس » هكذا وردت النفس الثانية معرفه بـ « ال » ، وكما نعلم أن المعرفة إذا أعيدت معرفة كانت عينا، إذن فكأن المجرم القاتل قتل نفسه حينما قتل أخاه في الإسلام، لذا فإنّ الندم يلازمه والحسرة تقتله، قال تعالى حكاية عن قابيل وهابيل:

﴿ **فطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ . فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ . مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا** ﴾ [المائدة: ٣٠ ــ ٣٢] .

الأخلاقية :

إن الإسلام حينما شرع قتل الزانى المحصن حكيم فى معالجته لأخطر مرض أخلاقى ــ الزّنا ــ وهو بذلك يقدّس الشرف ويحافظ على العرض ويصونه بحدود شتّى؛ كالجلد للقاذف وللزانى البكر ، ثم القتل للمحصن . ولم نر هذه الاحتياطات والتحريات فى أى نظام من هذه النظم القائمة اليوم ، أو حتى البائدة منها على الإطلاق؛ ولهذا فإن الإنسانية اليوم تجنى الويلات من اختلاط الأنساب ، وتفشى الأمراض السرّية الخطيرة : كالزهرى ، والسيلان ، والسيدا . . . و . . . واندثار الروابط الأسرية ، وتوتر العلاقات الاجتماعية فى الدول الغربية على الخصوص ، وانقشاع حجاب الحياء ، كل ذلك لأنها لم تلق بالا ، ولم تزن وزنا للأخلاق الحميدة .

فقه الدعوة

١ــ اتباع أسلوب الترهيب من الآثار المعجلة للمحرمات فى هذه الدنيا وبيان الأخطار الصحية والاجتماعية والنفسية المنجرة عن ذلك الفعل القبيح أولا ، والتخويف من العقوبات المقررة شرعا ثانيا ، ومن المصير الذى لا مناص منه يوم الحساب العسير ثالثا. هو أنجع علاج وأبلغ أسلوب فى الدعوة إلى الفضيلة ومحاربة الرذيلة .

٢ ــ والحكيم ــ بحق ــ فى التوضيح والتبيان هو الذى يضرب على وتر الواقع

الملموس الذى يعيشه المسلم اليوم فى ظل التشريع البشرى ، وبلغة الأرقام يدلّل على خطورة الوضع الذى آلت إليه الأمة الإسلامية اليوم من جراء بعدها عن شريعتها ونبذها لأحكام دينها كالقصاص ، وبصورة أشمل تحكيم كتاب اللّه ، ويدعو الأمة إلى العودة إليه .

تطبيق

١ ــ إن الدّم المسلم له حرمة أكبر ــ عند اللّه ــ من حرمة البيت الحرام ؛ لذا حدد الإسلام المواضع التى يهدر فيها دمه ، غير أنّنا نجدها فى كثير من مجتمعاتنا المعاصرة غير محدّدة ولامضبوطة ، فقائمة أسباب الإعدام طويلة طول أطماع الاستبداديّين .

٢ ــ ولمّا تخلّى الكثير من أولى الأمر عن الشريعة الإسلامية وربّما عن العقيدة نفسها تشجّع السّفهاء على محاربة الإسلام وإعلان ارتدادهم ومعارضتهم له أمام الملأ ، ولو ظل الحال على ما هو عليه لاستبدلنا اللّه بأقوام آخرين . قال تعالى: ﴿ **إِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ** ﴾ [محمد : ٣٨] .

٣ ــ التحكيم الادعائى المزيّف للجانب الجزائى فى القضاء الإسلامى من قبل حفنة من الحكام أساء إلى الإسلام إساءة خطيرة ، من حيث تجزئة الأحكام الشرعية : ﴿ **أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ [البقرة : ٨٥] .

لأنها تكرّسُ عيْبا مشينا طالما سعى أعداء الدّين إلى إلحاقه به ، وهو عدم الشمولية، ولأنها اتخذت غطاء يستر به الأمراء الفجراء فسقهم ، ومن ثم فهى نافذة فى الرعية دون الراعى . . . وهذا السبب فى هلاك من سبقنا من الأمم كما أخبرنا عنهم نبينا ﷺ .

الحديث الخامس عشر

عن أبى هريرة ــ رضى اللّه تعالى عنه ــ أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم قال: «**من كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت ، ومن كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فليكرم جاره ، ومن كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فليكرم ضيفه** » رواه البخارى ومسلم .

تخريج الحديث :

هذا الحديث خرّجاه من طرق عن أبى هريرة،وفى بعض ألفاظها:«فلا يؤذ جاره»، وفى بعض ألفاظها: « فليحسن قرى ضيفه »، وفى بعضها: « فليصل رحمه » بدل ذكر الجار ، وخرجاه أيضا بمعناه من حديث أبى شريح الخزاعى عن النبى ﷺ ، وقد روى هذا الحديث عن النبى ﷺ من حديث عائشة وابن مسعود وعبد اللّه ابن عمرو وأبى أيوب الأنصارى وابن عباس وغيرهم من الصحابة ــ رضى اللّه عنهم .

ترجمة الراوى :

سبق التعريف به فى الأحاديث : التاسع ، والعاشر ، والثانى عشر .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

العقائدية :

إن الإيمان باللّه واليوم الآخر لا يتوقّف على مطلق التصديق ، بل يتعداه إلى العمل بمقتضى هذا الإيمان ، ومن أهم هذه المقتضيات التى يجب أن يجسّدها المؤمن فى حياته اليومية إمساك لسانه ، إنها الحقيقة التى يجب أن نؤكد عليها دوما، قال تعالى : ﴿ مَا يَلْفظُ من قَوْلٍ إلاَّ لَدَيْه رَقيبٌ عَتيد ﴾[ق : ١٨] .

وعن أبى هريرة رضى اللّه عنه ، عن رسول اللّه ﷺ قال :

من كان يؤمن : أى من كان يؤمن إيمانا كاملا ، أو هــو محمول على المبالغة ، وذلك للحث على الاتصاف بتلك الصفات .

خيرا : الخير اسم جامع لما فيه نفع دينى أو دنيوى .

جاره : قيل : إن الجار هو من جاورت داره دارك إلى أربعين دار من كل جانب .

« إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان اللّه تعالى لا يلقى لها بالا يرفع اللّه تعالى بها درجاته، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط اللّه تعالى لا يلقى لها بالا يهوى بها فى جهنّم» (١) .

الفقهية :

الضيافة من شيم العرب الأقحاح، ومن آداب الإسلام ، وخلق النبيّين والصالحين، وقد ذكر الشيخ أحمد بن حجازى الفشنى فى شرحه للأربعين النووية تأويلات عدة لحديث يوجب الضيافة صدّر به حديثه فقال : وقد أوجب الضيافة ليلة واحدة الليث بن سعد رضى اللّه عنه ، عملا بقوله ﷺ : « ليلة الضيف حق واجب على كل مسلم» وحمله عامة الفقهاء على النّدب وأنها من مكارم الأخلاق ومحاسن الدين لقوله ﷺ فى الضيف وجائزته يوم وليلة ، والجائزة العطية والمنحة والصلة ، وذلك لا يكون إلا مع الاختيار وقل استعمالها فى الواجب ، ومما يدلّ على النّدب اقتران الأمر بها بالأمر بإكرام الجار ، وتأوّل بعضهم الأحاديث على أنها كانت فى أوّل الإسلام إذ كانت المواساة واجبة أو كان ذلك للمجاهدين فى أول الإسلام لقلة الأزواد، أو على التأكيد كقوله : «غسل الجمعة واجب » (٢) .

واختلف العلماء ــ رحمهم اللّه ــ فى الضيافة على من تجب : هل على سكان الحاضرة والبادية ؟ أم على أهل البوادى فحسب ؟

فذهب الإمامان ، الشافعى ، ومحمد بن الحكم إلى أنها على الحاضر والبادى .

وذهب مالك وسحنون إلى أنها على أهل البوادى ؛ لأن المسافر يجد فى الحاضر المنازل والفنادق ومواضع النزول وما يشترى من الأسواق (٣) .

الاجتماعية :

أ ــ إن الإنسان بطبيعته مدنىّ بالطبع لا تقوم حياته ولا تستقيم معيشته إلا بالتكافل الاجتماعى ، وها هو الإسلام نفسه الذى هو دين الفطرة التى فطر اللّه الناس عليها يحث على احترام الجار ، ويعمل على تقوية الروابط الاجتماعية بين الجيران؛ ليكون مجتمعا متظافراً متكاتفا متآلفا بغض النظر عن جنسية الجار أو دينه أو مذهبه ومعتقده لأنك إن لاطفته وعاملته معاملة الجار المسلم فإنه إن لم ينجذب لهذا الدّين الحنيف وينضمّ لجماعة المسلمين فسيمنع المجتمع الإسلامى شروره ودسائسه .

---

(١) رواه البخارى .

(٢) المجالس السنية فى علم الحديث، شرح الأربعين النووية لأحمد بين حجازى الفشنى ص ٤٥، ط:مصر.

(٣) هذه الأحكام أوردها الإمام النووى نفسه فى شرحه للأربعين ص ٤٤ ، ط : دار البعث ، الجزائر .

ب ــ وإذا أدرك المؤمن أنه بالكلمة الطيبة يصلح بين المتخاصمين ، ويقارب بين المتباعدين، وأن كلمته تلك تلتئم بها الجراح ، وسيجنى منها كل الفلاح ، فإنه لا يقول إلا خيرا ، ولا يطلق العنان للسانه حرّا طليقا ، بل يقيدّه بلجام التعقّل .

السياسية :

إذا كان الجار هو من جاورت داره دارك إلى أربعين دارا من جانب ، وكذلك من جاور حقله حقلك إلى أربعين حقلا من كل جانب ، ومن جاور متجره متجرك إلى أربعين متجرا من كل جانب أيضا.

وكذلك الجيرة بين الأقطار ومن تتاخم حدود بلده حدود بلدك ، قال تعالى لنبيّه عليه الصلاة والسّلام : ﴿ **ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إلا قَلِيلاً** ﴾ [الأحزاب : ٦٠] وها هو الإسلام دين الأمن والسّلام يدعو إلَى صيانة الجار والحفاظ على شخصه وكرامته ومراعاة شعوره سواء أكان الجار مسلما أو يهوديا أو نصرانيّا فالجار هو الجار قال تعالى:

﴿**وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ** ﴾ [النساء : ٣٦] .

وقال سبحانه : ﴿ **لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾ [الممتحنة : ٨] .

والمعاصى كلها شنيعة ولكنها فى حق الجار أشنع ؛ قال لأصحابه : « ما تقولون فى الزنا ؟ » قالوا : حرام حرمه اللّه ورسوله فهو حرام إلى يوم القيامة ، فقال رسول اللّه ﷺ : « لأن يزنى الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزنى بامرأة جاره » ، ثم قال: « ما تقولون فى السرقة ؟ » قالوا: حرام حرّمها اللّه ورسوله فهى حرام إلى يوم القيامة ، فقال ﷺ : « لأن يسرق الرجل من عشر أبيات أيسر عليه من أن يسرق من بيت جاره »(١) .

وقال أيضا : « واللّه لا يؤمن ، واللّه لا يؤمن ، واللّه لا يؤمن ! » قيل : يا رسول اللّه ، لقد خاب وخسر من هو ؟ قال : « من لا يأمن جاره بوائقه » قالوا : وما بوائقه ؟ قال : « شره »(٢) .

وقوله ﷺ : « من آذى جاره فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى اللّه ، ومن

---

(١) رواه الإمام أحمد .

(٢) رواه البخارى .

حارب جاره فقد حاربنى ، ومن حاربنى فقد حارب اللّه عز وجل » (١) . حبّذا لو اقتنع كل مسلم بحقوق جاره عليه وأداها على الوجه الأكمل ، وتعهد كل قطر (٢) بجيرانه ، وحماهم ، وأعانهم فى حوائجهم لعاش العالم الإسلامى فى رخاء وهناء .

ولكن ــ ويا أسفاه ــ لا نكاد نعثر على بلد يسمح حتّى لهبوب الرياح عليه من جيرانه المسلمين ، بل ويتقوّى بأعداء الإسلام ويحتمى بهم ليرهب جيرانه وإخوانه ، ويكرّس كل شوكة ليغرسها فى أجسادهم . فإنا للّه وإنا إليه راجعون .

الاقتصادية :

أ ــ قوله ﷺ : « من كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فيلقل خيرا أو ليصمت » . واللغو والخوض فيما لا يعنى أكيد أنه من الكلام الذى يستحسن الصمت عنه ، وقد بلينا بكثرة الاجتماعات ، والقرارات ، والتوصيات ، وحرب البيانات فى الوقت الذى تعشش البوم والغربان فى المعامل ، والمصانع ، والهيئات والمؤسّسات ، فهل نفلح ــ إذا كانت كل أوقاتنا مهدورة ــ فيما سبق ــ فى تقدّمنا ونجاحنا فى تحرير العيش المرهون ؟ قال تعالى : ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ** ﴾ [المؤمنون : ١ ــ ٣] .

ب ــ تصوّر معى ــ مجرد تصوّر ــ أنه لو كان ثمة تكافل فى المجتمعات الإسلامية اليوم ، يتعهّد الجار الغنى الموسر جاره الفقير المعسر ، ويمن عليه مما أغدق اللّه عليه ، فهل يبقى لهذه الطبقية المتباينة أثر ؟ كلا وربىّ . روى الطبرانى ــ رحمة اللّه عليه ــ عن النبى ﷺ : « ما آمن بى من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم » .

تطبيق

١ ــ لا خير فى مدنية تزاحم الحاتمية فى حواضر بعض المدن الإسلامية وتستبدل أهلها بالمروزيّين (٣) .

فأضحى الضيف نزيل الفنادق والمطاعم ، وانحسرت الضيافة على أهل القيادة وأصحاب السيادة الذين هم أغنى الناس عنها، ولكن تزيّن لهم الموائد وتصف لهم المناضد. . . فهل هذا من قبيل الكرم فى شىء ؟ اللهم لا . . . إنه فى كثير من الأحيان التملق والتزلّف ، والمباهاة . . . وانقلب أرباب الموائد طلابًا للفوائد .

---

(١) رواه أبو الشيخ .

(٢) أثناء قيام الخلافة الإسلامية أو إلى حين إقامتها بإذن اللّه تعالى .

(٣) المروزيّين : نسبة إلى مدينة « مرو » بالعراق يتهم أهلها بالبخل .

٢ ــ بلغت ديون العالم العربى فى الثمانينات من هذا القرن مائتى مليار دولار. . . فأعناقه مغلولة ترسف فى أغلال المديونية . . . بيد أن مدّخرات الأثرياء فى مصارف الغرب تجاوزت ستمائة مليار دولار !! . . . ثم هم يمنون عليك وعلى الإسلام؛ لأنهم طبعوا مصحفا وحفروا بئرا . . . . و . . . و. . . ببضعة ملايين لا تقارب معشار زكاتهم بله عن الفوائد الربوية التى يتركونها للبنوك ورعا وتقوى !!

الحديث السادس عشر

عن أبى هريرة ــ رضى اللّه تعالى عنه ــ أن رجلا قال للنبىّ صلى اللّه عليه وآله وسلم: أوصنى ، قال : « **لاَ تَغْـضَبْ** » فردد مرارا قال : « **لاَ تَغْـضَبْ** » رواه البخارى.

تخريج الحديث :

هذا الحديث خرجه البخارى من طريق أبى الحصين الأسدى عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى اللّه عنه ولم يخرجه مسلم ؛ لأن الأعمش رواه عن أبى صالح . واختلف عليه فى إسناده فقيل عنه : عن أبى صالح عن أبى هريرة كقول أبى حصين ، وقيل عنه : عن أبى صالح عن أبى سعيد الخدرى ، وعند يحيى بن معين أن هذا هو الصحيح ، وقيل عنه : عن أبى صالح عن أبى هريرة وأبى سعيد ، وقيل عنه : عن أبى صالح عن أبى هريرة أو جابر وقيل عنه . عن أبى صالح عن رجل من الصحابة غير مسمّى .

سبب ورود الحديث :

وقع هذا الحديث النبوىّ الشريف جوابا شافيا عن سؤال أحد الصحابة ــ رضوان اللّه عليهم ــ والمرجح هو أبو الدرداء ، حيث طلب من النبى ﷺ وصية مختصرة جامعة لخصال الخير ليحفظها خشية ألا يحفظها لكثرتها ، خرج الترمذى هذا الحديث ــ فى رواية له ــ من طريق أبى حصين أيضا ولفظه : جاء رجل إلى النبىّ ﷺ فقال : يا رسول اللّه علّمنى شيئا ولا تكثر علىّ لعلى أعيه، قال : « لا تغضب » ، فردد ذلك مرارا كل ذلك يقول : « لا تغضب » ، وفى رواية أخرى لغير الترمذى قال : قلت : يا رسول اللّه ، دلّنى على عمل يدخلنى الجنة ولا تكثر علىّ ، قال : « لا تغضب » .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

العقائدية :

إن بعض النـاس حينما يستبد به الغضب يفقـده رشـده وصوابه ، وربمـا لا يـدرى

لا تغضب : الغضب : هو فوران دم القلب لإرادة الانتقام .

فردد مراراً : أى ردد الرجل السؤال ثلاث مرات، وكأنه لم يقتنع بهذه الوصية الموجزة لفظًا، العظيمة نفعًا.

ما يفعل أو يقول ويذهب البعض ـ والعياذ باللّه ـ إلى سبّ الدين والنيل من قداسته ظنا منه أنه ينفس من غيظه أو يظهر بمظهر الشجاع الذى لا يأبه بشىء . وهو فى الحقيقة إنما يظهربمظهر الطائش الأحمق فربّما تفوّه بـ :

أ ـ سب النبى الكريم أو أى نبى من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

ب ـ سب الدين والطعن فى الكتاب أو السنة النبوية العطرة .

جـ ـ سب الذات الإلهية .

وهو بذلك قد ارتد ـ والعياذ باللّه ـ وخرج من الملة الإسلامية، ويترتب على هذا الفعل الشنيع أحكام عدّه ، قال تعالى : ﴿ **وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ [البقرة: ٢١٧] .

وعن ابن عبّاس رضى اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال : « من بدل دينه فاقتلوه»(١) .

الفقهية :

غالبا ما تصدر على الغضبان عبارات لا يقدر عواقبها ولايحسب لها أى حساب ثم يعود إلى صوابه فيجد نفسه أنه قد هدم مابناه فى سنين .

أولا : الردة :

أ ـ العلاقة الزوجية : إذا ارتد المسلم انفصم رباط الزوجية الذى يجمعه بشريكه سواء كان المرتد زوجا أم زوجة ، ويفصل بينهما ولا يحل تزويج المرتد من امرأة مسلمة.

ب ـ الميراث : لا يرث المرتد من قريبه المتوفّى ، ولا يورث هو الآخر أيضا بل ماله لبيت المال الإسلامى .

جـ ـ فقد أهلية التولّى على الغير : فلا يتولّى المرتد عقد الزواج لبناته أو لمن هن تحت ولايته قبل الارتداد ، وإن باشر عقدا من عقودهن يعد باطلا، هذا إن بقى أبناؤه على الإسلام .

د ـ الدفن: المرتد لا يغسل ولا يكفّن ولا يصلّى عليه ولا يدفن فى مقبرة المسلمين.

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

ثانيا : الطلاق :

يلزم عند المالكية طلاق الغضبان ولو اشتد غضبه ، وأما حديث عائشة ــ رضى اللّه عنها ــ : سمعت النبى ﷺ يقول : « لا طلاق ولا عتاق فى إغلاق » فقد فسره الإمام أحمد بالغضب .

وفسره أبو عبيد وغيره بأنه الإكراه ، وفسره غيرهما بالجنون .

وقيل : هو نهى عن إيقاع الطلقات الثلاث دفعة واحدة فيغْلق عليه الطلاق حتى لا يبقى منه شىء كغلق الرهن ، حكاه أبو عبيد الهروى (١) .

القضائية :

يتطلب القضاء إمعان النظر ودراسة القضية من كل جوانبها بحكمة وتعقّل ، ولا تنطبق تلك المواصفات على الغاضب ؛ لذا ورد النهى عن الحكم بين المتخاصمين فى حال الغضب ، عن أبى بكرة رضى اللّه عنه قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : «لا يقضيّن حاكم بين اثنين وهو غضبان » (٢) .

النفسية :

أ ــ الغضب غريزة جبل عليها الإنسان فليس فى مقدوره دفعها ، والشارع الحكيم لا يكلف نفسا إلا وسعها .

فهل النهى هنا عن الغضب ؟ أو عن أسبابه ؟ أو العمل بمقتضاه ؟

ولكننا بالنظر إلى الشريعة الإسلامية السّمحة نجدها لا تحضر الغرائز ، ولا تعمل على كبتها وتجاهلها ، بل تسعى دوماً إلى تهذيبها وتصريفها فى مصارفها المعقولة ، فهذه غريزة الجنس مثلا فى الإنسان ، قد نظمها الإسلام وبين مصارفها ، والغضب هو الآخر فيه المحمود أيضا إن كان لله حينما تنتهك حدود اللّه ؛ قال تعالى : ﴿ **وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ** ﴾[الأعراف : ١٥٤] ، ومن قبيله غضب سيد الوجود عليه الصلاة والسلام . سئلت السيدة عائشة ــ رضى اللّه عنها ــ عن خلقه ، فقالت : كان خلقه القرآن يرضى لرضاه ويسخط لسخطه .

فقد دخل بيت عائشة ــ رضى اللّه عنها ــ فرأى سترا فيه تصاوير فتلوّن وجهه وهتكه ، وقال : « إن من أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يصورون هذه الصور » .

---

(١) زاد المعاد فى هدى خير العباد لابن قيم الجوزية ٥ / ٢١٥ .

(٢) جاء ذلك فى الصحيحين .

وكان من دعائه ﷺ : « أسألك كلمة الحقّ فى الغضب والرضا » .

ومما يدل على أن المنهى عنه أثر الغضب نفسه ، موقف رسول اللّه حينما بلغه ابن مسعود ــ رضى اللّه تعالى عنه ــ قول القائل : هذه قسمة ما أريد بها وجه اللّه شقّ عليه ﷺ وتغيّر وجهه وغضب ، ولم يزد على أن قال : « لقد أوذى موسى بأكثر من هذا فصبر» .

وخرج الطبرانى من حديث أنس مرفوعا : « ثلاث من أخلاق الإيمان : من إذا غضب لم يدخله غضبه فى باطل ، ومن إذا رضى لم يخرجه رضاه من حق ، ومن إذا قدر لم يتعاط ما ليس له » .

ب ــ كما أن التحكّم فى النفس وترويضها حال فورانها من أجل المهام ؛ لذا اعتبر الرسول الكريم صلوات اللّه وسلامه عليه ، المالك لنفسه عند الغضب من أشدّ الأبطال شجاعة ، عن أبى هريرة رضى اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال : « ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب » (١) ، وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال : « ما تعدّون الصرعة فيكم ؟ » قلنا : الذى لا تصرعه الرجال . قال : « ليس ذلك ، ولكنه الذى يملك نفسه عند الغضب » .

الطبية :

الغضب عملية فسيولوجية أيضا لها أبعادها الصحية ، حيث تتشنج الأعصاب ويتوتر الجهاز العصبى والدورة الدموية ، فتزيد دقات القلب ، ويرتفع ضغط الدم ، ويصبح الغاضب معرضا لكثير من الأخطار المهلكة .. كالسكتة القلبية .. وانفجار الشعيرات الدموية ... ومن ثم الشلل الكلى أو الجزئى ــ والعياذ باللّه ــ ناهيك عن الكوارث الاجتماعية المنجرة عنه ... كالانتحار .. والقتل .. والكحول ... لذا نصح النبى ﷺ سائله وسائر المؤمنين بنصائح تهدئ النفس ، وتدفع عنها أسباب الغضب ، وتخفف وطأه ، وهذه النصائح :

أولا : الاستعاذة باللّه من الشيطان الرجيم ، ففى الصحيحين عن سليمان بن صرد قال : استبّ رجلان عند النبىّ ﷺ ونحن عنده جلوس ، وأحدهما يسبّ صاحبه مغضبا قد احمرّ وجهه ، فقال النبى ﷺ : « إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد لو قال : أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم » فقالوا للرّجل : ألا تسمع ما يقول النبى ﷺ ؟ قال : إنى لست بمجنون .

(١) رواه البخارى ومسلم .

ثانيا : عليه بالاغتسال سراعا ، روى أبو نعيم بإسناده عن أبى مسلم الخولانى أنه كلّم معاوية بشىء وهو على المنبر فغضب ثم نزل فاغتسل ، ثم عاد إلى المنبر ، وقال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « إن الغضب من الشيطان ، والشيطان من النار ، والماء يطفئ النار فإذا غضب أحدكم فليغتسل » .

ثالثا : ثم ليجلس إن كان قائما وليضطجع إن كان جالسا ، عن أبى سعيد الخدرى أن النبىّ ﷺ قال فى خطبته : « ألا إن الغضب جمرة فى قلب ابن آدم ، أفما رأيتم إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه ، فمن أحسّ من ذلك بشىء فليلزق بالأرض »[1] .

وخرج الإمام أحمد وأبو داود من حديث أبى ذرّ أن النبى ﷺ قال : « إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجْلس ، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع » .

رابعا : وعليه أن يتجنّب الكلام فقد يصدر عنه حال غضبه ما يندم عنه . عن ابن عباس رضى اللّه عنهما عن النبى ﷺ قال : « إذا غضب أحدكم فليسكت » قالها ثلاثا[2] .

خامسا : عليه أن يتدبّر فى فضل كظم الغيظ ، وأن يتذكّر دَوْما قدوته الكبرى ـ سيد الوجود ـ عليه الصلاة والسلام عن معاذ بن أنس الجهنى عن النبى ﷺ قال : «من كظم غيظا وهو يستطيع أن ينفذه ، دعَاه اللّه يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتّى يخيّره فى أى الحور شاء »[3] .

وجاء أيضا عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « ما من جرعة أحبّ إلى اللّه من جرعة غيظ يكظمها عبد ، ما كظم عبد للّه إلا ملأ اللّه جوفه إيمانا » .

ولقد جاء فى وصف الذين أعدت لهم مغفرة اللّه وجنانه : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] .

فقه الدعوة

١ ـ الداعية المسلم المفترض فيه أن يكون حكيما بنفسيات المجتمع الذى هو فيه ، عارفا بأدوائه ؛ لأن تشخيص الداء نصف العلاج ، وأنت عليم بنصائح النبى ﷺ المختلفة رغم اتحاد السؤال فى الغالب : أوصنى يا رسول اللّه ، فهذا يوصيه بالتقوى ، وذلك بالاستقامة ، وثالث بطاعة أبوية . . وهلم جرا ، فهذا التنوع فى الإجابة يوحى

---

(١) أخرجه الإمامان أحمد والترمذى . (٢) أخرجه الإمام أحمد .
(٣) أخرجه الإمام أحمد ، وأبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه .

باختلاف حالات السائلين . . ومعرفة هذه الحالات شيء ضرورى للداعى إلى اللّه ؛ ليتمكّن من وصف الدواء المناسب .

٢ ــ أثر الغضب السيئ لا يعود لشخص الداعية نفسه فحسب ، بل وتترتب عليه آثار وخيمة على الدعوة نفسها ، حيث تصدر عنه فتاوى وأحكام لا تستند لدليل شرعى، بل تقوم على محاولات التبرير والدفاع مثلا . . . وهذه مطبّات طالما استدرج إليها رجال الإعلام الغربى ، والعربى العلمانى ، بعض المتصدّين للدعوة . . . كقضية المرأة وموقف الإسلام والغرب ، وإذا أحسنا الظن ــ وهذا هو الأولى ــ ببعض علمائنا اليوم ، فإننا ننتحل لمواقفهم المصيرية هذا السبب نفسه .

وحتى لا يكون كلامى همزا ولمزا ، فإننى أورد فقط ذلك الموقف الذى وقفه المصطفون من رجال الدعوة أمام أبناء الصّحوة فى إحدى حواضر العالم الإسلامى ، قد تكون المواقف الشخصية لبعض الجماعات غير إسلامية ! وقد تكون الإساءة لكبار تلك الصفوة من العلماء من قبل بعض المتحمّسين أو إن شئتم (المتهورين) .

وقد لا يعرف صغيرنا لكبيرنا قدره . . . كل هذه التصرفات مشينة ! ما فى ذلك ريب . . . ولكن الذى لا مبرّر له . . . ولا يستسيغه عقل ، ولا يتصوره فكر أن يكون لهذه المواقف الطائشة ردود فعل . . . !

وأن تكون الحظوظ النفسية دوافع ومبلورات لمواقف مصيرية . . . ! ــ ولا زلت أقول مع إحسان الظن ــ فأين أنتم من قول الحق سبحانه : ﴿ **وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ** ﴾ [آل عمران : ١٥٩] ، ﴿**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** ﴾ [فصلت : ٣٤] . إن تعجب فعجب من الذين يحاربون العنف . . . !

أولئك الذين وقفوا مع الجزار ينادون الحمل ، ويتهجمون عليه ويدعونه أن يكون بريئا وديعا . . . اللّه اللّه ! منطقنا يحكّم فينا عالمنا . . . فهذا الإعلام الغربى يكيل للإسلام السباب ويصفه بالقسوة ، ويصف الطفل الفلسطينى اليافع بالإرهابى ؛ لأنه يمسك بحجارة من طين وطنه !

بيد أن الجندى الإسرائيلى المدجج بأعتى أسلحة الدمار ، الماسك بالقنبلة العنقودية والنووية ، فإنه فى منطقهم : الشاب الوسيم المتحضّر الذى أفرزته الحضارة الغربية الإنسانية . . . . وهو المروض لهذه الوحوش الضوارى . يا علماءنا . . . يا آباءنا . . . يا دعاة الإسلام . . . يا ملح البلد من يصلح الملح إذا الملح فسد !

تطبيق

١ ــ ما أكثر حالات الطلاق التى تنتج عن الغضب ، فتكون لتلك الانفعالات النفسية التى تذكيها الوساوس الشيطانية ، آثار اجتماعية خطيرة فتنهدم البيوت ، وييتم الأطفال ، وترمّل الزوجات ، ثم يستفيق الغاضب من عفوته ، وينجلى عنه ضباب الغضب الذى عتم عنه الرؤيا ، فيستولى عليه الندم ، وتأخذه الحسرة كل مأخذ . . . وهنا يقف فى مفترق طرق خطير ويجد نفسه أمام امتحان عسير .

بين أن يسلّم لحكم اللّه . . ! . . أو أن يختار زوجته على غير شريعة اللّه ، ومن ثم يعاشرها فى الحرام فيثلة بذلك صدر الشيطان الرجيم الذى حقق هدفين خطيرين : الأوّل : حل الرباط الوثيق . وثانيهما : اقتراف جريمة الزنا .

٢ ــ بعض الحمقى لا يجد عند غضبه شيئا يسلط عليه جام غضبه غير الدين ــ والعياذ باللّه من الشيطان الرجيم ــ فيعلوا صياحهم باللعن . والسب والشتّم . . . ولكنهم لن ينسفوا فى الحقيقة عن أنفسهم شيئا ، بل تزداد النار بهم اشتعالا .

الحديث السابع عشر

عن أبى يعلى شدّاد بن أوس ـ رضى اللّه تعالى عنه ـ عن رسول اللّه ﷺ قال: « **إن اللّه كتب الإحسان على كل شىء ، فإذا قتلتُم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته** » رواه مسلم .

تخريج الحديث :

هذا الحديث خرجه مسلم دون البخارى من رواية أبى قلابة عن أبى الأشعث الصنعانى عن شداد بن أوس، وتركه البخارى؛ لأنه لم يخرج فى صحيحه لأبى الأشعث شيئا وهو شامى .

وقد روى نحوه من حديث سمرة عن النبى ﷺ قال : « إن اللّه ـ عزّ وجلّ ـ محسن فأحسنوا ، فإذا قتل أحدكم فليحسن مقتوله ، وإذا ذبح فليحد شفرته وليرح ذبيحته » خرجه ابن عدى .

ترجمة الراوى :

هو شدّاد بن أوس المكنّى بأبى يعلى ، وهو أنصارى خزرجى من بنى النجار ، ممن أوتى العلم والحكمة حيث روى عن رسول اللّه ﷺ خمسين حديثا ، سكن بيت المقدس ـ طهره الله ـ وتوفى عام ثمان وخمسين من الهجرة على الأشهر .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

العقائدية :

إن اللّه ـ عز وجل ـ كتب الإحسان على الناس فى كل شىء بدءا من عباداتهم وعلاقتهم فيما بينهم ، وفيما بينهم والخالق سبحانه .

كتب الإحسان : أى طلبه أو فرضه وأوجبه .

الإحسان : يطلق الإحسان على الرافة والرفق وعلى إتقان العمل أيضا .

على كل شىء : على هنا بمعنى : (فى) أو (إلى) وعبّر بعلى ؛ تنبيها منه ﷺ على أن يكون الإحسان مستعليا على كل شىء حتى يشمله ويعمه .

فإذا قتلتم : أى إذا أردتم القتل القصاص مثلا أو الذبح .

فأحسنوا القتلة : بعدم الإحراق أو التمثيل .

والإحسان بهذا المفهوم الأخير : أن تعبد اللّه وتراعيه وتستحيى أن يراك حيث نهاك، أو أن يفقدك حيث أمرك كأنك تراه . وإن لم يصل بك إيمانك إلى هذا المقام الأسمى فتيقن أنه يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

الأصولية :

(لفظ الكتاب يقتضى الوجوب عند أكثر الفقهاء الأصوليين ، خلافا لبعضهم ، قال عمرو بن أبى ربيعة :

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جرّ الذيول

وإنما استعمال لفظة الكتابة فى القرآن فيما هو واجب حتمى إما شرعا كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴾ [النساء : ١٠٣]، وقوله: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ [البقرة : ١٨٣] ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ ﴾ [البقرة : ٢١٦] ، أو فيما هو واقع لا محالة كقوله تعالى : ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ [المجادلة : ٢١]) (١) .

الفقهية :

يشرع هذا الحديث الشريف وجوب الإحسان حتى إلى الجانى أثناء إقامة الحد عليه، وإلى الذبيحة ، وفى الإجهاز على العدّو أيضا ، وسنبين كل ذلك فى حينه .

أ ــ إقامة الحدود :

لقد اتخذ الإسلام عدة تدابير ناجحة لقطع دابر الجريمة واستئصالها من جذورها ، ثم عمل على تجنيب الذى ترتب عليه حد من الحدود عقوبة الحد متخذا لذلك أساليب عدة منها :

ــ التشديد فى شهادة الشهود لضبط جريمة الزنا ــ وقد سبق بيان ذلك .

ــ استحباب العفو والستر ما لم يبلغ الإمام ؛ لقول الحق سبحانه : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾[الشورى : ٤٠] .

وعن أنس رضى اللّه عنه قال : ما رأيت رسول اللّه ﷺ رفع إليه شىء فيه قصاص إلا أمر بالعفو فيه (٢).

وجاء ماعز رضى اللّه عنه إلى النبى ﷺ فأقر عنده بالزنا أربع مرات فأمر برجمه

(١) نقلا عن : جامع العلوم والحكم ، ص ١٤٢ .
(٢) رواه أبو داود والنسائى .

وقال لهزال الذى أشار عليه بالاعتراف : « لو سترته بثوبك كان خيرا لك » (١) .

ـــ درء الحدود بالشبهات : فعن علقمة بن وائل عن أبيه ـــ رضى اللّه عنهما ـــ أن النبى ﷺ قال لامرأة أكرهت على الزنا : « اذهبى فقد غفر اللّه لك » (٢) .

ـــ كف الحد عند الإقرار : جاء ماعز الأسلمى رضى اللّه عنه إلى النبى ﷺ فقال: إنه قد زنى فأعرض عنه ثم جاء من شقه الآخر فقال : إنه زنى فأعرض عنه ، ثم جاء من شقه الآخر فقال : إنه قد زنى ، فأمر به فى الرابعة فأخرج إلى الحرة فرجم بالحجارة ، فلما وجد مس الحجارة فر يشتد ، فلقيه رجل معه لحى جمل فضربه به وضربه الناس حتى مات ، فذكروا ذلك للنبى ﷺ فقال : « هلا تركتموه » (٣) .

ـــ الإحسان إلى الحامل حتى تضع حملها ، والنفساء فى أيامها الأولى : فعن عمران بن حصين رضى اللّه عنه أن امرأة من جهينة أتت رسول اللّه ﷺ وهى حبلى من الزنا فقالت: يا نبى اللّه أصبت حدًا فأقمه على، فدعا نبى اللّه ﷺ وليها فقال : « أحسن إليها فإذا وضعت فأتنى بها » ، ففعل فأمر بها نبى الله ﷺ فَشُكَّتْ عليها ثيابها ثم أمر بها فرجمت ثم صلى عليها ، فقال له عمر : تصلى عليها يا نبى اللّه وقد زنت؟! فقال : «لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم ، وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها للّه تعالى ؟ ! » (٤) .

ـــ ومن الرأفة بالقتيل والإحسان إليه : عدم حرقه بالنار لأنه لا يحرق بالنار ؛ إلا رب النار ، وكذلك عدم المثلة به ؛ لأن النبى ﷺ نهى عن المثلة فقال : « من مثل بذى روح ثم لم يتب ، مثل اللّه به يوم القيامة » .

ب ـــ فى الجهاد وقتال الأعداء :

الإسلام ليس وحشا مفترسا يدفعه التعطش للدماء إلى التقتيل والتنكيل ، بل تفرض عليه الحروف فرضا للدفاع عن عقيدته ، وكيانه ووجوده ، وليزيح العوائق التى تريد صده وإعاقته .

لذا نجده رحيما حتى بمن يقاتلونه ، حيث يترك لهم فرص التراجع عن مبدأ القتال والمهادنة والمصالحة ، ثم لا يكون هو البادى بالشرارة الأولى . ولو حل المتعصبون العصابة التى تعمى أبصارهم عن الحقائق وتساموا قليلا عن هذا الحقد الدفين الذى أشربوه لوجدوا خطب الرسول ﷺ فى جنده تنم عن قلب يفيض بالإحسان ،

---

(١) رواه أبو داود والنسائى .
(٢) رواه أصحاب السنن .
(٣) رواه البخارى ومسلم وغيرهما .
(٤) رواه مسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى .

وصدر تملؤه الرحمة والحنان حيث وصى ﷺ جيشه فى غزوة مؤتة وهو يتأهب للرحيـل : « لا تقتلن امرأة ولا صغيرا ضرعًا (١)ولا كبيرا فانيًا ، ولا تحرقن نخلا ، ولا تقلعن شجرا ، ولا تهدموا بيتا » .

وعن ابن عباس ؛ أن النبى عليه السلام كان إذا بعث جيوشه قال : « لا تقتلوا أصحاب الصوامع » .

جـ ــ الرفق بالذبيحة :

جاء فى مسند الإمام أحمد عن معاوية بن قرة عن أبيه أن رجلا قال : يا رسول اللّه، إنى لأذبح الشاة وأنا أرحمها أو قال : إنى لأرحم الشاة أن أذبحها ، فقال : «والشاة إن رحمتها رحمك اللّه » .

١ــ ومن الرحمة بالذبيحة إحداد الشفرة ؛ لأن ذلك يعجل فى زهق الروح .

٢ــ ومواراة الشفرة نفسها عن الحيوان ؛ لأن رؤيته لها يزيد فى تعذيب الحيوان نفسيا، قال الإمام أحمد يروى عن ابن أسباط أنه قال : إن البهائم جبلت على كل شىء إلا أنها تعرف ربها وتخاف الموت .

وعن ابن عباس ــ رضى اللّه عنهما ــ قال: مرّ رسول اللّه ﷺ على رجل واضع رجله على صفحة شاة، وهو يحد شفرته وهى تَلْحظ إليه ببصرها، قال: « أفلا قبل هذا أو تريد أن تميتها موتتين ! ! » (٢) .

٣ ــ وأن يقودها إلى الذبح برفق وإحسان ، فعن أبى سعيد الخدرى رضى اللّه عنه قال: مرّ رسول اللّه ﷺ برجل وهو يجر شاة بأذنها ، فقال رسول اللّه ﷺ : «دع أذنها وخذ بسالفتها » (٣) ، والسالفة مقدم العنق ــ وعن ابن سيرين أن عمر رأى رجلا يسحب شاة برجلها ليذبحها ، فقال له : ويلك قدها إلى الموت قودا جميلا .

٤ ــ كما ورد أيضا التشديد فى النهى عن التمثيل بالحيوان ، عن ابن عمر رضى اللّه عنه قال : سمعت رسول اللّه ﷺ قال : « من مثل بذى روح ، ثم لم يتب مثل اللّه به يوم القيامة » (٤) .

٥ ــ كما ورد النهى عن قتل الحيوان دون هدف إحلاله والاستفادة من لحمه ، عن الشّريد رضى اللّه عنه قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « من قتل عصفورا عبثا

---

(١) ضرعًا : ضعيفًا.

(٢) رواه الطبرانى .

(٣) أخرجه ابن ماجه .

(٤) رواه أحمد .

عجّ (رفع صوته) إلى اللّه يوم القيامة يقول : يا رب إن فلانا قتلنى عبثا ولم يقتلنى منفعة » (١) .

٦ ــ وحرم الإسلام أن تصبّر البهائم وصبْرها حبْسها وضربها بالنبل أو الحجارة أو غيره حتى تموت، ففى الصحيحين عن أنس ؛ أن النبى ﷺ نهى أن تصبر البهائم ، وفيهما أيضا عن ابن عمر أنه مرّ بقومٍ نصبوا دجاجة يرمونها ، فقال ابن عمر : من فعل هذا ؟ إن رسول اللّه ﷺ لعن من فعل هذا .

٧ ــ وورد النهى عن التفريق بين الوالدة ورضيعها عن النبى ﷺ أنه : نهى أن تولَهَ وَالدة عن ولدها .

الأخلاقية :

إن ديننا الإسلامى دين تسامح وإحسان ، يحث على الإحسان إلى كل مخلوق قريبا كان أو بعيدا ، مسلما أو غير مسلم ؛ آدميا أو حيوانا .

أ ــ فالإحسان إلى القريب بتعهّده وصلته وأداء حقوقه المشروعة .

ب ــ والإحسان إلى البعيد بعدم إذايته ونصحه وإرشاده ، واحترام شعوره ، وعرضه وماله ، وتعليمه ، وتحمّل أذاه .

جـ ــ والإحسان إلى الذمى بمعاملته بالعدل ، والمحافظة عليه ، والدفاع عنه ، والتاريخ الإسلامى حافل بالأحداث التى تشهد بإحسان المسلمين إلى أهل الذمة ، ومعاملتهم بالحسنى ؛ لأن القاعدة التشريعية تقرّ لهم ما لنا وتوجب عليهم ما توجب علينا فى الأمور الدنيوية ، فهذا الفقيه الفاضل الشهاب القرافى ــ وهو من كبار أئمة التشريع فى الإسلام ــ فى كتابه الشهير (الفروق) يقول : (إن عقد الذمة يوجب لهم حقوقا علينا ؛ لأنهم فى جوارنا ، وفى خفارتنا ، وفى ذمة اللّه تعالى ، وذمة رسوله ﷺ ودين الإسلام ، فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة فى عرض أحدهم ، أو أىّ نوع من أنواع الأذية أو أعان على ذلك، فقد ضيع ذمة اللّه تعالى ، وذمّة رسوله ﷺ ، وذمة دين الإسلام) (٢) .

د ــ وكذلك ــ من أخلاق الإسلام ــ الإحسان إلى الحيوان مهما كان ؛ لأن الحق سبحانه أمر بالإحسان إلى ما ملكت أيماننا فقال : ﴿**وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ**

(١) رواه النسائى .

(٢) انظر : الفروق ، للشهاب القرافى .

وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾[النساء : ٣٦] .

وكما ورد فى الصحيح : أن اللّه غفر لبغىّ ــ زانية ــ بسقاية كلب، وعذب امرأة فى هرة حبستها حتى ماتت جوعا وعطشا .

السياسية :

إن النظم السياسية الغربية اليوم والتى تتشدّق بالرأفة والرحمة ، جديرة بالوقوف أمام التشريع الإسلامى موقف التلميذ من أستاذه لتقلم من أظفارها، وتحد من همجيتها وشراستها؛ لأنها فى الوقت الذى تدعى فيها رعاية جمعيات الرفق بالحيوان وتتعهّدها تبيح لنفسها إبادة الشعوب البريئة :(إن القرن العشرين يجيز لك مثلا أن تقتل أربعين ألفا فى الشمال الإفريقى فى مجزرة واحدة لأنهم أبرياء ، ولكن كيف يجيز لك أن تعاقب فردا واحدا لأنه مجرم أثيم ! !) (١) .

بيد أن أعداء الإسلام أنفسهم من المفكرين المنصفين يشهدون بسماحة الإسلام وإحسان ساساته إلى الشعوب والبلدان المفتوحة ، ومن هؤلاء الدكتور« جوستاف لوبون» حيث يقول فى كتابه : (حضارة العرب) : (سيرى القارئ حين نبحث فى فتوح العرب وأسباب انتصاراتهم : أن القوّة لم تكن عاملا فى انتشار القرآن ، وأن العرب تركوا المغلوبين أحرارًا فى أديانهم ، فإذا حدث أن انتحل بعض الشعوب النصرانية الإسلام واتخذ العربية لغة له ، فذلك لما كان يتصف به العرب الغالبون من ضروب العدل الذى لم يكن للناس عهد بمثله ، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التى لم تعرفها الأديان الأخرى) (٢) .

ويقول الكاتب نفسه فى موضع آخر :

(كان يمكن أن تعمى فتوح العرب الأولى أبصارهم ؛ فيقترفون من المظالم ما يقترفه الفاتحون عادة ؛ ويسيؤون معاملة المغلوبين ؛ ويكرهونهم على اعتناق دينهم الذى كانوا يرغبون فى نشره فى أنحاء العالم ، ولو فعلوا ذلك لتألّب عليهم جميع الأمم التى كانت بعد غير خاضعة لهم ولأصابهم مثل ما أصاب الصليبيّين عندما دخلوا بلاد سورية مؤخّرا ، ولكن الخلفاء السابقين الذين كان عندهم من العبقرية ما ندر وجوده فى دعاة الديانات الجديدة،أدركوا أن النظم والأديان ليست مما يفرض قسرا ، فعاملوا أهل سورية ومصر وأسبانية وكل قطر استولوا عليه بلطف عظيم ، تاركين لهم قوانينهم ونظمهم

---

(١) شبهات حول الإسلام ، لمحمد قطب ص ١٥٠ ، ط : دار الشروق ، ١٩٧٨ م .

(٢) نقلا عن الترجمة العربية للأستاذ محمد عادل زعيتر ،ص ١٤٥ .

ومعتقداتهم ، غير فارضين عليهم سوى جزية زهيدة فى مقابل حمايتهم لهم ، وحفظ الأمن بينهم ، والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب)(١) .

(ورحمة الفاتحين وتسامحهم كان من أسباب اتساع فتوحهم واعتناق كثير من الأمم لدينهم ونظمهم ولغتهم التى رسخت وقاومت جميع الغارات ، وبقيت قائمة حتى بعد توارى سلطان العرب عن مسرح العالم ، وإنْ أنكر ذلك المؤرّخون ، وتعدّ مصر أوضح دليل على ذلك ، فقد انتحلت مصر ما جاءها به العرب وحافظت عليه ولم يستطع الفاتحون الذين سبقوهم إليها من الفرس والإغريق والرومان أن يقلبوا الحضارة الفرعونية القديمة وأن يحملوها على ما أتوها به) (٢) .

ويقول أيضا فى موضع آخر :

(وقد اعترف بذلك التسامح بعض علماء أوربة المنصفين القليلين الذين أنعموا النظر فى تاريخ العرب ، قال « روبرتسون » فى كتابه (تاريخ شارلكن) : إن المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الجهاد والتسامح نحو أتباع الأديان الأخرى الذين غلبوهم وتركوهم أحرارًا فى إقامة شعائرهم الدينية) .

وقال « ميشود » فى كتابه (تاريخ الحروب الصليبية) : إن الإسلام الذى أمر بالجهاد متسامح نحو أتباع الأديان الأخرى ، وهو قد أعفى البطاركة والرهبان وخدمهم من الضرائب ، وقد حرم قتل الرهبان ـ على الخصوص ـ لعكوفهم على العبادات ، ولم يمس عمر بن الخطاب النصارى بسوء حين فتح القدس ، وقد ذبح الصليبيّون المسلمين ، وحرقوا اليهود حينما دخلوها .

الصناعية :

إن إحسان المرء فى عمله يقضى إتقانه للصناعة التى يصنعها وللمهنة التى يمتهنها؛ لأنه يراقب ربه ، كما أن الأمر بإحداد الشفرة يحفّزنا على الخوض فى غمار الصناعة الحديدية الخفيفة منها والثقيلة ، قال تعالى : ﴿ **وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ** ﴾[الحديد : ٢٥] .

فقه الدعوة

على الداعى أن يحسن إلى من يدعوهم،فيدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ** ﴾[النحل : ١٢٥] .

(١)نفس المصدر السابق ، ص ١٤٦ .

(٢)نفس المصدر ، ص ٦٢٩ .

وإن ناقشوه فى دعوته فليتقبّل نقاشهم بصدر رحب وأن يقنعهم ـ ما استطاع ـ بالدليل والحجة .

ليست الدعوة فى سبيل اللّه مجرّد عواطف متأججة ، وعبارات بليغة ، ونيات خالصة فحسب ، بل هى دعوة بالفقه والتبصر : ﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي** ﴾ [يوسف : ١٠٨].

والعامّة تزدرى كل من تصدّى للدعوة والإمامة ويعجز عن أسئلتها الفقهية ، فلقد فقد أحدهم مكانته حينما سئل عن بعض أحكام الزكاة فبهت !

تطبيق

١ ـ شتان ما بين القصاص فى الإسلام ، وأحكام الإعدام التى تتم اليوم بتعسف واستبداد .

٢ ـ يعيب بعض رواد الأيديولوجيات نظام الإسلام ، ويتهمونه بالقسوة والغلظة، وهو فى الحقيقة منها براء ؛ لأنه حينما شرع القصاص كان أشد رحمة بالمجتمع لأنه جنّبه الاضطراب الأمنى ، والقلق النفسى ، والانفصام الاجتماعى ، والتدهور الأخلاقى ، كما جنب الفرد هو الآخر كثيرا من الأخطار والأمراض الصحية والأخلاقية قال تعالى : ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ**﴾[البقرة : ١٧٩].

الحديث الثامن عشر

عن أبى ذر جندب بن جنادة ، وأبى عبد الرحمن معاذ بن جبل ـ رضى الله تعالى عنهما ـ عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم قال :

« **اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن** »
رواه الترمذى وقال: حديث حسن ، وفى بعض النسخ : حسن صحيح .

تخريج الحديث :

هذا الحديث خرجه الترمذى من رواية سفيان الثورى عن حبيب بن أبى ثابت عن ميمون بن أبى شبيب عن أبى ذرّ ، وخرجه أيضا بهذا الإسناد عن ميمون عن معاذ ، وذكر عن شيخه محمود بن غيلان أنه قال : حديث أبى ذرّ أصحّ ، فهذا الحديث قد اختلف فى إسناده فقيل فيه : عن حبيب عن ميمون ؛ أن النبىّ ﷺ وصى بذلك . مرسلا، ورجح الذارقطنى هذا المرسل ، وقد حسن الترمذى هذا الحديث ، وما وقع فى بعض النسخ من تصحيحه فبعيد ، ولكن الحاكم خرجه، وقال: صحيح على شرط الشيخين ، وهو وهم من وجهين :

أحدهما : أن ميمون بن أبى شبيب ويقال : ابن شبيب لم يخرج له البخارى فى صحيحه شيئا ولا مسلم إلا فى مقدمة كتابه عن المغيرة بن شعبة .

والثانى : أن ميمون بن شبيب لم يصح سماعه من أحد من الصحابة ، قال الفلاس: ليس من روايته سمعت، ولم أخبر أن أحدا يزعم أنه سمع فى شىء من أصحاب النبى ﷺ، وقال أبوحاتم الرازى: روايته عن أبى ذرّ وعائشة غير متصلة ،

اتق الله : لم يقل : اتقيا ؛ لأنه خاطب كلا منهما على حدة ، والتقوى فى اللغة : هى اتخاذ الوقاية من كل ما يخاف منه . وفى الشرع : كلمة جامعة لفعل المامورات وترك المنهيات .

حيثما : « حيث » ظرف مكان زيدت فيها « ما » لإفادة التعميم ، أى : اتق الله فى أى مكان كنت فيه وفى أى زمان.

وخالق الناس : أى عامل الناس .

بخلق : « الخُلق » بضم اللام : الطبع والسّجية وهو فى العرف صفة راسخة فى النفس تصدر عنها الأفعال بسهولة من غير سابق تفكير ،فإن كانت الأفعال الصادرة عنها محمودة عقلا وشرعا ،سميت هذه الصفة خلقا حسنا وإن كانت مذمومة عقلا وشرعا سميت خلقا سيّئا . ا . هـ . من مختصر النبراوى على الأربعين النووية ، لعبد الرحيم فرج الجندى .

وقال أبو داود : لم يدرك عائشة ولم ير عليّا ، وحينئذ فلم يدرك معاذا بطريق الأولى ، وروى البخارى عن شيخه علىّ بن المدينى وأبى زرعة وأبى حاتم وغيرهم أن الحديث لا يتصل إلا بصحّة اللقى ، وكلام الإمام أحمد يدلّ على ذلك ، ونصّ عليه الشافعى فى الرسالة ، وهذا كله خلاف رأى مسلم ــ رحمه اللّه ــ وقد روى عن النبى ﷺ أنه وصّى بهذه الوصية معاذا وأبا ذرّ من وجوه أخر .

ترجمة الراويين :

هما أبو ذر جندب بن جنادة ــ بتثليث دال جندب ــ أسلم بمكة ، وروى عنه أنه قال: أنا رابع الإسلام يعنى أهله، وصفه رسول اللّه ﷺ بأنه أصدق الناس لهجة، فقال: « ما أظلت الزرقاء ــ السماء ــ ولا أقلّت الغبراء ــ الأرض ــ أصْدق لهجة من أبى ذرّ». روى له مائتا حديث وواحد وثمانون حديثا ،مات بمحل قرب المدينة يدعى الربذة.

وأبو عبد الرحمن معاذ بن جبل الأنصارى أسلم وسنّه لا تتجاوز الثامنة عشرة سنة، وشهد المشاهد كلها ، ومن مناقبه أنه من الذين حفظوا القرآن فى حياة النبى ﷺ، وقال فيه: « أعلم الناس بالحلال والحرام معاذ بن جبل » (١) .

سبب ورود الحديث :

سبب ورود هذا الحديث أن أبا ذرّ الغفارى رضى اللّه عنه لما أسلم بمكة قال له النبى ﷺ: « الحق بقومك رجاء أن ينفعهم اللّه بك» . فلما رأى حرصه على المقام معه بمكة، وعلم ﷺ أنه لا يقدر على ذلك قال: « اتق اللّه حيثما كنت . . . » الحديث . فإنه أولى لك من الإقامة بمكة ، وهو أمر عام يشمل جميع المسلمين ، فلا يختصّ به مخاطب دون مخاطب.

دروس وعبر من كلام سيد البشر

العقائدية :

« اتق اللّه حيثما كنت » .

فلا تتقيّد التقوى بمكان دون آخر، أو بزمان دون زمان ؛ لأن اللّه تعالى لا تحده جهة، بل هو الخالق للمكان والزمان ﴿ **فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّه** ﴾[البقرة: ١١٥]. وأنه لا يحده المقدار، ولا تحويه الأقطار، ولا تحيط به الجهات، ولا تكتنفه الأرضون والسموات.

وهو مع ذلك قريب من كل موجود كما قال عن نفسه: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ**

(١)رواه الترمذى بسند صحيح من حديث أنس .

مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق : ١٦] .

وهو على كل شىء شهيد : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [المجادلة : ٧] .

ولا يماثل قربه قرب الأجسام ، كما لا تماثل ذاته ذات الأجسام ، وأنه لا يحل فى شىء ولا يحل فيه شىء تعالى عن أن يحويه مكان ، أو أن يحده زمان ، بل كان قبل أن يخلق الزمان والمكان .

علم السلوك :

حقيقة الولى التقى سنفصّلها ــ إن شاء اللّه ــ فى الحديث الثامن والثلاثين ، ولكن تجدر الإشارة هنا إلى أن ننبّه إلى خطأ التصوّر الشائع للولىّ ، حيث ترتسم فى الأذهان أنه هو ذلك الدرويش ، أو المعتوه ، أو من يتجلبب الجلباب الأخضر ، ويطيل لحيته ، ويشعث رأسه ، ويغبّر وجهه .

ولكن الولى هو من اتصف بما وصف اللّه به أولياءه حيث قال سبحانه :﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [يونس:٦٢،٦٣] .

والتقوى هى امتثال الأوامر واجتناب النواهى ، واتخاذ الطاعات وقاية وحاجزا يقى المتّقى من النار ، وعلى هذا فالولىّ لا يكون وليّا للرحمن إلا إذا آمن باللّه واتقاه ،ولا يكون متقيا للّه إلا إذا عمل بما يرضى اللّه ــ عزّ وجل ــ وتحلّى بهذه الخلال : ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ . وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣ ــ ١٣٥] .

وأما إذا ادّعى الولاية ادعاء صوريا ، وتحلل من جميع ما فرض اللّه عليه بحجّة ارتقائه سدة اليقين ــ الباطلة ــ فإنه يصبح بذلك وليّا للشيطان:﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة :٢٥٧] .

الفقهيــة :

« اتق اللّه حيثما كنت » .

وإقامة الصلاة من أهم مظاهر التقوى ، فإذا كان المكلف مأمورا بالتقوى حيثما كان فهوأيضا مطالب بأداء الصلاة فى أى مكان كان فيه من هذا الكون الفسيح ، ومن هذا المنطلق يتحدّد الجواب على بعض الأسئلة المستجدة فى هذا الموضوع :

أ ــ كالصلاة على سطح القمر ، أو فى السفينة الفضائية حيث يصلّى الرائد الفضائى كيفما تأتّى له ذلك ، وبالكيفية التى يستطيعها ، ولقد أثبتت زيارة أحد المسلمين للقمر مدى استطاعة الإنسان أداء فريضة الصلاة حتى فى المجال الذى يفقد الكائن فيه ثقله ، ويتحرر من القوى الجاذبة .

ب ــ وكذلك الصلاة فى الغوّاصة التى تغوص مئات الأقدام فى أعماق البحار والمحيطات ، فلا تمنع هذه الوضعية المسلم من أداء صلاته بأى حال من الأحوال لأنها لم تحل دون التسبيح والدعاء قال تعالى : ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء : ٨٧] .

جـ ــ الصلاة فى قعر الأرض كحفار الآبار ، وعمال المناجم والمساجين فى الأنفاق والخدود كل أولئك يصلون الخمس ويصومون الشهر ، ولا يسقط عنهم شيئاً ذلك الوضع الذى هم فيه .

الاجتماعية :

١ ــ قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣]
هكذا تسقط جميع الفوارق والحواجز الأرضية من شعوبية،ووطنية، وعرقية ، ومالية ، ويرتفع الميزان الأوحد الذى يرفع اللّه به أقواما ويخفض آخرين ؛ إنه معيار التقوى ، ومن هنا تنتفى جميع الادعاءات الزائفة لبعض الشعوب المغرورة بالأفضلية والمجنونة بالعظمة،كأولئك الذين يدعون أنهم شعب اللّه المختار. . .الذى يجوز له أن يسحق شعبا أعزل ويبيد الأبرياء . . . لأنه موعود بتلك الأرض !

٢ ــ كما أن التقوى هى العامل الأساسى فى تمتين وتمديد العلاقات الاجتماعية وتتحلّل لا محالة كل الروابط المبنية علَى غير التقوى كالنسب ، والتجارة والزمالة . . . و . . و . . . قال تعالى : ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف : ٦٧] .

الأخلاقية :

« وخالق الناس بخلق حسن » .

أولى الإسلام الأخلاق الحميدة عناية هامة :

١ ـ حيث جعل العبرة بالجوهر لا بالمظهر . . « إنّ اللّه لا ينظر إلى صوركم ، ولا إلى أجسامكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم »(١) .

٢ ـ حصر البر ـ الجامع لأعمال الخير ـ فى الخلق الحسن،عن النواس بن سمعان: « البرّ حسن الخلق » (٢) ، وعن عائشة ـ رضى اللّه عنها ـ قالت :سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم »(٣) .

٣ ـ وهذا الثناء القرآنى على رسول اللّه ﷺ : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] .

٤ ـ كما فضل رسول اللّه ﷺ صاحب الخلق الحسن على سائر البشر فقال فى حديثه المروى عن ابن عمر رضى اللّه عنهما : « خياركم أحاسنكم أخلاقا » (٤) .

٥ ـ وليس ثمة أثقل فى ميزان المؤمن يوم العرض على اللّه ، من الأخلاق الكريمة لما رواه أبو الدرداء رضى اللّه عنه ؛ أن النبىّ ﷺ قال : « ما من شىء أثقل فى ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن ، وإن اللّه ليبغض الفاحش البذىء » (٥) .

وعن جابر رضى اللّه عنه عن النبى ﷺ قال : « إن من أحبكم إلىّ وأقربكم منّى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا » (٦) .

هذه الأخلاق الحميدة التى تعود بالخير على الدعوة نفسها ، وعلى المجتمع وتجنبه ويلات وخسارات عظيمة . . .وتعود أيضا على ذى الأخلاق نفسه من جهة أخرى:

أولا : حيث تغرس وشائج المحبة فى الوسط الذى يتعامل معه المتخلق .

ثانيا: وتجنبه ـ أخلاقه ـ مكايد الأعداء،وتحفظه من شرورهم،قال تعالى : **﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾** [فصلت: ٣٤] .

النفسية :

« وأتبع السيئة الحسنة تمحها » .

علاج نبوى للنفس البشرية، ونصيحة غالية لكل من اقترف ذنبا ، وارتكب معصية حتى لا يصاب بالإحباط وحتى لا يقتله الندم ، وتأخذه الحسرة كل مأخذ ﴿ يَا وَيْلَتَىٰ

(١) رواه مسلم وابن ماجه .
(٢) رواه مسلم .
(٣) رواه أبو داود ، والترمذى ، وابن حبان ، والحاكم .
(٤) رواه الترمذى ، ومسلم ، والبخارى .
(٥) رواه الترمذى ، وأبو داود .
(٦) رواه الترمذى .

ليْتني لَمْ أَتَّخذْ فُلانًا خليلا ﴾ [الفرقان:٢٨] ، ﴿ فَيقُولُ يا ليْتني لَمْ أُوتَ كتَابيَه ﴾ [الحاقة:٢٥]، ﴿ ولا أُقْسمُ بالنَّفْسِ اللَّوَّامة ﴾ [القيامة:٢] .

عليه أن يسارع بتكفيرها ، وما تكفيرها بالأمر الجلل بل إتباعها بحسنة . . . فلا تلبث هذه (أى الحسنة) حتى تمحو أثرها ، وتغطى رسمها ، وتقلع بعد التوبة نكتها من القلب .

ومن ثم تصبح المعصية حافزا قوّيا ودافعا كبيرًا لمن له مثقال ذرة من الإيمان إلى الطاعات وفعل المبرّات .

ولقد أصيب أقوام بانتكاسة نفسية خطيرة ، وبالتالى انعكست على أخلاقهم وسلوكياتهم حينما جهلوا هذه الحكمة النبوية الشريفة فحكموا على أنفسهم بالشقاء الدائم ـ والعياذ باللّه ـ فيقول قائلهم : ما دمت قد فعلت كذا وكذا وارتكبت هذا الجرم الشنيع فلا فائدة من فعل الخير بعدئذ !

السياسية :

قال تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧] .

إذًا هذه صفات المتقين الذين لا يوالون غير رب العالمين ، فلا يوالون اليهود ولا النصارى ، ولا ينتهجون نهجا غير النهج الرّبانى ، ولا يولون وجوههم قبل الفلسفات المادية الشرقية والغربية، فعندهم ما يغنيهم عن كل ذلك . قال أبو العالية : (كانت اليهود تقبل قبل المغرب ، وكانت النصارى تقبل قبل المشرق ، فقال اللّه تعالى : ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ [البقرة:١٧٧]) (١).

العسكرية :

إن المعارك الإسلامية المظفّرة والتى يسجّلها تاريخنا المجيد باعتزاز وافتخار لم ينتصر فيها قادتها بالشروط المادّية المتاحة لهم والأسلحة المتوفّرة لديهم فحسب،بل ترجع أساسا

(١) مختصر تفسير ابن كثير ، لمحمد على الصابونى ١ / ١٥٣ .

إلى تسلحهم بما هو أقوى من ذلك ألا وهو : سلاح الإيمان ، سلاح التقوى ، قال اللّه تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُون** ﴾ [النحل : ١٢٨] ،وقال سبحانه : ﴿**وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا** ﴾ [آل عمران : ١٢٠] .

ولقد كان الخليفة ابن الخطاب رضى اللّه عنه يوصى جنده بالتقوى والورع مبينًا أنّهم لاينصرون بكثرة العدد ولا بقوة العدّة بل بانتصارهم على أنفسهم وتغلبّهم على شهواتهم .

ولنتمعن قليلا فى الظروف التعْبَويَة العامّة فى كل من معركة بدر الكبرى وغزوة حنْين ، ففى بدر حقق المسلمون أول انتصار عسكرى باهر رغم أن عددهم لا يتجاوز ثلاثمائة وأربعة عشر رجلا حسب رواية ابن إسحاق ، بينما كان جيش المشركين يناهز التسعمائة مقاتل ، ومع ذلك قتل منهم سبعون وأسر سبعون بينما ضاقت على اثنى عشر ألف مقاتل من المسلمين الأرض بما رحبت ﴿ **وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِين** ﴾ [التوبة : ٢٥] .

الاقتصادية :

لقد تكفّل الحق سبحانه برزق المتقين فقال : ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِب** ﴾ [الطلاق : ٢ ، ٣] .

والتكفّل إنما يكون بتسهيل أسباب الرزق ، والإعانة على أعباء الاسترزاق الشاقّة والذى يتق اللّه سبحانه حيثما حّل وارتحل ، وسكن وتحرّك فلا شك فى إخلاصه فى عمله، وأدائه على الوجه الأكمل باحترام المواعيد الزمانية، والمقاييس الصناعية، والحرص على الجودة والإتقان ، قال تعالى : ﴿ **قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ** ﴾[هود : ٨٧] .

ثم ها هو إخلاص الغنى الخبير يتجلى فى السد الذى أقامه ذو القرنين ﴿ **قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًا . قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا . آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا . فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا** ﴾[الكهف : ٩٤ ــ ٩٧] هذا من جهة .

ومن جهة أخرى ، فإن المجتمع الذى تقوم أسسه على التقوى مجتمع متكافل لا تتداول أمواله طائفة معينة أو طبقة معينة تحتكره ، بل يتعهّد أغنياؤه فقراءه فلا تهدّده

أشباح المجاعة أو الاستعباد أو الاسترقاق أو الاستدمار أو تحديد النسل وتنظيمه .

فقه الدعـوة

١ ــ عدم الإفراط فى معاتبة المسيئين وتوبيخ المذنبين ؛ لأن ذلك يورث البعض منهم الانكسار والمذلة ، ويحفز البعض على الإصرار فى الإساءة ، وهاهو يعقوب عليه السلام بحكمته لا يكشف لأبنائه عن حقيقتهم التى يعرفها مسبّقا من إرهاصات بيّنة ، ومن خلال مواقفهم وعواطفهم نحو يوسف عليه السلام المقرب عليهم إلى قلب والدهم، والمدلّل فى نظرهم .

فهم حينما طلبوا من أبيهم إرسال يوسف معهم ﴿ **قالُوا يا أبَانَا ما لكَ لا تأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ . أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ ويَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون** ﴾[يوسف :١٢,١١].

أجابهم بتلطف ودون أن يصفهم أكثر من ﴿ **وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ** ﴾ قال تعالى: ﴿ **قَالَ إِنّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ** ﴾[يوسف : ١٣] .

ونفس الأسلوب اتبعه معهم حينما عادوا من فعْلَتِهم متظاهرين بالحزن والبكاء، ورغم توفّر جميع الدلائل ليعقوب عليه السلام على صحة حدْسه فى أبنائه وهى :

أ ــ ﴿ **قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا** ﴾[يوسف : ٥].

ب ــ مجيؤهم بالقميص غير ممزّق ولا مخرق مما يفنّد افتراس الذئب له ، ومع كل هذا عقّب على افتراء أبنائه عليه فقال : ﴿ **قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ** ﴾[يوسف : ١٨] .

٢ ــ الاعتماد فى الدعوة للإسلام على الأخلاق الحسنة ومعاملة المدعـوّين ــ وغيرهم ــ معاملة أخلاقية طيبة ، بعيادة مريضهم ، وإعانة محتاجهم ، ونصر المظلوم فيهم، وإغاثة ملهوفهم ، وإعالة يتيمهم .

لما للأخلاق من تأثير بالغ ، أما إذا كان الناس لا يرون داعيهم إلا على المنبر ، فإن كلامه لا يفارق مكانه أبدا .

تطبيق

١ ــ « اتق اللّه حيثما كنت » . رغم أن التعبير النبوى دقيق وبليغ،ومع ذلك فلا زال يسود اعتقاد خطير مفاده أن التقوى تتوقّف على أزمنة وأمكنة كرمضان مثلا الذى

يعتبره البعض موسما دينيا « وحيدا » يتوب فيه العاصى ويصلى فيه تارك الصلاة ، بل ويحجم الخمار عن معاقرة أم الخبائث قبل رمضان بأجل ـ فى بعض الجهات ـ ثم لا يلبث رمضان أن ينتهى فتنطلق قوى الشر وكأنها حلت من عقالها .

وكذلك الاعتقاد نفسه فى الأمكنة المقدّسة . . . والمساجد ، والحقيقة أن هذه التصوّرات من العقيدة النصرانية الباطلة ومنبثق من هيمنة الاستعمار المسيحى على البلاد الإسلامية أمداً من الدّهر .

٢ ـ ويتصوّر البعض أن الحسنة تمحها السيئة إذا أردفت عليها، ولكن الحديث يقرّر العكس ، (وإنما كانت الحسنة تمحو السيئة ؛ لأن الشيء يزول بضدّه ،كما نراه فى المحسوسات ، وكان مقتضى ذلك أن الحسنات تمحوها السيئات ، إلا أن فضل اللّه عظيم، ومن هذا الفضل أن السيئة لا تمحو الحسنة ، ما دام العبد مؤمنا)(١) .

وأما حديث :« إياكم والحسد ، فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » ، فمعناه أن المحسود يأخذ من حسنات الحاسد كثيرا حتى يذهب بها ، والحديث رواه أبو داود عن أبى هريرة .

٣ ـ اعتماد البعض على أسلوب فظ غليظ فى الدعوة للّه ، وينصّبون من أنفسهم قضاة لا دعاة يأمرون بجفاء وينهون بغلظة تنفّر القلوب منهم ، وربما مما يدعون إليه،فيكونون سببا فى عزل الكثيرين عن الإسلام من حيث لا يقصدون أو حتّى لا يشعرون ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً . الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف : ١٠٣ ، ١٠٤] .

---

(١) مختصر النبراوى على الأربعين النووية ص ٦٩ ، ط : القاهرة .

الحديث التاسع عشر

عن أبى العباس عبد اللّه بن عباس ــ رضى اللّه عنهما ــ قال: كنت خلف النبى ﷺ ، فقال : « **يا غلام ، إنى أعلمك كلمات :**

احفظ اللّه يحفظك ، احفظ اللّه تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل اللّه ، وإذا استعنت فاستعن باللّه ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه اللّه لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضرّوك إلا بشىء قد كتبه اللّه عليك رفعت الأقلام وجفّت الصحف » رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

وفى رواية غير الترمذى : « **احفظ اللّه تجده أمامك ، تعرّف إلى اللّه فى الرخاء يعرفك فى الشدّة ، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا** » .

تخريج الحديث :

خرجه الترمذى من رواية حنش الصنعانى عن ابن عباس ، وخرجه الإمام أحمد من حديث حنش الصنعانى مع إسنادين آخرين منقطعين ولم يميّز لفظ بعضها من بعض .

واللفظ الذى عزاه إلى غير الترمذى رواه عبد بن حميد فى مسنده بإسناد ضعيف عن عطاء عن ابن عباس ، وكذلك عزاه ابن الصلاح فى الأحاديث الكلية التى هى أصْل أربعين الشيخ ــ رحمه اللّه ــ إلى عبد بن حميد وغيره .

وقد روى هذا الحديث عن ابن عباس من طرق كثيرة من رواية ابنه علىّ ومولاه

خلف النبىّ : أى راكبا خلف النبى ﷺ على بغلته .
يا غلام : ناداه بيا غلام لصغرسنه ؛ لأنه كان ابن عشر سنين .
كلمات : جمع كلمة ، والمراد بها الجملة المفيدة .
احفظ اللّه : احفظ دين اللّه .
يحفظك : بأن يحفظه فى نفسه وماله .
تجاهك : تجد معونته لديك .
رفعت الأقلام : كناية على القضاء الأزلى عن وفق العلم .
الكرب : الشدة .

عكرمة وعطاء بن أبى رباح وعمرو بن دينار وعبيد اللّه بن عبد اللّه، وعمر مولى عفرة وابن أبى مليكة وغيرهم .

وأصح الطرق كلها طريق حنش الصنعانى التى خرجها الترمذى كذا قاله ابن منده وغيره .

ترجمة الراوى :

هو عبد اللّه بن عباس ـ رضى اللّه عنهما ـ ولد قبل الهجرة بثلاث سنين وحنكه النبى ﷺ بريقه ودعا له بقوله : « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » فعنه رضى اللّه عنه وعن أبيه قال : ضمنى النبىّ ﷺ إلى صدره وقال : « اللهم علمه الحكمة»(١).

وعنه أيضا قال : دعا لى رسول اللّه ﷺ أن يؤتينى الحكمة مرتين (٢) .

وكان طويلا جسيما أبيض وسيما صبيح الوجه ، قال فيه عمر بن الخطاب : عبد اللّه فتى الكهول ، له لسان سيول ، وقلب عقول .

وقال مسروق : كنت إذا رأيت ابن عباس قلت : أجمل الناس ، فإذا تكلّم قلت: أفصح الناس ، فإذا تحدث قلت : أعلم الناس ، وفى آخرعمره كفّ بصره ، وتوفىّ بالطائف سنة ثمان وستّين ، وهو ابن سبعين سنة وصلى عليه محمد بن الحنفية ـ رضى اللّه عنهم أجمعين .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

العقائدية :

« احفظ اللّه . . . . »

١ ـ يجدر بنا أن نشير هنا إلى بعض المغالطات التى أشاعتها أمة التضليل ـ اليهود ـ لتشويه العقيدة الإسلامية وهزّها من أسّها فى النفوس ؛ إذْ يترصّدون المتشابه من القرآن ابتغاء الفتنة وابتغاء التأويل حسب أهوائهم وميولهم، ويترقّبون المجازات العقلية والكنايات البلاغية فى الأحاديث النبّوية ليفعلوا بها مثلما يحاولون فعله مع القرآن الكريم نفسه .

فهم حينما سمعوا قول الحق سبحانه : ﴿ من ذَا الَّذي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حسَنًا فيُضاعفهُ لهُ أضعافًا كثيرةً ﴾[البقرة : ٢٤٥] ، قالوا : يا محمد افتقر ربك فسأل عباده

---

(١) رواه البخارى والترمذى .

(٢) رواه الترمذى بسند حسن .

القرض، فأنزل اللّه : ﴿ لقدْ سمعَ اللَّهُ قوْلَ الَّذين قَالُوا إنَّ اللَّه فقيرٌ ونَحْنُ أَغْنيَاءُ سنَكْتُبُ ما قالُوا ﴾ [آل عمران : ١٨١] .

لهذا آثرت التنبيه إلى ما يقال عن قوله ﷺ : « احفظ اللّه » من ادعاءات مسمومة، ولأبيّن أن حفظ اللّه حفظ شريعته وتطبيق أحكام كتابه واجتناب محرماته .

٢ ــ « إذا سألت فاسأل اللّه » . إن السؤال والاستعانة باللّه من مقتضيات التوحيد الخالص ؛ لأنك إن وليت وجهك بعد صلاتك للضريح الفلانى ، أو للولى العلانى ، أو أن تقول قول البعض : باللّه ويا سيدى عبد القادر، وباللّه ويا ديوان الصالحين، أو نظرة يا فلان، فقد اعتقدت أن ما يملكه هذا الشريك لا يملكه اللّه أو هو أكرم من اللّه، وبالتالى فلا حاجة من عبادة اللّه الذى لم تعتقد فيه الكمال والقدرة على جلب النفع ودفع الضر لوحده !

إذًا فمن أساسيات التوحيد وركائزه التمحض فى الاستعانة والسؤال من اللّه وحده؛ لأنه هو القادر وحد وما دونه من نبى أو ولى لا يملك لنفسه، ناهيك عن غيره جلب الخير بله عن دفع الشر ، وها هو الحق سبحانه ، يقول صفيه محمد ﷺ :

﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾ [الأعراف : ١٨٨] ، وقال تعالى : ﴿ يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ ﴾ [الحج : ١٢] .

٣ ــ « رفعت الأقلام وجفت الصحف » . المقصود من ذلك بيان أن ما علم اللّه فى الأزل أنه سيكون قد أراده وقضاه أزلا ، وما علم أنه لا يكون فقد أراد أزلا أنه لن يكون ، فالكلام كناية عن القدر الأزلى وفق علمه سبحانه ، وقيل : إن الكتابة حقيقية والمراد بالأقلام والصحف القلم الذى كتب فى اللوح المحفوظ ــ بأمر اللّه ــ كل شىء سيكون إلى يوم القيامة ، وجمع الأقلام والصحف للتعظيم .

٤ ــ « . . تعرف إلى اللّه . . » . التعرف إلى غيرك : أن تفعل ما يكون سببا فى معرفته إياك ، وذلك مستحيل فى حق اللّه تعالى ، قال عز من قائل : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ [النجم : ٣٢] .

فالمقصود لازمه وهو أن تتقرب إلى اللّه تعالى بعمل الطاعات ، وترك المحرمات حتى يحبك .

٥ ــ أن هذه الدقة المتناهية ، وهذا النظام المحكم ، وهذه القوانين الكونية

المطّردة، والسنن الإلهية المضبوطة ، دليل قاطع على عظمة الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ يدفع بالتأمل المتدبر المتحرر إلى الإيمان بوحدانية المولى ـ عز وجل ـ والاعتقاد فى تنزهه عن النقائص ، وفى مخالفته للحوادث .

ودليل أيضا على أن الكون إنما هو مبنى على أسباب ومقدمات لا على عشوائية وخزعبلات ، فالنصر مثلا نتيجة سببها الصبر ، واليسر نتيجة تعقب العسر ، والزواج سبب فى الذرية .

غير أن هذه الأسباب لا توجد النتائج بها بل عندها ، والموفق للأسباب الخالق للنتائج هو اللّه سبحانه .

الأخلاقية :

لا وجود للصراع بين الأجيال بين القدماء والمولدين فى المجتمع الإسلامى؛ لأن هذا التنوع الطبيعى ضرورى أيضا للتكافل ولتوريث المآثر والقيم ﴿ ووصّى بها إبراهيمُ بنيه ويعقوبُ يا بنيَّ إنَّ اللَّه اصطفى لكمُ الدِّينَ فلا تموتُنَّ إلاَّ وأنتم مُّسلمون﴾ [البقرة: ١٣٢]، ومن هذا الحديث النبوى نستنبط الأخلاقيات العالية التالية :

أ ـ تقديم أهل الفضل وذوى الجاه والسن فى الركوب .

ب ـ التواضع ، فلقد ضرب الرسول الكريم أروع الأمثلة له : حينما أردف ـ وهو على جلالة قدره ـ غلاما يافعا عبد اللّه بن عباس، وكذلك حينما كلمه وأوصاه.

التربوية :

« يا غلام إنى أعلمك كلمات . . . احفظ اللّه . . . » .

١ ـ الحرص على تعليم الأبناء وتثقيفهم وتكوينهم مع مراعاة كل مرحلة من مراحل حياتهم التى يمرون بها ، وقدرة استيعابهم لنتبع معهم الأساليب التعليمية التربوية المناسبة لتلك الحالة .

كل هذا تستخلصه من مفتتح الحديث النبوى خاصة إذا علمت سن عبد اللّه وطرق التحصيل آنذاك التى تعتمد على الحفظ لا على التدوين ، ومن ثم خفف النبى ﷺ على الصبى فقال : « أعلمك كلمات » بحيث لا تكون طويلة مملة ينسيه آخرها أولّها . ولا بالقصيرة المخلة للمعنى الذى قد لا يرتسم فى ذهن الغلام تصوره .

٢ ـ علينا أن نغرس مبادئ الإيمان فى نفوس الأبناء وأن نعودهم على روح المراقبة حتى منذ نعومة أظافرهم ، وذلك قبل تداخل الفلسفات الإلحادية العقيمة فى عقولهم .

وبهدف تحصينهم عقائديا قبل أن تشوش الأيديولوجيات الأرضية أفكارهم وتسود صحائفهم الفطرية .

٣ – والوصية تغرس فى الصبى مبدأ إسلاميا هاما يقيم العدل فى المجتمع بل وفى الكون كله ألا وهو : ـ الجزاء من جنس العمل ـ وتدّبر معى إن شئت فى قوله ﷺ : «احفظ اللّه يحفظك » .

وفى قوله تعالى : ﴿ مَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : ٧ ، ٨] ، ﴿ وأَوْفُوا بعهدي أُوف بعَهْدكم ﴾ [البقرة : ٤٠] ، ﴿ فاذكروني أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة : ١٥٢] ، ﴿ إن تَنصُرُوا اللَّهَ ينصُرْكُم ﴾ [محمد : ٧] ، ومن أجل هذا وجد قانون الجزاء الذى يحفز الهمم ، ويفجر الطاقات ويستثمر القدرات . أما إذا اطمأن الابن من تنفيذ رغباته بدون تحفيز وتعوّد على النجاح لاعتبارات ـ أنا فى حل من الخوض فيها ـ فإنه سيعيش خمولا متواكلا ، وهذا الداء هو المسؤول عن تخلف المسلمين اليوم .

٤ – وتعليم الولد أن الغنى القادر الذى بيده الخير كله هو اللّه ـ عز وجل ـ يربى فيه الأنفة والاستغناء ـ من غير تكبر ـ عن جميع المخلوقات ، وتحفظ له ماء وجهه من التذلل والسؤال، ويتعلم أن السبيل الوحيد للاسترزاق والاستغناء هو العمل والجد الذى قد يوفقه اللّه للنتائج حسب تقديره تعالى ومشيئته ، أما الإلحاف والإلحاح ، وخفض الأكف والانكسار والتملق وعبادة الأشخاص ، فلا تزيد على الرزق المقدر شيئا ولا يحصد أصحابها إلا هدر الكرامة وضياع الشرف .

٥ – وجانب آخر يجب الاهتمام به وهو بيان نعم اللّه الجسدية الجليلة وبقية النعم المحيطة بالصبى والمحسوسة لديه كالسمع، والبصر ، و وجود الأبوين مثلا ، والماء ، والطعام، هذا من جهة .

ومن جهة أخرى نركز على الأسباب ونبين أن انتهاج الأسباب بتوفيق اللّه فإذا لم نوفّق فلنتهم أنفسنا أمام صبياننا . . ولنشكك فى الأسباب، وندربهم على التعليق على مشيئة الرحمن سبحانه .

وبهذا نضمن ـ بإذن اللّه ـ تربية عقائدية نجنب بها أبناءنا أخطار الإلحاد الذى يعمل أصحابه على بثه بطرق شيطانية عديدة : إحداهن يعمدون إلى الطفل المسلم ويقولون له : اطلب من اللّه أن يعطيك لعبة مرة وثانية وثالثة. . . ثم يقولون له : توجه إلينا نحن بالطلب؟ فيسألهم : فيقدّمون له هدية رائعة تبهر الصغير ثم يسألونه مَنْ

مِنَ المسؤولين أجابك هو الموجود ! فى حين تعكف مدارس العالم الإسلامى طوال سنوات تغرس ... وطنى فيه السكنى لا على حساب العقيدة والتربية والتوجيه، بل وعلى حساب العلم نفسه!

٦ ــ « .. واعلم أن الأمة ...... » تنمّى فى المؤمن روح الشجاعة والإقدام وتنزع منه الخوف والإحجام، قال تعالى : ﴿ **قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ** ﴾ [آل عمران : ١٥٤]، ﴿ **أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ** ﴾ [النساء : ٧٨] .

٧ ــ وفيه تربية للنشء على الصبر عند الملمات وتحّمل الشدائد ؛ لأن الكرب يعقبه لا محالة الفرج ، وأن اليسر عند العسر ، وأن المصيبة مهما كانت هى ابتلاء وامتحان ، وهى فى الكتاب مقدرة قبل خلق السموات والأرض ، وأن العالمين أجمعين لا يملكون دفعها عمن شاؤوا ولاجلبها لمن شاؤوا ، ومـن ثـم فعلى المسؤمن التحلّى بالصبر وعدم التبّرم والضجر.

النفسية :

« واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، واعلم.. ».

١ ــ الغرور داء خطير إذا أصاب فردا أيّا كان فضلا عن أن يكون مسؤولا أو قائدا أوحاكما يهوى به إلى الجنون بالعظمة كالذى أصاب فرعون أو نمرود أو قارون ، هذا الذى نسب غناه إلى علمه وحنكته ﴿ **قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا** ﴾ [القصص : ٧٨] .

وقد بلغ ببعض القادة وأرباب الحكم إلى الاعتقاد فى أنفسهم أنهم الأرباب والأنبياء. والعباقرة الملهمون ، والأقوياء الذين لاتقف أمام قوتهم حتى يد القدر فقال قائلهم: لوامتدت يد القدر إلى حزبنا لقطعت! وحتى يجنبنا الحبيب ﷺ هذه المخاطر النفسية لفت انتباهنا إلى شيء عظيم فقال : « واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك » .

أبدا ليست قوّتك هى المنجية ، ولا عقلك ودهاؤك هو الراد لقضاء اللّه المغير لمجريات الكون وسنن اللّه تعالى !

٢ ــ والمعنى السابـق نفسـه يجنبنا القلـق النّفسى ويكفينا شـرور الهواجس والاضطرابات النفسية، والحيرة « وما أصابك لم يكن ليخطئك » فلا داعى إذن

للضجر، ولا لضرب الأكف ولا للزفرات والحسرات، فقد ورد فى حديث آخر: «.. ولا تقل: لو أنّى فعلت كذا كان كذا وكذا ، ولكن قل : قدّر اللّه وما شاء فعل » .

٣ ــ «واعلم أنّ النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا ». بينت هذه العبارات النبوية البليغة : أنه لا مكانة لليأس فى قلب المسلم مهما تأزّمت الأحوال واشتدت الأهوال قال تعالى : ﴿ **وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُون** ﴾[يوسف : ٨٧] .

ــ ففى المعارك حينما يحمى الوطيس ويشتّد البأس فعلى المجاهدين بالصبر؛ لأنه أهم أسباب النصر لقوله تعالى : ﴿ **كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِين**﴾[البقرة : ٢٤٩] .

ولقوله ﷺ : « لا تتمنّوا لقاء العدوّ واسألوا اللّه العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا ولا تفرّوا فإن اللّه مع الصابرين » (١).

ــ وفى الشدائد بشكل عام كالمرض والضيق والحرج ؛ لأنه لا كرب إلا ويعقبه فرج ولاعسر إلا ويهزمه يسران ، فقد جاء فى الحديث النبوى الشريف أنه ﷺ قال : «لن يغلب عسر يسرين » ؛ لأن اللّه ذكر العسر واليسر مرتين غير أن العسرجاء معرفا والمعرفة عند العرب إذا تكررت توحدت .

السياسية :

« احفظ اللّه يحفظك ، احفظ اللّه تجده تجاهك » .

١ ــ حفظ اللّه : حفظ لشريعته وامتثال لأوامره واجتناب لنواهيه ، والحفظ بهذا المعنى غير موكول بالأفراد فحسب ، بل وتطالب به الجماعات والهيئات ، والحكومات: فإذا انتهجت النهج الربّانى ، واحتكمت إلى الدستور القرآنىّ فى جميع المجالات وعلى كل المستويات ، فقد حفظت شرع اللّه ، ومن ثم فإنها لا تعدم حفظ اللّه لها من جميع أشكال المضايقات والفتن التى تعترض حياة الأمم والشعوب كالشدة والجوع والخوف والهلع والغزو والاستبداد ... وغيرها .

٢ ــ لو وثق الحاكم بربّه ، وكذلك المحكوم أيضا لعلم كل منهما أن رأى الآخر وقوته لا تغنى عن اللّه شيئاً ، وهذا يضمن استقلالية القرار من كل تأثير أرضى خاصة فيما ورد فيه النص ، ومن ثم فلا معنى لاستفتاء شعبى فى غلق الخمارات ودور العهر

(١) الحديث ذكره الإمام النووى فى شرحه للأربعين .

والفجور . . . أو حول قبول تحكيم الشرعية الإسلامية .

العسكرية :

١ - « وإذا استعنت فاستعن باللّه » : الخطاب لا يقتصر على ابن عباس ، بل يشمل كل مسلم يمد يده للاستعانة وطلب النصر والغنى ، أو أى حاجة أخرى فلا يهرع إلى شرق المعمورة أو غربها حين تغلق فى وجهه الآفاق ، وتحيط به الفاقة من كل جانب؛ لأن الأمة قاطبة بل والبشرية جمعاء لا تملك أن تستردّ ما يسلبه منها أحقر مخلوق على وجه الأرض، فضلا عن أن تقيم الدنيا وتقعدها ، أو أن تخرق الأرض، أو تبلغ الجبال طولا قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ . مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ [الحج : ٧٣ ، ٧٤] .

ولا أن تعارض قدر اللّه ، وباختصار ليس لهذه الطواغيت العالمية والمحلية التى نولّى لها وجوهنا ونكرس لها تبعيتنا أى دخل فى ملكوت اللّه ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [البقرة : ٢٥٨] .

٢ - ثم إن انتصار أى معركة من المعارك مرهونٌ بالتسلح بنوعين من الأسلحة لا يعوض أحدهما غياب الآخر وهما :

أ - السلاح المادى : ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ** ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

ب - السلاح المعنوىّ ، وهو ما يسمى برفع الروح المعنوية للجيش ، وهو صلب المعركة ، وقوام النصر ، ولا يسدّ ثغرة انعدامه أى سلاح مادى بأى حال من الأحوال بخلاف العكس فقد يتحقّق !

ولقد حرص القرآن الكريم على تسليح المؤمنين بهذا السلاح ، مركّزا عليه أيّما تركيز منتهزا كل الفرص والمناسبات مبينا أن الموت واحد لا يتعدّد مهما اختلفت أسبابه كقول شاعرنا :

من لم يمت بالسّيف مات بغيره تعدّدت الأسباب والموت واحد

قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا**

فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [آل عمران : ١٥٦] .

وها هو الرسول ﷺ يشحذ الهمم ويعلى الهامات ، ويمد النفوس بطاقات عالية تدفعها إلى البحث عن الموت فى سبيل اللّه بحثا مستميتا .

« واعلم أن الأمة لو اجتمعت . . . واعلم أن ما أخطأك . . . » .

ولكنّنا نفتش الآن عن هذه الأسود الأشاوس فلا نجد لها إلا صورا شمسية ونعد هذه الصور بالآلاف المؤلفة فلا نجد الألف منا إلا كأفّ ، وأصبحت دويلة الغدر والخيانة والاغتصاب ـ بنى صهيون ـ تربض فى عقر ديارنا ، وتستعرض عضلاتها فوق أجوائنا وعلى مشارف حدودنا المائية والترابية بل وتضرب من تشاء ، ووقت ما تشاء دون أدنى خجل ولاوجل ، ونقول لها ما قاله الصياد الفاشل :

يالك من قبرة بمعمرى خلا لك الجو فبيضى واصفرى

ونقرى ما شئت أن تنقّرى

أما الخجل ؛ فلأنها طلقت الحياء بالثلاث يوم نكثها لعهود اللّه ، وقتلها للأنبياء بغيرحق !

وأما الخوف فممن يا ترى ؟ أمن الجمل الذى استنوق ؟! أم من أمة يجمعها طرب الفنان ، ويفرقها القرآن : حيث تجرأت طوائف الحكم فيها على أحكامه فألبسها اللّه لباس الذل والمهانة ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل : ١١٢] .

وقد جرّ هذا الانهزام المعنوى الخطير للجيوش العربية فى معاركها المعاصرة هزائم منكرة ، وانكسارات هائلة ، فقد أعلن مثلا عن سقوط مئات الكيلو مترات المربعة فى بعض دول المواجهة مع إسرائيل من قبل إذاعاتها قبل أن تطأها قدم صبى يهودى واحد، وهى التى رفع أصحابها المدحورون شعارات تحدى القدر ، ورمى إسرائيل فى عرض البحر !

الاقتصادية :

١ ـ التعرف إلى الله فى رخاء العيش ، ويسر الحال ، وتكاثر الأموال ، إنما يكون بعدم الطغيان والرياء ، وبالإنفاق فى أوجه الخير ، وتحقيق التكافل ، وبالتالى نضمن معرفته لنا أوقات المحن والابتلاء ، ويتمثل تعرفه لنا فى :

أ ــ تسهيل أبواب الرزق وتيسيرها قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِب ﴾ [الطلاق : ٢ ، ٣]، ﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴾ [الجن: ١٦]، ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ . وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ [المائدة : ٦٥ ، ٦٦] .

ب ــ تقوية إيماننا به، وشد عزائمنا ، وتثبيت أقدامنا ، ومدنا بطاقات الصبر والتحمل .

جـ ــ إلهامنا الدعاء والتضرّع إليه ــ عز وجل ــ قال عز وجل : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة : ١٨٦] ، ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُم ﴾ [الفرقان : ٧٧] .

٢ ــ تحاول النظريات الاقتصادية ــ كما يحاول المحللون والمنظرون معالجة المشكلة الاقتصادية بالبحث عن الأسباب المادية بمعزل عن الأسباب الأخرى ، ومن ثم يأتى العلاج جزئيا ؛ لأنه ينظر إلى المشكلة بعين واحدة ، أو من زاوية واحدة .

ــ هذا إذا سلمنا بسلامة التحليل الجزئى ونجاعة العلاج أيضا .

ويأتى موقوتا ؛ لأنه يعالج النتائج والآثار ، فلا تلبث أن تتولّد نتائج أخطر ما دامت الأسباب قائمة ، ومن هذا المنطلق حاولت الرأسمالية الغربية والاشتراكية الشرقية حلّ المشكلة الاقتصادية فى العالم .

وجعلت العالم العربى يعيش أحلام اليقظة خاصة اشتراكية هينّقة ذلك الذى كانت له إبل سمان ، وأخرى عجاف ، فكان يعقل العجاف ، ويسرح فى الفلاة بالسمان فسئل عن السبب فيما يصنع فأجاب : أنا لا أكرم إلا ما أكرم اللّه منهن ؟!

ووضع الجبن أمام الثعلب الماكر ليقسمه بين القطين مناصفة بالعدل والميزان المقسط، فطفحت كفة الغنى للأغنياء ، وظل الفقراء يفترشون الثرى ، وانقلب أرباب الكراسى إلى رأسماليين كبار ، وانحصر الفقر على الطبقات التى كانت فقيرة .

أما الحل الإسلامى فهو لا يقتصر فى تحليله على الجانب المادى البحت ، بل ويركز أيضا على الناحية الروحية والأخلاقية .

ــ كقوله تعالى فى حديث قدسى : « يا عبدى أنفق أنفق عليك »(١) .

وكقوله سبحانه وتعالى : ﴿ **وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ** ﴾ [الحديد : ٧] .

وقوله ﷺ : « . . . ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء » ، «ولم يطففوا الكيل والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان » .

روى عن أبى هريرة رضى اللّه عنه قال : سمعت من عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه حديثا عن رسول اللّه ﷺ ، ما سمعته منه ، وكنت أكثرهم لزومًا لرسول اللّه ﷺ ، قال عمر : قال رسول اللّه ﷺ : « ما تلف مال فى بر ولا بحر إلا بحبْس الزّكاة »(٢) .

فقــه الدعــوة

١ ــ إننى على ثقة تامة أنه لو تمعّن المسلمون وتعمقوا فى عبارات هذا الحديث لكفاهم شر الانكسار ، والمذلة والصغار ، والتبعية والاستعمار .

ولوتفهمته البشرية وجربته مرة فى الميدان لكفاها شر الهواجس النفسية والاضطرابات الاجتماعية والمتاهات غير الأخلاقية .

ولجنبها شبح الانتحار المهول الذى يحصد العشرات يومياً فى العالم الغربى كله ، والذى تؤلف فيه المؤلفات وتقدم الإرشادات ــ فى الغرب ــ لممارسته بأقرب وأسرع الطرق ، والعجب العجاب فى سرعة نفاد طبعاتها ، ولكننى إذ أحمل الأمة الإسلامية على الخصوص ، والبشرية بمربيها ومفكريها ورجال الدين عندها ، والمتكفّلين بإصلاحها تلك العواقب المأساوية فإننى أثقّل بها بصفة أخص وأوكد كواهل الدعاة المسلمين ، والمرشدين والوعاظ . . . لأنهم عقل الأمة النابض وعين البشرية البصيرة لعلهم يتساموا عن الانتصارات الذاتية . . والحركية !

٢ ــ على الداعـية أن يتخذ من الشباب الجانب الأوفى من رصيده فى العمل الإسلامى ؛ لأنه طاقة الأمة ، وأملها الكبير فى هذا الرعيل !

وعليه ألا يستنكف من مجالستهم ، ومخالطتهم فهذا سيّد الوجود عليه السلام يردف غلاما يافعا ويحادثه ، ولكننا ويا أسفاه نعاصر أقواما يعدون أنفسهم من الدعاة ثم يستنكفون مجالسة صغار السن ، والتجربة ، والعلم .

ويظل ينظر لمـن هـو دونه التلميذ ، الابـن مهمـا بلـغ علـمه ، ويظلـون يفرضون

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة .

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط وهو حديث غريب .

وصايتهم على الشباب ، ويسفهون أحلامهم ويقللون من أعمالهم .

وعلى الواعظ ألا يتغافل عن أساليب التشويق وأدوات التنبيه : « يا غلام ! ألا أعلمك» .

تطبيق

١ ــ اليوم وفى العالم الإسلامى يواجه الشباب أعتى حملة مزدوجة مسعورة ، فبدل احتضانهم وتعهدهم وتوجيههم ؛ لأنهم فلذات الأكباد ، نعلن عليهم حربا خطيرة فى الداخل.

وفى المقابل تتلقفهم أجهزة الغرب المسمومة وتتكّفل بهم لتستخدمهم كطابور خامس ضدّ دينهم وأهاليهم وأوطانيهم ، فلا تسأل كم فتاة تحجّبت وتفقّهت ؟ بل كم عذراء اغتصبت فى حواضر عالمنا الإسلامى !

ولا تسأل : كم مدرسة إسلامية فتحت ؟ بل كم سجْنا ملئ عن آخره !

هكذا بدل أن ننتهج سنة القائد المربى ﷺ، رحنا نجّرب كل الطرق التربوية الغربية التى تردى أكثر مما تهدى ، وتتلف أكثر ممّا تثقّف ، فياحكام المسلمين، ويا وزراء التربية على الخصوص: إن الشباب هو الأمانة التى ستسألون عنها أمام أحكم الحاكمين!

٢ ــ لقد تخلينا عن شريعة اللّه ، وتثاقلنا عن نصرة دينه والذود عن المقدسات ، فتخلّى اللّه عنّا قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر : ١٩] ، فهذه هزائمنا ، وذى دماؤنا أرخص الدماء فى العالم اليوم ، وهذه كرامتنا لا يراعى لها أحد أقل اهتمام ، وهذه أراضينا عرضة للنهب والابتزاز ، فإنا إلى ربنا وإنا إليه راجعون .

٣ ــ لقد تعدّد المسؤولون فى معتقداتنا بَدَل أن نسأل الغنى الكريم ، فهرعنا إلى كل ذى جبة خضراء ، وإلى أصحاب القباب والأضرحة نسألها الولد والصحة ، والنجاح ، والهناء ، والشفاء وللّه درالقائل :

لا تسألن بنى آدم حاجة ... وسل الذى أبوابه لا تحجب

اللّهَ يغضب إن تركت سؤاله ... وبنى آدم حين يسأل يغضب

مثلما استعان البعض ــ أيضا ــ بالتمائم ، والتولة ، والطلاسم دون الواحد القهار.

٤ ــ وهل تعرفنا على اللّه فى الرخاء حينما حبا اللّه هذه الأمة بكنز عظيم ومدّخر

ثمين ـ البترول ـ الذى أصبحت الدول العربية به تتحكم فى شريان العالم الاقتصادى فدرّ عليها ـ بفضل اللّه ـ وابلا من الخيرات والدولارات ، ولكن جنّدت هذه الخيرات لحروب الفتنة ، وقمع الحركات الإسلامية ممّا جرّ عليها أزمات اقتصادية حادة خطيرة كالتضخم الذى أضحت تعانى منه هذه الدول ، وكالديون التى أثقلت كاهلها ، وأخيرا لا آخرا : التآمر الغربى الصليبى الذى أدّى إلى انخفاض سعر البترول على الخصوص والمواد الأولية على العموم التى لا زالت تعد شريان حياة هذه الأمة .

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة : ٣٤ ، ٣٥] .

وقال تعالى فى ذيل قصة قارون : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ [القصص : ٨١] .

الحديث العشرون

عن أبى مسعود عقبة بن عمرو الأنصارى البدرىّ رضى اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم :

« إن مما أدرك الناس من كلام النبوّة الأولى إذا لم تستحْى فاصنع ما شئت» رواه البخارى وأحمد وأبو داود وابن ماجه .

تخريج الحديث :

خرجه البخارى من رواية منصور بن المعتمر عن ربعى بن خراش عن أبى مسعود عن حذيفة عن النبىّ ﷺ ، فاختلف فى إسناده ، لكن أكثر الحفاظ حكموا بأن القول قول من قال عن أبى مسعود ، منهم البخارى وأبو زرعة الرازى والدارقطنى وغيرهم .

ويدل على صحة ذلك أنه قد روى من وجه آخر عن أبى مسعود من رواية مسروق عنه ، وخرجه الطبرانى من حديث أبى الطفيل عن النبىّ ﷺ أيضا .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

العقائدية :

١ـ إن الإيمان برسالة محمد ﷺ وبما جاء به يقتضى تصديقه فى نبوته ورسالته، ومن أساسيات ما جاء فى هذه الرسالة الإيمان بالأنبياء والمرسلين السابقين جملة، وتفصيلا فى معرفة بعضهم، قال تعالى: ﴿ **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ** ﴾ [البقرة : ٢٨٥] .

ولا غرابة فى ذلك ؛ لأن وحدانية المرسل سبحانه ــ عز وجل ــ توحدهم ،

إن مما أدرك الناس أى ظفروا به وبقى مأثورا لديهم ينقله الخلف عن السلف .

تستحى . مضارع استحيا حذفت ياؤه الثانية للجازم ، وفى رواية : تستح ــ بكسر الحاء مضارع استحى .

فاصنع ما شئت : أى افعل ما أردته وشئته . والأمر للتهديد كقوله تعالى : ﴿ **اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ . بمعنى إذا انتزع منك الحياء انغمست فى القبائح دون مبالاة فتستحق عقاب اللّه تعالى حيث لم تبال بشرعه، ولم تخش عذابه ، ولم ترج حسابه ، قال تعالى: ﴿ **إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَابًا** ﴾

ووحدة الهدف الذى بعثوا من أجله يجمعهم ألا وهو الإسلام للّه تعالى .

فلم إذًا هذا التطاحن بين أتباع موسى وعيسى على حد زعمهم ؟ !

ولم هذا الحقد الكبير على أتباع محمد ــ صلوات الله عليهم وسلامه جميعا ــ ما دام المصدر واحدا ، وما دام الهدف واحدا ؟ !

ترى من هم المتزمتون المتعصبون المتحيزون : الذين يرفعون من مقام عيسى ابن مريم البتول إلى الألوهية ، وفى المقابل يحطون من قيمة سيّد المرسلين حتى إلى درك الملفقين الأدعياء ــ بلا خجل ؟ !

أم هم الذين لا يعترفون إلا بما جاء به موسى عليه السلام ــ بعد تحريف طبعا ــ ثم هم لا يلوون على شىء مما جاء به ابن مريم ــ عليهما السلام ؟ !

وها هو القرآن الكريم يكشف عن تصوراتهم الخاطئة ومواقف الحقد المتبادلة بينهم: ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ** ﴾ [البقرة : ١١٣] .

ولقد تم هذا التقاذف والسّباب بينهم أمام النبىّ ﷺ حيث قدم أهل نجران ــ من النصارى ــ على رسول الله ﷺ وأتتهم أحبار يهود ، فتنازعوا عند رسول اللّه ﷺ فقال رافع بن حرملة : ما أنتم على شىء وكفر بعيسى وبالإنجيل ، وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود : ما أنتم على شىء وجحد نبوّة موسى وكفر بالتوراة ، فأنزل اللّه الآية السابقة (١) .

أم أولئك الذين لا يجدون فى أنفسهم أقل حساسية فى أن يؤمنوا بجميع الأنبياء والمرسلين بل ويعتقدون أنها تخدش فى إيمانهم إن وجدوها .

وها هم الأنبياء أنفسهم تؤخذ عليهم المواثيق ، ويتعهدون بالإيمان بمن يعقبهم من الرسل وتأييدهم ونصرهم ، قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ** ﴾ [آل عمران : ٨١] .

وعن جابر رضى اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء ، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلّوا ، وإنكم إما أن تصدقوا بباطل ، وإما أن

(١) قاله محمد بن إسحاق عن ابن عباس .

تكَذّبوا بحق ، وإنه واللّه لو كان موسى حيّا بين أظهركم ما حل له إلا أن يتّبعنى»[١] .

٢ ــ إن الحياء الحقيقى ليس انقباضا فى النفس يحجم صاحبه عن فعل الرذائل أمام المخلوقين فقط ؛ لأنه قد لا يجرؤ على المجاهرة بما يفعل أمامهم ، أو لأنه يخشى مراقبتهم له وملاحقاتهم الجزائية ، أو لأنه يحتاط من التشهير ، ولكن المستحى فعلا أولى له أن يستحى من الخالق ــ جلّ وعلا ــ لأنه هو وحده المطلع على الخفايا والسرائر، فلا تخفى عليه خافية ، ولا تحجب بصره الأبواب الموصدة ، ولا الستائر المسدلة ، ولا السفر إلى باريس ، ولندن ، وعليه أن يتيقن أن اللّه يراه حيث كان وكيف ما كان ، هذا إن لم يصل به إيمانه إلى رؤية اللّه فى أمره ونهيه ، وهى أسمى درجات الإيمان السامق [٢] .

والاستحياء من اللّه ليس كالاستحياء من البشر، ولا كما يفهمه البعض أو الكثير بل بيّنه ﷺ فى حديثه المروى عن عبداللّه بن مسعود رضى اللّه عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: « استحيوا من اللّه حق الحياء » قلنا : يا رسول اللّه ،إنا نستحى والحمد للّه ، قال:« ليس ذاك ، ولكن الاستحياء من اللّه حق الحياء : أن تحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى ، ولتذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من اللّه حق الحياء » [٣] .

الأصولية :

١ ــ يؤخذ من قوله ﷺ : « إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى » أن شرع من قبلنا من الأمم شرع لنا نحن الأمة المحمدية ، وهذا ما ذهب إليه فريق من الفقهاء مع ملاحظة هذه الأمور الثلاثة :

(**أولها** : أن أحكام شرع من قبلنا لا تعرف من غير المصادر الإسلامية ، فلا عبرة بالنقل من غير هذه المصادر ؛ لأنه لا حجة فى النقل عند المسلمين إلا المصادر الإسلامية ذاتها ، وذلك باتفاق فقهاء المسلمين .

الأمر الثانى : أن ما يثبت بالدليل الإسلامى على أنه نسخ فإنه لا يؤخذ به ، وكذلك ما قام الدليل على أنه كان خاصا بالأقوام الذين شرع لهم ،فإنه لا يسرى فى الإسلام كتحريم بعض أجزاء من اللحوم على بنى إسرائيل وذلك بالاتفاق أيضا .

الأمر الثالث : أن ما ثبت بالنص الإسلامى أنه مقرّر فى الإسلام كما كان مقرّرا

---

(١) رواه الحافظ أبو يعلى .

(٢) انظر ذلك بالتفصيل فى شرح الحديث الثانى .

(٣) رواه الترمذى ، وأحمد ، والحاكم .

فى الأديان السماوية السابقة فهو ثابت بالنصّ الإسلامى لا بالحكاية عن السابقين ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٣] .

ومما يعزز ما ذهب إليه بعض المالكية ، وبعض الشافعية والحنابلة وبعض الحنفية أن ما جاءت به المصادر الإسلامية على أنه كان شرعا فى الشرائع السماوية السابقة ولم يوجد دليل على بقائه ولا على إنهائه من سياق النص نفسه : يكون شرعا لنا هذه النصوص التى تأمر المصطفى ﷺ ومن ورائه أمته بالاقتداء بالأنبياء السابقين ، قال تعالى: ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِه ﴾ [الأنعام : ٩٠]،وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل : ١٢٣])(١) .

٢ ــ كما أن عبارة « من كلام النبوّة الأولى » تدل على أن شريعتنا ليست هى أولى الشرائع ، ولم تخالفها أبدا فى المصدر ، فالمشرع للتوراة هو المشرع للإنجيل وهو الذى شرع الإسلام سبحانه وتعالى .

والذى أرسل بشريعة الإسلام لا يخالفه أى رسول من رسل الشرائع السابقة ، فلم يكن موسى عليه السلام ملكا مقربا ، ولا عيسى إلها ولا ابن إله .

والكل مؤتمن فى تبليغه عن اللّه ــ عز وجلّ ــ ولم يحاب اللّه سبحانه أحداً على أحدٍ حين أخذ عليهم العهود والمواثيق: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [الأحزاب:٧] .

وما كان عيسى أو موسى إلا بشرا ، فلم يعاب على الرسول ــ صلى اللّه عليهم جميعا ــ أكل الطعام والمشى فى الأسواق ؟ هل من العقل والعدل أن نطلب من البشر أن ينسلخ عن بشريته ؟ !﴿ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان : ٧]، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]، ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨] .

ولم يعاب عليه الفقر فلم يعيّر وحده به ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : ٣١] ، بل تطاول على سيدنا موسى عليه السلام فرعون اللعين ﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي

(١) أصول الفقه ، للإمام محمد أبو زهرة بتصرف ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ط : دار الفكر .

أفلا تُبْصِرُونَ . أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ . فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ [الزخرف : ٥١ ـ ٥٣] .

وباختصار شديد، فإن محمدا ﷺ لم يكن بدعا من الرسل : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٩] ،﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ [آل عمران: ١٤٤] ، ثم إن الذى بعث به الرسل جميعا هو الإسلام مهما تعددت مظاهر العبادة واختلفت الأحكام الشرعية قال تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال أيضا : ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ [الحج: ٧٨] ، وقال أيضا: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ . قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران : ٨٣ ، ٨٤] .

٣ ـ والتشريع الإسلامى لا يخالف الفطرة السليمة أبدا ، بل يوافقها تماما حيث أقر كل ما قال به الحكماء والعقلاء من آراء فطرية سديدة ، ومواقف أخلاقية رشيدة قال تعالى : ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٣٠] .

فإذا كانت الفطرة تستهجن الظلم بأنواعه، فالإسلام شدّد فى تحريمه حيث قال عليه الصلاة والسلام : « الظلم ظلمات يوم القيامة »(١) ، وعن أبى ذر الغفارى رضى اللّه تعالى عنه عن النبى صلى اللّه تعالى عليه وآله وسلم فيما يرويه عن ربّه ـ عز وجل ـ أنه قال : « يا عبادى إنّى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا . . .»(٢) .

وإذا كانت الفطرة السليمة تستقبح الكذب وتزدرى صاحبه، فإن الشريعة الإسلامية اعتبرته بوّابة يدلف منه صاحبه إلى الفجور ثم إلى النار وبئس القرار ، فعن عبد اللّه رضى اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البرّ، والبرّ يهدى إلى الجنّة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند اللّه

(١) رواه البخارى ، ومسلم ، والترمذى .
(٢) رواه مسلم ، والترمذى ، وابن ماجه ، وسيأتى بتمامه.

صديقا ، وإيّاكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور والفجُور يهدى إلى النار ، وما يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند اللّه كذّابا » (١) .

ولو تركت تلك التيارات المنحرفة ، والأهواء الضّالة الإنسانَ على فطرته ولم تحرفه عن وجهته الذاتية الأصلية ؛ لآمن من فى الأرض جميعا بما جاء به رسول اللّه ﷺ، ولما كان فى هذه الحياة كفر وفسوق وعناد ، ولكنها إرادة اللّه ــ عز وجل .

عن أبى هريرة رضى اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال : « ما من مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ثم يقول : ﴿ **فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ**﴾» [الروم : ٣٠] .

الاجتماعية :

سلطان الحياء هو أكبر سلطة ذاتية موجهة حينما تفقد من أفراد الأمة، فمعناه : تدهور الحالة الاجتماعية حيث لا أمن على الأموال ولا على الأعراض ، وما نهاية كثير من الأمم وهلاك أفراد مجتمعاتها واندثار حضارتها إلا بسبب انتزاع الحياء من أبنائها ، والتاريخ على ما أقول شهيد قال تعالى : ﴿ **وإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً** ﴾ [الإسراء : ١٦] .

السياسية :

إننا نواجه ظلما وتعسّفا من قوم جفّت وجوههم من آخر قطرة من ماء الحياء ،إنهم الشرذمة التى احتكرت كل أساليب المكر والدهاء والخبث والخداع ــ اليهود ــ فلا ضير عندهم إذًا أن ننكر أو ننذر أو نندّد ، أو نبكى ونشتكى ونستعطف ونسترحم ، أو نهرع إلى الرأى العام العالمى ما داموا قد بّدلوا الحقائق وغيروا المعالم ولفقوا ، ودفعهم عدم حيائهم لا إلى تحريف تاريخ البشرية وتهويد الإرث الحضارى الإسلامى ــ فراحوا يصبونه فى قوالبهم صبّا ، ويرفعون من يريدون ، ويحطون من يبغضون ــ فحسب ، بل وحتى إلى الحذف والتبديل فى التوراة نفسها أفلا يكون تحريف تاريخ القدس وتهويد معالمها أهون عليهم من ذلك ؟ !

يا قوم : إنكم لن تجنوا من هذه النداءات والاستنجادات شيئا،ها هى أصواتكم قد بحت ، وأوراق ملفاتكم فى هيئة الأمم المتحدة ــ عليكم ــ قد تراكمت ، وآذاننا قد

(١) رواه البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى وصححه ، واللفظ له .

(٢) رواه البخارى .

صخّت فماذا جنيتم بربكم ؟

هل حررتم شبرا ، أم حققتم حلما ؟!

وهل استرددتم كرامتكم ورفعتم هاماتكم ؟ ! أم أنكم لـم تجـدوا عزاء سوى فى الإذاعات، والمؤتمرات ؟ !

إنكم واللّه لن تحركوا ـــ فيمن عدم الحياء ـــ ساكنا ، ولن تحيوا ضمائر ميتة ، ولن تحرّكوا عواطف متجمدة ، ولن تستدروا شفقة قلوب متحجرة طلق الحياءُ أصحابها بالثلاث .

إن إسرائيل عملت بمفهوم الحديث وطبقت معناه « إذا لم تستح فاصنع ماشئت »، فنالها التهديد والوعيد .

لم تستح ، فادعت بتبجّح أنها أفضل العالمين ، وأنها شعب اللّه المحبب المختار ، وما دونها رعاع تستخدمهم لمصالحها وتسخرهم لراحتها .

ولم تستح ، فاغتصبت أرضا هى عنها غريبة ، وطردت أهلها ، وشردت سكانها الأصليّين.

ولم تستح ، فظلت تستحوذ على أجزاء كبيرة من الأراضى العربية مدّعية أنها تحصن حدودها وتحفظ أمنها .

فماذا فعلتم أنتم حينما استحييتم ؟ عفواً فى الحقيقة حينما تخاذلتم وتَناومتم ، إن المدفع لا يقاوم باللسان ، وإن المنجد اللغوى لا يسدّ مسد المنجد الحربى ، وإن الحديد لا يفل إلا بالحديد !

فقه الدعوة

١ ـــ ليس من الحياء فى شىء أن يقرّ المسلم بالمنكر ويتغاضى عن أهله ويجالسهم مهما كانت صلته بهم ومهما كانت نوعياتهم .

٢ ـــ البعض ممّن يسمون بالدعاة إلى اللّه فقدوا خلق الحياء من اللّه إطلاقا ، فراحوا يحلّلون ويحرمون ويزيّنون للحكام ما يشتهون ، بل ويبرّرون مواقفهم وتصريحاتهم وقراراتهم المحاربة للّه ورسوله ؛ يبررونها بالتأويل والتحريف لكتاب اللّه.

فحينما آثر أحدهم الاستسلام لجلادى العصر الحديث ـــ اليهود ـــ والخضوع لهم وخيانة بيت المقدس ، حرم إبراهيم الخليل ، ومسرى محمد عليه السلام ، وإذلال الأمة الإسلامية، وتمكين الغرب الحاقدين من ناصيتها .

ماذا فعل علماء هذه الأمة وقادة فكرها وزبدة عصرها ! لقد عمدوا إلى كتاب اللّه دون خجل ليسربلوا قادتهم بقول الحق سبحانه: ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾ [الأنفال: ٦١] ، وعموا عن قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال : ٦٠] ، وعن قوله : ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ [محمد : ٣٥] .

والغريب فى الأمر أن هذه المتناقضات التى وسعها العالم الإسلامى اليوم يحاولون إلصاقها بالإسلام ؛ كإلغاء المصدر الثانى من مصادر الشريعة الإسلامية ــ السنة النبوية الشريفة ــ وكإلغاء التاريخ الهجرى ، وكمنع تعدد الزوجات ، وإقرار نظام التبنّى ، وتحديد النسل ، وتحليل ما يسمى بالفوائد الربوية ، وكجلد وتقطيع أيدى الفقراء دون الأمراء ، وإقرار الاستعانة بالمشرك على المسلم . . . وهلم جرّاً .

وإننى لأعجب كل العجب من علماء ذاع صيتهم ، وتداولت أيدى القراء كتاباتهم وزخرت المكتبات الإسلامية بمؤلفاتهم ، وانتشرت أصواتهم مسجلة عبر أجهزة التسجيل، ثم لا يرعون أن يرسموا فى ذهنية المسلم صورة للإسلام الأمريكانى بأنه نظام إقطاعى، وكأنه شرع للبرجوازيّين فحسب، وفى نفس الوقت يركزون على إلحاد النظام الشيوعى وضلاله (١) .

نعم إن النظام الشيوعى بعيد كل البعد فى منهجه ، وفلسفته ومنطلقاته عن النظام الاقتصادى الإسلامى كبعد النظام الرأسمالى أيضا عنه . . . ولكننا نريد دعاة الإسلام ، لا دعاة الكلام . . نريد دعاة تشبّعوا بالإسلام روحا ومنهجا لا دعاة أمريكا ، ولا دعاة القصور وحكام الفجور !

تطبيق

١ ــ يشيع بين الكثيرين أن الحياء هو الإحجام عن الكلام ولو كان الكلام لإظهار الحق وإبطال الباطل، أو للاستفسار عن شريعة اللّه، ولكنه مفهوم خاطئ بالمرّة حيث إن رسول اللّه ﷺ نفسه كان أشدّ حياء من البكر فى خدرها وما ترك النهى عن المنكر،

(١) ولا بأس أن أنقل فى هذا الصدد ما كتبه الأستاذ محمد قطب فى كتابه: (شبهات حول الإسلام) ص٢٢٢ حيث يقول : وإن قوما لينزعجون على الإسلام، من انتشار الشيوعية. . فما الذى يزعجهم؟ إن الوضع لن يتغير بالنسبة إلى الإسلام ، فالعالم الذى تكتسحه الشيوعية اليوم هو العالم الصليبى ، الذى كان دائما يناصب الإسلام العداء ، روسيا ذاتها التى بدأت فيها الشيوعية هى التى كانت من قبل تؤلب الطوائف على الدولة المسلمة لتوقع فيها الفتن والاضطرابات ، فما الذى تغيّر ؟ كلا: لم يتغيّر شىء.

ولا أقر باطلا ، ولا سكت على خطأ ، وفى الصحيح عن عائشة قالت : رحم اللّه نساء الأنصار ، لم يمنعهن الحياء أن يسألن عن أمر دينهنّ ، وأن يتفقهن فى الدين ، وروى البخارى عن أم سلمة أنها قالت: جاءت أم سليم إلى رسول اللّه ﷺ فقالت: يا رسول اللّه ، إن اللّه لا يستحى من الحق ، فهل على المرأة غسل إذا احتلمت ؟ فقال: «نعم إذا رأت الماء» .

٢ ــ وتحت أستار عديدة انسلخت طوائف كثيرة من المجتمعات الإسلامية عن خلق الحياء من النساء ، والحكام ، والكتاب ، والصحفيين ! !

الحديث الحادى والعشرون

عن أبى عمرو وقيل : أبى عمرة سفيان بن عبد اللّه رضى اللّه عنه قال : قلت: يا رسول اللّه ، قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا غيرك ، قال : « **قل : آمنت بالله ثم استقم** » رواه مسلم .

تخريج الحديث :

هو سفيان بن عبد اللّه الثقفى من الطائف ، له صحبة مع رسول اللّه ﷺ ، وكان عاملا لعمر بن الخطاب على الطائف ، وقد روى هذا الحديث عن سفيان بن عبد اللّه من وجوه عدة وبزيادات أخرى ، فخرّجه الإمام أحمد والترمذى وابن ماجه من رواية الزهرى عن محمد بن عبد الرحمن بن ماعز ، وعند الترمذى من رواية عبد الرحمن بن ماعز عن سفيان بن عبد اللّه قال :

يا رسول اللّه ، ما أخوف ما تخاف علىّ ؟ فأخذ بلسان نفسه ثم قال :« هذا » .

وقال الترمذى :حسن صحيح . وخرجه الإمام أحمد والنسائى من رواية عبد اللّه ابن سفيان الثقفى عن أبيه ؛ أن رجلا قال : يا رسول اللّه ، مرنى بأمر فى الإسلام ولا أسأل عنه أحدًا بعدك ، قال : « قل : آمنت بالله ثم استقم » قلت : فما أتقى ؟ فأومأ إلى لسانه .

سبب ورود الحديث :

فى الحقيقة لا توجد واقعة معينة لورود هذا الحديث النبوى الشريف ، ولكن

قل لى فى الإسلام : المراد بالإسلام هنا دين اللّه الشامل للعقيدة والشريعة .

قـولا : بالتنوين للتعظيم والتفخيم أى جامعا لمعانى الدين .

لا أسـأل عنه أى واضحا وشاملا بحيث لا يحوجنى إلى أن أسأل مستفسرا عنه مرة أخرى أو من مصدر آخر .

قال : له النبى ﷺ .

قل آمنت باللّه أى أقررت بوحدانيته فى ذاته ، وصفاته ، وأفعاله ، وأنه منزه عن النقائص ــ عز وجل .

ثم استقم : فى أقوالك وأفعالك ونياتك وفق ما جاءت به الشريعة .

اسـتقم : الاستقامة ضد الاعوجاج ، وهى لغة : الاستواء فى جهة الانتصاب ، وشرعا : هى اتباع الحق والقيام بالعدل ، ولزوم المنهج القويم .

وقوعه فى صيغة إجابة صريحة من النبى ﷺ على سؤال أبى عمرو سفيان بن عبد الله تكشف لنا تطلع الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ إلى معرفة دينهم ، وحرصهم الشديد على تفهّمه من مصدره الأساسى المبلغ عن الله ــ عز وجل .

وربما استثقل الصحابة أنفسهم ــ من فرط أدبهم ــ وتحاشوا أن يكونوا مصدر إرهاق للنبى ﷺ، فتربصوا فى كثير من الأحيان مقدم أعرابى استنفدت شمس البادية بعض ماء وجهه، ولم تصقل آداب الإسلام بعد طبائعه، فيهتبل فرصة طلاقة وجه المصطفى ﷺ ويمطره بوابل من الأسئلة، وها هو أبو عمرو يثلج الصدور ويلقى بسؤاله الوجيه على رسول الله ﷺ، وها هى إجابة النبى تأتى وفق طلب السائل شافية كافية.

دروس وعبر من كلام سيد البشر

العقائدية :

١ ــ لقد استفسر الصحابى الجليل أبو عمرو سفيان بن عبد الله عن الإسلام فقال: يا رسول الله ، قل لى فى الإسلام قولا ، لكننا نجد أن الرسول ﷺ يجيبه: «قل : آمنت بالله » .

ومن هنا ، فقد يتبادر إلى الذهن أن الإسلام والإيمان لفظان مترادفان لمعنى واحد، ولبيان علاقة كل منهما بالآخر يجب استعراض مفاهيمهما وآراء العلماء فى ذلك :

الإيمان فى اللغة : مطلق التصديق وجاء بمعناه اللغوى هذا فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ [يوسف : ١٧] .

وشرعا : هو تصديق نبينا محمد ﷺ بالقلب فى جميع ما علم مجيئه به من الدين بالضرورة .

وأما الإسلام فهو لغة : الخضوع والانقياد ، ومن هنا فهو غير الإيمان فى اللغة قطعا .

وشرعا : ذهبت فى تعريفه المذاهب الكلامية إلى مذهبين :

المذهب الأول : وهو أكثر الماتريدية وبعض محققى الأشاعرة إلى أنه الخضوع والانقياد للأوامر والنواهى ، وعلى هذا ، فالإيمان والإسلام مترادفان شرعا .

والمذهب الثانى : وهم أكثر الأشاعرة مع كثير من الماتريدية يرى تغايرهما مفهوما ولغة ، إذ مفهوم الإسلام هو امتثال الأوامر والنواهى فحسب .

ولفظ الإسلام ورد فى القرآن الكريم بمعانى عدة ، ولكنه فى كثير من الأحيان جاء

شاملاً للدين كله مثل قوله تعالى : ﴿ إنَّ الدِّينَ عند اللَّه الإسْلام ﴾ [آل عمران : ١٩] ، وكما ورد فى هذا الحديث أيضا .

٢ ــ الإيمان الصحيح يقتضى الاستقامة فى توحيد اللّه ، والالتجاء إليه وحده واعتقاد النفع والضر فيه ، وعدم الإشراك به فى ذاته أو فى صفاته أو أفعاله ــ عز وجلّ ــ لأنه ما استقام قط منْ هرع إلى ذى قبّة أو صاحب ضريح يتمرّغ على عتباته يترجّى عطاءه ويعوذ به من اليأس والضر ثم هو يتلوا فى كل ركعة يركعها للّه ﴿اهْدنَا الصِّرَاط الْمُسْتَقيم﴾ [الفاتحة: ٦] إن هو إلا كاليهود الذين ضلوا عن الاستقامة بادعاتهم أن عزيرًا ابن اللّه، أو كالنصارى الذين قالوا: إن المسيح ابن اللّه ــ تعالى الله علوّا كبيرا.

الأصولية :

كان بإمكان هذا الصّحابى السائل رضى اللّه عنه أن يتعرف على الإسلام من خلال نظرة تمعّن وتدبّر فى كتاب اللّه ــ عز وجلّ ــ ولكنه أبى إلا أن يسأل الرسول ﷺ نفسه للدلالة على أن فهم القرآن الكريم إنما يتوقف على السنة الشريفة قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل : ٤٤] إذ هى المفصّلة لما أجمله ، المقيّدة لما أطلقه ، المخصصة لما أعمّه فى كثير من الأحكام ، ففى الصلاة مثلا قال تعالى : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ ﴾ ففصّلت السنة كل شىء عن الصلاة ، وفى الزكاة قال تعالى : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [المزمل : ٢٠] .

ولما كانت جل الأحكام الشرعية قد ثبتت بالسنة ووردت تفاصيلها فى خبر الآحاد أضحت السنة النبوية الشريفة جديرة بأن تكون المصدر الثانى من مصادر التشريع الإسلامى الأساسية .

الأخلاقية :

من إكبار أولى الجاه وذوى المكانة العالية نداؤهم بكناهم المحبّبة إليهم ، وعدم منادتهم بأسمائهم الشخصية؛ لأنه من الجفاء، ولا أحد يستحق منا الإجلال والتقدير أكثر من رسول اللّه ﷺ؛ لذا أدبنا الحق سبحانه بقوله : ﴿ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، واستمع الصحابة إلى هذا التأديب الربانى لهم فكانوا مثالا فى حبهم واحترامهم لرسول الله ﷺ ، فها هو سفيان : أبو عمرو ــ راوى هذا الحديث ــ يناديه بأدب : يا رسول الله ، قل لى فى الإسلام قولا . . . وها هم الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ يتسابقون إلى فضلات وضوئه ، أو بصاقه يمسحون به وجوههم تبركا بالمصطفى ﷺ .

بيد أن بعض الأعراب الوافدين على المدينة لا يجد أحدهم غضاضة فى رفع صوته ونداء النبى باسمه مجردا : يا محمد .

وهذه خلة لا يحمدها أولى النهى فضلا عن الشارع الحكيم .

الفكرية :

إن الانحراف عن الشريعة الإسلامية انحراف عن الطبيعة البشرية نفسها ، وانتقال بها من الإنسانية المكرّمة إلى الحيوانية المهينة ، وهو انحراف أيضا عن الفطرة السليمة التى فطراللّه الناس عليها، فمن الفطرة القويمة الحياء ، ومنها الاعتراف بالجميل ، وشكر أهله، وتوحيد خالق الكون ومنها . . . ومنها . . . ومن ثم يصبح الإنسان غير مستقيم لا فى أخلاقه ولا فى معاملاته لأفراد مجتمعه ، ولا فى عباداته نفسها .

والاعوجاج لا تولده الاستقامة مطلقا ، بل تتوالد الأجناس من بعضها .

إذًا فكل اعوجاج فى السلوك لا يمليه إلا فكر معوج ، ومنهج غير مستقيم ، ولا أظن أن منهجا متكاملا مستقيما غير ذى عوج سوى القرآن الكريم دستور الإسلام الشامل لشتى نواحى الحياة، قال تعالى : ﴿ **فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِير** ﴾ [هود : ١١٢] .

فما من أرواح تزهق ، وأموال تنهب ، وأعراض تنتهك ، ودماء تسفك ، وما من تعسف وإرهاب وتقتيل وتشريد وظلم وإبادة وطغيان إلا لاعوجاج المناهج الفكرية المتبعة، سواء كانت فلسفة داروينية ، أو وجودية أو فرويدية ، أو رأسمالية أو شيوعية، قال تعالى : ﴿ **فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ** ﴾ [الشورى: ١٥]، وقال أيضا : ﴿ **قُرْآنًا عَرَبِيًا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ** ﴾ [الزمر : ٢٨] .

إذن فسلامة التفكير تكمن فى اتباع المنهج الربانى الذى تسامى عن الأهواء والضلالات ، وما تولدّ عنها من تيّارات وفلسفات أرضية .

السياسية :

الصحابى الجليل زيادة على طلبه إجابة شافية ، وقولة وافية لا يعوز بعدها الاستزادة، أو الاستفسار من أى كان ــ غير مسؤوله عليه الصلاة والسلام ــ فوق ذلك يضمّن قولته عدم الالتجاء إلى غير اللّه ورسوله فى أمرى الدنيا والآخرة ؛ لأن الحق سبحانه أقسم بنفسه أنه لا إيمان أبدا لمن لا يلتجئ فى مشاكله ومشاجراته وأحكامه إلى سُنّة الرسول ﷺ ، ثم لايجد فى نفسه أدنى تبرّم أو تململ ، قال تعالى : ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ**

لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥] .

فقه الدعوة

من فقه الدعوة فى سبيل اللّه أن يتجنّب الداعية الإطناب المملّ فى خطبه ومواعظه، ولعل الحكمة الشرعية حين اقتضت خطبتين فى كل جمعة دون سائر الأيام أرادت أن ترشد الدعاة إلى عامل نفسانى هام ألا وهو جذب النفوس ، وشد الأذهان .

وكثرة الكلام والأخذ والرد تجعل الحديث عقيما ممّا يستعصى على الأذهان فهمه فتشرد ، وتتملّص النفوس من قيد الإطناب الذى قيد حريتها وتحوّل إلى ركاكة مملة .

وها نحن نجد الإمام عبد اللّه بن مسعود رضى اللّه عنه يتحيّن الفرص ويجلس للناس كل خميس فحسب مراعاة منه رضى اللّه عنه لهذا الجانب الخطير .

وليس الأمر عند هذا الحد فحسب ، بل يتعدّاه إلى الصلاة نفسها ، فلقد كان ﷺ يخفّف صلاته إن سمع بكاء الصّبية حتى لا تتشتت أذهان الأمهات فينصرفن عن الحال الذى هم فيه من خشوع إلى حنان الأمهات .

وها هو نفسه ﷺ يعاتب معاذا حينما شكى به إليه أنه يطوّل فى صلاته بالناس، ويقرعه بقوله مستنكرا : « أفتّانٌ أنت يا معاذ ؟! » .

ولكن الدعوة الإسلامية اليوم ابتليت بأناس لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه ، ولا من القرآن إلا رسمه ، ويجلسون المجالس المملة المخلة ، ويحتكرون القول ، فتراهم يلوكون عبارات مستهجنة، وبأساليب مثقلة، ولعلهم هم الذين عناهم النبى ﷺ بقوله: «المتفيهقون» وينفض المجلس فتنفض معهم شقشقتهم ورحم اللّه الأول حيث قالوا: أسمع جعجعة ولا أرى طِحْنًا .

تطبيق

١ ــ كيفية الاستقامة فى الاعتقاد والمعاملات والعبادات ليست مطلقة هكذا ، أوحسب ما تمليه الأهواء وتقتضيه الحاجات ، وليست متروكة لاجتهاد أو فكر وتخمين مطلقا ، بل هى مبينة فى كتاب اللّه، قال سبحانه لنبيّه ومن خلاله لعباده المؤمنين :

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود : ١١٢] .

إذًا كما أمرت ، وإلا بأن توقّف الأمر على الاستقامة ، فإن الملحد يدّعى أنه مستقيما وفق القوانين والسلوكيات العامّة ، والجاهلى المتنكّب لسبيل اللّه يؤكدّ على

استقامته تبعا لأعراف قومه وتقاليدهم الموروثة .

والمشعوذ يدعى استقامته وفق طريقته وما رسمه آباؤه الأولون ، بل ويذهب إلى أبعد من هذا فيؤوّل قول اللّه تعالى: ﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴾ [الجن : ١٦] :أن المراد طريقته واحتار الأتباع المريدون أى طريقة هذه ؛ أهى الطريقة القادرية ؟ أم الشاذلية ؟ أم الرحمانية ؟ أم العلاوية ؟ أم الهبرية ؟ أم ، أم ،واحتار المسلمون أى إسلام يراد منهم اليوم : الأمريكى ؟ أم العربى التقدمى ؟ أم الاشتراكى ؟

ونداء الرحمن يدوّى فى الآفاق : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

٢ ــ قد يستند البعض على قولة الصحابى سفيان : قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا غيرك ، أن الشريعة الإسلامية لا تؤخذ إلا من الكتاب والسنة مباشرة ، والحقيقة أنها قولة حق لكن أريد بها منكر عظيم ، ونكاية بالإسلام خطيرة ، إذ الصحابى لم يقل : لا أبحث فى فهم ما تقول لى ولا أسأل فى بيانه أحدا غيرك ، ثم إن هذا الصحابى متمكن من أخذ الإسلام من معينه الأصلى .

لذا فإن أخذ الإسلام من أفواه الرجال ــ والذين لا تأتى لنا فهمه إلا بهم ــ لأن باعهم فى اللغة العربية وعلومها أوسع ، وفقههم لأصول الشريعة الإسلامية أدق وأعمق ــ ليس عيبًا فى عقيدة المؤمن أبدا ولا ينتقص من إسلامه قط ، بل العكس هو الأقرب إلى الصحة ؛ لأنه لا سنة بلا فقه ، ولقد جر ادّعاء بعض المسلمين اليوم أننا فى غنى عن جهود الإمام البخارى وتصانيفه وأسفاره وبحره العميق الذى لا يجاريه فيه أحد، وعن جهود الإمام مسلم وأهل السنن والمسانيد ، واجتهادات إمام دار الهجرة مالك بن أنس ، والجهبذ الشافعى ، وإمام السنة أحمد بن حنبل وأبى حنيفة ، و . . . و . . . . و . . . و . . . و . . . إلى نهاية هذه السلسلة الذهبية ــ والتى نأمل ألا تنقطع ــ وهى التى ألمعت بسناها تاريخنا المجيد، وأغنت تراثنا العريق . قلت : لقد جرّ لنا ما يثلج الصدور ، صدور الأعداء المتربصين بهذه الأمة ، ويقرّ أعينهم ، ويفرحهم بحيث تنكرّ الأحفاد للآباء ، وتنمّر التلاميذ لأساتذتهم ومربّيهم ، وتنكروا لجهادهم المرير فى الرباط على هذه الشريعة الإسلامية أمام تحريف المبطلين وتزييف الحاقدين عبر العصور وأصبحت الطائفة المتنكّرة تمثل مذهبا جديدا له أتباعه ومؤيّدوه ، ومن ثم احتدم النزاع وقوى الشنآن ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العظيم .

الحديث الثانى والعشرون

عن أبى عبد اللّه جابر بن عبد اللّه الأنصارى ـ رضى اللّه عنهما ـ أن رجلا سأل النبىّ ﷺ فقال له :

أرأيت إذا صليت المكتوبات ، وصمت رمضان، وأحللت الحلال ، وحرمت الحرام ، ولم أزد على ذلك شيئاً أأدخل الجنة ؟ قال : « نعم » : ومعنى حرمت الحرام : اجتنبته ، ومعنى أحللت الحلال: فعلته معتقدا حله. رواه مسلم فى كتاب الإيمان .

ترجمة الراوى :

شهد جابر بيعة العقبة الثانية مع أبيه عبداللّه الأنصارى ـ رضى اللّه عنهما ـ وكان عبد اللّه من النقباء الاثنى عشر ، واستشهد يوم أحد، قال جابر رضى اللّه عنه : لقينى رسول اللّه ﷺ بعد موت أبى بأيّام، فقال لى: «أى بنى ، ألا أبشرك ؟ إن اللّه ـ عز وجل ـ أحيا أباك فقال له : تمن ؛ فقال : أتمنّى يا رب أن أردّ إلى الدنيا حتى أقتل مرة أخرى ، قال : إنى قضيت أنهم إليها لا يرجعون » .

ويعد جابر رضى اللّه عنه من المكثرين فى رواية الحديث إذ روى له ألف وخمسمائة وأربعون حديثا ، وكان آخر الصحابة موتا بالمدينة المنوّرة عن عمر يناهز الأربع والتّسعين سنة .

سبب ورود الحديث :

لعلّ النعمان بن قَوْقَل ـ بفتح القافين وسكون الواو ـ هذا الذى قدم على النبىّ

أن رجلا : الرجل هو النعمان بن قوقل ـ بفتح القافين .
فقال له أرأيت : أخبرنى إن فعلت كذا وكذا اادخل الجنة .
المكتوبات : المفروضات .
أحللت الحلال : أى فعلته معتقدا حله .
حرمت الحرام : أى معتقدا حرمته .
ولم أزد على ذلك : أى أتيت بما تقدم مقتصرا عليه دون تطوع .
قال : أى النبى ﷺ .
نعم : أى تدخل الجنة باقتصارك على ذلك .

ﷺ مستفسرا ، استكثر النوافل وتداخلت عليه السنن والفضائل ، فأراد أن يحسم الأمر ويبحث عن الشروط الأساسية التى يتوقّف عليها دخوله الجنة قبل أن يعرف الأعمال التطوعية التى ترقى بداخل الجنّة إلى الدرجات العلا .

والنّعمان هذا شهد بدرا الكبرى ، وحاز فضل الشهادة فى أحد وهو القائل يومها: أقسمت عليك ربّ العزة لا تغيب الشمس حتى أطأ بعرجتى خضر الجنة ، قال النبىّ ﷺ: « إن النعمان ظن باللّه ــ عز وجل ــ خيرا فوجده عند ظنه ، فلقد رأيته يطأ فى خضرها ما به عرج » .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

الفقهية :

١ ــ إن ترك النوافل فى الصلاة والصيام جائز ولا يعاقب صاحبه ولا يخلّ بإيمانه، هذا إن لم يقصد صاحبه الاستخفاف .

٢ ــ لا يجوز لمن عليه فوائت أن ينشغل عنها بالنوافل بل يحرم عليه ذلك، ويجب عليه المبادرة بقضاء الصلوات الفائتة، اللهم إلا السنن كالوتر، والعيدين، وكذلك تحية المسجد، وركعتى الشفع والفجر، ومثل ذلك ما يرتبه الإنسان على نفسه من أوراد.

العقائدية :

أ ــ علم الغيب من خصائص المولى ــ عز وجل ــ فلا يعلمه إلا هو ، وما الرسول عليه الصلاة والسلام إلا مبلغا عن اللّه فى إجابته للسائل : أأدخل الجنة ؟! بـ«نعم !» قال تعالى : ﴿ **عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ** ﴾ [الجن : ٢٦ ، ٢٧] .

لأن اللّه حرم الجنّة على الكافرين كما حرّم الخلود فى النار على الموحدين وسنة اللّه وعدله يقتضيان ضمان الجنة للطائعين المخلصين ، وكل ذلك وفق مشيئته .

ب ــ من جادل وعاند فى حلّية حلال أحله اللّه ورسوله ، أو فى حرمة حرام ورد تحريمه فى آية محكمة أو سنة ثابتة فقد تحلل من ربقة الإيمان ــ والعياذ باللّه ــ وإن كان يحل ما أحل اللّه ويحرم ما حرّمه بحكم تربيته أو تبعًا لعاداته وتقاليده .

علم السلوك (التصوف السنى) :

أ ــ من شغلته الفضائل عن الفرائض فهو من المغرورين ، وأما من شغلته فرائضه عن الفضائل فهو من المقسطين .

ب ــ من الناس من يعبد اللّه خوفا من عقابه ، ومنهم من يعبده طمعا فى ثوابه ومنهم من يعبده حبًا فيه ، وتقربا إليه ولأنه أهل للعبادة والخضوع له .

وهذه درجة سامقة لا يرقاها إلا الأصفياء من عباد اللّه الذين زكت نفوسهم، وسمت أخلاقهم ، واستقامت سلوكهم .

القانونية :

١ ــ لا يفهم من قوله :حرمت الحرام : تشريعه من ذاتيته ابتداء وفق هواه أو مصالحه ، بل حرم الحرام الذى حرمه اللّه ونصت عليه الشريعة الإسلامية وأحل الحلال الذى أحله اللّه .

والويل كل الويل لمن نصب نفسه مشرعا ــ لا مبلّغا ــ فيسعى إلى تحريم ما تراه نفسه ويرجحه عقله حراما ، وتحليل ما يميل إليه فكره .

وهو بهذا قد ادّعى الألوهية ولو لم يصرح بذلك تصريح فرعون اللعين حين قال لقومه : ﴿ **مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى** ﴾ [غافر : ٢٩] ، ﴿ **قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ** ﴾ [الشعراء: ٤٩] ، وكذلك قومه الذين ترسموا تعاليمه ، وانساقوا وراءه مؤلهون له وإن لم يبوؤوا بذلك صراحة !

٢ ــ رغم أن الحج والزكاة قاعدتان أساسيتان من قواعد الإسلام الخمس ، ومع ذلك لم يأت ذكرهما فى الحديث ، لا لأن الحج أو الزكاة لا يتوقف دخول الجنة عليها بالنسبة لغير المستطيع وغير مالك النصاب أبدا .

وحروب الردة التى خاضها الخليفة الأوّل أبو بكر الصديق دليل على ذلك .

بل لأن التشريع الإسلامى مبنىّ على الاستطاعة الجسيمة بحيث يراعى القدرات العضلية والنفسية ، وعلى الاستطاعة المادية ــ هذا بالنسبة للأوامر فقط .

فقه الدعـوة

من حسن التدبير فى أسلوب الدعوة إلى اللّه ألا يذهب الدّاعى إلى حد بعيد فى بيان الفضائل والمستحبّات بادئ ذى بدء ؛لئلا ينشغل بها بعض المدعوّيين إلى الإسلام أو إلى تطبيقه عن الفرائض والأركان ، وحتى لا يتخوّف من كثرتها البعض الآخر فيعجز عن التمادى فى تطبيق الأحكام الشرعية الأخرى ، ولنا فى سيرة النبىّ ﷺ خير مثال حيث عكف طيلة إقامته بمكة المكرمة ــ ثلاث عشرة سنة ــ على تقويض صرح الشرك والإلحاد وإرساء قاعدة التوحيد ــ لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه ــ قبل أن يفرض عليهم الصيام أوالحج رغم قرب البيت الحرام إليهم .

تطبيـق

لقد جنى أدعياء الدعوة الإسلامية على دعوتهم من حيث يريدون الإحسان إليها فى كثير من الأحياء ، إنهم يرون ويكابدون ما تعانيه هذه الأمة المكلومة فى جسدها ، وسيوف أعدائها الحاقدين تثخنها وجروحها تنزف، بل تنهمر منها أنهار الدماء، وكرامتها تخدش كل حين وقدسها بل والكثير من أراضيها تجأر إلى اللّه من وطأة الاستعمار الحاقد، ولا زالت أقواتها وأقمشتها وأدويتها بيد أعدائها يساومونها فى أعزّ ما لديها ، فإذا حفظت ماء وجهها يومًا ودفعت أثمانا باهظة قالوا لها بشماتة : (الصيف ضيعت اللبن) ومع كل هذا نراهم يثيرون النقع فى نقاش حادّ رفع اليدين عند كل تكبيرة فى الصلاة. . . والقبض والسدل . . . وسمك اللحية . . . والكولونيا . . . !!

إنهم فى واد يـهيمون . . . وإن الأمة الإسلامية فى واد آخر .

الحديث الثالث والعشرون

عن أبى مالك الحارث بن عاصم الأشعرى رضى اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم :

« **الطهور شطر الإيمان ، والحمد للّه تملأ الميزان، وسبحان اللّه والحمد للّه تملآن أو تملأ مابين السماء والأرض ، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها** » رواه مسلم .

تخريج الحديث :

خرجه مسلم من رواية يحيى بن أبى كثير ؛ أن زيد بن سلام حدثه أن سلاما حدثه عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول اللّه ﷺ ، فذكر الحديث .

ترجمة الراوى :

هو الحارث بن عاصم ، وعاصم هذا ليس صحابيا ، توفى الحارث فى طاعون عمواس سنة ثمان عشرة من الهجرة فى خلافة عمر رضى اللّه عنه .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

العقائدية :

١ ــ إذا كان الإيمان الذى هو التصديق ينحصر فى شيئين أساسيين :

الطهور : (بفتح الطاء) ما يتطهر به ، وبضمها : بمعنى الطهارة وهو المراد هنا .

شــطر : شطر الشىء نصفه .

الحمد لله تملأ الميزان : أى أن ثواب حمد اللّه بأى صيغة ، أو ثواب هذه الصيغة من صيغ الحمد والثناء تملأ الميزان الذى توزن به الأعمال يوم القيامة .

وسبحان الله والحمد لله : أى هاتان العبارتان تملآن ما بين السماء والأرض زيادة على ملء الميزان بالحمد منفردا، والميزان لاشك أوسع من طباق السماء والأرض .

أو تملأ ما بين السماء :« أو » هذه للشك فيما قاله النبى ﷺ وفائدتها الاحتياط فى النقل خوفا من الكذب على النبى ﷺ .

تملأ أو هذه العبارة المشتملة على التسبيح والتحميد تملأ .

والصلاة نور : أى الصلاة كالنور فى الهداية إلى سبل الخير وإزارة حياة المصلى وتنوير قلبه ،فتصبح معالم الخير واضحة أمامه .

الصدقة برهان : أى القربات المادية دليل قاطع على صدق إيمان المتصدّق وإخلاصه مع اللّه ــ عز وجل .

أ ــ التنزه عما لا ينبغى (من كل منهى عنه شرعا).

ب ــ فعل ما ينبغى من جميع الواجبات .

فإن الطهورالذى هو لغة: التنزه عن الدنس الحسى والمعنوى إحدى هاتين الدعامتين، وبالتالى فالطهور الشطر الأول للإيمان .

٢ ــ الإيمان باللّه شجرة مباركة تؤتى أكلها ــ إن غرست فى قلب طاهر نقى ــ ولا يمكن أبدا أن تثمر ولا أن تزهر إن هى زرعت فى قلب متعفن نجس ، ومن ثم ففاتحة الدخول فى هذا الدين ــ شهادة أن لا إله إلا اللّه ــ مركبة من نفى وإثبات « لا إله » يعبد فى هذا الكون ، أو يهرع إليه ، ويطلب فى السراء والضراء ــ إلا اللّه ــ ولأجل هذا عمل النبى ﷺ طيلة إقامته بمكة على هدم هذه العقائد الفاسدة ، وتنقية تلك القلوب من براثن الشرك باللّه وعبادة الطواغيت قبل أن يفرض عليهم الفرائض ويسن السنن مثلما هو الشأن لدى الفلاح الذى ينقى أرضه من الأعشاب الضارة والحشائش السامة أو المعيقة للزرع ثم يعكف على زراعتها .

إذًا فالشرك باللّه قذارة ما كان لمؤمن أن يلطخ بها نفسه ، قال تعالى : ﴿ **فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ** ﴾ [الحج : ٣٠] .

٣ ــ الميزان ووزن الأعمال يوم القيامة من السمعيات التى يجب الإيمان بها وقد تاه فى بيان حقيقة هذا الميزان ، وهيئته ، وسعته خلق كثير ــ سامحهم اللّه ــ من رجال علم التوحيد والمصنفين فيه ، والأجدر بنا وبهم أن نلفت الأنظار إلى ما يوزن ، قال تعالى : ﴿ **فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون** ﴾ [المؤمنون : ١٠٢] .

وأن نقتفى أهْل السنّة فى الاعتقاد بأنه حقيقة لامراء فيها ــ أى الميزان ــ ونفوض معرفة كنهه إلى اللّه ــ عز وجل ــ قال تعالى : ﴿**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَة** ﴾ [الأنبياء : ٤٧] .

علم السلوك :

« الصبرضياء » .

فلا يزال المؤمن الصابر يستضىء بنور الحق ، فيسلك سبيل الهداية فى عباداته ، ومعاملاته ، والصبر على ثلاثة :

على المصائب وحرارتها ، وعلى العبادة ومشاقها ، وعلى الشهوة ولذائذها ، إلا أن الأمة زمن انحطاطها الفكرى وتدهورها الأخلاقى بابتعادها عن المنهج القويم

ومجاهرة أمرائها وحكامها بالسكر والمجون . . . و . . . و . . . انقسمت فى مواقفها أمام ذلك إلى ثلاث طوائف :

ــ ذهبت الأولى إلى محاربة الطغاة وتبكيتهم ، والوقوف أمام عبثهم وفجورهم مما أوتوا من قوة البطش والفتك غير مبالين بسيوفهم وجنودهم ، وهؤلاء هم زبدة الأمة الإسلامية آنذاك وخيرتها الذين علموا أن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر ، فجاهدوا وصبروا وصابروا حتى استشهدوا أو سجنوا أوعذبوا .

ــ وأمّا الثانية فقد استخفّها الحكام الفجرة ، واستهوتهم شياطينهم ، فانساقوا وراءهم ، وانصهروا فى بوتقتهم ، فجرفهم تيارهم الفاسد ، وهم الأكثر .

ــ وأمّا الطائفة الثالثة فقد اختارت الانزواء جانبا والعيش على هامش الحياة مختلية بنفسها ــ وهذا أقل القليل الذى يجب أن نفعله أمام الظلم والفجور عند العجز ــ وفى كثير من هذه الفئة العلماء والجهابذة فى فنون كثيرة من الثقافة الإسلامية .

غير أن المضحك المبكى فى آن واحد هو الوسائل التى اتخذها هؤلاء أو بعضهم لمجاهدة أنفسهم كأن يعلّق أحدهم نفسه ليلة كاملة فى شجرة ، أو يمشى من غير انتعال على المسامير ، أو يجوع نفسه ويلبس الخشن من الثياب . . . إلخ ، فى حين أن الشارع ملىء بالابتلاءات والامتحانات التى تفرز المؤمن الصادق المجاهد من الفاسق المارق ، قال تعالى : ﴿ الٓمٓ . أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُون ﴾ [العنكبوت : ١ ، ٢] .

فهلا نزلوا من صوامعهم ، وصعدوا من خلواتهم ليقاسموا الأمة فيما تعانيه وليذودوا عن بيضة الدين ؟ ! وها هو سيد الوجود عليه الصلاة والسلام يشاهد فى الغزوات ــ إذا حمى الوطيس ــ وهو أقرب الناس إلى العدو هنالك المحك .

الفقهية :

« الطهور شطر الإيمان » .

١ ــ يحرم على الجنب الطواف بالبيت الحرام ، والصلاة ، ومس المصحف ، ويحرم عليه وعلى الحائض الدخول إلى المسجد .

٢ ــ عبادة الأوثان رجس ؛ لقوله تعالى : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَان ﴾ [الحج : ٣٠] .

وعبّادها فى حكم المتنجسين ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُون نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾ [التوبة : ٢٨] .

واختلف العلماء فى معنى وصف المشرك بالنجس فقيل : لأنه جنب ، وقال ابن عباس وغيره : بل معنى الشرك هو الذى نجّسه .

﴿ فَلا يَقْرَبُوا ﴾ نهى ؛ ولذلك حذفت منه النون ﴿ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ﴾ هذا اللفظ يطلق على جميع الحرم ، وهو مذهب عطاء ، فإذا يحرم تمكين المشرك من دخول الحرم أجمع ، فإذا جاءنا رسول منهم خرج الإمام إلى الحل ليسمع ما يقول ، ولو دخل مشرك الحرَم مستورا ومات نبش قبره وأخرجت عظامه. فليس لهم الاستيطان ولا الاجتياز [١] .

الأخلاقية :

« الصلاة نور » .

الصلاة نور وضّاء تنير على صاحبها سبيل الرشاد ، وتهديه إلى الأخلاق الفاضلة والمبادئ القويمة بحيثُ تربّى فى المؤمن روح المراقبة والخوف من اللّه ، فلا يحرك المصلى ساكنه إلا ويتذكّر موقفه الخطير أمام العليم الخبير وهو يناجيه ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِين ﴾ [الفاتحة : ٤] :

قال تعالى: ﴿ وأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥] .

التربوية :

« . . . الطهور شطر الإيمان . . . » .

إن العبادات الإسلامية كلها ـ لا الصلاة وحدها ـ ليست هدفا فى حدّ ذاتها، أرادها الإسلام وحدها فى تشريعه الخالد ، بل هى وسائل فحسب لتحقيق غاية سامية وهى : تزكية النفس وتربيتها وتقويمها والسموّ بها من حضيضَ الحيوانية الأرضية إلى الصفاء الملائكى السماوى ، قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ من دَسَّاهَا ﴾ [الشمس : ٩ ، ١٠] .

كما بيّن الحق سبحانه مهمّة الرسول الكريم فى قوم أحيوا الرذيلة على جثمان الفضيلة ، واستنكروا المعروف ، وأمروا بالمنكر، فقال عز وجل :

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة : ٢] ، وقال سبحانه : ﴿ خُذْ مِنْ

(١) تفسير القرطبى ٨ / ٦٧ .

أموالهم صدقة تُطهِّرُهُم وتزكِّيهم بها ﴾ [التوبة : ١٠٣] .

وتزكية النفس تنقيتها من شائبة الشرك الذى يورثُ نكران الجميل ، ومن الحقد تجاه أى إنسان كان ، ومن رذيلة الحسد ، والبغضاء ؛ لأن العبرة فى إسلام المؤمن ، بل وفى إنسانية الإنسان كإنسان بغض النظر عن عقيدته وتدينه ليست فى قماشه ولا فى جلده ، أوشعره بل بدخيلته ، وقلبه الذى هو محط نظر اللّه عز وجل للحديث الوارد عن رسول اللّه ﷺ : «إن اللّه لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم » من أجل هذا كله اعتبرت الطهارة النفسية النصف الأوّل للإيمان .

النفسية :

« والحَمد للّه تملأ الميزان . . . وسبحان اللّه »

يعيش الغرب ـ والمتغرّبون معه ـ فى دوّامة من القلق الروحى والاضطراب النفسى حيث لا قرار لهم ، ، ولا أمن بينهم ، ولا هناء أمامهم .

فكم من أرواح أزهقت انتحارا ، وكم من المهدئات ابتلعت مرارا . . . وكم وكم . . . وكم من زيجات فشلت . . . وأطفال يتّموا . . . وأموال أهدرت، ودماء سفكت ضحية الفراغ الروحى الهائل والمرعب الذى يُعانونه ، والدواء منهم ليس بالبعيد فللّه در القائل :

كالعيس فى البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

ومبعث ذلك القلق هو جهل الملحد بنفسه وبمصيره ، ومستقبله وأصله وفصله ، فهو بين خرّاص يدعى أن أصل الإنسان قرد ثم تطوّر ، وأفاك يتبجّح بالصدفة والذاتية . . . وهلم جرّا . . . وهى تيارات عقيمة ضالة ومضلة لم تزد الحائرين إلا حيرة واضطرابا ، ولم يدر هذا المسكين أن فى القرآن الكريم ضالته المنشودة ، وفى ذكر اللّه دواؤه الناجع ، ولذلك فإن المؤمن يعى كل ذلك ، ويعيش فى أمن تام واستقرار كامل، يذكر اللّه سبحانه ﴿ ألا بذكْرِ اللَّه تطْمئنُ الْقُلُوبُ . الَّذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحات طُوبىَ لَهُمَ وحُسْنُ مَئاب ﴾ [الرعد : ٢٨ ، ٢٩] .

يدرك أن أوله لا شىء ولكن كان بإذن اللّه ؛ ولذلك لا يحمل هّم حياته ؛ لأن الذى خلقه من العدم هو الكفيل برعايته .

ويدرك أيضا أن مفرّج الكرب هو اللّه وحده حتى وإن ضاقت به الأرض بما رحبت وتكدّر صفوحياته ومع ذلك لن يفقده ثقته بربه مطلقا فيهرع إليه متمثلا بقوله سبحانه :

﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[الأنبياء : ٨٧] .

وإذا فشل فى تجارته أو قتر عليه رزقه فإنه لا يفكّر إلا فى الالتجاء إليه سبحانه؛ لأنه الغنىّ ولأنه الباسط...فلم الأرق ..؟ ولم الانتحار ..؟ ولم الجنون، قال تعالى: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ ﴾[البقرة : ٤٥] ، تلك هى الراحة النفسية التى لن يكتسبها المرء بالأقراص ولا بالحقن المهدئة ، بل بذكر اللّه وهى التى يسعى العالم قاطبة لاكتسابها ، ولكن هيهات أن يدركها غير ذى اللسان الرطب بذكر اللّه .

وقد كان أهل الذكر ينعمون بها فقال قائلهم : ــ وكان رث الثياب أغبر الوجه ــ واللّه لوعلم الأمراء بما نحن فيه لقاتلونا عليه فأنعم بذكر اللّه ؛ سواء أكان حمدا أو تسبيحا وتمجيدا ، أو هيللة وتوحيدا . من علاج نفسانى ربّانى ناجح ،عن أنس رضى اللّه عنه : «ذكر الله شفاء القلوب » (١) .

الحـضارية :

« والحمد للّه تملأ الميزان ».

مراحل الحياة الثلاث : (ضعف ، ثم شباب وفتوة ، ثم شيخوخة وترهل) سنة كونية لا تشذ عنها الحضارات هى الأخرى ، فهى تنطبق على أى كائن فى هذا الكون من المخلوقات، قال اللّه تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾ [الروم : ٥٤] .

وليس هذا مبرّرا لإجهاض أى حضارة ، أو موتها فى المهد؛ لأن أعمار الحضارات تتفاوت تفاوت أعمار الأفراد ، فكما أن الإنسان المتعهّد لصحته ، المراعى للقواعد المنصوح بها طبيّا، وذلك بأكل ما يصلح البدن ويقوّيه ، ويتعاطى نماذج رياضية معينة تساعده على تنشيط بدنه ، يستطيع أن يحتفظ بحيويته وشبابه أكثر من الذى يهمل كل هذا ، حيث يهوى للشيخوخة والترهل سراعا .

تماما مثلما يجب على بناة أىّ حضارة ، والمنظرين لقواعدها أن يراعوا ذلك فيهيئوا عناصر بقاء تلك الحضارة ، ويولوا اهتمامهم الأكبر للإمداد الطاقوى الذى يضمن استمرارية حضارتهم وديمومتها .

وتختلف فعالية تلك العناصر المسؤولة على بقاء الحضارة باختلاف مصادر الحضارات نفسها .

---

(١) الجامع الصغير .

فالحضارات الأرضية التى مصدرها الفكر الإنسانى لا غير كحضارة قرننا هذا تستمد قوتها من طاقات أرضية ـ إنسان ، كهرباء ، فحم ، بترول ، معادن مختلفة ـ وهذه كلها إلى نفاذ وهلاك ، وذى أزمات طاقوية متعددة دليل معاصر على عدم بقائها، ولست فى حاجة إلى القول: إنها تحمل معاول هدمها بنفسها لتعزيز ما ذهبت إليه أولا.

وأمّا حضارة الإسلام فإنها الحضارة الوحيدة التى تستمد عناصر بقائها من خلود مصدرها الأساسى ، وهو اللّه عز وجل : ﴿ **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ** ﴾ [الرحمن : ٢٦ ، ٢٧] .

وتملك أيضا طاقات تجديدها عبر العصور ، بل ولديها ما تبعث به نفسها من جديد. فلقد كادت أن تنضوى حضارة صدر الإسلام بفعل العواصف التى هدّت الساحة السياسية ، ولكن الأمة لم تفقد الأمل حتى قيّض اللّه من يجدّد هذا الدين ، ويزيح ما علق به من غبار ، ويظهر معالم حضارته المتجّددة؛ إنه الخليفة الخامس ـ كما يلقبه البعض ـ عمر بن عبد العزيز وذلك على رأس المائة الأولى ، وسخر للثانية من بين من سخرهم : العالم الجهبذ الإمام الشافعى ، وللخامسة حجة الإسلام أبوحامد الغزالى وغيره ، وتوالى المجددون فى كل عصر ومصر ، وكانوا دوما يسعون إلى أن تتفادى الأمّة مقوضات الحضارة ، ويجنّبوها أخطار هذه الأدواء التى تهد كيانها وتأتى على أسها ومنها :

أولاً : الإشراك باللّه ـ عز وجل ـ الذى هو سرطان الحضارات : البابلية ، والآشورية، والفرعونية ، والرومانية ، والفارسية ، ولا أخال حضارة الغرب اليوم تفلت من قبضته ، بل لا زال ينهشها حتى يرديها ، وتلك هى سنة اللّه التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة اللّه تبديلا ولا تحويلا قال تعالى : ﴿ **وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا . كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا . وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا . وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا . وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا . قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً . لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا . وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا . فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا . أَوْ يُصْبِحَ**

مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا . وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٣٢ ـ ٤٢] .

ثانيا : موالاة الطواغيت من دون اللّه داء خطير هو الآخر؛ لأنه قَدْ يؤدّى إلى الشرك باللّه ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا . ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ [محمد: ١٠ ، ١١].

ثالثا : البطر والغرور معبرٌ إلى الإشراك باللّه ، قال تعالى حكاية عن المغتر بثروته الذى كان من قوم موسى : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ [القصص : ٧٨] .

والبطر هو كفران النعمة والجحود بفضل اللّه الذى رتب بقاء نعمه على حمده ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل : ١١٢] .

ومن حصاد الغرور عدم الالتفات إلى الفقراء والمساكين ومشاركتهم فى الأموال والأقوات . قال تعالى فى شأن أصحاب الجنة الذين تسبّبوا بمنعهم حقوق المعوزين فى خراب جنّتهم ودمارحائطهم الجميل:﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ . وَلا يَسْتَثْنُونَ . فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ . فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ . فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ . أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ . فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ . أَن لاَّ يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ . وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ . فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ . بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ [القلم : ١٧ ـ ٢٧] .

رابعا : ومن الأمراض المهلكة التى بليت بها كثير من الأمم والشعوب : عدم السير وفق المنهج الربانى القويم ، ويرجع سر البلية هذه إلى الاعتداد بالعقل وحده شأن الحضارة المعاصرة ﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الروم : ٩ ، ١٠] ، ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾

[القصص : ٧٨] الآيات السابقة .

إذًا استخلص لدينا أن الحمد هو سر بقاء الحضارات وازدهارها وامتداد آجالها قال عزّ من قائل : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُم ﴾ [إبراهيم : ٧] ، فاللهم لك الحمد حمدا يوافى ما تزايد من النعم ، والشكر لك على ما أوليتنا من الفضل والكرم .

الفلكية :

لعلّه ليس من المصادفة أبدا أن تعبّر بلاغة النبىّ الأمىّ عن حقيقة علمية دقيقة أثبتتها الأبحاث الفلكية بعد قرون عدة من وفاة المصطفى ﷺ حيث وصف الصلاة بالنور ، والصبربالضياء فقال : « والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء » وهذا الوصف نفسه ـ الضياء والنور ـ ورد فى قول الحق سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾[يونس : ٥] ، جعل الشمس ضياء لا نورا ؛ لأن أشعتها ذاتية ، فهى نار ملتهبة تمدّ بعض الكواكب السيارة الدائرة حولها والقريبة منها بالضوء فتعكس هذه الكواكب تلك الأشعة المتساقطة عليها ، وهذا ينطبق على القمر الذى يؤدّى دور المرآة العاكسة لضوء الشمس .

وإنما كان الصبر ضياء ، والصلاة نـورا ؛ لأن الصبر بالنسبة إليها كالأصل مع الفرع، فـلولا الصبر مـا أقيمت الـصلاة ، ولذلك قـال ربـنا : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ ﴾[البقره :٤٥] ، ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا ﴾[آل عمران : ١٢٠] .

فقه الدعوة

١ ــالدعوة فى سبيل اللّه اليوم ليست فى حاجة إلى الرجال فحسب بقدر ما هى فى أمس الحاجة إلى وسائل الدعوة المختلفة والتى تعدّدت وتطورت .(من صحيفة ، إلى . . . إلى مجلـة ، إلى أشـرطة فيديو ، إلى أحاديث تليفزيونية ، إلى مدرسة ومعهد . . . إلى . . . إلى) .

وينبغى كما يقال : لكل مقام مقالة ، ولكل نزال سلاحــه ، بل ورب قول أنفذ من صول .

وإننى لأعجب من مصير الأموال الطائلة التى تنفقها الأيادى الإسلامية السّخية فى ديار الغرب ، وإن كنت أبتهج بها إذ تكّرس مصداقية إيمان أصحـابها وإخـلاصهم مع اللّه ــ عز وجلّ ــ واستجابتهم لقول الحق سبحانه: ﴿ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ

وَأنفُسِكُم ﴾ [الصف : ١١] ، وعقدهم للصفقة المربحة ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [التوبة : ١١١] ؛ ولذلك عبّر عنها الرسول الكريم صلوات اللّه وسلامه عليه أروع تعبير حيث قال : « والصدقة برهان»[١].

ولكن لا يلبث ابتهاجى أن ينقلب إلى حيرة وقلق حين تصرف هذه الأرصدة فى زخرفة المساجد ، مساجد لا تؤدى فى بعض الأحيان إلا دور التمييز الطائفى والتحيّز الجهوى ، ولا يصدق عليها اسم الجوامع فى هذه الحال ، أو مراكز علقت فى مداخلها أسماء إسلامية ، أو ثقافية ، أو تربوية بلا مسمّيات إن هى إلا كالتماثيل الجوفاء ، حتى إذا ساقك القدر ورحت تدلف فى ساحاتها أبهرتك بأضوائها وقببها ، وأساطينها، وفرشها وأرائكها ، وتعدد مكاتبها ، وبجمهرة مديريها ، حيث تجد المدير ، ونائبين له. . . والسكرتير العام ونائبه ، وكاتبه العام . . . والخاص ثم المحور أمين المالية . . . وهلم جرا . . . من هذا الغثيان الذى أصيبت به الأمة حيث تسمع جعْجَعَة ولا ترى أثر الطحن مطلقا .

لقد برهن المؤمنون على إيمانهم ، ولكن هؤلاء لم يبرهنوا بإخلاصهم وعلمهم ، وحنكتهم .

وليت هؤلاء العلماء ، والإداريّين ، والمخططين . . . و . . .أخذوا العبرة من دعاة كثير من المذاهب الأرضية ، والديانات المحرفة ، وسايروهم فى استغلال الأجهزة الحديثة للدعاية لما يعتقدون، والتبشير بما يؤمنون .

ولنا أخذ الصحيفة والمجلة كمثال أول على ذلك ، حيث أغرقت الشيوعية العالم بالمئات من الصحف وعشرات المجلات التى تبلور فلسفتها وتعرضها بأساليب علمية ، وطرق فنية جذابة .

ولنضرب مثلا بفرنسا كبلد غربى متفتح ــ كما يقال ــ التى سبق المهاجرون العرب إليها غيرهم ، ويفوقون اليهود فى العدد لا فى العدة ! فلتجد لى مجلة إسلامية ــ بكل معنى إسلامية ــ تصدرها تلك الجالية ــ بلا تحفظ ــ ثم لتبحث هل تجد مكتبة تخلو من مجلة يهودية أو صحيفة شيوعية ؟

إن فقهاء الدعوة إلى هذه التيارات عملوا بقولة القائد الفرنسى نابليون بونابرت

---

(١) رواه مسلم .

(ثلاث صحف معادية أكثر بطشا من ألف بندقية) فهلا فقهها فقهاؤنا ؟!

٢ ــ إن الداعية المحنّك هو الذى لا يعتمد فقط على استثارة عواطف الجماهير واستلهام مشاعرها، وإن كان هذا يعد مرحلة هامة فى الدعوة الإسلامية ويعتبر صاحبه ناجحا إلى حد كبير فى دعوته ، ولكن الإفراط فيه هو العيب ؛ لأن الإسلام يخاطب القلوب والوجدان كما يخاطب العقول والأذهان، ولكن دعاة الإسلام اليوم ويالللأسف بينَ عالم بحلال القرآن وحرامه يقبع فى محرابه الساعات الطوال يحدث الناس بأسلوب فكرى جامد ، وبألفاظ اصطلاحية مملة ، وطريقة عقيمة ،تراه يخوض فى تفاريع دقيقة، وأقوال متشعّبة تعزب عن بعض الخاصة وتعجز عن فهمها بله عمن يحدثهم من العامة. وفريق ثان يعتمد على ألفاظه الرنّانة ، وعباراته الجذّابة ، ومقدرته الفائقة فى التصوير ، والتهويل ، والتفخيم ، تدق كلماته القلوب دقا، ولكنها لا تلبث حتى تملّ وتفر ؛ لأنها فتحت أبوابها طويلا فلم يدخل شيء ، فهى كالعسكر الذى يعلن قائده فيه حالة التأهب القصوى ،ويستحثّه على القتال والنزال بخطبه الحماسية . . . ولكن دون أن يلقى عدواً . . . ويظل هكذا إلى أن تتلاشى تلك العواطف الجياشة، ومللها فى هذه المرة أخطر بكثير من ذى قبل !!

لأنها لن تستجيب لداعٍ أبدا، مهما دوّت صفاراتُ الإنذار، وبحّت حناجر الدعاة.

ولهؤلاء وأولئك أسوق وسطية أستاذ الدعاة محمد ﷺ حيث خاطب العواطف فى مطلع حديثه حتى تفتّحَت نفوس الصحابة إلى ملء الميزان ، وإلى الأنوار والضياء ، ثم قرع العقول بقوله : « والقرآن حجة لك أو عليك » .

تطبيـق

١ ــ أصيبت الدعوة الإسلامية بأقوام يتلبسون بها ، ويحشرون أنفسهم فى عداد أهلها وهم لها أعداء من حيث لا يشعرون ، يسيؤون لها وهم يريدون الإحسان ، إنهم أدعياء العلم والمعرفة ، نرى السكير العربيد الأمى الفارغ قد تاب منذ عهد قريب ، والتحى وتجلبب ، ثم لا يلبث أن يغتر فى نفسه حيث شابه بعمامته وجلبابه عمائم العلماء وجلابيبهم ، أو تدفعه عاطفته ويشحذ عزيمته إخلاصُه ــ وكثيرا ما كانت العواطف مرديات ــ فيجلس للتدريس ، وحينها جاز لنا على القواعد النحوية البكاء ، ويقدم للدعوة الإسلامية بمجلسه العزاء ولله درّ من قال :

إذا أردت أن تدعى فقيه قوم فطوّل الكم ثم عمم

ولا يكاد يحفظ آية أو يفقه حديثا ، وهاهم الصحابة العرب الأقحاح الذين رضعوا

الفصاحة والبيان مع ألبان أمهاتهم يحتاطون فى الرواية عن رسول اللّه خوفا من أن يتبوّأ أحدهم مقعده فى النار ،فهذا الحارث بن عاصم الأشعرى يشك فى لفظة واحدة فيقول: « تملآن أو تملأ » .

٢ ــ البعْض من حملة كتاب اللّه اليوم هم حرب عليه يعاكسونه فى أحكامه، ويخالفونه فى أوامره ولا يتورّعون فى إتيانهم نواهيه ، فيسترزقون بتلاوته على الأموات، وبكتابته فى التمائم ،فعملوا على ضياع الأمة بهزّ أصول عقيدتها ، وتشكيكها فى إيمانها ، فماهم إلا كما وصف اللّه بعض التّوراتييّن بقوله : ﴿ **مَثَلُ الَّذِين حُمِلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا** ﴾ [الجمعة : ٥] .

٣ ــ إيمان بعض المؤمنين يعوزه الصفاء النفسى والنقاء الروحى مع اللّه ومع الناس أيضا ؛ لأن النبى ﷺ قسم الإيمان إلى شطرين وعد الطهارة المعنوية الداخلية النصْف الأول ، ومع هذا فإننا نعايش أقواما يصلون بصلاتنا ويصومون بصومنا وألسنتهم معنا ــ أى مع المسلمين ــ تثنى وتطرى ، وقلوبهم مع أعدائنا علينا يوالونهم لمحاربتنا ويبذلون ما فى وسعهم وأكثر لتثبيط الحركة الإسلامية ومحاولة إجهاضها والإجهاز عليها من الداخل .

الحديث الرابع والعشرون

عن أبى ذر الغفارى رضى اللّه عنه،عن رسول اللّه ﷺ فيما يرويه عن ربّه ــ عزّ وجل ــ أنه قال : « يا عبادى : إنّى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرّما فلا تظالموا ، ياعبادى : كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدونى أهدكم . يا عبادى : كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم ، يا عبادى : كلكم عار إلا من كسوته ، فاستكسونى أكسكم ، ياعبادى : إنكم تخطئون بالليل والنهار ــ وأنا أغفر الذنوب جميعا ــ فاستغفرونى أغفر لكم ، ياعبادى : إنكم لن تبلغوا ضرّى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، ياعبادى: لو أن أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا، ياعبادى : لو أن أو لكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً، ياعبادى : لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد ، فسألونى فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر ، يا عبادى : إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد اللّه ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » رواه مسلم .

تخريج الحديث :

أخرجه مسلم من روايتين : الرواية الأولى هى رواية سعيد بن عبد العزيز عن ربيعة بن زيد عن أبى إدريس الخولانى عن أبى ذرّ ، وفى آخره قال سعيد بن عبد

فيما يرويه عن ربه : هذه إحدى الصيغ التى تستعمل فى رواية الأحاديث القدسية .

أنه قال : أى أن اللّه تعالى قال .

يا عبادى : ويشمل الإنس والجن ، فكلاهما مقصود بالنداء ، وناداهم ربهم بـ « يا » التى تستعمل لنداء البعيد؛ لكثرة الغافلين منهم .

حرمت الظلم على نفسى: ليس المراد هنا تحريم حقيقة الظلم ؛ لأن الظلم كما فسر فى بعض الأحيان هو التصرف فى ملك الغير وهذا مستحيل فى حق اللّه ــ عز وجل .

وجعلته بينكم محرما أى قضيت أزلا بتحريمه ، وشرّعت ذلك بوحى منّى .

فلا تظالموا . إما بفتح التاء وتخفيف الظاء على الأشهر ، وإمّا بقلب إحدى التاءين ظاء ؛ لأن أصلها «تتظالموا» وإدغامها فى الظاء .

العزيز: كان أبو إدريس الخولانى إذا حدّث بهذا الحديث جثى على ركبتيه. والرواية الثانية عن قتادة عن أبى قلابة عن أبى أسماء عن أبى ذرّ عَن النبى ﷺ، كما خرجه الإمام أحمد والترمذى وابن ماجه من رواية شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم عن أبى ذرّ ، قال الإمام أحمد: هو أشرف حديث لأهل الشام .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

مصطلح الحديث :

لعلماء الحديث مفارقات يفرقون بها بين الأحاديث النبوية والأحاديث القدسية من جهة ، وبين هذه الأخيرة والقرآن الكريم نفسه ، ووضعوا ميزات كل على حدة .

فعلى سبيل المثال يُعرف الحديث النبوى من القدسّى بكون لفظ الحديث النبوىّ من عند الرسول ﷺ ، وأمّا معناه فبوحى من اللّه ـ عز وجلّ ؛ لقوله تعالى : ﴿ **إنْ هُوَ إلاَّ وَحْيٌ يُوحَى** ﴾ [النجم : ٤] بخلاف القدسى فهو من عند اللّه لفظا ومعنى .

ومن فوارق الحديث القدسى عن القرآن الكريم :

أ ـ أن القرآن نزل للتحدّى والإعجاز بكامله وبأقصر سورة منه بخلاف الحديث القدسى .

ب ـ والقرآن يحرم حمله وقراءته على الجنب بخلاف الحديث القدسى .

جـ ـ ولا يتعبّد بالحديث القدسى بعكس القرآن الكريم .

ومن أراد التوسع فى دراسة هذا الجانب من الأحاديث فعليه بكتب علم الحديث الميسّرة المختلفة كـ :(محاضرات فى علم الحديث)للمرحوم الشهيد الدكتور : ـ صبحى الصالح ـ رحمة اللّه عليه .

العقائدية :

١ ـ مما يستحيل فى حق اللّه سبحانه وتعالى الظلم، فقال: ﴿**وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾ [ق : ٢٩] ، وقال : ﴿ **وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ** ﴾ [غافر : ٣١] ، وقال : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا**

= **كلكم ضال** . قد تكون الكلمة على حقيقتها إذا كان الضلال بمعنى الغفلة عن الشىء ، وقد تكون من قبيل الحكم على الأكثرية إذا كان الضلال بمعنى سلوك طريق الشر بعد تبّين الحق ؛ لأن الأنبياء والمرسلين ليسوا ضالين بهذا المعنى .

ياعبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار : الرواية المشهورة : تخطئون بضم التاء ، وروى بفتحها وفتح الطاء.

فى صعيد واحد : الصعيد يُراد به وجه الأرض .

المخيط : أى الإبرة آلة الخياطة .

يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا ﴾ [يونس: ٤٤]، وقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ [النساء: ٤٠]، وقـال : ﴿ ومَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا ﴾ [طه : ١١٢].

٢ ــ الخلائق كلها مفتقرة إلى خالقها ــ عز وجلّ ــ وذلك فى جميع شؤونها فهى لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرّا ولا حولا ولا قوّة ؛ لأن خزائن السموات والأرض هى أمـلاك اللّه عزّ وجلّ ومفاتيحها بيده ، وعلى المؤمن دوما أن يجدّد إيمانه ويصحح عقيدته فى اللّه ترسّما لسبل الأنبياء والمرسلين ــ صلوات اللّه وسلامه عليهم ــ وعلى شيخهم الخليل أجمعين ، حيث وقف عليه السلام تلك الوقفة الإيمانية ليعلن لقومه وللعالم أجمعين براءته من كل معبود غير اللّه سبحانه : ﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ . فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ . الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ . وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ . وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ . وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ . وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [الشعراء : ٧٥ ــ ٨٢] .

ولا يتم تصحيح عقيدته إلا إذا اعتمد على اللّه فى أساسيات حياته كلها وكمالياتها أيضا فى هدايته ، ومطعمه ، ومشربه ، وملاذه ، ولا يركن فى شىء من ذلك لغيره تعالى الذى ضمن له العيش ، وهو فى أحشاء أمّه وممّا نقل عن حكم عيسى عليه السّلام: « ابن آدم أنت أسوأ بربّك ظنا حيث كنت أكمل عقلا ؛ لأنك تركت الحرص جنينا محمولا، ورضيعا مكفولا، ثم أودعته عاقلا قد أصبت رشدك وبلغت أشدك».

أ ــ ففى استهدائه يجب ألا يهرع لغير اللّه طالبا الهداية والتوفيق والسداد؛ فالهداية نوعان : هداية مجملة ، وأخرى مفصّلة .

الهداية المجملة : هى هداية الإسلام والإيمان قرارها القلب ، وهى سكينة تخالط شغاف القلب، واطمئنان يخامرالوجدان ، وسعة فى النفس وانشراح فى الصدر للإسلام ، واقتناع فكرى ووجدانى ، وليس فى هذا كله للإنسان وحيله دخل مهما تناصرت الخلائق على ذلك ، قال تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ [الأنعام : ١٢٥] ، ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [القصص : ٥٦] ، ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٩٩] .

وأما الهداية المفصلة : فهى هداية إلى معرفة تفاصيل أجزاء الإيمان والإسلام

والإعانة على فعل ذلك ، وهى دراية لأحكام الشريعة الإسلامية بعد دراسة متأنية ، ومن بعد ذلك تطبيق وترجمة إلى ميدان العمل ، وليس للمؤمن إلاّ أن يجأر بدعائه ورجائه إلى من بيده الأمر كله ، ثم يعزم مستعينا بما آتاه اللّه من ذكاء وفطنة وقوة متقوّلا بما قوّل اللّه به نبيّه عليه السلام : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[طه : ١١٤] .

وها هم الأنبياء والمرسلون يبرؤون إلى اللّه فى الحول والقوّة بدءا من والدى البشرية ــ آدم وحواء ــ عليهما السلام ﴿ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[الأعراف : ٢٣]، ومرورا بآدم الصغير؛ نوح عليه السلام ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود : ٤٧] ، وانتهاء بخاتم النبيين وسيّد المرسلين حيث كان عليه الصلاة والسلام يقول فى دعائه بالليل : « اهدنى لما اختلف فيه من الحقّ بإذنك ، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم » ، وأمر عليّا أن يسأل اللّه السّداد والهدى ، كما علّم الحسن رضى اللّه عنه أن يقول فى قنوته فى الصلاة: «اللهم اهدنى فيمن هديت » . والمؤمنون عامة يرددون فى كل ركعة يصلونها : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾[الفاتحة : ٥] .

ب ــ وفى استطعامه كذلك ؛ لأن الأقوات والأرزاق التى ينزلها مالكها بأقدار ، فإن خزائنها ملك لله ــ عز وجل ــ قال تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[الحجر : ٢١] وهى مسخرة لخدمة الإنسان ومنافعه بالكيفية التى أرادها مالكها ــ عز وجل ــ وبنفس الكمية التى حددها وضبط مقاديرها ، قال تعالى :

﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ . أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا . ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا . فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا . وَعِنَبًا وَقَضْبًا . وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً . وَحَدَائِقَ غُلْبًا . وَفَاكِهَةً وَأَبًّا . مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾[عبس : ٢٤ ـ ٣٢] ، وما دام الخالق للإنسان والحيوان هو المالك لما فى هذا الكون ، وهو الذى سلبها الحول المطلق والقوة الذاتية فقد ضمن لها منذ الأزل أقواتها أى منذ خلقه للسموات والأرض، قال تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾[فصلت : ٩ ، ١٠] ،﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود: ٦] .

جـ ــ « ياعبادى كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم»، ويأتى الكساء فى

أهميته للإنسان فى الدّرجة الثانية، وقد خصص النبى ﷺ الإطعام والكسوة ؛ لأنهما أهم شىء للإنسان فى هذه الحياة ، ولبيان شدة حاجة المخلوق للخالق وافتقاره إليه ، وما على هذا الإنسان إلا أن يستهدى الهادى عز وجلّ ويستطعمه ، ويستكسيه ، فإذا سأل ذلك من الله وحده فقد صحح عقيدته ، وجدد إيمانه وتحرر من العبودية لغير الله؛ لأنه أظهر حاجته وافتقاره إلى الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾[فاطر : ١٥] .

٣ ــ قد تثّاقل النفوس المريضة وتكلّ الأيدى المتكاسلة عن تعاطى أسباب الارتزاق، وتتخاذل عن القيام بالمهامّ المنوطة بها ، بادعاء التوكّل الذى خالطته مفاهيم استعمارية خطيرة ، وولجت منه أمراض نفسية آتت نتائج وخيمة على الأمة [١] .

٤ ــ « إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ». دلّ هذا على أن أفعال العبد تحصى ولا تنسى، والمحصى هو اللّه عز وجلّ بأمره ، والمباشرون لعملية الإحصاء همُ الحفظة من الملائكة الذين أوكل اللّه إليهم هذه العملية الدقيقة ومن بينهم (رقيب وعتيد)، أما الذى يكتب الحسنات فهو صاحب اليمين وأمّا الذي يدوّن السيئات فهو صاحب اليسار، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ . كِرَامًا كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ ــ ١٢].

واستكتابهم ليس المراد منه تفادى نسيان اللّه أبدا ــ حاشا للّه ــ ﴿ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى ﴾[طه : ٥٢] أو لخفاء شىء عنه وإن دق ، كلا ! إنما ذلك لحكم أرادها اللّه ؛ منها :

أ ــ أن العاقل حينما يدرك أنه مراقب ، وأعماله تحصَى عليه ينزجر عن فعل المعاصى.

ب ــ لبيان عدل اللّه ــ عز وجل ــ قال تعالى : ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٩] ، ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ [المجادلة : ٦] ، ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : ٧ ، ٨] .

جـ ــ ولإبكات المنكرين يوم القيامة يوم يشهد اللّه عليهم الحفظة والكتبة ، بل وينطق جوارحهم: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ.إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ.مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ.

---

(١) انظر كتابنا : المسلمون بين الكتاب والانتساب ص ٩٦ ، ط : دار البعث .

وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ [ق : ١٦ ــ ٢١] ، ولله در صاحب نظم : ترغيب المريد السالك حيث قال :

وكـل أفعـال العبـاد تـكـتب ۞ للعدل لا عن علم ربّى تعزب

علم السلوك :

المهتدى لا يمن على اللّه باستقامة سلوكه ، وقوة إيمانه ، وصدق معتقده ؛ لأنه لم ينل ذلك بمحض إرادته ، ومطلق عزيمته ، وببوادره الذاتية فحسب ، بل وصل إلى ما وصل إليه بتفضّل من اللّه ــ عزّ وجلّ ــ وتكرم منه. قال تعالى : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الحجرات : ١٧] .

لذا طلب منّا الحق سبحانه سؤال الهداية منه ، والحال أنّه يهدى من يشاء إلى الصراط المستقيم حتى لا يخالط بعض النفوس المؤمنة ما خالط قارون اللعين حيث وقف يتبجّح ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ [القصص : ٧٨] إذًا. فأنت ــ أيها المؤمن ــ لم تصل إلى اللّه بما عندك بل هو الذى أوصلك إليه بما عنده ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت : ٦٩] ، والكافر هو الآخر لم ينقطع عن اللّه بفعاله الذميمة ولكن اللّه هو الذى أبعده عنه، قال عز من قائل : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس : ٩٩] .

نعم على المرء أن يكـدّ ويتعب ويجـاهد نفسه ، ويلجمها ويسعى إلى مرضات اللّه بفعل الطاعات واجتناب المعصيـات ، ولكنـه لا يضمن لنفسـه أهـو مـن المقرّبـين أم مّن المبعدين ومـا عليـه إلا أن يستمسـك بالحبـل بقـوّة ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

الأصولية [1] :

نداء الحق سبحانه فى هذا الحديث: « يا عبادى » عام لا يعنى أمّة دون أخرى ، ولا مجتمعًا دون آخر،ولا عصرًا دون عصر ، ومبادئه هى الأخرى عامة أيضًا ، فالظلم بأنواعه ورد تحريمه وتشنيعه فى كل وحى سماوى ، ونصت الشرائع كلها بلا استثناء على خطورة الشرك ، وحملت عليه جميعا متضافرة فيما بينها حربا شعواء ؛ لأنه ظلم

---

(١) إشارة إلى شرع من قبلنا أوردت هذه الأمثلة ، وقد سبق ذكر هذا العنصر فى الحديث العشرين .

للحقيقة وظلم للنفس البشرية ، ووضع للأمور فى غير محلها ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣]، ﴿ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

كما جاءت صحف إبراهيم ، وصحف موسى ، وصحف شيث ، وتوراة موسى، وإنجيل عيسى، والقرآن الكريم بتحريم ظلم الإنسان لأخيه الإنسان قبل أن تكون للأمم ــ عصبة أو هيئة ــ فهذا القرآن الكريم يحكى محاورة هابيل لقابيل ــ ولدى آدم ــ الساخنة وكيف كان يتوجس خفية من النار ، أى أنه أدرك شناعة الاعتداء على النفس ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ . إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة : ٢٧ ــ ٢٩] ،﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة : ٣٢].

ومن الظلم الذى أجمعت الشرائع السماوية كلها على تحريمه : الاعتداء على الأعراض والأموال ، قال رسول الله ﷺ فى حجة الوداع : « إنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا » .

وفى الصحيحين عن ابن عمر عن النبى ﷺ أنه قال : « إن اللّه ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ، ثم قرأ: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود : ١٠٢] .

وعن أبى هريرة رضى اللّه عنه عن النبى ﷺ قال : « من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلل منها، فإنه ليس ثم دينار ولا درهم من قبل أن يأخذ لأخيه من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه »(١) .

الفقهية :

« يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار ــ وأنا أغفر الذنوب جميعا ــ فاستغفرونى أغفر لكم » . ما أعظم ذنوب الإنسان على هذه الأرض ، وما أهول المعاصى التى يقترفها آناء الليل وأطراف النهار ، ولكنها أهون بكثير من تعنته واستكباره وعناده وعدم استغفاره، وهو يعلم أن له ربّا تعهد بالغفران والتّجاوز ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ ﴾ [النساء : ٤٨ ، ١١٦] ،وقال: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً

---

(١) رواه البخارى .

أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ١٣٥]؛ لأن العيب ليس فى اقتراف الذنب مثلما هو فى الإصرار عليه ، عن أنس رضى اللّه عنه عن النبى ﷺ قال : « كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » (١) .

قال الفضيل بن عياض رضى اللّه عنه : (ما من ليلة اختلط ظلامها وأرخى الليل سربال سترها إلا نادى الجليل جل جلاله : من أعظم منى جودًا والخلائق لى عاصون وأنا لهم مراقب أكلؤهم فى مضاجعهم كأنهم لم يعصونى ، وأتولى حفظهم كأنهم لم يذنبوا فيما بينى وبينهم ، أجود بالفضل على العاصى وأتفضل على المسىء ، من ذا الذى دعانى فلم أستجب إليه ؟ ! أم من ذا الذى سألنى فلم أعطه ؟ ! أم من ذا الذى أناخ ببابى فنحيته ؟ ! أنا الفضل ومنى الفضل ، أنا الجواد ومنى الجود ، أنا الكريم ومنى الكرم ، ومن كرمى أن أغفر للعاصين بعد المعاصى ، ومن كرمى أن أعطى العبد ما سألنى ، وأعطيه ما لم يسألنى ، ومن كرمى أن أعطى التائب كأنه لم يعصنى ، فأين عنى تهرب الخلائق وأين عن بابى يتنحى العاصون) (٢) .

عن أبى هريرة رضى اللّه عنه عن النبى ﷺ قال : « واللّه إنى لأستغفر اللّه وأتوب إليه كل يوم مائة مرة » (٣) .

إذًا فالسبيل الأوحد لغسل آثار الخطايا ومعالم الآثام هو التوبة إلى اللّه ــ عز وجل ــ وللتوبة شروط قررها العلماء ــ رضوان اللّه عليهم ــ يتصدرها :

١ ــ الإقلاع عن الذنب : أول عمل يباشره التائب هو الإقلاع والابتعاد عما هوعليه من المعاصى بلا تباطؤ ، وبالتالى فلا يعدمن يملأ الكأس خمرًا تائبًا ، وإن أرداه الندم قتيلا ، أو من يزدرد لقمة الحرام ليأكل أخرى ، أو من انتهى من محرم وأطلق ساقيه للريح باحثا عن آخر ، كل أولئك كذابون إن أعلنوا توبة وادعوا ندما ! !

أما إذا أحجم العاصى عن عصيانه ، فقد أقام دعامة متينة من دعائم التوبة إذا كان الباعث على ذلك الخوف من اللّه تعالى ، غير أنه لا يعد تائبًا مالم يعزز ذلك بالدعائم الأساسية الأخرى .

٢ ــ الندم على ما فات : لأن الفطرة السليمة التى جبل عليها الإنسان هى الإيمان ومن معانيه السامية : نبذ المخازى واجتنابها ، وإتيان الأفعال الخيرية ، فإذا اعتقد الإنسان عقيدة الإسلام عن إيمان واقتناع ، فإن الوازع الدينى ينمو بداخله شيئا فشيئا

(١) أخرجه الترمذى وابن ماجه .
(٢) أخرجه أبو نعيم .
(٣) أخرجه الترمذى .

بمقتضى الإخلاص ومزاولة الطاعات التى هى تربية عملية لإيجاد ذلك الوازع وهو ما يسميه البعض بـ (الضمير) ، ووظيفة ذلك الوازع هى المراقبة التامة وفق مبادئ الشرع الحكيم حتى إذا ما زاغ المرء وحاد عن الجادة قوّمه بالوخز والتأنيب والعتاب الذاتى الدائم، إنه بحق الشرطى الداخلى . فالتائب حينما يقلع عن الذنب يستعرض تاريخه المظلم بكل ألم وهو يتقزز من تلك الأفعال المخزية بكل أسى وحسرة ؛ لأنه أضاع ردْحًا من الزمن هباء منثورا ، ثم لأنه لا يستطيع أن يدير عجلة الزمن إلى الوراء .

٣ ــ العزم على ألا يعود : يتعهد التائب للّه بالاستقامة المطلقة بدءًا من إعلان توبته، وبالالتزام بكامل أوامر الإسلام ، ولا يعكر صفو ذلك التعهد تلك العثرات الإنسانية طالما يعقبها بتوبة نصوح . ذى هى أركان التوبة الأساسية إذا لم يكن الذنب فى حق المخلوقين، وإلا فلا تكفى تلك العناصر وحدها بل يجب أن يتوفر فيها .

٤ ــ رد المظالم إلى أهلها: وذلك بالتحلل من تبعات الآخرين المادية منها والمعنوية حتى تكتمل توبته .

الأخلاقية :

١ ــ يربى هذا الحديث القدسى روح التسامح والصفح فى قلب المؤمن. والحلم خلق جليل امتدح اللّه به خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام﴿ إنَّ إبْرَاهيم لأوَّاهٌ حليمٌ ﴾ [التوبة : ١١٤] وسمى به نفسه ، والحياة البشرية التى تعج بالجحود والنكران شاهدة له بالحلم ــ سبحانه ــ لأنه يسمع ويرى عباده الذين أوجدهم من العدم وتفضل عليهم بالآلاء والنعم وهم يجاهرون بعصيانه ومخالفة أوامره ، ومع ذلك يمهلهم ويمتعهم ، ثم إن استغفروه غفر لهم فأنعم به من رب كريم حليم !

٢ ــ « فمن وجد غير ذلك » فى الأولى ذكر ما يجده المؤمن الصالح : « فمن وجد خيرًا » ، وأما فى الثانية : فلم يذكره باسمه، إنما كنى بقوله تعالى :« غير ذلك»، وفى هذا تربية لنا على الترفع عن التلفظ بالألفاظ المستهجنة ، أو المؤذية أو عما يخرق جلباب الحياء ؛ لأن المؤمن ليس بفحاش ولا لعان ولا يلوث لسانا ــ كان يوما رطبًا بذكر اللّه ــ بما لا يليق أخلاقيًا .

الاجتماعية :

إذا كانت الشريعة الإسلامية التى حررت المرأة من قيود الاستعباد الفكرى والاجتماعى ، والسياسى ، والثقافى ، وأعادت لها كيانها وهيأتها لمكانة سامية فى المجتمع الإسلامى ، ولرسالة سامقة تنطلق من الولادة إلى إعداد عدة المجتمع الربانى من رجال وأبطال ، ومفكرين ، ومنتجين ، وزحزحة الرجل من سدة الاستعلاء

والاستكبار؛ لأنه رجل وجعلتهما فرسى سباق أمام الكرامة والشرف والعزة . قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُم ﴾ [الحجرات : ١٣] ، ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ ﴾ [آل عمران : ١٩٥] إذا كانت شريعة الإسلام قد فعلت ذلك ، فإنها لم تحذ حذو دعوات المغالطة التى دستها الأصابع اليهودية من وراء الستار فى الساحة الإسلامية ــ واحر قلباه ــ والتى تنكرت لأنوثة الأنثى ، وحملتها ما لا طاقة لها به ، وزجت بها فى ميادين لا قبل لها بها .

بل اعتبرت المرأة مرأة ، والرجل رجلا ، وراعت فى تشريعاتها وأحكامها تلك الفوارق النفسية ، والبيولوجية ، وعبارة الحق سبحانه فى هذا الحديث : « على قلب رجل » لعلها تشير إشارة لطيفة لذلك .

النفسية :

١ ــ « فلا يلومن إلا نفسه » . اللوم فى أرقى صوره عقاب فطرى رادع ، بحيث تعود نفس العاصى المذنب إذا خلد إلى الراحة وانفرد بنفسه ، تعود عليه بالتأنيب والتقريع وتوبخه على فعلته الشنيعة وتعرض عليه صورًا أزكى وأنقى يجب أن يسلكها ويترسم سبيلها،ولا تزال تقرعه حتى يتحلل إلى المخلوقين من مظالمهم ويستصفحهم(١)، ويتوب إلى بارئه ويستسمحه .

وقد ينقلب المجن فتصبح الملامة لا على تنكب طريق الخير واتباع غيره، بل يصبح المرء ويمسى ونفسه تلاحقه وتمارس ضغوطها عليه لينقاد لها فيهوى فى سبيل المهالك ﴿وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة : ٢] ، ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [المائدة : ٣٠] .

وقد يكون اللوم نذير شر وعقابا مسبقا لا طائل من ورائه ، فلا ترتدع منه النفوس، ولا تتقوم السلوك ، وغالبا ما يكون فى غير موعده ، وذى أمثلة ذلك ، هذا قابيل يتحسر ويتألم ﴿ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ [المائدة: ٣١]، ولكن بعد ماذا ! وهؤلاء أصحاب الجنة ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ . قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ . عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ . كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم : ٣٠ ــ ٣٣] ، ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي

(١) يستصفحهم : يسألهم الصفح .

لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٦] ، ثم هذه ندامة الشقى ولا شىء يرجى من الندم ساعتئذ ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ . وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ . يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ . مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ . هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ . خُذُوهُ فَغُلُّوهُ . ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ . ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾ [الحاقة : ٢٥ ــ ٣٢] الآيات الكريمة .

٢ ــ وقوله تعالى فى الحديث القدسى : « يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى » لعل الابتداء هنا كان بالضر قبل النفع يشير إلى أن الإنسان حينما يتقوى ، ويستغنى تتحرك فيه أول ما تتحرك نوازع الظلم والاعتداء ، قبل أن ترشدها وتعقلها نوازع الخير. ولست بمبتدع أو مبتكر لهذا ، بل مستنبط من قول الحق تعالى فى تبيانه للنفس البشرية : ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا . إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ [المعارج : ١٩ ــ ٢١] ، ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ . أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾ [العلق : ٦ ، ٧] .

السياسية :

« . . إنى حرمت الظلم على نفسى . . . وجعلته بينكم » .

لكى يضمن الحاكم شعبية مؤيدة له وآذانا صاغية لتوجيهاته وأوامره ونفوسا راضية يجب أن يتمثل هو أولا بما يأمر ، وأن يضمن هواه ونفسه قبل كل شىء ، فليس من العدل أبدا أن يطالب الحاكم بالسماع وآذانه صماء عن نداء الله وأوامره تعالى ونواهيه ، وعن الجياع الذين يتضاغون آناء الليل وأطراف النهار ، وعن آهات المظلومين وزفرات المقهورين، وصرخات الذين أثكلهم الظلم ، ويتمهم التعسف ، ورملهم الجور ، هذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقف فى الناس خطيبا يقول : أيها الناس ، اسمعوا وأطيعوا ! وينبرى له صحابى من الذين علمهم النبى ﷺ أن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر ! [١] ، فما باله لا ينطق ويعترض إذا كان الحاكم هو الفاروق العادل . ويقول معترضًا أمام ذلك الحشد الهائل : لا سمع ولا طاعة ! ومع ذلك لم يغب عن الأنظار ، ولم يحطه العسس السرى والحرس الجمهورى ، بل يستفسره عمر : ولم ؟ ! فيذكر الصحابى أن قماشا غنمه المجاهدون وقسمه عمر بالسوية فكان نصيب كل كذا . . ولكن طول عمر الفارع لا يكفيه ما أخذ ! فأنّى له بهذا الجلباب الجديد ! فيوقف عمر ولده عبد الله ليعترف هذا الأخير أنه تنازل عن سهمه لأبيه !

---

(١) وحاشا سيدنا عمر أن يكون كذلك .

الاقتصادية :

« . . يا عبادى كلكم جائع . . كلكم عار . . » .

أ ــ المتوكل الحقيقى على اللّه هو الذى يجمع بين تعاطى الأسباب ، وتقديم المقدمات واستنفاد الطاقات ، وبين الاطمئنان إلى النتيجة التى يتركها إلى اللّه الذى يقرر ما يشاء وفقا لقضائه وقدره ، إلا أن التوكل أضحى ضحية المفاهيم الخاطئة التى ظلمتها الأفهام اليوم ــ وما أكثرها ــ حتى لقد ظن أناس أنه من باب التوكل على اللّه ، ومن صميم إيمان المؤمن أن يقبع فى بيته أو بزاوية من زوايا مسجد حيه ، ثانيا يديه ، سائلا اللّه الرزق الطيب، محتسبا إليه دون أن يحرك ساكنا ، مجنبا نفسه عناء الكسب والارتزاق والكدّ فى طلب العيش؛ لأن تعاطى الأسباب وبذل الجهود واستنفاد الطاقات يعنى عدم التوكل على اللّه .

ولكن مفهوما خاطئا كهذا أقعد الأمة عن العمل ، وقطع لها حبل الأمل . وغرس فى أبنائها العجز والكسل ، وألهاها بالنقاش العقيم والجدل ، وأرداها إلى هذا الوضع الذى لاتحسد عليه أمة قط .

ب ــ وآمنت طائفة أخرى بالميزان التجارى أكثر من إيمانها باللّه ، فذهبت تحل مشاكلها الاقتصادية بوأد الأجنة فى بطون أمهاتهم ، دون أن تتقصى الأمر وتبحث فى حقيقة هذه المشكلة وأبعادها وعملت على الاقتصاص من هذه المخلوقات البريئة بدل أن تستأصل جرثومة مشكلتها الاقتصادية ، وهذا لعمرى كفر بواح وحمق صراح ؛ كفر باللّه؛ لأن الأمة بفعلتها تلك تتهم اللّه بالعشوائية، وتعلن فقدان ثقتها بخالقها ، وتتبرأ من افتقارها إليه .

وحمق لأن هؤلاء مثلهم كمثل من شعر بصداع حاد وألم فى دماغه ، فعمد إلى قطع رأسه .

فقه الدعوة

١ ــ الداعية الإسلامى ليس شخصية مفروضة على الغير ، والدعوة الإسلامية هى الأخرى ليست ملكا وراثيا ، قال تعالى : ﴿ وإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : ١٢٤] .

وليست أيضا منصبا سلطويا يتقلده صاحبه بطلاقة لسانه، وحسن إقناعه فحسب ، بل هو مسؤولية رسالية لصاحبها مؤهلات من أساسياتها : مطابقة فعله لقوله ، وموافقة مظهره لمخبره ، وسره لعلنه ؛ لأنه مثال يحتذى به ، وأسوة يقتدى بها ، حتى يكون

أبلغ فى التأثير ، وأصدق فى التبليغ ، ولذا جاء فى الحديث : « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرمًا » .

ورحم اللّه عمر بن عبد العزيز حيث كان يجمع أفراد عائلته ويعلن فيهم ما يعلنه لعامة الأمة ، وينهاهم عما نهاها عنه فكان له ما كان .

٢ ـ « يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته » . إن مهمة الداعى إلى اللّه هى تبيان سبيل اللّه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأما شرح الصدور وتنوير البصائر، فذلك على اللّه وحده ليس فيها للداعية شىء ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء** ﴾ [القصص : ٥٦] .

أقول هذا وألاحظ بعض من يُسَمَّوْنَ بأهل الدعوة يمنون على بعض المهتدين أنهم كانوا سببا فى هدايتهم ، ويذكرونهم بماضيهم القاتم ، وبما كانوا عليه خاصة إذا خالف هؤلاء الدّعاة أو عارضهم فى رأى ما !

تطبيق

١ ـ ما الذى مكننا من التفريق بين الأحاديث القدسية والأحاديث النبوية ، لا شك أنه الإضافة، حيث لا يروى الحديث القدسى إلا وهو معزوٌ إلى ربّ العزة تعالى.

إنها الأمانة العلمية الدقيقة التى تحلّى بها أهل الحديث ورجاله من العلماء المسلمين حتى إن المتتبع لكتب الحديث يجد الفرق واضحا بين قول الصحابى ، وقول النبىّ فى حين نجد فى أيامنا هذه من ينقل من هنا ومن هنا ، ويقول : ألّفته أنا ، دون أدنى مراعاة لآداب الاقتباس والرجوع إلى الأمهات والأصول بحيث أضحت كثير من المؤلفات تتكرّر، وأصبح الكثير من المؤلفين الذين قلّ ماء وجوههم يجترّون ويردّدون أقوال السلف وآراءهم وعباراتهم ناسبينها لأنفسهم !

٢ ـ « كلكم ضالّ » . الأغلبية الساحقة ، والكثرة الكثيرة ضالة ، منحازة عن الصراط القويم ، متنكّبة للحق ، فلا يضير الإسلام شىء ، ولا يضل الداعى باخع نفسه من أجل هذه الكثرة الملحدة ؛ لأن قيمة الحق لا تقدّر بكثرة الأتباع وجمهرة المؤيّدين .

٣ ـ مهما بلغ المرء غنى فلن يغنيه ماله ومتاعه عن الناس مطلقا ، بل هو محتاج إلى زرع الزارع ، وحصاد الحاصد ، والخباز ، والحداد ، والنجار . . . وإلى زوجة ، وولد ، و . . . و . . . لأن الإنسان كما قال العلامة ابن خلدون : مدنّى بالطبع ، وقس على ذلك الدول والشعوب والأمم ؛ لذا قام نظام التبادل التّجارى ، فالدولة الصناعية

محتاجة للدولة الزراعية ، ومحتاجة أيضا للتى تملك المواد الخام كالبترول ، والمطّاط ، والحديد . . . وتلك سنة اللّه فى خلقه ولا يستغنى عن المخلوقين أحد سوى الخالق سبحانه ، الصّمد الذى لا ينفعه الغنى بغناه ، ولا المتعبّد بعبادته ، ولا يضرّه العكس أيضا .

٤ ـــ التعبير بقوله : « ما زاد ذلك . . . ما نقص . . . » هادف ، فلا يتصوّر أبدا أن مخلوقا مهما كان يستطيع زيادة شىء فى ملك اللّه أو نقصه سواء فى ظواهره الكونية أو آياته السماوية والأرضية المختلفة أو فيما عداها ، وبالتالى فالصناعات المختلفة ليست خلقا وإيجادا من العدم كلا !

بل هى مزج وتركيب واكتشاف وفق سنن معينة .

وكذا الاكتشافات ليست هى الأخرى خلقا بل هى بمثابة المرآة العاكسة التى ليس لها أىّ دور فى إيجاد ما تعكس ، بل لها دور الانعكاس فحسب ؛ لأنه خاصّية من خصائص مادتها المكوّنة لها . واللّه أعلم .

الحديث الخامس والعشرون

عن أبى ذرّ رضى اللّه عنه أيضا أن ناسا من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم قالوا للنبىّ صلى اللّه عليه وآله وسلم : يا رسول اللّه ،ذهب أهل الدّثور بالأجور، يصلّون كما نصلّى ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدّقون بفضول أموالهم ، قال :« **أو ليس قد جعل اللّه لكم ما تصدّقون ؟ إن بكل تسبيحة صدقة ، وكُل تكبيرة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهى عن منكر صدقة ، وفى بضع أحدكم صدقة** » قالوا : يا رسول اللّه ، أيأتى أحدَنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : « **أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه وزر ؛ فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجْر** » رواه مسلم .

تخريج الحديث :

هذا الحديث خرجه مسلم من رواية يحيى بن معمر عن أبى الأسود الديلمى عن أبى ذرّ رضى اللّه عنه ، وقد روى معناه عن أبى ذرّ من وجوه كثيرة بزيادة ونقصان .

وروى نحو هذا الحديث من رواية جماعة من الصحابة منهم على ، وأبو ذرّ ، وأبو الدرداء ، وابن عمر وغيرهم .

سبب ورود الحديث :

هذا الحديث جاء جوابا شافيا لتساؤلات المهاجرين الفقراء حيث تركوا ما يمكنهم التصدّق به وراءهم فى مكة .

فحزّ فى نفوسهم ألا يملكوا ما يتصدقون به ولم يجدوا ما يتسابقون به مع الأغنياء، فجاءهم الجواب النبوى مطمئنا، ففى الصحيحين عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى اللّه عنه، أن فقراء المهاجرين أتوا النبىّ ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى

أ ناسا من أصحاب رسول اللّه . وهم فقراء المهاجرين .
أهل الدثور . جمع : دثْر ــ بفتح الدال وسكون الثاء ــ أى المال الكثير .
بالأجور . جمع : أجر وهو ما يعود على الإنسان فى مقابلة عمله .
بفضول أموالهم . أى الزائدة عن حاجاتهم .
بضع : يطلق على الفرج وعلى الوطء .
أرأيتم : أى أخبرونى .

والنّعيم المقيم ، فقال : « وما ذاك ؟ » فقالوا : يصلون كما نصلّى ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون ولا نتصدّق ، ويعتقون ولا نعتق ، فقال رسول اللّه ﷺ : «أفلا أعلمكم شيئا تدركون به من قد سبقكم ، وتسبقون به من بعدكم ، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم ؟ » قالوا : بلى يا رسول اللّه ، قال : «تسبّحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين مرة » ، قال أبو صالح: فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول اللّه ﷺ فقالوا : سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله ، فقال رسول اللّه ﷺ : « ذلك فضل اللّه يؤتيه من يشاء ».

دروس وعبر من كلام سيد البشر

الأصولية :

من حكمة المشرّع الحكيم أن جعل فى الإسلام أصولا وثوابت لا تقبل من أىّ كان الخوض فيها والاجتهاد فى حقيقتها كى لا تزعزعها الآراء وتوهنها الظنون ، ولكنه لم يبطل فى تشريعاته مفعول العقل بل فتح له مجالا خصبا ليدلى بدلوه فيه كالفروع ، ولما كان القياس ضابطا شرْعيّا للعقل أرشد الرسول الكريم إليه فى هذا الحديث ، بل إلى نوع من أنواعه فاتحا بذلك باب الاجتهاد فى فقه الأحكام و مفهوم ما ورد فى الحديث : إذا كان العدول عن الحرام إلى الحلال يحصل الأجر ، إن الوقوع فى الحرام يوجب الوزر ، وعليه فمن وضع نطفته فى الحلال كان له بها أجْر ؛ لأنه إن وضعها فى الحرام عوقب عليها .

النفسية :

١ ــ نظرة فقراء المهاجرين إلى الأغنياء لم تكن نظرة حسد وحقد ؛ بل هى نظرة اغتباط فحسب ؛ لأن الذى يثير حقد الفقراء على الأغنياء هو اعتداد هؤلاء بأنفسهم وطغيانهم بأموالهم ، وتجبّرهم بما لديهم ، ولكن الإسلام عالج تلك المشكلة من جذورها وبأساليب ناجحة متعدّدة ، ثم إن التنافس فى الطاعات أمر محبّب ، قال تعالى: ﴿ **وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ** ﴾ [المطففين : ٢٦] ، وقال : ﴿ **لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ** ﴾ [الصفات : ٦١] .

٢ ــ إن فى اعتبار الحمد والتهليل والتسبيح صدقة عزاء للفقراء الذين لا يملكون ما يتصدقون به شأن إخوانهم ، ممّا يحزّ فى نفوسهم ، وربما يكسر خواطرهم ، وهذا القرآن الكريم يراعى تلك الحالة ، حيث رفع الحرج عمن وصفهم بقوله : ﴿ **لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا**

أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴾ [التوبة: ٩١، ٩٢]

٣ ــ ليس فى الصدقة ما يجرح شعور الفقير ــ فى حقيقة الأمر ــ أو يُحسّه بالذل والصغار ؛ لأن المتصدّق ــ وأعنى المتزكّى بالذات ــ ليس متفضّلا من ذاتيته حتى يتطاول بما أعطى .

ثم إن مفهوم المال فى الإسلام وحقيقته يبينان بوضوح أن الملكية فى الدنيا لا تزيد عن كونها ملكية استخلاف فحسب ، وهذه تعنى أن المالك الحقيقى ليس هو ربّ المال كما يتراءى صوريًا بل هو الله ، وتعنى أيضا أن التمليك هنا موقوت ، قال تعالى : ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد : ٧] ، ﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ [النور : ٣٣] ، ومع أن المال مال الله ، فقد تكفّل سبحانه بتزكية المال المزكى ، ومضاعفته وتنميته ، قال تعالى : ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ [سبأ : ٣٩]، وقال أيضا : ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ [الروم : ٣٩] .

إذًا فليس من حق الغنى أبدا أن يتذرّع بالفقر والخوف من الفاقة إن تصدّق ، ولا أن يتبرّم من وجود إخوانه المعوزين من حوله ، أو يعرض بهم ويمنّ عليهم ؛ لأنه بفعلته تلك يخدش كرامتهم ويكلم شعورهم ، وهنا يحذر القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى ﴾ [البقرة : ٢٦٤] ، ويبشر آخرين : ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة ٢٦٢] .

الاجتماعية :

١ ــ يقوم المجتمع الإسلامى على التكافل التام بين أفراده ، فلا يحس الضعيف بضعفه ولا القوىّ بقوته ؛ لأنهما متكاملان ، كما لا يحسّ المعدم بفاقته ، ولا ذى الطول بغناه؛ لأنهما كقطبى الدائرة الكهربائية يكمّل أحدهما الآخر ، وهكذا دواليك .

ومن هذه القنوات الإسلامية التى تكرّس التكفّل المادى الصدقة التى ضمن بها الإسلام الحياة الكريمة للمحتاج، عن المصطفى ﷺ قال: «من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له»(١).

ولربط الجانب الدينى والعقدى بالوازع الإنسانى الذى تقتضيه الفطرة السليمة،

(١) أخرجه مسلم .

أورد بعض ما حكاه التاريخ الإنسانى عن نظرية الصدقة وفلسفتها ؛ لأن المتتبع لما ورد فى هذا الجانب ؛ يدرك بيسر بالغ توافق الفطرة الإنسانية مع الأوامر الإلهية ، كما يدرك أيضا التناسق التام بينهما ، إذ كانت الصدقة فى القرون الوسطى تمثل حيزاً كبيراً من المثل الاجتماعية العليا ، وكانت الصدقة عندهم تعنى التكملة الأساسية لنظرياتهم فى الملكية الخاصّة .

وعن فلسفة الصدقة يقول : (سان توماس) مقرّرا هذا المبدأ الإنسانى العام : (. . .والوظيفة الأخرى للإنسان بالنسبة للأشياء الخارجية هى استعمالها ، وبالنسبة لهذا ينبغى للإنسان أن يحوز الأشياء الخارجية لا على أنها له خاصّة ولكن على أنّها للجميع ليمكنه أن يقدّم منها عن طيب نفس للغير فى وقت الحاجة) .

ويقول (سان لوك) : (ما هو زائد عنك أعط فى الصدقة) ، ويقول (سان جيروم) : (إذا كان عندك أكثر من الضرورى لطعامك وثيابك فتصدق به ، واعلم أنك فى هذا إنّما تدفع دينا) . فهذه النماذج الفلسفية تبين تكامل الصدقة والزكاة وتوافقهما مع فطرة الإنسان التى ترى فى بذل الصدقة تحقيقا لمبدأ التكافل الذى يمليه على أفراد المجتمع الحسى بالانتماء للمجتمع المعنى .

٢ ــ ليس فى الإسلام طبقية ، إنما للمرء فرص العلا عند اللّه غير بذل المال ، ولو سدت تلك الفرص لاستحان الإسلام إلى دين الأغنياء فقط ، ولكن فى حالة ما إذا تسابق الأغنياء إلى تلك الفرص فاهتبلوها قبل الفقراء ، فإن الإسلام يراعى درجاتهم ويعتبرها ؛ لأن المال بلاء ومعاناة وجهد كالفقر وربما كان أشد .

الاقتصادية :

١ ــ لقد حرص الإسلام على تفتيت الثروات المكدّسة ، كما عمل على تحريكها وسيولتها وحارب تجميدها ؛ وذلك لئلا تصبح تلك الثروات حكرة على طائفة معّينة فى المجتمع تتداولها فيما بينها وتتقلب فى بحبوحتها دون سائر أفراد المجتمع ، قال تعالى : ﴿ **كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ** ﴾[الحشر : ٧] .

ومن بين أساليب التفتيت والتحويل التى اتبعها النظام الاقتصادى الإسلامى التوارث، وفريضة الزكاة ، والندب إلى الصدقات المختلفة .

٢ ــ ثم إن النظام الاقتصادى الإسلامى نظام تربوى تهذيبى ، ولعل هذا ممّا يميزه عن النظم الاقتصادية البشرية حيث يربّى فى المسلم روح البذل والعطاء دوما ، ويطهّر نفسية المسلم من أمراض خطيرة كالطمع والبخل ، والقسوة على الفقراء ، وما إلى ذلك

من الرذائل الخطيرة ، قال تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة: ١٠٣] .

٣ ــ فرض الزكاة على أغنياء المجتمع الإسلامى له أبعاد كثيرة منها تحقيق قاعدة اجتماعية وسنة إلهية وهى : وجود الأغنياء فى صفوف المسلمين ، وليس هذا بعيب فى حق الإسلام حتى يخجل من إقراره بعض المتحمسين للإسلام العاطفيّين الذين لا يملكون الصورة الواضحة التى تمكّنهم من إدراك الثوابت والفوارق .

قلت : بل هو من حسنات الإسلام ، ومما يحسب له لا عليه ؛ لأنه فتح أبواب الجد والاجتهاد فى الحياة الدنيا ، واعتبر العامل الكادّ فى عمله مطيعا له ، ويكفى قول الحق سبحانه : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ [الجمعة: ١٠] دليلا على الموازنة الدقيقة بين الدنيا والآخرة .

ولكنه فى ذات الوقت حارب استبداد الأغنياء أو استئثار طائفة محدودة بالأموال دون غيرها ،والمتتبّع للنّظام الاقتصادى الإسلامى يرى بوضوح كيف عالج الإسلام مشكلة الفقر .

فإذا كانت الاشتراكية الماركسية ترى حل هذه المشكلة بإنزال الأغنياء إلى دركة الفقراء ، وبالتالى يصبح الأغنياء هم الذين يشاركون الفقراء فى بؤسهم وشقائهم وتعاستهم؛فإن نظامنا الإسلامى عمل على رفع الفقراء إلى مصاف الأغنياء ، ولست هنا مدّعيا لأنّنا لا نعانى عقدا نفسية أو اجتماعية مثلما يعانى غيرنا ، ولكن دونكم التاريخ الإسلامى فاستقرئوه :

أ ــ طيلة أربعمائة سنة (أربعة قرون) من عمر صدر الإسلام لم ينفذ حكم السرقة إلا فى حالات تعد على رؤوس الأصابع .

ب ــ وطيلة ذلك العهد يسير عمال الزكاة مشرقين ومغرّبين باحثين عمن هو أهل للزكاة فلا يجدون ! !

أيها الشيوعيّون : إنكم إن حققتم المساواة ـ على حد زعمكم ــ فى المال ظاهريا والجنس ، والحكم ، فماذا أنتم فاعلون فى المواهب ، والذكاء والإدراك ، وفى الصحة والأعمار هل بمقدوركم ذلك ؟!

إذن فستسوّون بين عمر الوالد والولد ! ... وستولجون الجمل عبر سم الخياط!... وستحلبون الألبان من النيران !

فقه الدعوة

١ ــ ينبغى للداعية ألا يضيق صدره ولا يتحرج من أسئلة المدعوين واستفساراتهم، بل وفى بعض المواقف مراجعاتهم ، وعليه إقناعهم بالعقل والنقل ، ولا يتفلّت من بعضها ؛ لأن الإسلام حقائق واضحة لا تهزّها الظنون ولا يزعزها النقاش والحوار، قال تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾[آل عمران: ١٥٩] .

٢ ــ لا شك أن الأدلة الشرعية دليل قاطع للمؤمنين بها ، ولنضرب لذلك مثلا : لو كنت فى نقاش مع ملحد جاحد للخالق ــ عز وجل ــ هل تذهب فى تدليلك على وجوده بالآيات القرآنية أو الآراء الكلامية أبدا لا هذا ولا ذاك .

بل عليك أن تنبرى له فتقرعه بالآيات الكونية قبل كل شىء ، حتى ترسى قاعدة يتفق معك فيها ، وتنطلقان معا على ضوئها .

وهذا هو المنهج القرآنى فى الدعوة ، واستعرض إن شئت جانبا من القرآن المكى وكذلك الشأن إن ناقشت عالما مّا لا يكفى أن تقف عند النصوص الفقهية ، والآراء المذهبية ؛ لأن ذلك فيه إجحاف لعقلية الرجل وخلفيته .

تطبيق

لما تنكّب الأغنياء سبل ربّهم ، وجحفوا حقوق الفقراء والمحتاجين ، واستأثروا بما لديهم، واتخذوا كنوزهم مطية للمقاعد والمناصب، وأداروا بدنانيرهم دفّة الحكم بالرّشاوى أو الهدايا كما يسمونها .

واستصدروا الأحكام وفق أهوائهم ومناصبهم ومصالحهم ، حقد عليهم الفقراء وتمكّنت فى نفوسهم ــ كردّ فعل ــ روح الانتقام ، ومن ثمّ تعدّدت الجرائم ، وأضحى الفقير يتربّص الدوائر بأموال الغنىّ ، ويسعى إلى الاستحواذ عليها بسبل ملتوية وحيل جنونية ، أما إذا أقعده إدراكه أو أى وازع آخر عن ذلك ؛ فإنه الحاسد الحاقد فى كثير من الأحيان .

وإننا لنرى اليوم أموالا تهدر أو تحرق وتتلف لا لشىء إلا لذاك .

الحديث السادس والعشرون

عن أبى هريرة رضى اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ :

« كل سلامى من الناس عليه صدقة ، كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين الاثنين صدقة، وتعين الرجل فى دابته ، فتحمله عليها ، أو ترفع له عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة » رواه البخارى ومسلم .

تخريج الحديث :

هذا الحديث خرجاه من رواية همام بن منبه عن أبى هريرة .

أما البخارى فخرجه مختصرا فى كتاب الصلح ، وقريبا من هذا فى كتاب الجهاد، وأمّا مسلم ففى كتاب الزكاة واللّفظ له .

وبألفاظ متقاربة خرجه البزّار من رواية أبى صالح عن أبى هريرة ، ومسلم من رواية أبى الأسود الديْلمى عن أبى ذرّ ، والإمام أحمد وأبوداود من حديث بريدة ، وابن حبان من حديث ابن عباس .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

العقائدية :

المرء مهما كانت درجة تقواه وصلاحه لا يدخل الجنة بمحض عمله واجتهاده وعباداته أبدا ، ولو صرف الدهر كله لعبادة ربه ، ولكن برحمته تعالى ولطفه وتوفيقه؛ لأن عمر الإنسان وإن طال فلن يستطيع صاحبه أن يشكرَ اللّه على نعمه التى لا حصر

سلامى : جمعها سلاميات ، وهى عظام الكف والأصابع والأرجل ، والمقصود هنا : جميع عظام الجسد.

تطلع فيه الشمس : أى يكرر الصدقات بتجدد الأيام .

تعدل بين اثنين : أى تصلح بين اثنين وتحبّب الصلح لهما .

الكلمة الطيبة : كالذكر ، والنصيحة ، والتعليم ، والموعظة .

وتميط الأذى : أى تزيله حقيقة أو حكما بألا تلقيه فيه .

الأذى : كل ما يؤذى المارّة.

لها ولا عد. قال تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم : ٣٤ ، النحل: ١٨].

وعن أنس رضى اللّه عنه عن النبىّ ﷺ قال : « يؤتى بالنّعم يوم القيامة وبالحسنات والسيئات فيقول اللّه لنعمة من نعمه : خذى حقك من حسناته فما تتركَ له حسنة إلا ذهبت بها »(١) .

علم السلوك :

اعتقاد البعض أن جوهر الطاعات فى التحلّل من الدنيا وتبعاتها ، والانفراد عن الناس فى قبّة أو خلوة ، والانتصاب للذكر والدعاء والصلاة ، مفهوم دخيل قبل كل شيء ؛ لأننا نعهده لدى الرّهبان من النصارى الذين انزوَوْا عن الأمّة ، وفصلوا أنفسهم عنها ، ولم ينزلوا إلى الساحة لمعاينة ما تكابده الإنسانية وما تلاقيه من إجحاف وتعسّف وجور .

ولكن الإسلام اجتماعى ، أعنى : أن المسلم مدنى أكثر من غيره ؛ لأنه ليس وحشيّا انطوائيا .

فمن مبادئ الإسلام الحنيف ألا رهبانية فيه، وإنما ابتدعها بعض الضعفاء الذين لايقوون على مواجهة الظلم ومناصرة المظلوم ، أيّام محن المسلمين ، وطغيان الفتن التى اجتاحتهم من مقتل الإمام عثمان رضى اللّه عنه إلى مواقع الجمل ، وصفين . . . وغيرها ، قال تعالى : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ [الحديد : ٢٧] .

كان الأجدر بهؤلاء الانطوائيّين الذين يدربون أنفسهم على الصبر والتحمل بالجوع والظمأ ، والوقوف الطويل . . . وغير ذلك من ترّهاتهم أن يحتكوا بأبناء جلدتهم فيعينوا الضعيف ، ويوقفوا المستضعف عند حدوده ، ويصلحوا بين المتحاربين أو المتنافرين ، ويصابروا على ما يلحقهم منهما . . . إلخ .

ذى هى العبادة وذا هو الامتحان الدّقيق الذى يحصحص الحق ويزهق الباطل .

الفقهية :

من المعلوم أن كل الروايات الواردة فى هذا الحديث تخدم بعضها بعضا .

ففى رواية لمسلم وأبى داود وأحمد عن أبى ذر رضى اللّه عنه عن النبىّ ﷺ قال: « يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة ، فكل تسبيحة صدقة ، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهى عن

(١) رواه ابن أبى الدنيا بإسناد فيه ضعف .

المنكر صدقة ، وإماطة الأذى عن الطريق صدقة ، وبضعة أهله صدقة ، ويجزئ من ذلك كله ركعتان من الضحى » .

إذًا فصلاة الضحى يعدل ثوابها ثلاثمائة وستين صدقة ، ولقد ورد فى فضلها الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة ؛ فعن بريدة أن رسول اللّه ﷺ قال : « فى الإنسان ستُّونَ وثلاثمائة مفصل ، عليه أن يتصدق على كل مفصل منها صدقة » قالوا : فمن الذى يطيق ذلك يا رسول اللّه ؟ قال : « النخامة فى المسجد يدفنها أو الشىء ينحيه عن الطريق ، فإن لم يقدر فركعتا الضحى تجزئ عنه » (١) .

وعن الحديثين السابقين يقول الشوكانى : (والحديثان يدلان على عظم فضل الضحى وكبر موقعها وتأكد مشروعيتها، وأن ركعتيها تجزيان عن ثلاثمائة وستين صدقة، وما كان كذلك فهو حقيق بالمواظبة والمداومة) .

وعن النوّاس بن سمعان رضى اللّه عنه أن النبىّ ﷺ قال : « قال اللّه ــ عز وجلّ ــ : ابن آدم لا تعجزن عن أربع ركعات فى أوّل النهار أكفك آخره » (٢) .

وجاء فيها عن عبداللّه بن عمرو قال : بعث رسول اللّه ﷺ سرية فغنموا وأسرعوا الرجعة ، فتحدث الناس بقرب مغزاهم وكثرة غنيمتهم وسرعة رجعتهم ، فقال رسول اللّه ﷺ : « ألا أدلكم على أقرب منهم مغزى ، وأكثر غنيمة ، وأوشك رجعة ؟ من توضأ ثم غدا إلى المسجد لسبحة الضحى فهو أقرب مغزى ، وأكثر غنيمة، وأوشك رجعة» (٣) .

وعن أبى هريرة رضى اللّه عنه قال : أوصانى خليلى ﷺ بثلاث : بصيام ثلاثة أيّام فى كل شهر ، وركعتى الضحى ، وأن أوتر قبل أن أنام (٤) .

وعن أنس رضى اللّه عنه قال : رأيت رسول اللّه ﷺ فى سفر صلّى سُبْحة الضحى ثمانى ركعات ، فلما انصرف قال : « إنى صليت صلاة رغبة ورهبة ، سألت ربى ثلاثا فأعطانى اثنتين ومنعنى واحدة : سألته ألا يبتلى أمتى بالسنين ففعل ، وسألته ألا يظهر عليهم عدّوهم ففعل ، وسألته ألا يلبسهم شيعا فأبى علىّ » (٥) .

حكمها : سنة كل يوم ، وعليه الجمهور سلفا وخلفا والأئمة الأربعة ، وقال بعضهم: لا تندب يوميّا مستندا فى ذلك على قول أبى سعيد رضى اللّه عنه: كان ﷺ يصلى الضحى حتى نقول : لا يدعها ، ويدعها حتى نقول : لا يصليها (٦).

(١) رواه أحمد وأبو داود .
(٢) رواه الحاكم، والطبرانى ورجاله ثقات .
(٣) رواه أحمد والطبرانى ، وروى أبو يعلى نحوه .
(٤) رواه البخارى ومسلم .
(٥) رواه أحمد، والنسائى، والحاكم، وابن خزيمة وصححاه .
(٦) رواه الترمذى وحسّنه .

وقتها : يبتدئ وقتها بابتداء وقت حل النافلة ؛ أى بارتفاع الشمس قيد رمح ، وينتهى بالزوال ، ولكن أفضل وقت لها هوحين الهاجرة ، فعن زيد بن أرقم رضى اللّه عنه قال : خرج النبىّ ﷺ على أهل قباء ، وهم يصلّون الضّحى فقال : « صلاة الأوّابين إذا رمضت الفصال من الضحى » (١) ، أى : حين تحترق أخفاف ولد الناقة ـ الفصيل ـ يكون وقت صلاة الضحى .

عدد ركعاتها : أقلها اثنتان ؛ لحديث أبى ذر السابق الذكر : « ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى » .

وأكثرها مختلف فيه فما ثبت من فعل النبىّ ﷺ فهو ثمانى ركعات ، وأكثر ما ثبت من قوله فهو اثنتا عشرة ركعة .

قال مجاهد : صلى ﷺ يوما الضحى ركعتين ، ثم يوما أربعا ، ثم يومًا ستّا ، ثم يوما ثمانيا .

الاجتماعية :

« تعدل بين اثنين » .

العدل قوام الحياة ، وأساس الكون ، فهو اسم من أسمائه تعالى ، وتنجلى مظاهر العدل فى شتىّ نواحى الحياة ، سواء أكانت سياسية ، أم اجتماعية ، أم تربوية ؛ لأن الإنسان مأمور بالعدل بين زوجاته إن كان زوجا ، وبين أبنائه إن كان أبا ، وبين محكوميه إن كان أميرا ، وبين الدنيا والآخرة إن كان مكلفا ، تحقيقا لقول اللّه تعالى : ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً** ﴾ [البقرة : ٢٠١] .

العدل بين الزوجات : ويكفى أن الإسلام جعل من موانع التعدد ؛ الخوف ـ مجرّد الخوف ـ من الميل والجور ﴿ **فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً** ﴾ [النساء : ٣] ، كما شدّد فى تهويل عذاب الذى لا يعدل بين زوجاته حيث صوّره الرسول الكريم ﷺ فى أشنع صورة يأتى عليها ذلك الرّجل يوم القيامة (٢) .

العدل بين الأبناء : كما أن العدل بين الأبناء فريضة شرعية يؤثم الآباء على تركها، وذلك بتفضيل الذكور على الإناث مثلا ، أو بإيثار البعض بالغذاء والكساء ، والتعليم دون الآخرين ؛ لأن ذلك يورث الذرية الحقد فيما بينهم ، ويزكّى جذوة الخلاف فيما بينهم، وذى دعوة الرسول الكريم للآباء : « اعدلوا بين أبنائكم » (٣) .

---

(١) رواه أحمد ، ومسلم ، والترمذى .

(٢) ومن شاء التوسع ، فليعد إلى كتب الفقه فإن فيها ما يروى الغليل .

(٣) رواه البخارى .

السياسية :

أولا : تقوم الحكومة الإسلامية بجميع أجهزتها ودواوينها على العدل ، وأين العدل إلا فى المنهج الربانى ؟ ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾ [التين : ٨] وإذا كان الحاكم الإسلامى يستمدّ شرعية حكمه وفرضية اتباعه من قدسية الشرع ، فإنه معرّض فى أى وقت يخالف فيه أحكام الشرع للتقويم وحتى العزل ، ولا تضمن له سنواته الدستورية بالبقاء على مقاليد الحكم كما تؤمن له النظم السياسية المعاصرة .

والجور كل الجور فى اتباع الهوى قال تعالى : ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ [الشورى : ١٥] ، وجاء الأمر الإلهى لداود عليه السلام : ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [ص : ٢٦] .

وهذا نهى النبىّ ﷺ للولاة عن غش الرعية : « ما من عبْد يسترعيه اللّه رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلاحرَّم اللّه عليه الجنة » (١) .

وفى المقابل يحدد رسول اللّه ﷺ علاقة المحكوم بالحاكم ، ويوضحها ، وينزع ستار الهيبة المصطنعة والرّهبة المفروضة بالعسس والحرس ، والبهرجة التى يعمد إليها الملوك والسَّلاطين والحكام لبسط نفوذهم ، ويكشف النبىّ ﷺ عن حقيقة تلك العلاقة الربّانية: «إن لهم (٢) عليكم حقّا ، ولكم عليهم حقا مثل ذلك ، ما إن استرحموا رحموا ، وإن عاهدوا وفوا ، وإن حكموا عدلوا ، فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة اللّه والملائكة والناس أجمعين » (٣) .

وعلى القاضى فى محكمته أن يكون عادلا فى الفصل بين المتخاصمين ، لا تميله الرشاوى ، ولا تغريه الفصاحة يقول ﷺ : « المقسطون عند اللّه يوم القيامة على منابر من نور ، عن يمين الرحمن ـ عز وجل ـ وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون فى حُكمهم، وأهليهم، وما ولوا » (٤) .

ويجب أن تبتعد الأحكام القضائية عن العواطف البشرية والعلاقات الإنسانية ، ويبقى ذلك مضمونا إن كان المحكم هو شريعة اللّه ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا

(١) رواه الديلمى .

(٢) أى الأئمة .

(٣) رواه ابن حنبل .

(٤) رواه مسلم ، والنسائى .

فاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ [النساء : ١٣٥] .

فلا يحمل القضاة الهوى ، والعصبية وبغض الناس لهم مثلا على ترك العدل والإنصاف ، قال تعالى : ﴿ **وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُون** ﴾ [المائدة : ٨] . وإليك أيها الأخ القارئ أسوق هذا المثال الحى الذى رواه الإمام مالك فى الموطأ عن سليمان بن يسار ؛ أن رسول اللّه ﷺ كان يبعث عبد اللّه بن رواحة إلى خيبر ، فيخرصُ بينه وبين يهود خيبر ، قال : فجعلوا له حليا من حلى نسائهم ، فقالوا له : هذا لك ، وخفف عنّا وتجاوز فى القسم، فقال عبد اللّه بن رواحة : يا معشر اليهود ، واللّه إنكم لمن أبغض خلق اللّه إلىّ ، وما ذلك بحاملى أن أحيف عليكم ، فأما ما عرضتم من رشوة فإنها سحت ، وإنا لا نأكلها ، فقالوا : بهذا قامت السموات والأرض .

هكذا يترجم عبد اللّه بن رواحة الآية السابقة ﴿ **وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا** ﴾ [المائدة : ٨] بسلوكه إلى عالم الواقع .

وذى حادثة أخرى تبين كيف ينصف الحاكم العادل رعيته حتى من نفسه التى بين جنبيه ، فعن الفضل بن عباس قال : جاءنى رسول اللّه ﷺ ، فخرجت إليه ، فوجدته موعوكا قد عصبت رأسه ، فقال: «خذ بيَدى يا فضل » فأخذت بيده حتى جلس على المنبر، ثم قال : « ناد فى الناس » فاجتمعوا إليه فقال :

« أما بعد ، أيها الناس ، فإننى أحمد إليكم اللّه الذى لا إله إلا هو ، وأنّه قد دنا منى خفوق(١) من بين أظهركم فمَن كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهرى فلْيستقد منه (٢) ومن كنت شتمت له عرضا ، فهذا عرضى فليستقد منه ، ومن أخذت له مالا فهذا مالى فليأخذ منه ، ولا يخش الشحناء من قبلى ؛ فإنها ليست من شأنى ، ألا وإن أحبكم إلىّ من أخذ منّى حقا إن كان له ، أو أحلّلنى فلقيت ربّى وأنا طيب النفس » .

كما أمر اللّه الموثقين ــ كتاب المواثيق والعهود والشهادات ــ بالعدل ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ** ﴾ [البقرة : ٢٨٢] .

ولا يتوقف عدل المسلم إلا مع المسلم ، بل ومع العالمين أجمعين ، قال البلاذرى

(١) خفق النجم : غاب .

(٢) يستقد منه : يقتص منه .

فى (فتوح البلدان) : وحدثنى أبو حفص الدمشقى قال : حدثنى سعيد بن عبد العزيز قال :

(بلغنى أنه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع ، وبلغ المسلمين إقبالهم إليهم لوقعة اليرموك ، ردّوا على أهل حمص مَا كانوا أخذوا منهم مَن الخراج ، وقالوا : قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم ، فأنتم على أمركم ، فقال أهل حمص : لولايتكم وعدلكم أحبّ إلينا ممّا كنّا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعنّ جُنْد هرقل عن المدينة مع عاملكم ، ونهض اليهود فقالوا : والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص ، إلا أن نغلب ونجهد ، فأغلقوا الأبواب وحرسوها ، وكذلك فعل أهل المدن التى صولحت من النصارى واليهود ، وقالوا: إن ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا إلى ما كنا عليه، وإلا فَإنا على أمرنا ما بقى للمسلمين عدو ، فلما هزم اللّه الكفرة وأظهر المسلمين، فتحوا مدنهم ، وأدوا الخراج).

ثانيا : « كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين اثنين صدقة » .لقد جاء الأمر الإلهى بالتوفيق والصلح بين الفردَين المسلمين أو القبيلتين أو الطائفتين ، أو الدولتين المتقاتلتين لاجتهادات فردية أو لتأويلات متعددة ، قال تعالى : ﴿ **وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾ [الحجرات : ٩].

ولقد جمع جملة ما قيل فى هذه الآية أبو عبد اللّه محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى فقال : (قال العلماء : لا تخلو الفئتان من المسلمين فى اقتتالهما ، إما أن يقتتلا على سبيل البغى منهما جميعا أو لا .

فإن كان الأوّل،فالواجب فى ذلك يمشى بينهما بما يصلح ذات البين ، ويثمر المكافّة والموادعة ، فإن لم يتحاجزا ولم يصطلحا ، وأقامتا على البغى صير إلى مقاتلتهما .

وإمّا إن كان الثانى ــ وهو أن تكون إحداهما باغية على الأخرى ــ فالواجب أن تقاتل فئة البغى إلى أن تكفّ وتتوب ، فإن فعلت أصلح بينها وبين المبغىّ عليها بالقسط والعدل .

فإن التحم القتال بينهما لشبهة دخلت عليهما وكلتاهما عند أنفسهما محقّة فالواجب إزالة الشبهة بالحجة النيّرة والبراهين القاطعة على مراشد الحق ، فإن ركبتا متْن اللجاج ولم تعملا على شاكلة ما هديتا إليه ونصحتا به ، من اتباع الحق ، بعد وضوحه لهما،

فقد لحقتا بالفئتين الباغيتين) (١) .

الإعلامية :

لازلنا نؤكّد أن الأجهزة الإعلامية العالمية اليوم تعانى أزمة حادّة ، ليست أزمة مادية إعلامية، ولا أزمة كتاب صحفيّين أو مذيعين ، بل تعانى أزمة فقدان الكلمة الطيبة التى تقرب المتنافرين ، وتربط المتباعدين ، وتزيد عرى القرابة والصداقة وثوقا ومتانةً . إنّ الإسلام يقدّر خطورة الإعلام حقّ التّقدير ؛ لذا عدّ ممّا يثقل ميزان المؤمن تفوّهه مجرّد التفوّه بالكلمة الطيبة ، وأمرنا بالتثبت من صدق المصادر الخبرية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات :٦].

كما حَرّم الكذب والنميمة وشدّد فى وعيد الذين يحبّون أن تشيع الفاحشة فى المجتمع الإسلامى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور : ١٩] .

إن وقع الكلمة الشريرة أشدّ وأنكى من دوّى المدافع ، ويكفى أن الإعلام من مسببات الحرب الكونية الثانية التى أتت على الحرث والنسل ، وإننا لنعانى اليوم من إعلام خبيث نمّام يسعى إلى إثارة الأحقاد والضغائن لأتفه الأسباب وينفث سمّه بين الأمم والشعوب .

نعانى من وكالات أنباء حاقدة فاسقة همّها إثارة النّعرات وبعث الخلافات وإفشاء الجنس والميوعة لهدم أخلاق المجتمعات الإسلامية خاصة .

فإلى إعلام ذى مصداقية ، هادف بناء يخدم الإنسانية ، ويحق الحق ويبطل الباطل، ويخمد الفتن ، ويذيب الحدود الجليدية بين البلدان الإسلامية ، ويذهب الغمام الذى يخيّم على كثير من العلاقات الاجتماعية .

الفلكية :

الكون ــ هذا العالم الفسيح الرهيب ــ يسير بنظام دقيق رسمه له سبحانه وتعالى، ولعل علاقة ذكر سلاميات الإنسان مع حركة الشمس تحمل أسْرارا عظيمة وأبعادا كبيرة حيث إن الخلايا الحيوانية التى تمثّل وحدة بناء الكائن الحى تتكون من نواة تمثل المركز الأساسى مثلما تكون الشمس، المحور الذى تدور حوله المجموعة الشمسية ، وإذا كانت السلاميات ،أى :المفاصل وجميع عظام جسد الإنسان تقوم بأدوار مختلفة، وهى

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١٦ / ٣١٧ .

فى حركة نشطة دائمة كذلك الشمس وبقية الكواكب هى الأخرى ليست فى استقرار وركود بل فى حركة وعلى مسارات محددة . ﴿ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : ٤٠] .

الطبية :

تكوين العظام وتركيبها الدقيق على هيئة قفص منيع يحمى القلب ، وعلى هيئة سلسلة فقرية تتماسك فيما بينها وتتنوع ، ثم تمتد الأطراف والسواعد ، والسيقان . . . كل ذلك آية من آيات اللّه العظمى فى الإنسان وما يربط الجهاز العظمى من عروق ، وغضاريف تتحرك بإرادة اللّه تعالى يعجز الطب بمخترعاته وآلاته المستحدثة أن يعوض الإنسان عضوا من أعضائه بكامل معنى التعويض .

إنها نعم كثيرة على الإنسان ،خلق ، وتصوير، وتركيب ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ . الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ . فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار : ٦ ــ ٨] .

وقال عز وجل : ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الملك: ٢٣]، وقال: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ . وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾ [البلد: ٨، ٩].

لهذا كله استحق الخالق الحمد ــ وهو له أهل ــ والثناء الجميل على هذه الأجهزة المعقدة دقيقة الصنع ، بحيث لو أمضى المرء كل حياته وأضعافها يحمد اللّه على نبض عرق واحد من عروقه ما حمده كما يجب أن يُحمد ، ومن جرب طاقم الأسنان الاصطناعية ، وجهاز تصفية الدم ، والأرجل البلاستيكية عرف فضل اللّه ، وحينها يفقه التحدى الإلهى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ [الحج : ٧٣] .

العمرانية :

إزالة ما يؤذى المارة من أشواك ، ونجاسات ، وقاذورات تصيب المارة بروائحها المتعفنة وأمراضها المتعددة ، وكذا تنظيف الأحياء والشوارع وترصيفها من الأهمية فى الحضارة الإسلامية بمكان .

حتى إن عمر بن الخطاب يعلن مسؤوليته أمام اللّه عن تعثر بغلة بالعراق إذا لم يصلح لها طريقها . وذى الأندلس وغيرها من حواضر العالم الإسلامى ، شاهدة على ما أقول بسبلها النظيفة وطرقها الجميلة .

فقه الدعوة

١ ـ على الداعية المخلص ـ ولا أحسبه إلا كذلك ـ أن يقف من جميع الحركات الإصلاحية المختلفة المتناحرة فيما بينها على وجهات النظر موقف الحكم العدل ، لا موقف المتفرّج أو المتحزّب المتعصّب .

ولو أنصف البعض وفقهوا أبعاد الرسالة الإسلامية ما وجدنا دعاة يتحيزون لفرق متعدّدة ويذبون عنها بدل الوقوف فى وجه التيارات الملحدة الكافرة للذود عن الجوهر المهدد ـ العقيدة الإسلامية .

٢ ـ ليعطى الداعية أمثلة حسّية مشرقة حيّة فى الواقع المعاش ، حتى يعيها البسطاء والأمّيون ، ويتحسّسون فضائلها عليهم وعلى المجتمع الذى هم فيه ،كأن ينظم حملات تطوعية لتنظيف الشوارع والأحياء السكنية ، أو لجمع التبرعات المادية وفتح صناديق خيرية لتزويج عزاب الفقراء ، ولرعاية الأيتام ، والتكفّل بالعجزة المحْتاجين والمعوزين ، أو حملة لمحو الأمية التى يعانى منها السّواد الأعظم من أمة اقرأ .

وأراهن أنه لو كان ذلك كذلك لما فقد الكثير من مصداقيتهم ، ومن القاعدة الشعبية التى يسندون عليها ظهورهم فى بعض المواقف .

وإنك لتجد هذا فى أساليب المبشرين والدعاة المسيحيّين الذين يتخذون من حملات التطعيم ضد الأمراض الخطيرة والمعدية ، ومن توزيع الأقمشة والأدوية والأغطية على المنكوبين فى الكوارث الطبيعية ، ومن المستشفيات المجانية ، والمدارس الشعبية وسائل لدعوتهم ، ومن تلك القنوات الفعالة يستمدون مصداقية عملهم .

إن الدعوة الإسلامية مجنىّ عليها اليوم ، وقد سئمت من وسيلتها التى تكاد تكون وحيدة ، وهى اللسان ، وتريد أن تفك من عقالها الذى فرض عليها وهو المسجد . أما خارج المسجد، وفى ميدان الأفعال والتضحيات والمواقف فلا دعوة ، ولا هم يحزنون.

وعندى مثال للمقارنة فحسب ، فلقد وصل الآباء البيض ـ كما يسمون أنفسهم ـ إلى أقصى جنوب الجزائر أيّام الاحتلال الفرنسى رغم الفوارق الطبيعية الهائلة بين مواطنهم الأصلية وبين ميدان العمل .

ولكننا الآن نتهرّب من الميدان الخصب للدعوة فى أدغال أفريقيا ونولّى وجوهنا قبل العواصم الأوربية لفتح عشرات مراكز الحركات الإصلاحية .

إن الشعوب الأفريقية المسلمة سواء التى افتتنت عن دينها أو التى تكبّلها قيود الأميّة ولا زالت ترزح تحت تهديدات الأعداء وإغراءات المبشرين أمانة فى أعناق الأمة

الإسلامية على الخصوص ، ووزارات الأوقاف والشؤون الإسلامية ، ومدارس تكوين الأئمة والوعاظ والمرشدين كالأزهر الشريف والجامعات الإسلامية العالمية ، التى تنتظر منها الدعوة الرصيد الأوفى ، والدّعم الأكبر .

تطبيق

١ ــ لقد افتتنت الأمة الإسلامية فى الثمانيات من القرن العشرين بحرب عشوائية أتت على الأخضر واليابس واستنزفت دماء إسلامية وطاقات ، وخلفت آلاف القتلى الذين ماتوا باسم الشهداء . . ! ومئات المشرَّدين ، والثكلى ، والأرامل بين العراق وإيران وراء هذه الحرب القذرة خيوط شيطانية خطيرة ، تحركها عصابات محترفة فى استنزاف طاقات الأمة ، وستظل هى المستفيد الأول والأخير من تلك الحرب الدامية ، مهما كانت نتائجها على البلدين المسلمين .

ولكن الذى يبهت المسلم ، ويدع الحليم منا حيران هو تنكّب أهل الإسلام وإعراضهم عن قول الحق سبحانه : ﴿ **وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا** ﴾ [الحجرات : ٩] ، ووقوفها العلنى غير المحتشم مع طائفة ضد أخرى تحرضها وتزكى نيران غيظها وحقدها ، وتشد إزرها وتسندها حتى تحصد الثانية حصدا .

وهكذا انشطرت دول العالم الإسلامى ــ إلامن رحم ربنا ــ إلى قسمين : إلى مناصرين للعراق على إيران الفارسية ، والتى تهدد حصون العرب و . . و . . . وهلم جرّا . . من الاتهامات الأخرى .

وإلى مؤيدين لإيران على العراق البعثى ، فاللهم وحد كلمة المسلمين ، وأصلح بالهم ، وألف بين قلوبهم يا مؤلف القلوب ، آمين .

٢ ــ إن الناظر إلى الطرق والمجارى المائية فى بعض المدن العربية التى أضحت فى كثير منها مصادر للأوبئة الخطيرة والأمراض الفتاكة ، حتى أصبح بعضها يصدق عليه ما كتبه أحد الصحفيين : مدينة قذرة بامتياز ؛ ليرثى لحال أمة الطهارة والنظافة .

الحديث السابع والعشرون

عن النواس بن سمعان ــ رضى اللّه تعالى عنه ــ عن النبى صلى اللّه عليه وآله وسلم قال : « **البرّ حسن الخلق ، والإثم ما حاك فى نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس** » رواه مسلم.

وعن وابصة بن معبد ــ رضى اللّه تعالى عنه ــ قال : أتيت رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم فقال : « **جئت تسأل عن البرّ ؟** » قلت : نعم ! قال : « **استفت قلبك البرّ ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك فى النفس وتردّد فى الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوْك** » حديث حسن صحيح رويناه فى مسند الإمامين أحمد ابن حنبل والدارمى بإسناد حسن .

ترجمة الراويين .

١ ــ راوى الحديث الأول هو : النوّاس بن خالد الكلبى ، وهو من أهل الصفّة أقام خارج المدينة المنوّرة ، ولم يهاجر إليها ، بل كان يفد إليها للسؤال فى أمور دينه فحسب ، ولعله قصد عدم الهجرة إلى المدينة ، حتى يتأتى له سؤال النبى فى كل

البرّ : بكسر الباء كلمة جامعة لجميع أفعال الخير ، ويطلق البر باعتبارين : أحدهما : باعتبار معاملة الخلق بالإحسان إليهم ، والثانى : أن يُراد به فعل جميع الطاعات الظاهرة والباطنة.

حسن الخلق : يطلق على التخلق بالأخلاق المحمودة شرعًا . ويطلق على طلاقة الوجه .

الإثم : المعصية .

ما حاك : أى تردد .

وكرهت أن يطلع : أى يراه الناس ويعلموه .

الناس : أى أهل الدين والصلاح .

جئت : على تقدير همزة الاستفهام ، وهو استفهام تقريرى .

استفت قلبك : أى ارجع إلى قلبك الطاهر وضميرك الحىّ .

اطمأنت إليه النفس : أى سكونها وعدم انزعاجها .

اطمأن إليه القلب : سكونه أيضًا .

وتردد فى الصدر : أى لم ينشرح إليه الصدر .

أفتاك الناس : بأنه ليس إثما .

الناس أهل العلم والمعرفة الذين من شأنهم أن يُسألوا .

وأفتوك : أى مجتمعين .

مرة يفد فيها عليه ولا يتحرج من ذلك ، وها هو يقول كما جاء فى مسلم: (أقمت مع رسول اللّه ﷺ بالمدينة سنة ، ما يمنعنى من الهجرة إلا المسألة ، كان أحدنا إذا هاجر لم يسأل رسول اللّه ﷺ عن شىء ، فسألته عن البرّ والإثم)، وصلت مروياته إلى سبعة عشر حديثًا .

٢ ــ والثانى هو : وابصة بن معبد ــ رضى اللّه تعالى عنه ــ ، من قبيلة بنى أسد ، وكان إسلامه سنة تسع من الهجرة مع عشرة من قومه ، قدموا على رسول اللّه ﷺ ، ثم عاد وابصة إلى بلاده ، وكان كريمًا معطاء ، وعاش تسعين سنة .

سبب ورود الحديث :

عن وابصة بن معبد قال : أتيت رسول اللّه ﷺ وأنا أريد ألا أدع شيئًا من البرّ والإثم إلا سألته عنه . فقال لى:« ادن يا وابصة » ، فدنوت منه حتى مست ركبتى ركبته ، فقال: « يا وابصة ، أخبرك ما جئت تسأل عنه وتسألنى » فقلت : يا رسول اللّه أخبرنى ، قال: «جئت تسألنى عن البر والإثم » قلت : نعم ، فجمع أصابعه الثلاث ، فجعل ينكت بها فى صدرى ويقول : «يا وابصة ، استفت نفسك ، البرّ ما اطمأنت إليه النفس ، واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك فى القلب ، وتردّد فى الصدّر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك » . كما وردت أحاديث أخرى بروايات مختلفة فى هذا الشأن ، تدل على أن موضوع الحلال والحرام ، أو البر والإثم ،كان يشغل بال الصحابة ــ رضوان اللّه عليهم جميعًا .

ومن هذه الروايات ما جاء على شرط مسلم من حديث أبى أمامة قال : قال رجل: يا رسول اللّه ، ما الإثم ؟ قال :« إذا حاك فى صدرك شىء فدعه » . وخرج الإمام أحمد من رواية عبد اللّه بن العلاء بن زيد قال : سمعت أبا ثعلبة الخشنى يقول: قلت : يا رسول اللّه ، أخبرنى ما يحلّ لى ومَا يحرم علىّ ، قال : « البرّ ما سكنت إليه النفس ، واطمأن إليه القلب ، والإثم ما لم تسكن إليه النفس ، ولا يطمئن إليه القلب ، وإن أفتاك المفتون » . وعن عبد الرحمن بن معاوية ؛ أن رجلا سأل النبى ﷺ فقال : يا رسول اللّه ، ما يحلّ لى ، وما يحرم علىّ ؟ وردّد عليه ثلاث مرات، كل ذلك يسكت النبى ﷺ ، ثم قال : « أين السائل ؟ » فقال له : أنا يا رسول اللّه ، فقال بإصبعه : «ما أنكر قلبك فدعه » (١) .

(١) خرجه أبو القاسم البغوى فى معجمه .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

العقائدية :

جاء وابصة بن معبد ، وهو يكنّ فى نفسه ــ دون أن يخطر أحدا ــ السؤال والبحث عن البرّ وحقيقته ، والإثم وماهيته ، وبادره الرسول ﷺ بقوله : « جئت تسأل عن البِّر » رغم أن علم ما فى الصدور ضرب من خرق حجب الغيب ، ورغم أن المصطفى عليه الصلاة والسلام لم يحادث الرجل ، أو يستطلع عليه قبل ذلك ، ولا شقّ على قلبه ، إنها معجزة تعزز رصيده الخارق لستار الغيب الذى عزره اللّه به ونصره، وتشبه هذه الحادثة إلى حد قريب مجيء عمير الجمحى إلى رسول اللّه ﷺ بعد وقعة بدر الكبرى ، وكان قد أسر ابنه وهب بن عمير الجمحى فيها .

واتفق أن جلس عمير هذا مع صفوان بن أمية يتذاكران مصاب بدر ، فقال عمير : واللّه لولا دين علىّ ليس عندى قضاؤه ، وعيال أخشى عليهم الفقر بعدى ، كنت آتى محمدا فأقتله فإن ابنى أسير فى أيديهم ، فقال صفوان : دينك علىّ وعيالك مع عيالى. فأخذ عمير سيفه ، وشحذه ، وسمه ، وانطلق حتى قدم المدينة ، فبينما عمر مع نفر من المسلمين إذ نظر إلى عمير متوشحا سيفه ، فقال : هذا الكلب عدوّ اللّه ما جاء إلا بشرّ، ثم قال للنبىّ ﷺ : هذا عدو اللّه عمير قد جاء متوشّحا سيفه ، فقال: « أدخله علىّ » . فأخذ عمر بحمائل سيفه ، وأدخله ، فلما رآه عليه السلام قال : «أطلقه يا عمر ، ادن يا عمير » ، فدنا، وقال : انعموا صباحًا ، فقال عليه السلام : «قد أبدلنا اللّه تحية خيرًا من تحيتك ، وهى السلام » ، ثم قال : « ما جاء بك يا عمير؟» قال : جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم فأحسنوا فيه ، قال : « فما بال السيف ؟ » قال : قبّحها اللّه من سيوف ، وهل أغْنت عنا شيئًا ؟ قال عليه السلام : «أصدقنى ما الذى جئت له ؟ » قال : ما جئت إلا لذلك ، قال عليه السلام : « كلا بل قعدت أنت وصفوان فى الحجر وقلتما كيت وكيت » ، فأسلم عمير، وقال : كنا نكذّبك بما تأتى به من خبر السماء ، وما ينزل عليك من الوحى ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان!! فقال عليه السلام: « فقهوا أخاكم فى دينه ، وأقرئوه القرآن ، وأطلقوا أسيره » فعاد عمير إلى مكة وأظهر إسلامه .

والمعجزة هى السبيل إلى معرفة النبى حيث عرفها الشيخ عبد اللّه الهروى فى كتابه: (الصراط المستقيم) بقوله :

هى أمرخارق للعادة يأتى على وفقِ دعوى من ادّعواْ النبوّة ، سالم من المعارضة بالمثل.

فما كان من الأمور عجيبًا ولم يكن خارقًا للعادة فليس بمعجزة ، وكذلك ما كان خارقًا لكنّه لم يقترن بدعوى النبوّة كالخَوارق التى تظهر على أيدى الأولياء أتباع الأنبياء؛ فإنه ليس بمعجزة بل يسمّى كرامة، وكذلك ليس من المعجزة ما يستطاع معارضته بالمثل كالسحر فإنه يعارض بسحر مثله .

والمعجزة قسمان : قسم يقع بعد اقتراح من الناس على الذى ادّعى النبوة ، وقسم يقع من غير اقتراح .

مصطلح الحديث :

خرج الإمام أحمد من حديث ربيعة عن عبد الملك بن سعيدة بن سويد ، وأبى أسيد ــ رضى اللّه عنهما ــ أن رسول اللّه ﷺ قال : «إذا سمعتم الحديث عنّى تعرفه قلوبكم، وتلين له أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم قريب فأنا أولاكم به، وإذا سمعتم الحديث عنى تنكره قلوبكم ، وتنفر عنه أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم بعيد، فأنا أبعدكم منه» ، وعن أبى هريرة رضى اللّه عنه عن النبى ﷺ قال : « إذا حدثتم عنى حديثا تعرفونه ولا تنكرونه فصدقوه ، فإنى أقول ما يعرف ، ولا ينكر، فإذا حدثتم عنى بحديث تنكرونه ولا تعرفونه فلا تصدقوا به ؛ فإنى لا أقول ما ينكر ولا يعرف » .

(. . . . وإنما يحمل مثل هذه الأحاديث على تقدير صحتها على معرفة أئمة أهل الحديث الجهابذة النقّاد الذين كثرت دراستهم لكلام النبى ﷺ ، ولكلام غيره لحال رواة الأحاديث ونقلة الأخبار ، ومعرفتهم بصدقهم ، وكذبهم ، وضبطهم ، وحفظهم، فإن هؤلاء لهم نقد خاص فى الحديث مختصون بمعرفته كما يختص الصيرفى البصير الحاذق فى معرفة الجوهر بإنقاد الجواهر ، وكل من هؤلاء لا يمكن أن يعبّر عن سبب معرفته ، ولا يقيم عليه دليلا لغيره ، وآية ذلك أنه يعرض الحديث الواحد على جماعة ممن يعلم هذا العلم فيتفقون على الجواب فيه من غير مواطأة ، وقد امتحن منهم غير هذا مرّة فى زمن أبى زرعة وأبى حاتم ، فوجد الأمر على ذلك ، فقال السائل : أشهد أن هذا العلم إلهام .

قال الأعمش : كان إبراهيم النخعى صيرفيًا فى الحديث ، كنت أسمع من الرجال فأعرض عليهم ما سمعته .

وقال عمرو بن قيس : ينبغى لصاحب الحديث أن يكون مثل الصيرفى [١] الذى

(١) الصيرفى : المحتال فى الأمور كالصيرفى وهو صرَّاف الدَّراهم .

ينقد الدرهم الزائف [(١)] والبهرج [(٢)] وكذا الحديث .

وقال الأوزاعى : كنا نسمع الحديث فنعرضه على أصحابنا ، كما نعرض الدرهم الزائف على الصيارفة ، فما عرفوا أخذنا ، وما أنكروا تركنا ، وقيل لعبد الرحمن بن مهدى: إنك تقول للشيء : هذا يصح ، وهذا لم يثبت ، فعمّن تقول ذلك ؟ فقال : أرأيت لو أتيت الناقد فأريته دراهمك ، فقال : هذا جيّد، وهذا بهرج ، أكنت تسأله عن ذلك أو تسلم الأمر إليه ؟ قال :لا . بل كنْت أسلم الأمر إليه ، فقال : فهذا كذلك لطول المجادلة والمناظرة والخبرية .

وقد روى نحو هذا المعنى عن الإمام أحمد أيضًا ، وأنه قيل له : يا أبا عبد اللّه تقول : هذا الحديث منكر ، فكيف علمت ولم تكتب الحديث كله ؟

قال : مثلنا كمثل ناقد العين [(٣)] لم تقع بيده العين كلها ، فإذا وقع بيده الدينار ، يعلم أنه جيّد وأنه ردىء .

وقال ابن مهدى : معرفة الحديث إلهام ، وقال : إنكارنا الحديث عند الجهال كهانة .

وقال أبو حاتم الرازى : مثل معرفة الحديث كمثل فصّ ثمنه مائة دينار وآخر مثله على لونه ثمنه عشرة دراهم ، قال : وكما لا يتهيأ للنّاقد أن يخبر بسبب نقده ، فكذلك نحن رزقنا علما لا يتهيأ لنا أن نخبر كيف علمنا بأن هذا حديث كذب ، وأن هذا حديث منكر، إلا بما نعرفه، قال : ويعرف جودة الدينار بالقياس إلى غيره ، فإن تخلف فى الحمرة والصفاء علم أنه مغشوش ، ويعلم جنس الجوهر بالقياس إلى غيره ، فإن خالفه فى المائية والصلابة علم أنه زجاج ، ويعلم صحة الحديث بعدالة ناقليه وأن يكون كلاما يصح مثل أن يكون كلام النبوة ، ويعرف سقمه وإنكاره بتفرد من لم تصح عدالته بروايته واللّه أعلمَ.

وأوّل من اشتهر فى الكلام فى نقد الحديث : ابن سيرين ، ثم خلفه أيوب السختيانى، وأخذ ذلك عنه شعبة ، وأخذ عن شعبة يحيى القطان وابن مهدى ، وأخذ عنهما أحمد وعلى بن المدينى وابن معين ، وأخذ عنهم مثل البخارى وأبى داود ، وأبى زرعة ، وأبى حاتم ، وكان أبو زرعة فى زمانه يقول : من قال يفهم هذا وما أعزّه إلا رفعت هذا عن واحد واثنين فما أقل من تجد من يحسن هذا .

---

(١) صارت الدراهم زيوفا : مردودة لغش فيها . يقال : درهم زيف وزائف : ردىء .

(٢) البهرج : الباطل الردىء .

(٣) العين : الدينار والذهب ، وذات الشىء ، والربا ، والسيل .

ولما مات أبو زرعة قال أبو حاتم : ذهب الذى كان يحسن هذا المعنى ، يعنى أبا زرعة ما بقى بمصر ولا بالعراق واحد يحسن هذا .

وقيل له بعد موت أبى زرعة : يعرف اليوم واحد يعرف هذا ؟ قال : لا ، وجاء بعد هؤلاء جماعة منهم النسائى والعقيلى وابن عدىّ والدارقطنى ، وقلّ من جاء بعْدهم من هو بارع فى معرفة ذلك حتى قال أبو الفرج بن الجوزى فى أول كتابه (الموضوعات): قل من يفهم هذا بل عدم ، والله أعلم) (١) .

هذه الآثار وتلك الوقائع تؤكد أن علماء الحديث ورجاله قد حباهم الله بحاسّة قويّة وروح شفّافة ، وشعور مرهف به يميزون بين صحيح الأحاديث وسقيمها ، وفى الغالب لا تخيبهم حواسّهم .وإن كان يستحيل استغناؤهم عن الطرق العلمية فى تحقيقهم للأحاديث حيث يعتمد عليها علم الحديث بشقّيه : دراية ، ورواية .

وفوق علم الجرح والتعديل ، وعلم علل الحديث ، وغيرها من علوم الحديث المتشعبة كما قال الجازمى : (يشتمل على أنواع كثيرة تبلغ مائة كل نوع منها علم مستقل لو أنفق الطالب فيه عمره لما أدرك نهايته)(٢) . فهناك طرق علمية أخرى يتبعها المحدثون فى الكشف عن الموضوع والمكذوب نشير إلى بعض منها :

١ ــ ما يسمّى بالنقد الموضوعى :

أ ــ أن يكون مناقضا لنص القرآن ، والسنة المتواترة، والإجماع القطعى بحيث يتم عرض الحديث على أصول الدين وقواعد الإسلام الكلية العامة ، فإن خالفها فلا ريب فى ضعفه وخلله .

ب ــ أن يكون الحديث مخالفا لصريح العقل حيث لا يقبل التأويل ، أو ينكره الحس والمشاهدة والعادة .

فمن المخالف للعقل ما رواه ابن الجوزى من طريق عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم عن أبيه عن جده مرفوعا : « إن سفينة نوح طافت بالبيت سبعا ، وصلت عند المقام ركعتين »(٣) .

كما ذكر بعض أهل هذا الفن أن من أمارات الوضع أن يكون فيه،

(١) جامع العلوم والحكم فى شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم ، لأبى الفرج البغدادى ص ٢٤١ ـ ٢٤٣، ط : دار المعارف .

(٢) شرح صحيح مسلم للنووى ، المطبعة المصرية بالقاهرة ١ / ٤ .

(٣) تدريب الراوى ص ١٨١ .

وأعطى ثواب نبىّ أو النبيِّن ونحوهما .

٢ ـ معرفة الأسلوب النبوى ، وذلك بكثرة الممارسة والتجربة وحفظ رصيد هائل من الأحاديث النبوية الشريفة الصحيحة مع حفظ الكثير من الموضوعات فى الجانب المقابل ، للتمييز بين الأسلوب النبوى البليغ ، باعتبار الرسول الكريم ﷺ سيد البلاغة ، وأب الفصاحة والبيان من تلفيقات الوضّاعين المهملة المضطربة المتميزة بركاكة ألفاظها، وبساطة معانيها بل وتفاهتها .

٣ ـ معرفة الأحداث السياسية والاجتماعية والفكرية ، وخاصة التى واكبت حركة تدوين السنة النّبوية الشريفة ؛ حيث نلاحظ الكثير من تلك الأحداث قد فرضت نفسها على بعض كتب السنة الواهية ؛ فزخرت بامتداح مدن الملوك ، والفواكه المحببة إليهم ، وأساليب الترفه ، التى يتعاطونها كالتى جاءت فى إطراء الشام والعراق ومصر، وكذلك الآراء الفقهية والكلامية . . وكذا الفواكه المختلفة كالعنب ، والبطيخ ، والباذنجان . . وسنورد أمثلة لتلك المختلقات :

ـ قيل لمأمون بن أحمد الهروى: ألا ترى إلى الشافعى ومن يتبعه بخراسان فقال: حدثنا أحمد بن عبد اللّه ، حدثنا عبيد اللّه بن معدان الأزدى ، عن أنس مرفوعا : « يكون فى أمتى رجل يقال له : محمد بن إدريس ، ويكون أضرّ على أمتى من إبليس ، ويكون فى أمتى رجل يقال له : أبو حنيفة هو سراج أمتى ، هو سراج أمتى».

ـ كما وضع غياث بن إبراهيم للخليفة المهدى حديث : « لا سبقَ إلا فى خفّ أو حافر ـ فزاد فيه ـ : أو جناح » وكان المهدى إذ ذاك يلعب بالحمام فتركها وأمر بذبحها وقال له: أشهد أن قفاك قفا كذّاب .

ـ وكحديث : « إن البطيخ ماؤه رحمة ، وحلاوته مثل حلاوة الجنة » .

ـ وكحديث : « عليكم بالعدس فإنه مبارك ، فإنه يرق له القلب ويكثر الدمعة» ، «عليكم بالقرع ، فإنه يزيد فى العقل ويكبر الدماغ » .

الأصولية :

اختلفت طوائف من فقهاء الشافعية والحنفية المتكلمين فى الإلهام : هل هو حجة أم لا؟

فذهبت طائفة إلى أن الكشف ليس بطريق إلى الأحكام ، وأخذه القاضى أبو يعلى من كلام أحمد فى ذمّ المتكلمين فى الوساوس والخطرات .

والإمام أحمد إنما ذم الوسواس والخطرات من الصوفية حيث كان كلامهم فى ذلك لا يستند إلى دليل شرعى ، بل إلى مجرّد رأى وذوق ، كما كان ينكر الكلام فى مسائل الحلال والحرام بمجرد الرأى من غير دليل شرعى .

وأما الرجوع فى الأمور المشتبهة إلى حُوَّاز القلوب ، فقد دلت عليه النصوص النبوية وفتاوى الصحابة ، وها هو الإمام أحمد ينصّ على ذلك أيضا :

قال المروزى فى كتاب (الورع) : قلت لأبى عبد اللّه : إن القطيعة أرفق بى من سائر الأسواق، وقد وقع فى قلبى من أمرها شىء ، فقال : أمرها أمر قذر متلوث ، قلت : فتكره العمل فيها ؟

قال : دع عنك هذا إن كان لا يقع فى قلبك شىء ، قلت : قد وقع فى قلبى منها، فقال : قال ابن مسعود : الإثم حواز القلب . قلت : إنما هذا المشاورة ، قال : أى شىء يقع فى قلبك ؟ قلت : قد اضطرب علىّ قلبى ، قال : الإثم هو حواز القلوب(١) .

القضائية :

القاضى المسلم مهما كانت درجة التزامه ، وورعه ، وعلمه فإنه لا يتحول من بشر إلى ملك ، بل كثيرًا ما تُرديه بشريته إلى الوقوع فى الخطأ ، وقد ينجم عن ذلك الخطأ تأويل محكم كتاب اللّه ، أو إبطال حكم اللّه ، ومن ثمّ ظلم المتقاضى .

قال معاذ بن جبل: أحذركم زيغة الحكيم ، فإن الشيطان قد يقول كلمة الضّلال على لسان الحكيم ، وقد يقول المنافق كلمة الحق . فقيل لمعاذ : ما يدرينى أن الحكيم قد يقول كلمة الضلال ، وأن المنافق قد يقول كلمة الحق ؟ قال: اجتنب من كلام الحكيم المشتهرات التى يقال ما هذه ؟ ولا يثنيك ذلك عنه فإنه لعله أن يراجع، وتلق الحق إن تسمعه فإنه على الحق نور (٢) ،فإذا صدرت عنه ـ أى القاضى ـ أحكام تخالف نصا قرآنيا أو سنيا فهى ليست إلزامية .

الاجتماعية :

« . . وكرهت أن يطلع عليه الناس ».

---

(١) قال صاحب القاموس : وحواز القلوب فى حديث ابن مسعود ما يجوزها ويغلبها حتى تركب ما لا تحب، ويروى : حزاز ، جمع حازة : وهى الأمور التى تحز فى القلوب وتحرك وتؤثر ويتخالج فيها أن تكون معاصى لفقد الطمأنينة إليها . ا . هـ .

(٢) أخرجه أبو داود .

أ ــ المجاهرة بالمعاصى وأخطارها : النفس البشرية عموما بحكم طبيعتها الأصلية تألف الخير وتميل إليه وتحبّذه حتى وكأن البشرية تعارفت عليه فسماه اللّه معروفا .

كما تتقزز من الشر وتجده خبيثًا فى نتائجه، خبيثا فى مظاهره وتستهجنه الطبائع السليمة وتستنكره؛ ولذا سماه القرآن منكرا ،قال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ** ﴾[النحل : ٩٠] ، وقال تعالى فى صفة الرسول ﷺ : ﴿ **وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ** ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

هذا إذا لم تضعف تلك الروح الخيرية فى المجتمع والتى تعتبر السلطان الرادع لنوازع الشر، فغالبا ما تختلط الأمور ويتساوى الحسن والقبيح بفعل فلسفات عقيمة وأيديولوجيات حيوانية أرضية كالتى ظهر بها (دارون) وأمثاله .

هنالك تضطرب الموازين وتتلاشى القيم وتنطلق الشهوات والنزوات دون أدنى وجل أو حياء ، ويختلط الحابل بالنابل وساعتها على البشرية السلام .

ب ــ المصادقة « . . . أن يطلع عليه الناس . . . » .

المراد بالناس : أهل الدين والصلاح الذين لا زالت أنفسهم على فطرتها الأولى، أما الفساق فهم إخوان الشياطين همهم تزيين القبيح والتنفير من الحسن، قال تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ** ﴾ [النور : ٢١] ،هذا شأن إبليس وهو هو شأن أتباعه وعباده ﴿ **الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ** ﴾ [التوبة : ٦٧] .

وعليه فيجب على الوالد أن يتخير لولده الأصدقاء ، ويجنبه أصدقاء السوء ؛ لما للمصاحبة من دور خطير فى أخلاق الأبناء ، وأثر بيّن فى سلوكياتهم ، كما يجب على المؤمن أن يلتمس فيمن يصادق الإيمان والأخلاق الكريمة، ورحم اللّه من قال:

لا تسأل عن المرء وسل عن قرينه ⁂ إن القرين بالمقارن يقتدى

وفى هذا المعنى الحديث النبوى : « المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل» (١) .

وقريب منه ما جاء فى منظومة ابن عاشر فى معرض حديثه عن تزكية النفس :

---

(١) أخرجه الترمذى .

يَصْحب شيخا عارف المسالك   يقيه فى طريقه المهالك

يذكره الله إذا رآه   ويوصل العبد إلى مولاه

وأرانى فى حل الآن من توضيح الإشكال الذى تعمّده البعض فى بيان معنى ما سبق، ولكن الذى يستحق التذكير هو التحرّز والابتعاد ممّن تنسى معرفتهم شرع اللّه، وكثير ما هم.

النفسية :

« البرّ ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب . . » .

حقا إنك لتجد النفس هادئة ليس لها ما ينفرها أو يزعجها حين تكون المبرات والأفعال الخيرية، وتتهلل لها ؛ لأنها تتوافق مع ما خلقت له وما طبعت عليه ، وبعد هذا الاطمئنان يأتى ركون القلب واطمئنانه ، ولذا كان النداء الربانى : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً . فَادْخُلِي فِي عِبَادِي . وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ [الفجر : ٢٧ ـ ٣٠] .

أما إذا خامر القلب إثم،فإنه سيتحرج ويضطرب لاضطراب دوافع الخير وتصارعها مع نوازع الشر ، ويحمى الوطيس بينهما حتى تغلب إحداهما الأخرى ، فإن كانت الغلبة لقوى الخير انشرح الصدر ، وإلا فإن صاحبها ــ وإن غلب عليه الشر ــ يكون له وقت تصفو فيه نفسه بعد إقدامه على جريمته ، وتنجلى غمامة الشرّ ، وتبرد نيران الغضب ، وتهدأ عواصف الأنانية والانتقام والبغى مهما غالط الإنسان نفسه فإنها تؤنبه على فعلته حتى وإن انفلت من جميع الروادع الخارجية والزواجر المادية، فإنه لن يستطيع التهرب أبدًا من ضيق الصدر وانقباض النفس والأرق والقلق، ويظل شبح الجريمة يلاحَقه آناء الليل وأطراف النهار ولا يفلته أبدًا حتى إننا رأينا من يقوم منزعجا وجلا ترتعد فرائصه من حلم متكرر يرى فيه جريمته ، وربما تمثلها فى يقظته ، وقد تؤدى تلك الحال إلى الهوس والجنون ــ والعياذ باللّه ــ أما كان يكفى هؤلاء ميزانا لتصرفاتهم قول النبى الكريم : « والإثم ما حاك فى النفس وتردد فى الصدر » ؟ !

الأخلاقية :

« . . . البرّ حسن الخلق . . » .

الأخلاق فى الفلسفات الأرضية مهما كانت منطلقاتها عرجاء ؛ لأنها تنظر إلى الأخلاق من زاوية واحدة محدودة ومن جانب أرضى آنى قاصر . بينما عدد القرآن الكريم مظاهرها وبين أسسها وقواعدها ؛ فالأخلاق فى الإسلام ليست مدينة أفلاطونية

خيالية ، بل هى مبادئ سامية جسّدها فى الواقع العملى رسول اللّه ﷺ ، فلقد وصفه ربّه قبل زوجته بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[القلم : ٤] : وقالت عائشة فى معرض حديثها الشيّق عنه ﷺ: كان خلقه القرآن .

وتقوم الأخلاق الإسلامية على ثلاثة محاور :

أ ــ التخلق مع ربّ الكون بالإيمان به وحمده على نعمه وامتثال شريعته .

ب ــ التخلق مع المخلوقين بفعل الخير أو حتى بمحبته لهم وكف الأذى عنهم .

جـ ــ التخلق مع النفس بقيادتها إلى ما يرضى ربها ، وعدم إلقائها فى التهلكة ،

ولقد جمعت أصول الأخلاق الآيات الواردة فى سورة البقرة ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧] إلا أن بر الوالدين يتقدم البرّ بالمخلوقين عموما لما للآباء من فضل على الأبناء .

فقه الدعـوة

كثيرا ما يتراجع بعض العاملين فى حقل الدعوة على بعض الأحكام الشرعية ، وأعنى بها على الخصوص الرخص التى منحها لنا اللّه وحبانا بها أمام تردّد فى النفس ، أو ضيق فى صدور العامة والجهال منهم بالذات .

ولكن يجب على الداعية ألا يلتفت إلى شىء من ذلك ، ما دام بين يديه الدليل الشرعى ، ولا يتباطأ فى العمل والفتيا به كقصر الصلاة فى السفر ، والفطر فى السفر، والمرض ونحوها .

ومن المؤسف حقا أننا نجد من يحكم رأيه فى حكم القصر فى رمضان ، فيذهب إلى حد الاستغناء عن هذه الرخصة بالمرة ، والعدول عنها بحجة أن وسائل السفر اليوم هى غير تلك التى كانت تلحق من جرائها المشاق ، ولكن هؤلاء جهلوا أن علة القصر ليست الإتعاب بل مجرد السّفر .

وقد كان النبى ﷺ أحيانا يأمر أصحابه بما لا تنشرح به صدور بعضهم فيحجمون، اندهاشا وتثبتا لا عصيانا وتعنتّا ، كما أمرهم بفسخ الحج إلى العمرة فكرهه من كرهه منهم .

وكما أمرهم بنحر هديهم والتحلل من عمرة الحديبية فكرهوا الرجوع بلا عمرة . وكرهوا مفاوضته لقريش على أن يرجع من عامه ، وعلى ردّ من أتاه منهم فارّا بدينه إليهم .

إذًا ما ورد فيه نص فليس للمؤمن إلا الامتثال﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ** ﴾ [الأحزاب : ٣٦] ، وينبغى أن نتلقى ذلك بانشراح فى الصدر ، وطمأنينة فى النفس ، قال تعالى : ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ [النساء : ٦٥] .

تطبيق

١ ــ انحصر مفهوم البر لدى الكثير من المسلمين فى ركعات يؤديها اعتياديا ، ويقيس بها إيمانه وصلاحه : ﴿ **لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ** ﴾ [البقرة: ١٧٧] .

وأما من الناحية الاجتماعية ، فلقد أصبح المسلم سلبيا إلى أبعد الحدود ، حتى ارتسم فى أذهاننا الفارق بين العربى ، ولا أقول : المسلم ، والأوربى هو فارق بين الجد والكسل ، وهو الفارق بين الأمانة والخيانة ، وبين الصدق والكذب . . وهلم جرّا .

٢ ــ لقد أصبح الإثم اليوم هو البضاعة المشاعة المعلن عنها بالوسائل الإعلامية والتشهيرية، واطلع عليه العاقل والجاهل والصغير والكبير الكل يرى ، والجلّ يعيش ويرتع ولا رادع ، ألا هل من رادع لهذه القبل المحمومة ، والحركات المثيرة ، والآهات المغرية بالأفلام والمسارح والأندية . . . و . . . و . . ؟ ! ألا هل من حام لأموال المسلمين المسلوبة ، وأعراضهم المهتوكة ، والمقدسات المغصوبة أمام اللّه والناس والأعراف . والقوانين ، والهيئات ، والمنظمات ، والنداءات ، والاحتجاجات؟!

٣ ــ قل حياء البعض فراح يتحايل على اللّه لا على أهل الفتوى ــ فى حقيقة الأمر ــ لدى استفساراته واستفتاءاته حتى يجد مصوّغا يدلف منه إلى الحلال ، وهو معفّر بالحرام ، وإنك لتجد هذا فيمن يبحثون عن أحكام الطلاق خاصة ، فإنا للّه وإنا إليه راجعون .

الحديث الثامن والعشرون

عن أبى نجيح العرباض بن سارية ـ رضى اللّه تعالى عنه ـ قال : وعظنا رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم موعظة وجلت منْها القلوب وذرفت منها العيون فقلنا : يـا رسول اللّه ، كأنها موعظة مودّع فأوصنا، قال:« **أوصيكم بتقوى اللّه ـ عز وجل ـ والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد ، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا ، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة** » رواه أبو داود والترمذى ، وقال :حديث حسن صحيح

تخريج الحديث :

هذا الحديث خرجه الإمام أحمد ، وأبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه من رواية ثور بن يزيد ، عن خالد بن معدان،عن عبد الرحمن بن عمرو السلمى رضى اللّه عنه، زاد أحمد فى رواية له وأبو داود : وحجر بن حجر الكلاعى ،كلاهما عن العرباض رضى اللّه عنه ، وقال الترمذى : حسن صحيح ، وقال الحافظ أبو نعيم : هو حديث جيد ، فى صحيح حديث الشاّميّين ، قال : ولم يترك له البخارى ومسلم من جهة إنكار منهما له ، وزعم الحاكم أن سبب تركهما له أنهما توهّما أنه ليس له راو ، عن خالد بن معدان عن ثور بن يزيد .

وقد رواه عنه أيضا بجير بن سعد، ومحمد بن إبراهيم التميمى، وغيرهما .

قلت: ليس الأمر كما ظنه وليس الحديث على شرطهما، فإنهما لم يخرجا لعبد الرحمن

وجلت : خافت واضطربت .

ذرفت : سالت .

عبد : على سبيل الافتراض ؛ لأن العبد ليس من أهل الافتراض ، وطاعة أولى الأمر واجبة ،ما لم يأمروا بمعصية . قال تعالى : ﴿ ولن يجعل اللّهُ للكافرين على المُؤمنين سبيلا ﴾ [النساء : ١٤١] .

عليكم : أى الزموا

عضوا : كناية عن شدة التمسك بها .

بالنواجذ : جمع : ناجذ ، وهو آخر الأضراس من الجانبين أعلى وأسفل .

محدثات الأمور : أى التى ليس لها أصل فى الدين : من كتاب أو سنة أو إجماع أو قياس صحيح .

ابن عمرو السّلمى ولا لحجر الكلاعى شيئا ، وليس ممن اشتهر بالعلم والرواية، وأيضًا فقد اختلف فيه على خالد بن معدان فروى عنه كما تقدم .

وروى عنه ابن عمرو عن أبى بلال عن العرباض ، وخرجه الإمام أحمد من هذا الوجه أيضا،عن ضمرة بن أبى حبيب،عن عبد الرحمن بن عمرو السلمى،عن العرباض خرجه من طريقه الإمام أحمد وابن ماجه ، وزاد فى حديثه : « فقد تركتكم على المحجّة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك » ، وزاد فى آخر الحديث : «فإنما المؤمن كالجمل الأنف حيثما قيد انقاد » .

وقد أنكر طائفة من الحفاظ هذه الزيادة فى آخر الحديث وقالوا : هى مدرجة فيه وليست منه . قال أحمد بن صالح المصرى وغيره : وقد خرّجه الحاكم ، وقال فى حديثه : وكان أسد بن وداعة يزيد فى هذا الحديث : « فإن المؤمن كالجمل الأنف حيثما قيد انقاد » .

وخرجه ابن ماجه أيضا من رواية عبد اللّه بن العلاء بن زبير : حدثنى يحيى بن أبى المطاع سمعت العرباض فذكره ، وهذا فى الظاهر إسناد جيّد متصل ، ورواته ثقات مشهورون ، وقد صرح فيه بالسماع .

وقد ذكر البخارى فى تاريخه : أن يحيى بن أبى المطاع سمع من العرباض اعتمادا على هذه الرواية ، إلا أن حفاظ أهل الشام أنكروا ذلك وقالوا : يحيى بن أبى المطاع لم يسمع من العرباض ، ولم يلقه، وهذه الرواية غلط ، وممن ذكر ذلك أبو زرعة الدمشقى وحكاه عن دحيم ، وهؤلاء أعرف بشيوخهم من غيرهم . والبخارى ــ رحمه اللّه ــ يقع له فى تاريخه أوهام فى أخبار أهل الشام ، وقد روى عن العرباض من وجوه أخر (١) .

سبب ورود الحديث :

لقد كان رسول اللّه ﷺ يتخول صحابته بالموعظة والتذكير، وربما كانت الموعظة لحادثة أو شرحًا لآية نازلة ، أو تحسبا لواقعة . وهنا فهم الصحابة أن دنو أجله ﷺ وارتقابه للقاء ربه حمله على التركيز فى وعظه وتأكيده فى الوعد والوعيد .

وعلى أى حال ،فإن إيراد الوصية بالتقوى والسّمع والطاعة ، وبالاستمساك بالسنة والتحذير من الاختلاف والابتداع كان إجابة لطلب الصحابة الوصية ، وهم الحريصون على سماعها من الأب الرحيم والقائد الحكيم ، حيث جاء فى مطلبهم: كأنها موعظة

(١)انتهى نقلا عن جامع العلوم والحكم فى شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم .

مودّع فأوصنا . لقد استشعروا قرب الفراق من عبارات التوديع وإشارات الرحيل ، وكانوا يقدّرون تلك الفاجعة ، وأى مصيبة أفجع من وفاة خير البشر ، هادى البشرية الذى أوقف حياته كلها يذب عن هذه الأمة ويرعاها حتى لا تفترسها الشياطين ؟!

إنه انقطاع السماء عن الأرض ، للّه درّك يا رسول اللّه الذى وصفك بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٢٨] .

فبادر الصحابة يتزودون بوصاياه التى تنير لهم دروب الحياة ، وتمدهم بالطاقة التى تخولهم أن يكونوا خلفاء اللّه فى الأرض ، وورثة جنانه ، وهنا تدفقت عبارات الوصية شاملة لخيرى الدارين .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

العقائدية :

١ ــ العلمّ بمواعيد الآجال وحدها دقيقة من دقائق الغيب الذى استأثر اللّه به .

والإيمان بهذا من أساسيات عقيدة المؤمن ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [لقمان : ٣٤] .

ولن يكشف أحد عن أجله ــ مهما كان ــ وربما استشعر بدنوّه الشيخ الكبير لهرمه، أو المتوعك لمرضه ، ولكن التحديد من خصوصيات علام الغيوب . وهذا سيد الوجود عليه السلام تنعى إليه روحه من السماء ، وتنزل عليه سورة «النصر»﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ، قال مقاتل: لما نزلت قرأها النبى ﷺ على أصحابه ، ومنهم أبو بكر وعمر وسعد بن أبى وقاص ، ففرحوا واستبشروا ، وبكى العباس ، فقال له النبى ﷺ : « ما يبكيك يا عم ؟ » قال : نعيت إليك نفسك ، قال : « إنه لكما تقول »، فعاش بعدها ستين يومًا ما رئى فيها ضاحكًا مستبشرا ، ومع كل ذلك فلم يتم الإعلان عن الموعد المضروب لأجله بالتحديد ﷺ ، وذى عبارات عديدة وردت فى أحاديثه الشريفة ، تشهد لما أقول كتعريضه بالتوديع فى خطبة حجة الوداع حيث قال فيها : « . . لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا » ،وطفق يودع الناس ، فقالوا :هذه حجة الوداع ، ولما رجع من حجه إلى المدينة جمع الناس بماء بين مكة والمدينة يسمى خمّا وخطبهم ، وقال : « يأيها الناس إنما أنا بشر مثلكم ، يوشك أن يأتينى رسول ربى

فأجيبه » ، ثم حضّ على التمسّك بكتاب اللّه ، ووصى بأهل بيته خيرًا (١) .

وعن عقبة بن عامر رضى اللّه عنه قال: صلى رسول اللّه ﷺ على قتلى أحد، ثم صعد المنبر كالمودع للأحياء والأموات فقال: «إنى فرطكم على الحوض ، فإن عرضه كما بين أيلة إلى الجحفة ، وإنى لست أخشى عليكم أن تشركوا بعدى ، ولكن أخشى عليكم الدنيا ، تتنافسوا فيها ،فتقتلون ؛ فتهلكوا كما هلك من كان قبلكم »(٢).

قال عقبة رضى اللّه عنه:فكان آخر ما رأيت رسول اللّه ﷺ على المنبر . وخرجه الإمام أحمد ولفظه : صلى رسول اللّه ﷺ على قتلى أحد بعد ثمان سنين كالمودع للأحياء والأموات ، ثم طلع المنبر فقال : « أيها الناس ،إنى فرطكم وأنا شهيد عليكم، وإن موعدكم الحوض ، وإنى لأنظر إليه ، ولست أخشى الفقر ، ولكن الدنيا أن تنافسوها ».وخرج الإمام أحمد أيضا عن عبد اللّه بن عمر ـ رضى اللّه عنهما ـ قال : خرج علينا رسول اللّه ﷺ يوما كالمودع فقال : « أنا محمد النبى الأمى » قال ذلك ثلاث مرات « ولا نبى بعدى ، أوتيت فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه ، وعلمتكم خزنة النار وحملة العرش ، وتجوّز لى ربى ، وعوفيت أمتى ، فاسمعوا وأطيعوا ما دمت فيكم ، فإذا ذهب بى فعليكم بكتاب اللّه ، أحلوا حلاله ، وحرّموا حرامه »

ولعله عرض بمثل هذا فى خطبته التى أشار إليها العرباض بن سارية فى حديثه.

علم السلوك:

١ـ إنّ لين القلب وخشوعه دليل على صحته الإيمانية وشفافيته وإخلاصه ، ولأن العبرة عند اللّه بهذه المضغة ، امتدح المؤمنين الصادقين حين خشعت قلوبهم ، واقشعرت جلودهم ، وفاضت أعينهم وجلا من اللّه، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال : ٢] .

وقال: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد: ١٦] .

وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الزمر : ٢٣] .

وقال : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ

(١) أخرجه مسلم .

(٢) أخرجاه فى الصحيحين ، واللفظ لمسلم .

الْحَق ﴾ [المائدة : ٨٣].

وفى المقابل وصف الحق سبحانه أقواما ران على قلوبهم بالجفاء والغلظة حتى وكأن قلوبهم فى أغطية ملفوفة تحجبها عن أشعة النور، فقال : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ [فصلت : ٥] ، بل ولقد وصفهم بالأنعام : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٩] ، إذًا فمحط الخشوع هو القلب والجوارح متصلة بنياط القلب ، فهى حيّة بحياته صالحة بصلاحه ، أو ميتة بموته ، وساكنة بركوده ، ولعل العين هى أكبر ترجمان لما يعترى القلب ؛ لذا جاء ذكرها بعد ذكر القلب لا قبله فى حديث أبى نجيح هذا: «وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون » .

غير أننا نرى اليوم من يدعى الزهد فى الحياة ، ويظهر رعدة عند ذكر اللّه تعالى ، وربما رفع صوته جهارا فى الأسواق والطرقات باسم اللّه ، ولكن بأعين لا تدمع ، وجوارح لا تتورّع ، وما ذلك إلا لخلل إيمانى فى المحرك الأساسى ــ القلب ؛ لذا قال عمر فى رجل رآه يصلى ــ وهو يعبث بلحيته وأطرافه ــ : لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه .

٢ ــ من قوله ﷺ : « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها . . » نستنتج ما يلى :

إن الوصية بالسنة ، والتمسك بها ، والعمل بمحتواها واردة فى قوله تعالى : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ [الحشر : ٧] ، كما علق القرآن الكريم محبّة اللّه لعباده باتباع سنة محمد ﷺ ، وبهذا التعليق قول نبيه : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران : ٣١] .

فالتمسك بالسنة ضمان من الزيغ والانحراف ، ونجاة من التيهان فى ظلمات البدع وضلالات الاختلاف ، وعصمة من التشرذم والافتراق . ولعل قائلا يقول : إن التمسك بسنن الأصحاب ــ رضوان اللّه عليهم ــ مدعاة إلى ذلك، ولكن الحقيقة والواقع غير ذلك تماما، حيث إن النبى ﷺ وصف هؤلاء الخلفاء بالرشد الذى هو معرفة الحق واتباعه، وبالهداية أيضا، فاللّه لا يضلهم أبدًا، ثم إن سننهم من سنن النبى ﷺ بدليل التعبير النبوى: «عضوا عليها بالنواجذ » ،ولم يقل : عليهما ، والتاريخ الإسلامى نفسه

يشهد أنه لم تكن هناك طرائق متعددة لكل طريقة صحابى يتزعمها ، ويقود الناس على نهجها المتميز عن بقية الطرائق الأخرى مثلما هو الشأن بالنسبة لأهل الطرق المبتدعة : كالتيجانية التى تنسب إلى أبى العباس أحمد التيجانى والتى يزعم أصحابها أن قراءة ما يسمى بالصلاة الفاتحية ، تعدل ختم القرآن الكريم آلاف المرات ـ والعياذ بالله ـ وغيرها .

ومن بدع هذه الطرائق التى تخالف سنة المصطفى ﷺ ، وما جرى عليه سلف هذه الأمة من الصالحين وأهل التصوّف السنى الحقيقى أمثال الجنيد (١) والقشيرى (٢) والمحاسبى (٣) .

قلت : مما ابتدعوه فى الدين وخالفوا به كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، ونهج خلفائه من بعده:

١ ـ التقيد بأذكار معينة ـ لم ترد صيغها ـ وتحديد العدد ، أو ما يسمى بالورد ، أو رفع السبحة . ويعنون بذلك أوقاتها ، وصيغها المعينة ، وأعدادها فى حين أن القرآن الكريم أمر بالذكر والتسبيح أمرا مطلقا ، بل وحث على الإكثار فقال : ﴿ اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٤١ : ٤٢] وكذا الشأن فى السنة النبوية فلم يرد عن رسول الله ﷺ مطلقا أن حدّد الأذكار لصحابى معيّن شأن أولئك الطرقيين، ولا حتى عن صحابته ومن تبعهم واقتفى أثرهم ، بل ورد إنكارهم لذلك ونهيهم الشديد عنه ، ومن ذلك ما نقله أبو إسحاق الشاطبى عن أبى وضاح ، عن الأعمش ، عن بعض أصحابه قال : مرّ عبد الله بن مسعود برجل يقص على أصحابه وهو يقول : سبحوا عشرا ، وهللوا عشرا . فقال عبد الله: إنكم لأهدى من أصحاب محمد ﷺ أو أضل بل هـذه ـ يعنى أضل . وجاء عنه أيضا : أنّ أناسا يسبحون بالحصى فى المسجد ، فأتاهم وقد كوم كل رجل منهم كوما من حصى قال : فلم يزل يحصبهم بالحصى حتى أخرجهم من المسجد، ويقول : لقد أحدثتم بدعا وظلما ، وقد فضلتم أصحاب محمد ﷺ علما .

(١) هو أبو القاسم الجنيد بن محمد البغدادى الصوفى من العلماء بالدين إمام الدنيا فى عصره ، عده العلماء شيخ مذهب التصوّف ، توفى سنة ٢٩٧ هـ . الأعلام للزركلى ٢ / ١٣٧ .

(٢) هو أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة النيسابورى القشيرى ، من بنى قشير بن كعب شيخ خراسان فى عصره ، زهدا وعلما بالدين ،كتابا وسنة، من أشهر آثاره : الرسالة القشيرية ، ولد سنة ٣٧٦ هـ وتوفى سنة ٤٦٥ ، الأعلام للزركلى ٤ / ٥٧ .

(٣) هو الحارث بن أسد أبو عبد الله (١٦٥ ، ٢٤٣ هـ) من أكابر الصوفية ، كان عالما بالأصول والمعاملات واعظا مبكيا ، له تصانيف فى الزهد وفى الرد على المعتزلة وغيرهم ، من كتبه: رسالة المسترشد .ا.هـ. الأعلام ٢ / ١٥٣ .

٢ ــ ومن بدعهم المنكرة : إعطاء العهود والمواثيق .

٣ ــ ومنه (انتصاب المشايخ وأرباب الطرق للدعاء كوسطاء ، وهذا مفسد لعقائد المريدين ويشوش عليهم فى التفريق بين مقام الأنبياء والمرسلين ، ومقام الأولياء والعارفين ، فعن مُدرك بن عمران قال : (كتب رجل إلى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه : . . فادع اللّه لى ، فكتب إليه عمر : إنى لست بنبى ، ولكن إذا أقيمت الصلاة فاستغفر لذنبك ، فمنعه عمر من طلبه وأنكر عليه كما ترى) [١] .

كما حدث ذلك لسعد بن أبى وقاص حين قدم الشّام حيث أتاه رجل فقال : استغفر لى ، فقال : لا غفر اللّه لك ولا لذاك ، أنبىّ أنا ؟ !

كما قدم آخر لحذيفة رضى اللّه عنه فقال : استغفر لى ، فقال حذيفة : لا غفر اللّه لك. ثم قال حذيفة : يذهب هذا إلى نسائه فيقول : استغفر لى حذيفة .

إن بعض أرباب الطرق وغيرهم من أهل البدع ، لا يستحيون أبدا أن يلفقوا على سلف هذه الأمة وينسبون إليهم ما لم يتفوهوا به طوال حياتهم دون أن تتوافر لديهم مقاييس الرواية أو ضوابط النقل .

ومن العارفين باللّه المظلومين،الشيخ عبد القادر الجيلاى [٢] ــ قدّس اللّه روحه ــ الذى برأ نفسه من أضاليلهم فى كتابه الغنية بقوله : (فعلى المؤمن اتباع السنة والجماعة، فالسنة ما سنه رسول اللّه ﷺ ، والجماعة ما اتفق عليه أصحابه ــ رضى اللّه عنهم أجمعين ــ وألا يكاثر أهل البدع ، ولا يدانيهم ، ولا يسلم عليهم ؛ لأن الإمام أحمد قال : من سلم على صاحب بدعة فقد أحبه لقوله ﷺ :« أفشوا السلام بينكم تحابوا» ولا يجالسهم ، ولا يعزيهم ولا يهنئهم فى الأعياد وأوقات السرور، ولا يصلى عليهم إذا ماتوا ، ولا يترحم عليهم إذا ذكروا ، بل يباينهم ويعاديهم فى اللّه ــ عز وجل ــ معتقدا محتسبا بذلك الثواب الجزيل والأجر الكثير).

ولست هنا بحاصر كل ما ابتدعوه ، إنما كان ذلك على سبيل المثال .

مصطلح الحديث :

السنة عند علماء اللغة : الطريقة أو السيرة ، سواء كانت محمودة أو مذمومة ، جاء فى الحديث: « من سن سنة حسنة،فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة،

---

(١) أخرجه الطبرانى .

(٢) ولد فى جيلان وكان مدرسا ببغداد له (الفتح الربانى ، والفيض الرحمانى) فى التصوف . و(الغنية لطالبى طريق الحق) توفى سنة ٥٦١ هـ ،١١٦٦ م .

ومن سن سنة سيئة ، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » إلا أن كلمة السنة عند الإطلاق تنصرف إلى الطريقة المحمودة المستقيمة ، فإذا قيل : فلان من أهل السنة كان معناه أنه من أهل الطريقة المحمودة (١) .

السنة فى الاصطلاح :

والسنة فى اصطلاح علماء الحديث تعنى أقوال النبى ﷺ وأفعاله وتقريراته وصفاته الخُلقية والخَلقية وسيرته قبل البعثة وبعدها (٢) ، وهى بهذا المعنى ترادف معنى الحديث عند المحدثين .

ـ وقد تطلق السنة ويراد ما كان عليه النبى ﷺ وأصحابه ، أى : على الواقع العملى ، أى : ما جرى عليه العمل فى عهد النبى ﷺ .

ـ وتطلق أيضا على ما جرى عليه العمل فى عهد الصحابة بعد وفاة النبى ﷺ سواء كان مستند ذلك العمل نصا فى القرآن الكريم، أو فى السنة النبوية الشريفة، أو ما لم يعرف مستندهم فى فعلهم سنة نبوية ثبتت عندهم ، ولم تنقل إلينا ، وإنما نقل تطبيقها من قبلهم ، أو كان مستند عملهم إجماعا منهم أو من خلفائهم الراشدين ، ويدل على صحته إطلاق السنّة على هذا المعنى الحديث الذى نحن بصدد البحث فى معانيه : « فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى » .

الفرق بين السنة والحديث ، والخبر والأثر :

أولا: تجدر الإشارة إلى القول الراجح فى تعريف الخبر والأثر والحديث ، حيث إنها مصطلحات مترادفة ، ومن ثم يصح إطلاق أى منها على ما أضيف إلى النبى ﷺ من قول، أو فعل ، أو تقرير ، أو صفة ، كما أن السّنة هى الأخرى تعطى هذا المعنى أيضا إذا اطلقت وأريد بها هذا المعنى، إلا أنها تطلق أيضا ـ كما سبق وأن بينت ـ على الواقع العملى الذى كان عليه عصر النبى ﷺ ، وكذا صحابته الكرام فى تطبيق معانى الشريعة الإسلامية.

أقسام السنة :

تنقسم السنة إلى أقسام كثيرة من نواح مختلفة ، ولا بأس أن نتعرّض فى هذه العجالة إلى بعضها بشكل مقتضب حتى ندرك حقيقة السنة التى أكد صاحبها عليه

(١) لسان العرب لابن منظور ،مطبعة بولاق ، ص ٨٩ ، ٩٠ .

(٢) أعلام المحدثين ، محمد محمد أبو شهبة بمصر سنة ١٩٦٣ ص ٣٩ ، السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى للدكتور مصطفى السباعى ص ٥٩ .

الصلاة والسلام على الاستمساك بها .

أولا : من حيث حقيقتها :

فمن ناحية حقيقتها تنقسم إلى سنة قولية ، وسنة فعلية ، وسنة تقريرية :

أ ـ السنة القولية : هى أقوال النبى ﷺ التى صح نقلها إلينا والتى تزخر بها بطون الصحاح وذلك كقوله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات . . . . » .

ب ـ والسنة الفعلية : هى أعماله ﷺ كصلاته وحجّه التى تعتبر تبيانا للأحكام الشرعية .

جـ ـ والسنة التقريرية : هى إقراره لفعل فعله صحابته أمامه ، وعلم به ويعد هذا الإقرار سنة.

ثانيا : من حيث الرواية :

يقرر العلماء أنّ السنة إما أن تكون متواترة ، وإما أن تكون أخبار آحاد وهى بحسب اتصال السلسلة أو انقطاعها تنقسم إلى :

أ ـ الأحاديث التى لا يتصل سندها برسول اللّه ﷺ وهى :

ـ **المرسل** : هو الذى اتصل سنده إلى التابعى ولا يذكر الصحابى الذى رواه .

ـ **المنقطع** : هو الذى انقطع فيه أحد الرواة بين التابعى وراوى الحديث .

ـ **الموقوف** : هو ما قاله الصحابى من غير أن يسنده إلى النبى ﷺ .

ب ـ الأحاديث المتصلة ومراتبها :

ـ **الصحيح** : ما اتصل سنده بنقل العدل الضابط عن مثله ، وسلم من شذوذ وعلّة .

ـ **الحسن** : عرفه ابن تيمية بقوله : الحسن ما تعددت طرقه ولم يكن فيهم متهم بالكذب ، ولم يكن شاذا .

ـ **الضعيف** : كما عرفه النووى: ما لم توجد فيه شروط الصحة ، ولا شروط الحسن، بأن كان رواته غير عدول ، ولم يكونوا مستورين .

إلى هنا أكون قد أشرت بإيجاز إلى التقسيمات الكبرى للسنة وبيان حقيقتها ، وأرشد القارئ بعدم الاكتفاء بهذه الإشارات وأحيله فى التعمق والتثبت إلى كتب المصطلح المعروفة .

الأصولية :

١ــ حجية السنة :

السنة هى المصدر الثانى بعد القرآن الكريم من مصادر التشريع الإسلامى ،كما أجمع فقهاء المسلمين على الاحتجاج بها واعتبارها مصدرا للفقه الإسلامى ، وقامت الأدلة على إثبات حجيتها .

منها قوله تعالى : ﴿ **مَن يُطعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّه** ﴾ [النساء : ٨٠] ،ومنها أيضا: ﴿**أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُول** ﴾ [النساء: ٥٩] ، وقال تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِم** ﴾ [الأحزاب : ٣٦] ، وقال: ﴿**فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُون** ﴾ [الأعراف: ١٥٨] .

٢ ــ علاقة السنة بالقرآن :

السنة النبوية مبينة للقرآن الكريم وذى آية شاهدة على ذلك : ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ** ﴾ [النحل : ٤٤] ، ومن بيان السنة للقرآن أنها :

أ ــ تفصل مجمله : فهذه العبادات المختلفة كالصلاة والزكاة ، وغيرهما جاءت مجملة؛ ففصلها النبىّ ﷺ بسنته القولية والفعلية .

ب ــ وتقيد مطلقه : كقوله : ﴿ **وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا** ﴾ [المائدة : ٣٨] فالأيدى مطلقة ولكن السنة قيدتها إلى الرسغ .

حـ ــ وتخصص عامه : فمثلا فى قوله تعالى : ﴿ **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ** ﴾ [المائدة : ٣] وردت كلمة ﴿ **الْمَيْتَةُ** ﴾ عامة ، ولكن السنة خصتها بغير ميتة البحر والجراد ، قال ﷺ : « أحلت لنا ميتتان السمك والجراد » .

٣ ــ إجماع الصحابة :

إن إجماع الصحابة ــ رضوان اللّه عليهم ــ قد وقع بالفعل ، وهذا مما يقوّى حجة القائلين بإمكانية الإجماع ، فقد أجمعوا على أن الجدة تأخذ السدس تنفرد به الواحدة ، وتشترك فيه الأكثر من واحدة ، وكذلك أجمع الصحابة على أنه لا يجمع بين المرأة وعمتها أوخالتها ، وكذلك أجمعوا عل بطلان زواج المسلمة بغير المسلم ، وغير ذلك من المسائل التى أجمعوا عليها والتى هى أكثر من أن تحصى .

(. . واختلف العلماء فى إجماع الخلفاء الأربعة : هل هو إجماع أو حجة مع

مخالفة غيرهم من الصحابة أم لا ؟

وفيه روايتان عن الإمام أحمد ، وحكم أبو حازم الحنفى فى زمن المعتضد بتوريث ذوى الأرحام ، ولم يعتد بمن خالف الخلفاء ، وأنفذ حكمه فى ذلك فى الآفاق .

ولو قال بعض الخلفاء الأربعة قولا ، ولم يخالفه أحد ، بل خالفه غيره من الصحابة ، فهل يقدم قوله على قول غيره ؟

فيه قولان أيضا للعلماء ، والمنصوص عن أحمد أنه يقدم قوله على قول غيره من الصحابة، وكذا ذكره الخطابى وغيره ، وكلام أكثر السلف يدل على ذلك خصوصا عمر ابن الخطاب رضى اللّه عنه ، فإنه روى عن النبى ﷺ من وجوه أنه قال : « إن اللّه جعل الحق على لسان عمر وقلبه » . وكان عمر بن عبد العزيز يتبع أحكامه ويستدل بقول النبى ﷺ :« إن اللّه جعل الحق على لسان عمر وقلبه » .

وقال مالك : قال عمر بن عبد العزيز : سن رسول اللّه ﷺ وولاة الأمر من بعده سننا، والأخذ بها اعتصام بكتاب اللّه ، وقوة على دين اللّه ليس لأحد تبديلها ، ولا تغييرها ، ولا النظر فى أمر مخالفها ، من اهتدى بها فهو المهتدى ، ومن استنصر بها فهو المنصور ، ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرا ، وحكى عبد اللّه بن عبد الحكم عن مالك أنه قال : أعجبنى عزم عُمر على ذلك ، يعنى هذا الكلام . وروى عبد الرحمن بن مهدى هذا الكلام عن مالك ، ولم يحكه عن عمر ، وقال خلف بن خليفة : شهدت عمر بن عبد العزيز يخطب للناس ، وهو خليفة فقال فى خطبته :

ألا إن ما سن رسول اللّه ﷺ وصاحباه فهو وظيفة دين نأخذ به وننتهى إليه .

وروى أبو نعيم من حديث عزوب الكندى أن رسول اللّه ﷺ قال : « إنه سيحدث بعدى أشياء فاجتهدوا إلى أن تلزموا ما احدث عمر » .

وكان على رضى اللّه عنه يتبع قضاياه وأحكامه ، ويقول : إن عمر كان رشيد الأمر.

وروى الأشعث عن الشعبى قال : إذا اختلف الناس فى شىء فانظروا فيه ،كيف قضى عمر ، فإنه لم يكن يقضى عمر فى أمر لم يقض فيه قلبه حتى يشاور . وقال مجاهد : إذا اختلف الناس فى شىء فانظروا ما صنع عمر فخذوا به . وقال أيوب عن الشعبى : انظروا ما اجتمعت عليه أمة محمد ﷺ ، فإن اللّه لم يكن يجمعها على ضلالة ، فإذا اختلفت فانظروا ما صنع عمر بن الخطاب فخذوا به .

وسئل عكرمة عن أم الولد فقال : تعتق بموت سيدها ، قيل له : بأى شىء تقول؟ قال: بالقرآن ، قيل : بأى القرآن ؟ قال : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء : ٥٩] ، وعمر رضى اللّه عنه من أولى الأمر، وقال وكيع : إذا اجتمع عمر وعلىّ على شىء فهو الأمر .

وروى عن ابن مسعود رضى اللّه عنه : أنه كان يحلف أن الصراط المستقيم هو الذى ثبت عليه عمر رضى اللّه عنه .

وبكل حال فما جمع عمر عليه الصحابة ؛ فاجتمعوا عليه فى عصره ، فلا شك أنه الحق ، ولو خالفه من بعد ذلك من خالفه ، كقضائه فى مسائل من الفرائض كالعوْل ، وفى زوج وأبوين ، وزوجة وأبوين أن للأم ثلث الباقى .

وكقضائه فى من جامع فى إحرامه أنه يمضى فى نسكه وعليه القضاء والهدى ، ومثل ما قضى به فى امرأة المفقود ، ووافقه غيره من الخلفاء أيضا ، ومثل ما جمع عليه الناس فى الطلاق الثلاث ، وفى تحريم متعة النساء ، ومثل ما فعله من وضع الديوان ووضع الخراج على أرض العنوة ، وعقد الذمة لأهل الذمة بالشروط التى شرطها عليهم ونحو ذلك .

ويشهد لصحته ما جمع عليه عمر أصحابه ، فاجتمعوا عليه ـ رضى اللّه عنهم ـ ولم يخالف فى وقته قول النبى ﷺ : « رأيتنى فى المنام أنزع على قليب ، فجاء أبو بكر فنزع ذنوبا أو ذنوبين ، وفى نزعه ضعف واللّه يغفر له ، ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غربا فلم أر أحدا يفرى فريه ، حتى روى الناس وضربوا بطعن » ،وفى رواية : « فلم أر عبقريا من الناس ينزع نزع ابن الخطاب » ، وفى رواية أخرى :« حتى تولى الحوض يتفجّر » .

وهنا إشارة إلى أن عمر لم يمت حتى وضع الأمور فى مواضعها واستقامت الأمور؛ وذلك لطول مدته وتفرغه للحوادث ، واهتمامه بها بخلاف مدة أبى بكر ؛ فإنها كانت قصيرة ، وكان مشغولا فيها بالفتوح ، وبعث البعوث للقتال ، فلم يتفرغ لكثير من الحوادث ، وربما كان يقع فى زمانه ما لا يبلغه ولا يرفع إليه حتى رفعت تلك الحوادث إلى عمر ، فردّ الناس فيها إلى الحق وحملهم على الصواب رضى اللّه عنه وعن أبى بكر ، وعن الصحابة أجمعين . . .) (١) .

---

(١) نقلا عن كتاب جامع العلوم والحكم ، لزين الدين البغدادى ، ص ٢٥٠ ، ٢٥١ .

٤ ــ البدعة حقيقتها وأقسامها :

البدعة ما أحدث مما لا أصل له فى الشرع يدل عليه ، وأما ما كان له أصل من الشرع يدل عليه فليس ببدعة شرعا ، وإن كان بدعة لغة . قال ابن العربى : ليست البدعة والمحدث مذمومين للفظ بدعة ومحدث ولا معناهما ، وإنما يذم من البدعة ما يخالف السنة ويذم من المحدثات ما دعا إلى ضلالة . ا . هـ .

وليس فى البدع (١)التى لا أصل لها فى الشريعة الإسلامية ما يستحسن أو يُحمد كما قد يظنه البعض أو تلتبس عليهم أقوال السلف ــ رضوان اللّه عليهم ــ فى تفريعاتهم وتعريفاتهم للبدعة . حيث يقسمونها إلى حسنة وسيئة ، أو إلى بدعة ضلالة، وبدعة هدى ، والمراد هنا بالبدعة الحسنة : المعنى اللغوى للبدعة .

وهاك أحاديث وأقوال العلماء التى تدل على هذا :

منها ما رواه مسلم فى صحيحه من حديث جرير بن عبد اللّه البجلى رضى اللّه عنه أنه قال: قال رسول اللّه ﷺ «من سن فى الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها ،من غير أن ينقص من أجورهم شىء ، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شىء » .

وأخرج البخارى فى صحيحه ، عن رفاعة بن رافع الزرقانى قال : كنّا يوما نصلى وراء النبى ﷺ فلما رفع رأسه من الركعة قال : « سمع اللّه لمن حمده » قال رجل وراءه : ربنا ولك الحمد ، حمدا كثيرًا طيبا مباركًا فيه ، فلما انصرف قال : « من المتكلم ؟ » قال : أنا، قال : « رأيت بضعة وثلاثين ملكًا يبتدرونها أيهم يكتبها أوّلا».
قال ابن حجر فى (الفتح) فى شرح هذا الحديث : واستدل به على جواز إحداث ذكر فى الصلاة غير مأثور إذا كان غير مخالف للمأثور . ا . هـ .

وقال النووى فى كتاب (تهذيب الأسماء واللغات) ما نصّه:البدعة ــ بكسر الباء ــ فى الشرع : هى إحداث ما لم يكن فى عهد رسول اللّه ﷺ ، وهى منقسمة إلى حسنة وقبيحة .

قال الإمام الشيخ المجمع على إمامته وجلالته وتمكنه فى أنواع العلوم وبراعته أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام ــ رحمه اللّه ورضى عنه ــ فى آخر كتاب (القواعد): البدعة منقسمة إلى واجبة ومحرمة ومندوبة ومكروهة ومباحة . قال : والطريق فى ذلك ، أن تعرض البدعة على قواعد الشريعة ، فإن دخلت فى قواعد الإيجاب فهى

(١)بالمعنى الاصطلاحى لا اللغوى طبعا .

واجبة أو فى قواعد التحريم فمحرمة، أو الندب فمندوبة ، أو المكروه فمكروهة ، أو المباح فمباحه . ا . هـ . كلام النووى .

وقال ابن عابدين فى (ردّ المختار)[١] ما نصه : فقد تكون البدعة واجبة كنصب الأدلة للرّد على أهل الفرق الضالة ، وتعلم النحو المفهم للكتاب والسنة ، ومندوبة كإحداث نحو رباط ومدرسة ، وكل إحسان لم يكن فى الصّدر الأول ، ومكروهة كزخرفة المساجد، ومباحة كالتوسع بلذيذ المآكل والمشارب والثياب . ا .هـ .

وروى الحافظ أبو نعيم بإسناد عن إبراهيم بن الجنيد قال : سمعت الشافعى يقول: البدعة بدعتان : بدعة محمودة ، وبدعة مذمومة ، فما وافق السنة فهو محمود ، وما خالف السنة فهو مذموم .

الفقهية :

« فأوصنا . . . . قال : أوصيكم بتقوى اللّه » .

أولا : الوصية :

تعريفها فى اللغة : الإيصال .

وفى الاصطلاح الشرعى : تبرع بحق مضاف إلى ما بعد الموت ، أو هى : العهد بالنظر فى شيء ، أو التبرع بالمال بعد الوفاة ، وبالتالى فهى نوعان : مادية، ومعنوية.

سند مشروعيتها : كانت الوصية واجبة للوالدين والأقربين فى صدْر الإسلام ، ثم نسخ حكمها ، وبقى ندبها غالبا ، أمّا من عليه حق من الحقوق فهى واجبة عليه .

وورد فى مشروعيتها ما يلى : قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ** ﴾ [المائدة : ١٠٦] ، وقال عز من قائل : ﴿ **مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ** ﴾ [النساء : ١١] .

وفى الوصية المعنوية روى ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ عن النبى ﷺ قال: «ما حق امرئ مسلم له شيء يريد أن يوصى فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده»[٢] .

أما الوصية لبعض الأبناء دون الآخرين بحيث تحرم الإناث من الميراث، فقد حرّمها الإسلام، بل وعدّها من الكبائر، عن أبى هريرة رضى اللّه عنه عن النبى ﷺ قال: «إن الرجل ليعمل أو المرأة بطاعة اللّه تعالى ستين سنة،ثم يحضرهما الموت فيضاران فى

(١) رد المختار على الدر المختار ١ / ٣٧٦ .

(٢) رواه البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى .

الوصية فتجب لهما النار » ، وقرأ أبو هريرة : ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ ﴾ [النساء : ١٢] (١) .

والوصية فى الثلث لغير الوارث ، وأما الوارث فلا تجوز له إلا إذا أجازها الورثة ، عن أبى أمامة رضى اللّه عنه قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول فى خطبته عام حجة الوداع : « إن اللّه قد أعطى لكل ذى حق حقه فلا وصية لوارث » (٢) .

ثانيا : لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق :

أوجب الإسلام طاعة ولاة الأمور المسلمين ، وجعلها فى المرتبة الثالثة بعد طاعة الخالق سبحانه وتعالى ، وطاعة رسوله عليه السلام ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء : ٥٩] .

وحتى إن الرسول الكريم ﷺ جعل طاعة الأمير من طاعته ، وعصيانه من معصيته. عن أبى هريرة رضى اللّه عنه عن النبى ﷺ قال : « من أطاعنى فقد أطاع اللّه، ومن عصانى فقد عصى اللّه ، ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى ، ومن عصى أميرى فقد عصانى » (٣) .

والطاعة الواجبة للأمراء مقيّدة بقيود ثلاثة :

١ ـ أن يكون هذا الأمير من جملة المسلمين ، لا من غيرهم ، والمتفهم للآية السابقة يطمئن لما نقول ﴿ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ .

٢ ـ وتجب طاعته ما لم يأمر بمعصية ، ففى المسند عن أنس أن معاذ بن جبل ـ رضى اللّه عنهما ـ قال : يا رسول اللّه ، أرأيت إن كان علينا أمراء لا يستنون بسنتك، ولا يأخذون بأمرك فما تأمر فى أمرهم ؟ فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم : «لا طاعة لمن لم يطع اللّه ـ عز وجل ».

٣ ـ كما يحرم الخروج على الإمام ما دام آتيا بأركان الإسلام ، حاكما بما أنزل اللّه، حتى وإن حدث فسقه. أقول: حدث لأن بيعة الفاسق لا تنعقد، وللّه درّ ـ المكرم وجهه ـ ابن أبى طالب حيث قال : أمير غشوم خير من فتنة تدوم. عن عوف بن مالك رضى اللّه عنه عن النبى ﷺ قال: «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، ويصلون عليكم وتصلون عليهم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم » قيل : يا رسول اللّه ، أفلا ننابذهم بالسيف ؟ فقال :« لا

---

(١) رواه أبو داود والترمذى بسند صحيح .

(٢) رواه الترمذى .

(٣) رواه البخارى ، ومسلم ، والنسائى .

ما أقاموا فيكم الصلاة ، وإذا رأيتم من ولاتكم شيئا تكرهونه فاكرهوا عمله ، ولا تنزعوا يدا من طاعة » (١) .

ثالثا : السنة فى مصطلح الفقهاء :

السنة فى اصطلاح الفقهاء: هى ما صدر عن النبى ﷺ من فعل أو قول أو تقرير.

ولم يرد فى تعريفهم ذكر صفات النبى ﷺ الخلقية ؛ لأن ذلك مردّه إلى شغف المسلمين فى نقل كل ما له علاقة بالنبى ﷺ ولا يدخل فى نطاق ما يستدل به على تشريع الأحكام .

وتارك السنة لا يثاب،بل يعاتب يوم القيامة من قبل صاحبها عليه الصلاة والسلام.

السياسية :

١ ــ إن نظام الحكم فى الإسلام يقوم أساسا على مبدأ الشورى ، وعدم الانفراد بالرأى والاعتداد بالعقل .

بدءًا من تولى الولاية، ومرورا باتخاذ القرارات، وإصدار الأحكام المعالجة للحالات المستجدة فى المجتمع .

فالحاكم لا تفرضه قوته ، ولا حسبه ونسبه ، وليس لأى أحد مهما كان أن يورث قيادة الأمة لبنيه ، أو لمن شاء من ذويه ؛ لأنه لا يملك ديمومتها لنفسه فضلا عن غيره ، فهو الحاكم فى شؤون المسلمين ما دام قائما بشريعة الله مراعيا لحدوده ؛ فإذا انحرف عن هذا المسار فللرعية أن ترى من يقودها فى نهج ربها .

والإسلام لا يضع حــدودا زمنـية لـمدة تقلد الحكم ، كما تسير عليه بعض النظم السياسية اليوم ، بل يقيدها بالاستقامة على الصراط الإلهى فحسب ، فللحاكم التقى الورع أن يبقى فى دفة الحكم ما بقى ورعه وتقواه . وعليه فنظام الحكم فى الدولة الإسلامية ليس نظاما ملكيا مستبدا ــ كما يزعم البعض ــ وإنما هو نظام الحكم عند الأكاسرة فى ذلك الزمان .

ومن ثم ، فتمليك الحكم والدولة للأبناء من قبل الآباء ليس من الإسلام فى شىء، ولعل آل أميّة يتخذون من فعل معاوية سنداً ومصدرا ، حين أخذ الناس على مبايعة ولده يزيد ، ولكن احتجاجهم بهذا مردود لأسباب :

أولا : لأن الآية صريحة فى الأمر بالشورى وأى أمر أهم من الولاية، قال تعالى:

---

(١) رواه مسلم .

﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] ، وقال: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى: ٣٨].

ثانيا : لأنه لم يعرف عن رسول اللّه ﷺ ولا عن خلفائه الراشدين أنهم أوصوا بالخلافة لأهليهم ولا حتى لغيرهم ، وهذا عمر رضى اللّه عنه يستثنى ابنه من المرشحين لها.

ثالثا : ثم إن السنة ما كانت سنة النبى أو خلفائه الراشدين ، ومعاوية رضى اللّه عنه لا يعد من هؤلاء المنصوص عليهم .

عن حذيفة رضى اللّه عنه عن النبى ﷺ قال : « تكون النبوة فيكم ماشاء اللّه أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، فتكون ما شاء اللّه أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكا عاضا فيكون ما شاء الله أن يكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكا جبرية فتكون ما شاء اللّه أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة » ثم سكت [١] .

كما أن نظام الحكم الإسلامى ليس نسخة مكررة للنظم الغربية والشرقية المختلفة ، بل هو أُنموذج فريد لا تضاهيه المناهج الديمقراطية أو غيرها .

٢ ـ « وإن تأمر عليكم عبد » . قد يكون ذكر العبد هنا على سبيل ضرب الأمثلة فحسب ؛ لأن ولاية العبْد لا تجوز ، وشبيه بهذا المثال قوله ﷺ :« من بنى مسجدا للّه ولو كمفحص قطاة » ؛ لأنه لا يتصور أن يكون المسجد كمفحص طير ، وقد يكون إطلاق صفة العبد باعتبار ما كان .

أما إذا اعتبرنا التعبيرعلى حقيقته ، فيكون إشارة منه ﷺ إلى انقلاب الأوضاع وانخرام الموازين .

الأدبية :

لقد كانت مواعظ النبى ﷺ وخطبه تتسم بالاختصار . تراها قليلة فى مبانيها ، كثيرة فى معانيها ، وبالبلاغة ، وسحر البيان ، والروعة ، والرقة ، والعذوبة .

ولا غرو فى ذلك، فهو ﷺ إمام الفصحاء بلا منازع، وسيد البلغاء أوتى جوامع الكلم ونوابغ الحكم ، وهو المأمور بقوله تعالى : ﴿ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾ [النساء : ٦٣]؛لهذا كانت تهتز القلوب لموعظته،وتذرف الأعين ،وتقشعر الجلود.

---

(١) رواه الإمام أحمد .

فقه الدعوة

إن الدعوة فى سبيل اللّه ليست عواطف جياشة متحمّسة وحدها ، فكثيرا ما تقود أصحابها إلى المهالك ، ولكنها لسان بليغ ، وعقل ناضج ، وحكمة بالغة ، وحنكة ومعاناة، وخلق ، وعلم نافع ، وتخطيط محكم ، ولا معنى للدعوة ولا تأثير للداعية، إن لم تقم على تلك الدعائم الأساسية المتكاملة بحيث لو تفرقت تلك الدعائم بطل مفعولها ، وأضحى صاحبها كالذى يحز فى غير مفصل ، لذا قال تعالى لسيد الدعاة :

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

ومن الحكمة مراعاة نفسيات المستمعين ، وتخير الأوقات المناسبة لهم ، واهتبال الفرص السانحة ، جاء فى الصحيحين عن أبى وائل قال : كان عبد اللّه بن مسعود يذكرنا كل يوم خميس ، فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن ، إنا نحب حديثك ونشتهيه ولوددنا أنّك تحدثنا كل يوم ، فقال : ما يمنعنى أن أحدثكم كل يوم إلا كراهة أن أملكم. إن رسول اللّه ﷺ كان يتخولنا . كما خرج الإمام أحمد وأبو داود من حديث الحاكم بن حزم رضى اللّه عنه قال : شهدت مع رسول ﷺ الجمعة فقام متوكئا على عصا أو قوس ، فحمد اللّه وأثنى عليه كلمات خفيفات طيبات مباركات .

تطبيق

أولا : يزعم بعض أدعياء الدعوة أن الإسهاب فى الموعظة حكمة من حكم الدعوة إلى سبيل اللّه ؛ لذا تجدهم يخوضون فى الموضوع ولا يريدون تركه حتى تمله الأسماع، وتسأم منه النفوس ، وتتبرم منه الأفئدة .

وربما تخلص السّامعون من ركاكة محدثهم بالتثاؤب والخلود إلى النوم أو بالتيهان فى عالم الخيال ، ومع كل هذا يسترسل الخطباء فى خطبهم غير عابئين بنفسيات من يخطبون فيهم ؛لأنهم يعجبون بما يقولون ، هذا هو المقياس عندهم ، ولكن انظر معى إلى رسول اللّه ﷺ وهو يحدث صحابته عقب صلاة الصبح ، فعن أبى أمامة قال : أمر رسول اللّه ﷺ أصحابه حين صلوا العشاء :«أن احشدوا فإن لى إليكم حاجة»، فلما فرغوا من صلاة الصبح قال : «هل حشدتم (١) كما أمرتكم ؟ » قالوا : نعم . قال: « اعبدوا اللّه ولا تشركوا به شيئا ، هل عقلتم هذه ؟ » ثلاثا ــ قلنا : نعم ، قال: « أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، هل عقلتم هذا ؟ » ثلاثا ، قلنا : نعم ، قال : «اسمعوا

---

(١) حشد يحشد : جمع ، أو القوم دعوا فأجابوا مسرعين .

وأطيعوا هل عقلتم هذا ؟ » ثلاثا ، قلنا : نعم ،. قال: فكنا نرى أن رسول اللّه ﷺسيتكلم كلاما طويلا ، ثم نظرنا فى كلامه فإذا هو قد جمع لنا الأمر كله بهذين الأصلين وصىّ النبى ﷺفى حجة الوداع فى خطبته أيضا.

ثانيا :رغم تعدّد وسائل الدعوة فى سبيل اللّه وتطورها ومع كل هذا فإن المواعظ اليوم لا تتعّدى الأسماع ، وربما أعجب السامع بخطبة الخطيب ، ودرس المدرّس من جهة إجادته ، ودقة تعبيره ، وإحكام سبكه ، وسلاسة أسلوبه دون أن يحدث فى نفسه شيئا أو أن يجد عنده صدى وَمَرَدُّ هَذَا فى اعتقادى إلى أحد السببين :

أ ــ عدم اقتناع المتحدث بما يقول أو عدم تطبيقه للمبادئ التى يدعو إليها ، وفى هؤلاء يقول الحق سبحانه : ﴿ **أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾[البقرة : ٤٤] . ويعاتبهم الشاعر العربى فيقول :

ألا أيها الرجل المعلم غيره ... هلا لنفسك كان ذا التعليم

ابدأ بنفسك فانهها عن غيّها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

لاتنهْ عنْ خلق وتأتى مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

وأنّبَتْ عربية أحَدهم فقالت :

أصبحت تنهى ولا تنتهى ... متى تلحق القوم يا أكوع

ويا حجر السن متى تنقضى ... تسن الحديد ولا تقطع

ب ــ حين يغوص المذنب فى بحر الخطايا ويضل مصرّا على اجتراح السيئات يطبع اللّه على قلبه بطبع الران ، قال تعالى : ﴿ **كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ [المطففين : ١٤] ،وعندها تفقد الحواس مفعولها فلا القلب هو القلب ، ولا الأذن هى الأذن : ﴿ **لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** ﴾ [الأعراف : ١٨٩] ؛ولهذا قل تأثير هذه الجمهرة من الخطباء والوعاظ والمرشدين فى المجتمعات الإسلامية المعاصرة التى تحتشد فى صحون المساجد وبهواتها ،ثم لا تلبث أن تنطلق فى الشوارع والأزقة والمساكن لتعب من الآثام حتى الثمالة .

ثالثا : لعل فى قوله ﷺ : « وإن تأمر عليكم عبد حبشى » ما يعزز الرأى الذى ذهبنا إليه فى شرحنا للهدف السياسى المستنبط من الحديث الثانى ، أى : حديث جبريل عليه السلام.

وهو إخبار منه ﷺ عن تدهور الأوضاع السياسية والاجتماعية وانتشار الفوضى وعدم استتباب الأمن، وانخرام موازين العدل فى المجتمعات الإسلامية، حتى يتقلد العبيد مقاليد الحكم وسدة الخلافة والحكم وإذا كان ذلك كذلك فعلى العدل والمساواة السلام.

والمتتبع لتاريخنا الإسلامى يرى جليّا تلاعب الملوك بأمر البلاد وعدم تقديرهم للولاية حق قدرها ، حتى ورثوها صبيانا وغلمانا لا طاقة لهم برعاية شؤونهم الخاصة، بل هم تحت رعاية الأوصياء ، وكثيرا ما خان الأوصياء وغدروا بمن استوصوا فيه خيرا ككافور الإخشيدى الذى كان وصيّا على ابن الإخشيد ــ أبى القاسم أنوجور ــ وكان مملوكا لوالده الإخشيد ملك مصر آنذاك وفيه يقول أبو الطيب :

لا تشتر العبد إلا والعصا معه إن العبيـد لأنجـاس منـاكيد

رابعا : قوله ﷺ : « فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا » نبوءة صادقة ، وإخبار عن غيب واقع فى تاريخ أمتنا الإسلامية له ما يعضّده من شهداء الحق وعلماء الشريعة الذين يحزنهم تنكب صراط السنة، وانغماس الأمة فى مزالق الاختلافات الهامشية العقيمة فهذه شهادة عبد اللّه بن مسعود مستوحاة من الرصيد النبوى الذى يملكه ويفهمه ، ومن إرهاصات تلك الحقبة حيث قال : إنكم قد أصبحتم اليوم على الفطرة وإنكم ستحدثون ويحدث لكم ، فإذا رأيتم محدثة فعليكم بالعهد الأوّل .

ويقول مالك ــ رحمه اللّه ــ:

لم يكـن شـىء من هـذه الأهواء فى عهد النبى ﷺ وأبى بكر وعمر وعثمان ، وهو يشيـر بذلك إلى ماحدث من التفرق فى أصول الدين من أمور الخوارج (١)،

(١) الخوارج : تكونت هذه الطائفة إثر قبول الإمام على للتحكيم يوم صفين، ونادى أتباعها بـ : لا حاكم إلا اللّه؛ ولذلك يسمّون بالمحكمة ، وطلبوا من الإمام على أن يقر بالخطأ بل وبالكفر ، فأبى على رضى اللّه عنه ، وكان رأيه حازما موفقا ، فانتقلوا إلى قرية قريبة من الكوفة تسمى «حروراء» وبها سمّوا بالحرورية ، وأمروا عليهم عبد اللّه بن وهب الراسبى .

قاتلهم الإمام على فى معركة النهروان وهزمهم ولكن لم يستأصل دعوتهم .

والخوارج يقولون بصحة خلافة أبى بكر وعمر وعثمان فى سنينه الأولى ، ويطعنون فى أصحاب الجَمَل: طلحة، والزبير ، وعائشة . ويكفرون كلا من على ــ كرم اللّه وجهه ــ وأبى موسى الأشعرى، وعمرو بن العاص . ومن آراء الخوارج التى تميزهم :

رأيهم فى الخلافة حيث يشترطون فى صحة الخلافة أن تكون باختيار حر من جماهير المسلمين ، ولا يصح له ــ أى للخليفة ــ أن يتنازل أو يحكم بعد الاختيار، وليس ضروريا أن يكون قرشيّا، بل يجوز أن يكون من غيرهم ولو كان عبدا حبشيّا .

كما يرى الخوارج أن العمل بأوامر الدين ــ من صلاة ، وصيام ، وصدقة ــ جزء من الإيمان ، فمرتكب الكبيرة عندهم كافر ومخلد فى النار .

والشيعة (١) ، والمرجئة (٢) ونحوهم .

وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، بل شتت الجدل فى الهنات والهينات هذه الفرق، وأصبحت هذه الفروع أصولا لتشرذم خطير حتى بلغت الخوارج إلى نحو العشرين فرقة أشهرها وأكثرها تداولا :

أ ــ **الأزارقة** : وهم أتباع نافع بن الأزرق ، وقد حكم بكفر كل ما عداهم من المسلمين ، وحرم التزاوج بين طائفته وما عداهم ، وكذا التوارث وأكل الذبائح .

ب ــ **النجدات** : أتباع نجدة بن عامر ، ومما امتاز به تعظيمه لجريمة الكذب على الزنا وشرب الخمر .

جـ ــ **الإباضية** : ورئيسهم عبد اللّه بن إباض التميمى ، ولا زال أتباعه بالجنوب الجزائرى ــ غرداية ، وهم أكثر مسالمة واتزانا من غيرهم ، وجوز التعامل مع غيرهم .

---

(١) الشيعة : تعد خلافة أبى بكر هى البذور الأولى لتبلور فكرة التشيع ،حيث يرى أصحابها أن الإمام عليا أولى بالخلافة من الشيْخين لما يدّعوه من الوصية، ويلقبون عليا بالوصى،أى:الذى أوصى له النبى ﷺ بالخلافة من بعده ، ومما تميزوا به :

أن الخلافة أو ما يعبرون عنها بالإمامة ليست من مصالح المسلمين العامة التى تفوض إلى نظر الأمة بل هى ركن من أركان الدين ، وقاعدة من قواعد الإسلام . ويقولون بناء على ما سبق بعصمة الأئمة عن الزلل والخطأ، ويستشهدون بقول الحق سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب :٣٣] .

كما يعتقدون أفضلية الإمام على على سائر الخلق بعد رسول اللّه ﷺ ، ولم يكتف بعض الغلاة منهم بذلك بل وصل بهم الحد إلى تأليهه فيقول أحدهم : حلّ فى على جزء إلهى ، واتحد بجسده فيه ، وبه كان يعلم الغيب ، إذ أخبر عن الملاحم وصح الخبر، وبه كان يحارب الكفار، وله النصْر والظفر ، وبه قلع باب خيبر، وعن هذا قال : واللّه ما قلعت باب خيبر بقوة جسدانية ولا بحركة غذائية ، ولكن قلعته بقوة ملكوتية : قالوا: يظهر على فى بعض الأزمان . . والرعد صوته ، والبرق تبسمه . . . انتهى من كتاب الملل والنحل : للشهرستانى ١ / ٣٠٤ .

ويقولون بالتقية ، أى: التظاهر بالكفر أو بأى عقيدة أو عمل لا يعتقد المستظهر به صحته إنما يفعل ذلك مدارة وحفاظا على نفسه أو عرضه أو ماله .

(٢) المرجئة: وكلمة أرجأ بمعنى أمهل وأخّر، والمرجئة: حزب سياسى محايد فى منشأ تكوينه ، وتعود بذوره إلى التطاحن الذى نشب بين الفرق المختلفة إثر مقتل عثمان رضى اللّه عنه ، هذه تكفر تلك وهاته تفسق الثانية، فجاءت المرجئة تسالم الجميع، ولا تكفر طائفة أو تنحاز لها دون البقية الأخرى، ثم بدأت تبحث فى الأمور اللاهوتية فى تحديد (الإيمان) و (الكفر) و (المؤمن) و(الكافر) فالإيمان عندهم هو: المعرفة باللّه وبرسله، والأعمال ليست جزءا من حقيقة الإيمان ولا يدخل فيه الإيمان بالإمامة، ووصل الأمر بهم إلى أن قالوا: إن الإيمان : الاعتقاد بالقلب وإن أعلن صاحبه الكفر بلسانه، وعبد الأوثان أو لزم اليهودية والنصرانية فى دار الإسلام. وعبد الصليب وأعلن التثليث فى دار الإسلام ومات على ذلك فهو مؤمن كامل الإيمان عند اللّه ــ عز وجل ــ وجعله اللّه ــ عز وجل ــ من أهل الجنة. ا.هـ .ابن حزم ٤/ ٣٠.

د ــ **الصفرية** : وهم تبع لزياد بن الأصفر ، ولا يختلفون عن الأزارقة فى كثير من تعاملهم.

وبلغت الشيعة إلى نحو ثلاثين ، ورفعها بعضهم إلى السبعين .

ويرجع سبب انقسامهم على أنفسهم إلى اختلافهم فى تحديد الأئمة من ذرية على ــ رضى اللّه عنهم ــ من جهة ، وكذا اختلاف حدة الغّلو فيما بينهم ، فمنهم المتوسط فى حب الأئمة المعتدل ، ومنهم المقدس المفرط فى تقديسه ، ومن أهم فرقهم :

أ ــ **الزيدية** : وهم أتباع زيد بن الحسن بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب، وهم أقرب فرق الشيعة إلى أهل السنة لقولهم بجواز إمامة المفضول مع وجود الفاضل، وعدم اعتقادهم فى نصيّة الإمامة أو عصمة الإمام .

ب ــ **الإسماعيلية** .

جـ ــ **الإمامية** .

د ــ **الراوندية** .

ولا زالت عواصف التفرق تضرب جمع هذه الأمة ، ولا زال السلاح القوّى الذى يعّول عليه أعداؤها إلى اليوم ، هو معول الهدم والتشرذم ، فتلد المعارك والمواقف طوائف جديدة تزيد من حدة هذا النزيف الذى أضعف كيان الأمة، وأفقدها هيبتها وزحزحها عن القيادة والريادة ، وتركها تتآكل داخليا .

إن أمتنا تعانى تآكلا ذاتيا من جراء انقسامها الدائم على نفسها وصدق ربنا إذ يقول:﴿ **وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُم** ﴾ [الأنفال : ٤٦] . **ألا فهل من صحوة يا أهل الصحوة ؟ !**

خامسا : ومن المفارقات العجيبة فى حيــاة الأمـة الإسلامية هذا الموقف الرافض لكل ما جـاء عن الخلفاء الراشدين ، أو عن بعضهم جملة وتفصيلا الذى تقفُه بعض الطوائف الإسلامية ، ويتبناه البعض من الأعلام .

ــ روى الكافى أن الباقر سئل عن المتعة . فقال : أحلها اللّه فى كتابه وسنة نبيه نزلت فى القرآن :﴿ **فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ** ﴾ [النساء : ٢٤] فهى حلال إلى يوم القيامة ، فقيل له : يا أبا جعفر : مثلك يقول هذا وقد حرّمها عمر ؟ ! فقال: وإن كان فعل ، فقيل : إنا نعيذك باللّه أن تحلّ شيئا حرّمه عمر ، فقال الباقر: أنت على قول صاحبك فأقبل عبد اللّه الليثى وقال : أيسرك أن نساءك وبناتك وأخواتك ، وبنات عمك يفعلن ذلك؟ فأعرض الباقر حين ذكر نساءه وبنات عمه .

ــ وممن قدح فى بعض الصحابة الشيعة الإمامية الذين أكثروا من لعن أبى بكر وعمر وعائشة ،واتخذوا لعنهم قربة إلى اللّه ــ عز وجل ــ ومن الأمويين من جوز لعن الإمام على ــ كرم اللّه وجه ــ بل وأمروا بذلك على المنابر نكاية فى خصومهم ــ الشيعة .

ومن العجب العجاب : أن نرى رجلا من المعاصرين وينسب إلى المحدّثين يردّ أذان عثمان رضى اللّه عنه بحُجّة أن السنة ما جاء بها النبىّ ﷺ ، لا ما أحدثه عثمان .

سادسا : « . . . . وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة » رغم كمال المنهاج الربانى ، وتماشيه مع القدرات الشخصية ، ومراعاته لكل ما يحيط بالإنسان ، وشدة وضوحه ، وعقلانيته ، ومع كل هذا فإن المصطفى عليه الصلاة والسلام يحذّرنا من أن تجرفنا تيارات البدع والضلال ، أو أن تزل أقدامنا فى متاهات الافتراء والاختلاق؛ لأن هذه الأخيرة تملك من أساليب المكر والدهاء وأضاليل الزيف والاختلاق ما تضمن به بقاءها واشتدادها فى ساحات الجهل والإيمان السطحى .

فهذه طائفة القاديانية الضّالة المضلة التى تحلّقت حول الشيطان الأفاك : ــ المرزا غلام أحمد القاديانى ــ المدّعى للنبّوة سنة ١٣١٤ هـ وظل يدعو لسخافته حتى وجد له أنصارا وتبّعا .

وذى طائفة هدّامة ثانية ألا وهى : البهائية المنتسبة لعلى محمد الشيرازى الذى أعلن سنة ١٢٦٠ م أنه(الباب) أى : الواسطة بين الشيعة الإمامية وإمامهم الثانى عشر محمد بن الحسن العسكرى المسمى بالمنتظر .

وأما عن المبتدعات فى الدين التى ألفها الناس واعتادوا عليها دون السنن التى أميتت فحدّث ولا حرج .

ولقد شملت هذه البدع وعمت وطمّت ، فهى فى الصلاة ، وفى الصيام ، وفى الحجّ، وفى الجنائز، وفى الأيمان والنذور ، وفى النكاح ، وفى الرضاع ، وفى الطلاق، وفى البيوع . . . ولا حول ولا قوّة إلا باللّه .

ولكن وللّه الحمد ، فلقد قيّض اللّه رجالا أرشـدوا الأمّة وأزاحـوا الظلمة وبينوا كل ما فى حياة الأمة من ابتداع وحملوها على الاتباع .

الحديث التاسع والعشرون

عن معاذ بن جبل رضى اللّه عنه قال : قلت : يا رسول اللّه ، أخبرنى بعمل يدخلنى الجنّة ، ويباعدنى عن النار ؟ قال : « **لقد سألت عن عظيم ، وإنه ليسير على من يسّره اللّه تعالى عليه : تعبد اللّه لا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت** » ثم قال له : « **ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنّة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار ، وصلاة الرجل فى جوف الليل** » ، ثم تلا : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع**﴾ حتّى بلغ : ﴿ **يعملون** ﴾ . ثم قال : «**ألا أخبرك برأس الأمر وعموده ، وذروة سنامه ؟** » قلت : بلى يا رسول اللّه ! قال : «**رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد** » ، ثم قال : « **ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟** » قلت : بلى يا رسول اللّه ! فأخذ بلسانه ثم قال : « **كفّ عليك هذا** ». قلت : يا نبىّ اللّه ، وإنا لمؤاخذون بما نتكلّم به ؟ فقال : « **ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكبّ الناس فى النار على وجوههم** » ، أو قال : « **على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم** » رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

تخريج الحديث :

هذا الحديث خرجه الإمام أحمد ، والترمذىّ ، والنسائى ، وابن ماجه من رواية معمر ، عن عاصم بن أبى النجود، عن أبى وائل، عن معاذ بن جبل رضى اللّه عنه ، وقال الترمذى : حسن صحيح .

ترجمة الراوى :

لقد سبق التعريف بالصحابىّ الجليل معاذ بن جبل فى الحديث الثامن عشر من هذه

أخبرنى بعمل . العمل هنا يشمل عمل القلب واللسان والجوارح .
يدخلنى الجنة : أى يكون سببا فى دخولى الجنّة .
لقد سألت عن عظيم : أى سألت عن عمل عظيم.
أبواب الخير : يطلق الخير على المال الكثير ، والمراد : الأجر العظيم ، وهو الجنة .
الصوم : أحد أبواب الخير .
جنة : بضم الجيم : أى ستر و وقاية من كل شرّ؛ شر المعاصى ، وشر الشهوات ، وشرّ عذاب النار .
الصدقة تطفئ : أى تذهب بشرها سريعا . والمراد بالخطيئة : الصغيرة . =

السلسلة، ولا بأس بذكر بعض مناقبه رضى اللّه عنه، فهو أحد أكابر صحابة رسول اللّه ﷺ وصلحائهم ، وبعثه رسول اللّه عليه السلام إلى اليمن بعد غزوة تبوك وشيعه راجلا .

ومما يدل على شفافية قلبه وعمق إيمانه، ما رواه أنس بن مالك رضى اللّه عنه أنّ معاذاً دخل على رسول اللّه ﷺ فقال : « كيف أصبحت ؟» قال : أصبحت باللّه مؤمنا، قال : «إن لكل قول مصداقا ، ولكل حق حقيقة فما مصداق تقول ؟ » قال : يا رسول اللّه ،ما أصبحت صباحا قط إلا ظننت أنى لا أمسى ،وما أمسيت مساء قط إلا ظننت أنّى لا أصبح ، ولا خطوت خطوة إلا ظننت أنى لا أتبعها أخرى ، وكأنى أنظر إلى كل أمّة جاثية ،كل أمّة تدعى إلى كتابها ومعها نبيّها و أوثانها التى كانت تعبد من دون اللّه ، وكأنّى أنظر إلى عقوبة أهل النار، وثواب أهل الجنة ، قال : «عرفت فالزم»، وكان ــ رحمه اللّه ورضى عنه ــ عالما بالحلال والحرام .عن أبى مسلم الخولانى قال : أتيت دمشق ، فإذا حلق فيها كهول من أصحاب محمد ﷺ وإذا فيهم شابّ أكحل العينين برّاق الثنايا ،كلما اختلفوا فى شىء ردّوه إليه . قال : فقلت لجليس لى : مَنْ هذا ؟ قال : هذا معاذ بن جبل .

روى له عن رسول اللّه ﷺ مائة حديث وسبعة وخمسون حديثا ، اتفق البخارى ومسلم منها على حديثين ، وانفرد البخارى بثلاثة ، ومسلم بحديث .

توفى ــ رحمه اللّه ــ سنة ١٨هـ وهو ابن ثمان وثلاثين ، وقيل : ثلاث وثلاثين بطاعون عمواس ، ودفن بمشارق (غوربيسان) .

ومن أراد المزيد فليطلبه فى أمهات التراجم ، ففيها ما يروى الغليل .

= **رأس الأمر** : العمل المسؤول عنه ، ورأس الأمر: الإسلام ؛لأنه لاحياة للأعمال الشرعية بغيره .
وعموده : أى ما يعتمد عليه ويرتفع به .
ذروة سنامه :ذروة الشيء : أعلاه ، والسنام فى الأصل : ما ارتفع من ظهر البعير .
بملاك الأمر :ملاك الشيء :ما به قوامه وإحكامه .
فأخذ : النبى .
بلسانه : بلسان نفسه .
كف عليك هذا : أى عنك شر هذا ، فتقول به خيرا أو تسكت .
وإنا لمؤاخذون : الكلام على الاستفهام ، والمقصود منه التثبت .
ثكلتك أمك : فقدتك ، أصله دعاء على المخاطب به ، ثم غلب استعماله للتنبيه على الشيء من غير قصد الدعاء .
وهل يكب الناس : الاستفهام إنكارى بمعنى النّفى ، أى : لايكب الناس ويلقهم فى النار دون مبالاة إلا .
حصائد : جمع حصيدة بمعنى محصودة ، فكأن اللسان آلة حصاد .

سبب ورود الحديث :

فى الطريق إلى تبوك كان الطريق شاقا وطويلا ، والسير مضنيا ، والحر يلفح الوجوه، والجيش الإسلامى يتلقّى كل هذه الصّعاب ويذلّلها ، ومع ذلك فلم يثن هذا الموقف عزيمة الصحابى الجليل الحريص على تفهّم حقيقة الإسلام ـ معاذ بن جبل ـ ولم ينسه أبدا الأمل الذى طالما راوده ، والذى دفعه إلى الخروج ، وهو الدخول إلى جنّات الفردوس ، وها هو يتحيّن الفرص ليهتبلها ، فما إن كان على مقربة من رسول اللّه ﷺ حتى بادره بهذا السؤال البليغ .

ولعل صدر الحديث يشهد بهذا السبب الذى ذكرت ، حيث قال : بينما نحن نخرج مع رسول اللّه ﷺ فى غزوة تبوك وقد أصابنا الحر وتفرق القوم ، فإذا رسول اللّه ﷺ أقربهم منّى ، فدنوت منه ، وقلت : يا رسول اللّه أخبرنى بعمل .

وصيغة سؤاله تدل على شيئين :

أ ـ تلَهُّفه لمعرفة أصول الدين التى بها يكون من أصحاب الجنّة المقرّبين ، ورواية الإمام أحمد لهذا الحديث ـ عن معاذ ـ تترجم ذلك : يا رسول اللّه ، إنّى أريد أن أسألك عن كلمة قد أمرضتنى ، وأسقمتنى ، وأحرقتنى .

ب ـ تنمّ عن فصاحته ، ودقّة تعبيره ، وبراعة إيجازه .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

علم السلوك :

إنّ ما يحكم أعمال الخير كلها فيجعلها فى غاية الكمال هو ضبط اللّسان وكفه ، وهذا جهاد فى حدّ ذاته ؛ لأن الإنسان بلسانه يرفع إلى علّيّين أو يهوى إلى أسفل سافلين. ففى الصحيحين عن أبى هريرة رضى اللّه عنه عن النبى ﷺ قال : « إن الرجُل ليتكلم بالكلمة ما يتبيّن فيها يزلّ بها فى النار أبعد مّما بين المشرق والمغرب » .

وللّه درّ العارفين باللّه من أئمتنا الأعلام من السلف الصالح الذين دأبوا على مجاهدة النفس وتنزيه اللّسان من سقط القول واللغو فيما لا طائل من ورائه .

روى مالك عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر دخل على أبى بكر ـ رضى اللّه عنهما ـ وهو يجبذ لسانه ، فقال عمر : مه غفر اللّه لك ، فقال أبو بكر : هذا الذى أوردنى الموارد .

وقال ابن بريدة : رأيت ابن عباس ـ رضى اللّه عنهما ـ أخذ بلسانه وهو يقول : ويحك قل خيرا تغنم ، أو اسكت عن سوء تسلم ، وإلا فاعلم أنك ستندم . قال:

فقيل له : يابن عباس لم تقول هذا ؟ قال : إنه بلغنى أن الإنسان أراه، قال : ليس على شىء من جسده أشد حنقا أو غيظا يوم القيامة منه على لسانه ، إلا من قال به خيرا، أو أملى به خيرا .

وكان ابن مسعود رضى اللّه عنه يحلف باللّه الذى لا إله إلا هو ما على الأرض شىء أحوج إلى طول سجن من لسانى . وقال الحسن : اللسان أمير البدن ، فإذا جنى على الأعضاء شيئا جنت وإذا عفّ عفت . وقال يونس بن عبيد : ما رأيت أحدا لسانه منه على بال إلا رأيت ذلك صالحا فى سائر عمله .

وقال يحيى بن أبى كثير : ما صلح منطق رجل إلا عرفت ذلك فى سائر عمله، ولا فسد منطق رجل قط إلا عرفت ذلك فى سائر عمله .

وقال ابن المبارك عن فضالة عن يونس بن عبيد ــ رحمهم اللّه ــ :

لا تجد شيئا من البر واحدا يتبعه البرّ كله غير اللسان ، فإنك تجد الرجل يصوم النهار ويفطر عن الحرام ، ويقوم الليل ويشهد الزور بالنهار ، وذكر أشياء نحو هذا ، ولكن لاتجده لا يتكلم إلا بحق فيخالف ذلك عمله أبدا .

العقائدية :

مما لا يمارى فيه إلا معاند أن اللّه ــ سبحانه وتعالى ــ رتب دخول الجنة على أعمال البرّ المبينة فى الشريعة الإسلامية كما أن لأهل الجنة والنار مواصفات وصفات محددة .

فصفات أهل الجنة لا تقرّب أصحابها من النار ، بل تباعدهم عنها وتدنيهم إلى الجنة وكذلك العكس .

ولقد ورد فى الصحيحين عن أبى هريرة ما يدل بوضوح أن دخول الجنة ليس لمحض الصدف والاعتباط . وفيه : أنّ أعرابيا قال : يا رسول اللّه ، دلنى على عمل إذا عملته دخلت الجنة ؟ قال :« تعبد اللّه لا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة المكتوبة ، وتؤدى الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان » قال : والذى بعثك بالحق لا أزيد على هذا شيئا أبداً ، ولا أنقص منه ، فلما ولى ، قال النبى ﷺ : « من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا » .

وهذا أبو أمامة رضى اللّه عنه يقول : سمعت رسول اللّه ﷺ يخطب فى حجة الوداع يقول : « أيها الناس ، اتقوا اللّه ، وصلوا خمسكم ، وصوموا شهركم ، وأدوا زكاة أموالكم ، وأطيعوا ذا أمركم تدخلوا جنة ربكم ».

كل ما ذكر مصداقا لقوله تعالى: ﴿ **وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾

[الزخرف : ٧٢] ، و ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ﴾ [سبأ : ١٧] .

ولكن القارئ الكريم يرى بين ما سبق وبين قوله ﷺ : « لن يدخل أحدكم الجنة بعمله» تعارضا كبيرا إلا أنه فى حقيقة الأمر ليس بينهما أى تعارض لسببين :

أولا : لأنه لولا فضل اللّه ورحمته ما اهتدى العامل للعمل الصالح ، ولما اطمأن إليه وركن، قال تعالى: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ** ﴾ [الأعراف :٤٣] ، وقال تعالى على لسان الكليم موسى عليه السلام : ﴿ **رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي . وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي** ﴾ [طه : ٢٥ ، ٢٦] ، فالتوفيق كله بيد اللّه ، وعبارة النبى فى الحديث الذى هو موضوع البحث صريحة فى دلالتها على ذلك : « وإنه ليسير على من يسره اللّه عليه » .

قال الحق سبحانه : ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ** ﴾ [الليل : ٥ ـ ٧] . كما ورد أيضا ما يعزز الأحاديث السابقة فى قوله ﷺ : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة ، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة » ثم تلا ﷺ هذه الآية يعنى آية « الليل » .

وكان من دعاء ابن عمر ــ رضى اللّه عنهما ــ : اللهم يسرنى لليسرى، وجنبنى العسرى.

ثانيا : لأن العمل نفسه لا يستحق به أحد الجنة لذاتيته لولا أنه تعالى جعله بفضله سببا .

الفقهية :

تعرض الحديث الشريف إلى أحكام فقهية عديدة ، حيث صدر بالقواعد الأساسية للإسلام : صلاة ، زكاة ، صوم ، حج ، ثم أردفها بسننها المحببة ونوافلها المستحبة ، وليس فى الحديث تكرار كما يبدو لأول وهلة ، بل فيه تبيان لمنزلة كل من الواجب المحتم والنفل المرغب فيه ، والمتمعن فى هذه الإجابة النبوية ــ الحديث الشريف ــ يرى اختلافا فى الترتيب بين العبادات الإسلامية وهى فى مقام الوجوب ، وبينها وبين بعضها، وهى فى مرتبة الاستحباب حيث تراها فى الحكم الأول هكذا :

التوحيد أولاــ طبعا ــ ثم إقامة الصلاة ، ثم إيتاء الزكاة ، ثم صوم رمضان ، وحج البيت.

وتراها مرتبة فى التصنيف الثانى ترتيبا يغاير الأول ،حيث قدّم صَوْم النفل على

الصدقة وختم بقيام الليل ــ أى الصلوات غير المكتوبات المحدودات ــ ولا ريب أن هذا التقديم والتأخير ليس عشوائيا بمحض الصدفة ، بل إن الشارع الحكيم راعى فى الفرائض الخمس إعلان الشعائر الإسلامية فى المجتمع الإسلامى ؛ لذا فلا تضرّ المجاهرة بها وإفشاؤها عقائد الناس ، أما فى النوافل الأخرى فالهدف منها : تربية روح المراقبة فى النفس وتزكيتها وتطهيرها ، ولا يتم ذلك إلا إذا تمت فى السرّ ؛ وأول هذه النوافل : الصوم الذى هو بين العبد وربه كما ذكر الحق سبحانه فى الحديث القدسى : « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به » (١) . وثانيها : الصدقة التى يبطلها المنّ ، قال تعالى : ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ ﴾ [البقرة : ٢٦٣ ، ٢٦٤] .

وأما صلاة الليل ، ففيها قال ابن مسعود :فضل صلاة الليل على صلاة النهار كفضل صدقة السرّ على صدقة العلانية .

هذه إشارة فحسب للنظر فى سرّ الترتيب والتقديم الوارد فى الحديث النبوى الشريف ، ولا بأس بعد هذه اللفتة أن نقف عند تفصيلات الفقهاء لأحكام تلك النوافل المذكورة آنفا .

أولا : الصيام :

ما يستحب منه :

١ــ يوم عرفة لغير الحاج؛ لما جاء فى مسلم عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: «صوم يوم عرفة يكفرّ ذنوب سنتين ماضية ومستقبلة ، وصوم يوم عاشوراء يكفر سنة ماضية».

٢ ــ يوم تاسوعاء وعاشوراء ؛ فلقد صام ﷺ يوم عاشوراء وأمر بصيامه وقال: «إذا كان العام المقبل إن شاء اللّه صمنا اليوم التاسع ».

٣ ــ ستة أيام من شوال ؛ لقوله ﷺ : « من صام رمضان وأتبعه ستا من شوال كان كصيام الدهر » (٢).

ويندب فى صيامها عدم إفشائها، وفصلها عن العيد، وتفريقها عند إمامنا مالك ــ رحمه اللّه ــ عملا بقاعدة سدّ الذرائع حتّى لا يعتقد وجوبها وإلحاقها برمضان .

٤ ــ النصف الأول من شعبان ؛ لقول عائشة ــ رضى اللّه عنها ــ : ما رأيت

---

(١) رواه البخارى واللفظ له ، ومسلم .
(٢) رواه مسلم .

الرسول ﷺ استكمل شهراً قط إلا رمضان ، وما رأيته فى شهر أكثر منه صياما فى شهر شعبان(١) .

٥ ـــ العشر الأوائل من ذى الحجة ؛ لقوله ﷺ : «ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى اللّه ـــ عز وجل ـــ من هذه الأيام» ـــ يعنى العشر الأول من ذى الحجة ـــ قالوا : يا رسول اللّه ، ولا الجهاد فى سبيل اللّه ؟ قال : «ولا الجهاد فى سبيل اللّه إلا رجل خرج بنفسه وماله ، ثم لم يرجع من ذلك بشىء » (٢) .

٦ ـــ شهر المحرم ؛ لقوله ﷺ عندما سئل : أى الصيام أفضل بعد رمضان ؟ قال : «شهر اللّه الذى تدعونه المحرم » (٣) .

٧ ـــ الأيام البيض من كل شهر ، وهى الثالث عشر ، والرابع عشر ، والخامس عشر.

٨ ـــ يوم الإثنين ويوم الخميس .

٩ ـــ صيام يوم وإفطار يوم ؛ لأنه أحب الصيام إلى اللّه وهو صوم داود.

ثانيا : الصدقة :

إن التشريع الاقتصادى الإسلامى قد كفل عيش فقراء المجتمع وضمن حقوقهم بفريضة الزكاة التى عدّها حقا واجبا فى أموال الأغنياء ،حفاظا على كرامة مستحقى الزكاة وصونا لشعورهم .

فإذا ما تم ذلك ، فإن افتراض وجود الفقير المعدم فى المجتمع الإسلامى يعد ضربا من المستحيل ، وأندر من الكبريت الأحمر ، إلا أن تقلبات الدهر لا تفتأ أن تفقر الغنى، وتذل العزيز لحكم إلهية ، فما كان من الإسلام إلا أن زرع فى قلوب أهله الرحمة والحنان ، وحثهم على التصدق ، وحبّب إليهم السخاء بالأموال التى ليست ـــ فى الحقيقة ـــ لأصحابها المتصرفين فيها ، بل هى تحت الملكية العامة الملكية الرّبانية ، قال تعالى مخاطبا الأغنياء والقادرين على الإنفاق : ﴿ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[الحديد : ٧] ، ﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾[النور : ٣٣] .

آداب التصدق :

على المتصدق أن يتحلى بهذه الخصال ، ويراعى هذه الآداب ليتقبل اللّه صدقته :

أ ـــ عليه أن يتحرى المال الحلال ؛ لأن اللّه تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا .

---

(١) متفق عليه . (٢) رواه البخارى . (٣) رواه مسلم .

ب ــ وليحرص على كتمانها ؛ لأن الرياء مبطل للأعمال .

جـ ــ ومن تمام الصدقة إعطاؤها لمستحقيها من الفقراء والمعوزين .

فعالية الصدقة وأثرها :

يعود فضل الصدقة وأثرها على المجتمع الإسلامى بادئ ذى بدء ككل من وجوه، أذكر منها :

١ ــ تحقق الكفالة الاجتماعية بأبهى صورها فى المجتمع الإسلامى بفضل إعانة الأغنياء للفقراء ، والقضاء المبرم على ظواهر البؤس والجوع ، وليس هذا من قبيل الأحلام والخيال، بل مما تمليه حقائق تاريخية إبان عهود الإسلام الزاهرة .

٢ ــ تفتيت الأموال ومحاربة تكديسها وتجميدها .

أمّا ما يعود على الشخص نفسه من آثار الصدقة ، فكثير منها :

١ ــ الصدقة تمحو السيئة؛ لأنها من ضرب الحسنات، قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ** ﴾[هود : ١١٤] ،وقال أيضا : ﴿ **إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ** ﴾[البقرة : ٢٧١] .

٢ ــ ومن ثم فهى تطفئ غضب الرب .

٣ ــ كما تدفع ميتة السوء . عن أنس رضى اللّه عنه عن النبى ﷺ قال : « إن صدقة السر لتطفئ غضب الرّب وتدفع ميتة السوء » (١). وروى عن على بن الحسين ــ رضى اللّه عنهما ــ أنه كان يحمل الخبز على ظهره بالليل يتتبع به المساكين فى ظلمة الليل ويقول : إن الصدقة فى ظلام الليل تطفئ غضب الرب ــ عز وجل .

ثالثا : قيام الليل :

لقد ورد أن أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل ، ففى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى اللّه عنه ، عن النبى ﷺ قال: «أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل».

والنبى الكريم ﷺ فى هذا الحديث قد بين أفضل أوقات التهجّد بالليل وهو جوف الليل؛ فعن أبى سليم قال: قلت لأبى ذر : أى قيام الليل أفضل ؟ قال : سألت النبى ﷺ كما سألتنى فقال: «جوف الليل الغابر أو نصف الليل، وقليل فاعله» (٢).

---

(١) أخرجه الترمذى ، وابن حبان فى صحيحه .

(٢) أخرجه الإمام أحمد .

وخرج ابن أبى الدنيا ما لفظه: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: أى الصلاة أفضل؟ قال: «جوف الليل الأوسط»، قال: أى الدعاء أسمع؟ قال: «دبر المكتوبات».

وقد قيل : إن جوف الليل إذا أطلق ، فالمراد به وسطه ، وإن قيل : جوف الليل الآخر ، فالمراد به : وسط النصف الثانى ، وهو السدس الخامس من أسداس الليل .

الاجتماعية :

١ ــ القول الحسن والكلمة الطيبة هما سداد العلاقات الاجتماعية وضمان سيرها والمحافظة عليها ، والإسلام دأب فى تشريعاته على إنماء تلك اللحمة التى تربط أفراد المجتمع ، وحرم كل ما يهدم تلك العلاقات ويفصم تلك العرى من قول للزور ، وقذف، وكذب ، وغيبة ، ونميمة ، الحديث : ثم قال : « ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ » قلت: بلى يا رسول اللّه ، فأخذ بلسانه وقال : « كفّ عليك هذا » .

٢ ــ إن المؤمن فى مجتمعه عضو فعال لا يعتريه الهمود والجمود ، وإيجابى لا تساوره السلبية إلا فى بعض فترات الضعف البشرى إلا أنه يسعى إلى تدارك الخطأ ، ويعمل على محو الخطيئة ، وتكفير الذنب وفقا لقول النبى ﷺ : « .. والصدقة تطفئ الخطيئة ».

فتكفير الذنب ليس مع اللّه فحسب ، بل هو مع المخلوقين أوكد ؛ لأن حلم الخالق وصفحه أقرب .

والإسلام فى تشريعه للكفارات المتعددة يغرس فى المؤمنين خلق تَدَارك الزلل ومحاسبة النفس ، كما يضمن بتلك الكفارات أمن الفقراء الغذائى .

البلاغية :

وردت فى الحديث ألوان بلاغية متعددة نذكر منها قوله ﷺ :

« هل يكب الناس فى النار » . الذى ورد بصيغة الاستفهام الإنكارى بمعنى النفى: « إلاحصائد ألسنتهم » شبه ما تكلم به اللسان بالزرع المحصود بآلة الحصاد ــ المنجل ــ فكما أن المنجل يقطع ولا يميز بين الرطب واليابس والجيد والردىء ، فكذلك لسان بعض الناس يتكلم بكل نوع من الكلام الحسن والقبيح ، ثم حذف المشبّه وأقام المشبه به مقامه على سبيل الاستعارة التصريحية ، وجعل الإضافة قرينة لها والاستثناء مفرغ ؛ لأن فى الاستفهام معنى النفى ، والتقدير : لا يكب الناس شىء من الأشياء إلا حصائد ألسنتهم من الكلام .

كما نلمس بلاغة النبى ﷺ فى تنويع الكلمات وإيراد المترادفات حيث قال: «ألا أدلك ؟ » ثم « ألا أخبرك ؟ » .

فقه الدعــوة

١ ــ يفتقر حديث الواعظ والمرشد إلى دعامات تسنده ، وحجج تعضده، وبراهين تكرّس مصداقيته ، ولا يكتفى الداعى أبداً بالأدلة العلمية والأمثلة الحسية ، بل لا يزال حاله يعبر عن رأيه وفكره ما لم يعززه بآية قرآنية أو نصوص سنية ، وها هو الذى لا ينطق عن الهوى يستشهد بقوله تعالى: ﴿ تَتجَافَىٰ جُنُوبُهمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾[السجدة: ١٦].

وإن أعجب فلا عجب إلا من بعض المنتسبين للدعوة المتطفلين عليها أو الممتهنين الذين يخوضون مجالات شتى ، ويطرقون ألوانا عدة من المواضيع دون أن تسمع من أفواههم آية كريمة أو سنة قويمة ، وهم مع ذلك يستشهدون بقول فلان الفيلسوف الأوربى، والمنظر الاقتصادى ،والطبيب الأخصائى ، وإن صادف مرة واستدل بآية ، فإنما على سبيل الحشو والزجّ ، فتراه فى واد وما تلاه فى واد آخر بين المعنيين تباعد أو تنافر .

فمثلا تحدث أحد الأدعياء مرة عن تحديد المواليد فاستشهد على ما قال بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾[التحريم : ٦] .

وتحدث آخر عن رؤية هـلال رمضـان فقـال : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ [البقرة : ١٨٥] .

٢ ــ قد يسىء الداعى إلى دعوته من حيث لا يقصد ، بل فى قرارة نفسه يريد نشرها وتبليغها للناس ، ولكن يقدمها بأسلوب ركيك وبعبارات مفككة وألفاظ مبتذلة، هنالك تفتتن العامة فى دينها ، وتمج آذانها سماع الدروس والمواعظ ، وحتى لا يصبح حال الصحابة كذلك ، اعتمد النبى ﷺ على أساليب التشويق ، والتنبيه ، وتحريك الهمم :« ألا أدلك .. ؟ » ،« ألا أخبرك ... ؟ » ،«وهل يكبّ » ، « ... ثكلتك أمك » ... إلخ .

تطبيق

١ ــ إن عماد الدين الصلاة ، قد هدمه الكثير من المسلمين العصاة ، تكاسلا وتقاعسا، وإذا كانت الصلاة فى المنظور الإسلامى هى الفارق بين المسلم وغيره ، فقد تلاشى هذا الفارق ومحيت آثاره بأيدى بعض المتفرنجين حتى أصبحت الكثير من الأسر الإسلامية فى بلاد الإسلام تتعارف على ترك هذه القاعدة الجليلة ولا ترى بينها راكعا ولا ساجدا .

٢ ــ لا شىء أرفع فى جسم الجمل من السنام،ولا شىء يرفع لواء هذا الدين

ويعلى كلمته ، ويجلى مذهبه أكثر من الجهاد فى سبيل الله بشقيّه المالى ، والروحى ، وهل كانت صورة الدولة الإسلامية ـ المنظمة والقوية ـ تكتمل فى أذهان الغرب والشرق والقبائل العربية المتربصة بالدين ونبيه لولا الجهاد فى سبيل الله الذى يستحى بعض دعاتنا اليوم من ذكره ؟ ! ولولا معركة الفصل والفرقان ـ بدر الكبرى ـ ما قام للدولة الإسلامية كيان ! !

وهل كانت الجزائر ـ مثلا ـ تنعم بنعمة الحرية لولا أولئك الذين باعوا أنفسهم من الله ـ عز وجل ـ ورفعوا راية الجهاد الذى تخلى عنه المسلمون اليوم ، وألهاهم عنه حب الدنيا والتنافس فيها ، هنالك استذلهم عدوهم ، الغاصب لأراضيهم ، المنتهك لحرماتهم ، المدنس لمقدساتهم .

ومن العبث أن نجنح فى هذه المرحلة إلى غير الجهاد ،إلى المؤتمرات السلمية العالمية، والمهادنات ، والمهانات ؛ لأن ذروة سنام الإسلام الجهاد .

الحديث الثلاثون

عن أبى ثعلبة الخشنى جرثوم بن ناشر رضى اللّه عنه، عن رسول اللّه ﷺ قال:

« **إن اللّه فرض فرائض فلا تـضيّعوها ، وحد حدودا فلا تعتدوها ، وحرّم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها** » حديث حسن رواه الدارقطنى وغيره .

تخريج الحديث :

(هذا الحديث من رواية مكحول عن أبى ثعلبة الخشنى وله علتان :

إحداهما : أن مكحولا لم يصح له السماع عن أبى ثعلبة ، كذلك قال أبو شهر الدمشقى وأبو نعيم الحافظ وغيرهما .

والثانية : أنه اختلف فى رفعه ووقفه على أبى ثعلبة ، ورواه بعضهم عن مكحول عن قوله لكن قال الدارقطنى : الأشبه بالصواب المرفوع .

قال : وهو أشهر ، وقد حسن الشيخ (١) ـ رحمه اللّه ـ هذا الحديث وكذلك حسنه قبله الحافظ أبو بكر السّمعانى فى أماليه ، وقد روى معنى هذا الحديث مرفوعا من وجوه أخر) (٢) .

فرض : أَوْجَبَ .

فرائض : أمور مقدّرة محدودة بأوقات معينة .

فلا تـضيعوها : لا تفرطوا فيها بالترك ، أو بالتأخير والتقصير .

حدودا : جمع حد ، وهو فى اللغة : الحاجز بين شيئين . وفى الاصطلاح: هو المقدار الذى جعله اللّه مبينا لما شرع من الأحكام ،فلا تتعدى ما بينه اللّه لنا وحده فى الطلاق والعدة والميراث ، والصوم ، والزكاة. . . إلخ. و يدخل فى عموم الحد أيضا الحدود المشروعة للزجر .

تنتهكوها : أى فلا ترْتكبوها مقتحمين لها غير مبالين بها .

سكت عن أشياء : فلم يفرضها ولم يحرمها .

رحمة لكم : أى لأجل رحمته بكم .

غير نسيان : لأحكامها : ﴿لا يـضل ربى ولا ينسـى﴾ [طه : ٥٢] .

فلا تبحثوا عنها : بالسؤال عن حكمها ، واكتفوا بما بينت لكم أحكامه فقد يكون السؤال نفسه مسببا للتشديد والتضييق ، كما هو الشأن مع بنى إسرائيل .

(١) يحيى بن شرف الدين النووى .

(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب البغدادى ص ٢٦١ .

ترجمة الراوى :

هو أبو ثعلبة الخشنى ــ جرثوم بن ناشر ــ من قبيلة خشينة ، وهى بطن من قضاعة بن مالك بن حمير ، وهو مشهور بكنيته ، كان ممن بايع تحت الشجرة ؛ وضرب له ﷺ بسهمه يوم خيبر وأرسله إلى قومه فأسلموا ، وكان يقول : إنى أرجو ألا يخنقنى اللّه كما أراكم تخنقون عند الموت ؛ وحقق الله رجاءه ، فبينما هو فى صلاته قبض وهو ساجد سنة خمس وتسعين ، ومروياته أربعون حديثا .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

العقائدية :

أ ــ من أصول العقيدة الصحيحة الإيمان بعالم الغيب جملة وتفصيلا ؛لقوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ** ﴾ [البقرة : ٣] هذا الغيب المتمثل فى جميع السمعيات كالملائكة مثلا ،والساعة وما تشمل عليه من بعث، وحشر، وصراط، وميزان، وجنة، ونار، وحوض.

ولا سبيل لنا إلى معرفة ذلك إلا بالوحى الذى يجب أن نقف عنده وليس للمسلم أن يخوض فى هذا العالم الرهيب ، ولن يصل لشىء مهما أجهد نفسه .

ولقد أهدر البعض أوقاتهم فى الحديث عن أشكال الملائكة ، ووصف كلاليب جهنم، ومأكولات ، وفرش الجنة ، . . . و . . . وقصورها ، ودورها .

ب ــ كما لا يجوز البحث فى الذات العلية ؛ لأن العقل البشرى أعجز من تصور ذلك، والبحث فى هذا المجال يبعث الحيرة والشك ثم يرتقى الشك إلى التكذيب . عن أنس رضى اللّه عنه عن النبى ﷺ قال:«قال اللّه ــ عز وجل ــ : إن أمتك لا يزالون يقولون: ما كذا؟ ما كذا؟ حتى يقولوا: هذا اللّه خلق الخلق فمن خلق اللّه؟!»(١) .

قال إسحاق بن راهويه : لا يجوز التفكير فى الخالق ويجوز للعباد أن يتفكروا فى المخلوقين بما سمعوا فيهم ، ولا يزيدون على ذلك؛ لأنهم إن فعلوا تاهوا ، قال : وقال اللّه عز وجل : ﴿ **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ** ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

ولا يجوز أن يقال : كيف تسبيح القصاع والأخونة ، والخبز المخبوز، والثياب المنسوجة وكل هذا قد صح العلم فيهم أنهم يسبحون ، فذلك إلى اللّه أن يجعل تسبيحهم كيف شاء ، وكما شاء ، وليس للناس أن يخوضوا فى ذلك إلا بما علموا ولا

(١) صحيح مسلم .

يتكلموا فى هذا وشبهه ، إلا بما أخبر اللّه ولا يزيدون على ذلك ، فاتقوا اللّه ولا تخوضوا فى هذه الأشياء المتشابهة ، فإنه يلهيكم الخوض فيه عن سنن الخلق .

الفقهية :

اعتبر القرآن الكريم جملة ما أذن فى فعله ، سواء كان عن طريق الوجوب أو الندب أو الإباحة حدود اللّه ، ومن ثم نهى عن تجاوزها وارتكاب ما نهى عنه ؛ لأنه تعد لتلك الحدود ، قال تعالى : ﴿ **وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَه** ﴾ [الطلاق : ١] .

إذًا من طلق أيام الحيض طلاقا ثلاثا ، مثلا فقد تعدى حدود اللّه . كما اعتبر القرآن من أمسك بعد أن طلق بغير معروف ، أو سرّح بغير إحسان ، أو أخذ ممّا أعطى المرأة شيئا على غير وجه الفدية التى أذن اللّه فيها متعديا لحدود اللّه : ﴿ **تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُون** ﴾ [البقرة : ٢٢٩] .

وبعد أن فصل الكتاب العزيز أحكام الوراثة، وبين من له حق الوراثة ومقدار حق كل ، عقب بقوله : ﴿ **تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَار**﴾ إلى قوله: ﴿**وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَه عَذَابٌ مُّهِين**﴾ [النساء :١٣، ١٤] .

وقد تطلق الحدود ويراد بها نفس المحارم كقوله ﷺ : « مثل القائم على حدود اللّه والمداهن فيها كمثل قوم اقتسموا سفينة » وأرادوا بالقائم على حدود اللّه : المنكر للمحرمات الناهى عنها .

وقد تسمى العقوبات المقدّرة فى الشريعة الإسلامية حدوداً كما يقال : حدّ الزنا ، وحد السرقة ، وحد شرب الخمر ، وهذا هو المعروف من أسماء الحدود فى اصطلاح الفقهاء ؛ ومنه قول النبى ﷺ لأسامة : « أتشفع فى حد من حدود اللّه ؟ ! » يعنى به قطع يد السارقة .

وقد حمل بعضهم قوله ﷺ : « وحد حدودًا فلا تعتدوها » على هذه العقوبات الزاجرة عن المحرمات ، وقال : المراد النهى عن تجاوز هذه الحدود وتعديها عن إقامتها على أهل الجرائم .

ولا بأس أن نذكر باقتضاب تلك الحدود التى بينتها الشريعة الإسلامية :

أولا: حد الخمر: فمن ثبت شربه للخمر باعترافه أو بشهادة عدلين فقد وجب عليه

الحد وهو ثمانون جلدة على ظهره ؛ لإقامة النبى ﷺ الحدّ على شاربها بالضرب فى فناء المسجد ، كما ورد فى الصحيحين .

ثانيا : حد القذف : والقذف هو الرّمى بالفاحشة ـ الزنا ـ وهو ثمانون جلدة بالسوط ؛ لقوله تعالى : ﴿ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ [النور : ٤] .

ثالثا : حد الزنا : ويختلف باختلاف حال الزانى نفسه ، فإن كان غير محصن ـ يعنى غير متزوج ـ كان حده الجلد والتغريب فيجلد مائة جلدة ويغرب عاماً عن بلده ؛ لقوله تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ [النور : ٢] .

وأما إن كان محصنا ، فحده الرجم حتى الموت ؛ لما فعله النبى ﷺ فقد رجم الغامدية، وماعزا ، ورجم اليهوديين[(١)] .

رابعا : حد اللواط : القتل ؛ لقوله ﷺ : « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به »[(٢)] .

إلا أنه اختلف فى كيفية القتل ، فمن الصحابة من أحرقهما ـ أى الفاعل والمفعول به ـ بالنار ، ومنهم من قتلهما رجما بالحجارة ، أما ابن عباس فقال فيهما : ينظر أعلى بناء فى القرية ويردى بهما منه منكسين ثم يتبعان بالحجارة .

خامسا : حد السرقة : القطع لقوله تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٨] .

سادسا : حد المحاربين : المراد بالمحاربين هنا هم قطاع الطرق لأخذ أموال المارة وأرواحهم بقوة السلاح وحدودهم مبينة فى هذه الآية الكريمة : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ﴾ [المائدة : ٣٣] . إلى آخر الحدود المقررة كحد الساحر، والمرتد ، والزنديق ، وتارك الصلاة .

فقه الدعوة

من شيمة العلماء العارفين التوقف عند دلالات النصوص الواردة،والتورع فى الفتيا، وعدم الخوض فى الأحكام التوقيفية بالرأى ؛ فهذه أمثلة تبين حذر الأئمة وصالح السلف من الدخول تحت قوله تعالى : ﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ [النحل:١١٦] فهذا الإمام أحمد رضى الله عنه يضرب

(١) أخرجاه فى الصحيحين .

(٢) رواه أبو داود ، والترمذى وغيرهما .

أروع مثل فى الورع حين يتوقف فى إطلاق لفظ الحرام لاختلاف النصوص أو اختلاف الصحابة فى شيء. ولكن هذا لا يعنى توقفه فى معنى التحريم ،سئل مرة عن النفير متى يجب؟فقال: أما إيجابه فلا أدرى،ولكن إذا خافوا على أنفسهم فعليهم أن يخرجوا.

وقال فى متعة النساء : لا أقول :هى حرام ولكن ننهى عنه، وقال فى الجمع بين الأختين بملك اليمين : لا أقول : هو حرام ولكن ننهى عنه .

قال الربيع بن خيثم : ليتق أحدكم أن يقول : أحل كذا ، وحرم كذا ، فيقول الله : كذبت لم أحل كذا ، ولم أحرم كذا.

وقال ابن وهب : سمعت مالك بن أنس يقول : أدركت علماءنا يقول أحدهم إذا سئل : أكره هذا ولا أحبه ، ولا يقول : حلال ولا حرام .

قال ابن المبارك : أخبرنا سلام بن أبى مطيع عن أبى دخيلة عن أبيه قال : كنت عند ابن عمر فقال : نهى رسول اللّه ﷺ عن الزبيب والتمر ، يعنى أن يخلطا ، فقال لى رجل من خلفى :ما قال ؟ فقلت : حرّم رسول ﷺ التمر والزبيب ، فقال عبد الله ابن عمر : كذبت، فقلت : ألم تقل : نهى رسول اللّه ﷺ عنه فهو حرام؟ فقال : أنت تشهد بذلك ؟! قال سلام : كأنه يقول : نهى النبى ﷺ فهو أدب ، فأين نحن منهم وهم العلماء الفقهاء ؟ ! وأين دعاتنا من هذا الأدب ؟ !

تطبيق

إننا نعانى من المتنطعين فى هذا العصر الذين يتعمقون فى البحث عن المسكوت عنه أكثر ممّا نعانيه من أعداء الإسلام الكائدين له؛ لأن كثرة البحث فى هذا المجال تنم عن شيئين:

أولا : ضيق الأفق والفكر المتحجر والذهن الخامد لدى ذلك المجتمع، وللّه درّ خامس الخلفاء الراشدين عمر بن العزيز حيث أرسل يوما إلى أحد ولاته أمرا ، فأرسل الوالى يستوضحه ببعض التفصيلات ، فتجهم الخليفة وكتب إليه من فوره : أما بعد : فأراك لو أرسلت إليك : أن اذبح شاة ووزع لحمها على الفقراء ، لأرسلت إلىّ تسألنى: ضأنا أم معزا ؟فإن أجبتك أرسلت إلىّ تسألنى : كبيرة أم صغيرة ؟ فإن أجبتك أرسلت تسأل: بيضاء أم سوداء ؟ ! إذا أرسلت إليك بأمر فتبين وجه الحق فيه ثم امضه.

ثانيا : أوهى وسيلة للمراوغة والتلكؤ والمماطلة شأن بنى إسرائيل مع موسى عليه السلام : ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ . قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ**

وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ . قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ . قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ . . .﴾ [البقرة : ٦٧ ــ ٧٠] .

مما سبب التشديد عليهم وهلاكهم ؛ لقوله ﷺ : « فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم » .

لقد كثر الحديث اليوم فى ماهية اللحوم المستوردة وخاض فى أحكامها كل من هبّ ودبّ ؛ لذا رأيت ذكر ما ورد فى صحيح البخارى عن عائشة ــ رضى اللّه عنها ــ أن قوما قالوا للنبى ﷺ : إن قوما يأتوننا باللحم لا ندرى أنذكر اسم اللّه عليه أم لا ؟ فقال : «سموا عليه أنتم وكلوا » قالت : وكانوا حديثى عهد بالكفر .

وروى عبد الرزاق بإسناده عن ابن مسعود رضى اللّه عنه أنه قال لمن نزل من المسلمين بفارس : إذا اشتريتم لحما فاسألوا ، فإن كان ذبيحة يهودى أو نصرانى فكلوا. وهذا لأن الغالب على أهل فارس المجوس وذبائحهم محرمة .

وحديث سلمان الفارسى فيه السؤال عن الجبن ، والسمن ، والفراء ، فإن الجبن كان يصنع بأرض المجوس ونحوهم من الكفار ، وكذلك السّمن والفراء كذلك تجلب من عندهم وذبائحهم ميتة ، وهذا مما استدل به على إباحة لبن الميتة وأنفحتها وعلى إباحة طعام المجوس ، وفى ذلك كله خلاف مشهور .

ويحمل على أنه إذا اشتبه الأمرلم يجب السؤال والبحث عنه ،كما قال ابن عمر ــ رضى اللّه عنهما ــ لما سئل عن الجبن الذى تصنعه المجوس فقال : ما وجدته فى سوق المسلمين اشتريته ولم أسأل عنه .

وذكر عند عمر الجبن وقيل : إنه يوضع فيه أنافح الميتة ، فقال : سموا اللّه وكلوا.

قال الإمام أحمد : أصح حديث فيه هذا الحديث : يعنى جبن المجوس ، وقد روى من حديث ابن عباس ــ رضى اللّه عنهما ــ أن النبى ﷺ ، أتى بجفنة فى غزوة الطائف فقال: «أين تصنع هذه ؟ » قالوا : بفارس ، فقال ﷺ : «ضعوا فيها السكين وقطعوا ، واذكروا اسم اللّه وكلوا »خرجه الإمام أحمد (١) .

وليس لنا ما نذكره بعد إيراد ما سبق غير أننى ألفت انتباه القارئ إلى خطورة الفصل فى هذه القضية الشائكة دون اللجوء إلى البحوث المفصلة فى هذا الشأن .

---

(١) ص ٢٦٩ من جامع العلوم والحكم .

الحديث الحادى والثلاثون

عن أبى العباس سهل بن سعد الساعدى رضى اللّه عنه قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول اللّه دلنى على عمل إذا عملته أحبنى اللّه وأحبّنى الناس ؟ فقال : « **ازهد فى الدنيا يحبك اللّه ، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس** » حديث حسن رواه ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنة .

ترجمة الراوى :

هو سهل بن سعد بن مالك بن خالد بن ثعلب بن حارثة بن عمرو بن الخزرج ابن ساعدة بن كعب بن الخزرج الساعدى الأنصارى الخزرجى ويكنى بأبى العباس ، ويعد هو وأبوه ــ رضى اللّه عنهما ــ من الصحابة المشهورين .

توفى النبى ﷺ وهو ابن خمس عشرة سنة ، وهو من الذين غيّر النبى ﷺ أسماءهم حيث كان اسمه ــ حزنا ــ فسمّاه النبى ﷺ : سهلا ــ والحزن ضد السهل، بلغت مروياته مائة وثمانية وثلاثون حديثا ، اتفق البخارى ومسلم منها على ثمانية وعشرين وانفرد البخارى بأحد عشر .

توفى سنة ثمان وثمانين ، وكان آخر من مات بالمدينة من الصحابة على قول ، وقيل : جابر .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

التصوف السنى :

أ ــ الزهد فى اللغة : هو الإعراض عن الشىء احتقارا له .

وفى اصطلاح المتصوّفين : هو ترك ما زاد على الحاجة من الحلال المتيقن حلّه وهو أخص من الورع؛ لأنه ترك ما اشتبه فى حله ،والورع سبب فى أصل محبة اللّه تعالى ،

دلنى : ارشدنى .
على عمل : عظيم .
أحبّنى اللّه : محبّة اللّه هى رضاه .
أحبنى الناس : فأعيش معهم عيشة راضية .
ازهد فى الدنيا : الزهد هو ترك ما زاد على الحاجة من الحلال المتيقن حله .

والزهد سبب لنيل عظيم المحبة ، والزهد فى الدنيا ليس معناه أبدا الخلود إلى الراحة والركود وإيثار الجمود والاستكانة والقعود عن العمل وطلب الرزق الحلال كما يحلو لبعض العجزة والكسالى أن يفسروه بذلك .

ولكنّ الزّاهد الحقيقى هو من أتتْه الدنيا بخيراتها، ولم تشغله عن ربّه ولم تستهوه وتستعبده ، بل ملك زمام نفسه واستصغرها فى عينه .

إذًا لا يتصوّر الزهد من الفقير المعدم الذى لا مال له ، فقد قيل لابن المبارك : يازاهد ، قال : الزاهد عمر بن عبد العزيز إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها ، أما أنا ففيم زهدت؟ !

ولهذا قال كثير من السلف : إن عمر بن عبد العزيز كان أزهد من أُوْيس ونحوه كذا قال أبو سليمان وغيره .

إذًا فالزهد فى حقيقته من أعمال القلوب لا من أعمال الجوارح ؛ ولهذا كان أبو سليمان يقول : لا تشهد لأحد بالزهد فإن الزهد فى القلب ، وعلامات الزاهد ثلاث:

أحدهما : أن يكون بما فى يد اللّه أوثق منه بما فى يد نفسه .

الثانى : أن يكون العبد إذا أصيب بمصيبة فى دنياه من ذهاب مال أو ولد أو غير ذلك أرغب فى ثواب ذلك مما ذهب منه من الدنيا أن يبقى له .

الثالث : أن يستوى عند العبد حامده وذامّه فى الحق .

ب ـــ محبة الناس تابعة لمحبة اللّه ؛ لأن محبة اللّه هى رضاه عن العبد المحبوب ، ولا يرضى اللّه على عبد إلا بطاعته وصدقه وإخلاصه واجتنابه للمنهيات والمحرمات، وهذا ما يزرع الودّ فى قلوب الناس هذه من ناحية ، ومن ناحية أخرى ،فإن القلوب بيد الرحمن يقلبها كيف شاء ، فإذا أحب عبداً ألقى محبته فى قلوب خلقه ، لقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا** ﴾ [مريم : ٩٦] ، وقوله ﷺ: «إن اللّه تعالى إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال: إنى أحبّ فلانا فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادى فى السماء فيقول : إن الله يحب فلاناً فأحبوه . . .»(١).

العقائدية :

« ازهد فى الدنيا يحبك اللّه » .

---

(١) رواه مسلم .

إن زهدك فى الدنيا معناه إيمانك الراسخ باسم من أسماء المولى ـ عز وجلّ ـ ألا وهو : الرّزاق ، ولا يكتمل إيمان المؤمن ما لم يثق بأن اللّه ضمن أرزاق مخلوقاته كلها وتكفلّ بها قال تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود : ٦] .

وقال سبحانه : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات : ٢٢] ، وقال أيضا : ﴿ فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ ﴾ [العنكبوت : ١٧] .

وللّه در أبى الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام من مؤمن بلغ إيمانه الدرجات العلا ولا غرو فى ذلك إنه كما وصفه ربّه ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ [النحل : ١٢] حيث قال الحق تعالى على لسانه : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ . وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ . وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء : ٧٨ ـ ٨٠] .

وقال الحسين : إن من ضعف يقينك أن تكون بما فى يدك أوثق منك بما فى يد اللّه عز وجل .

وعن على وابن مسعود قالا : إن أرجى ما يكون الرزق إذا قالوا :ليس فى الدنيا دقيق . وقال مسروق : إن أحسن ما أكون ظنا حين يقول الخادم : ليس فى البيت قفيز من قمح ولا درهم . وقال الإمام أحمد : أسرّ أيامى إلىّ يوم أصبح وليس عندى شيء، وقيل لأبى حازم الزّاهد : ما مالك ؟ قال : لى مالان لا أخشى معهما الفقر: الثقة باللّه، واليأس مما فى أيدى الناس . وقيل له ذات يوم : أما تخاف الفقر ؟ فقال : أنَّى أخاف الفقر ومولاى له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى.

الفقهية :

يجب الزهد فى الحرام عموما كالزهد فى الشرك والأوثان وعبادة غير الرحمن، وهذا أفضل درجات الزهد ويليه فى الأفضلية الزهد فى الحرام كله، كالزهد فى أموال الناس؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ ﴾ [البقرة:١٨٨].

وكالزهـد فى أعـراض الناس وحرماتهم وفى الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ، وكالزهد فى الغيبة والنميمة ، ويأتى فى الدرجة الثانية الزهد غير الواجب وهو الزهد فى الحلال وهى درجة المتقين العابدين .

النفسية :

سبق وأن قلنا : إنه إذا استوى عند العبد حامده وذامّه فى الحق ، فذلك من علامات الزهد فى الدنيا وقلة الرغبة فيها ؛ لأن الزاهد لا يعانى عُقدًا نفسية ولا عيوبا أخلاقية ـ أو هكذا يفترض فيه ـ لذلك فإنه لا يسعى لالتقاط مدح المادحين وإطراء

الشاكرين ليغطى عجزه ويكمل نقصه ولكن هيهات ! !

وربما أدى هذا العيب الخطير بصاحبه إلى ترك كلمة الحق أو نبذ المعروف؛ لأنه لا يجلب له مدحا، وربما سعى بنفسه إلى الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف مخالفا بذلك دينه ومعتقده، ملقيا بنفسه فى النار وبئس القرار طمعا فى ثناء أهل المنكر عليه ، وجلبا لرضاهم مهما كلفه ذلك غير مبال بسخط اللّه وغضبه ، عن جابر بن عبد اللّه رضى اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ: «من أسخط اللّه فى رضا الناس سخط اللّه عليه وأسخط عليه من أرضاه فى سخطه، ومن أرضى اللّه فى سخط الناس رضى اللّه عنه وأرضى عنه من أسخطه فى رضاه حتى يزينه، ويزين قوله وعمله فى عينه»(١). وقد أثنى الله تعالى على الذين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة : ٥٤] .

مثلما ذم الذين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فقال : ﴿ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٨٨] .

الاجتماعية :

الوهن والضعف والقصور الذى تعانى منه المجتمعات الإسلامية اليوم مرده إلى الإفراط فى محبة الدنيا إلى حدّ العبادة والاستمساك بأهداب هذه الحياة ، حتى أضحى المسلم خائر القوى مهزوز الشخصية ضعيف الإرادة لا يحرّك ساكنا وإن أقيمت الدنيا من حوله ، أو هزّت الأرض من تحت قدمه .

نعم ، لقد ديست كرامتنا وغصبت أراضينا وأهينت مقدساتنا واسترخصت دماؤنا وضاعت قدسنا ، فماذا فعلنا أو ما عسانا نفعل بهذه الآلاف المؤلفة التى استولى عليها اليأس، ووقر فى ذاكرتها أن لا أحد يجرؤ أو يستطيع مهما حاول أن يعيد قدسنا ويردّ كرامتنا ويسترجع هيبتنا ؟ ! ولعل سائلا يقول معترضا :ولكن أين السلاح والعتاد ؟ أين الصواريخ المتطورة . . والقنابل الذرّية . . و. . و ؟

ولكنى أقول ــ وكل عاقل يشاطرنى الرأى ــ : إننا نملك الكثير ومهما ملكنا من

(١) رواه الطبرانى .

كل ما ذكرنا القناطير المقنطرة فلن تجدينا شيئا ؛ لأننا لا نملك القوّة التى تستعمل تلك الأجهزة والمعدات ، وليس هذا من قبيل التعجيز بل الحق أقول ؛ لأن أزمتنا معنوية قبل أن تكون ماديّة ، وإيمانية قبل أن تكون ذريّة ، لقد بعث اللّه فى قلوبنا الوهن الذى هو حبّ الدنيا وكراهية الموت كما عرفه لنا الرسول الكريم صلوات ربى وسلامه عليه حتى أصبح المسلم ـ أو هكذا يجب أن نسميه ـ يبيع دينه بعرض من الدنيا يسترخص كرامته لا حياته ، ويبذل كل شىء مقابل أن يعيش مهما كانت هذه المعيشة .

لقد عالج القرآن الكريم هذه النفوس الضعيفة الخائرة بقوله : ﴿ **فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُون** ﴾ [النساء : ١٠٤] .

إذًا يجب ألا يكون أهل الباطل أحرص منا على القتال ، لأننا فى الألم سواء ، وكذا فى المشقة والهول ، ولكننا نرجو عند اللّه ما لا يرجون ونرتقب مالا يرتقبون .

هكذا إذ يجب أن يكون التفكير ؛ لأن منطلقنا غير منطلقهم ، ومبتغانا غير مبتغاهم ، وتصورنا للموت ولما بعده غير تصورهم .

فالمسلم لا يريد إلا إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة،وكلاهما فى حسبانه نصر.

فقه الدعوة

إن قوّة تأثير الداعية فيمن يدعوهم تعتمد أساسا على محبتهم له، وإكبارهم إيّاه ، وثقتهم به ، ولن يتأتى له ذلك ما لم يتنزه عن سفاسف الدنيا ، ويترفع عما فى أيديهم؛ لأن ذلك هو الكفيل ببقاء عزته وكرامته ، وأما إذا دنس نفسه وتطلع إلى أرزاق الناس وممتلكاتهم ، فإنه لا يضرّ نفسه فحسب ، بل ويزهد المجتمع فى دعوته ويسقطها من عينه شأن كثير ممّن تصدوا للدعوة الإسلامية فى العالم الغربى تحقيقا لأغراض مادية وأهداف شخصية .

من هؤلاء من مكث السنين الطوال ينوم الناس ويخدّرهم ويموّه عليهم ببهرجته حتى إذا آنسوه تسلل بأموال طائلة ودور هائلة، وسيارات فخمة، وأرصدة ضخمة. . . ومنهم. .و. . حتى أضحى من اليقين عند بعض المسلمين فى تلك الديار الاعتقاد أن كل داعية محتال ينصب شراكه بـ ـ قال اللّه ، وقال رسوله ـ فإنا للّه وإنا إليه راجعون .

الحديث الثانى والثلاثون

عن أبى سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدرى رضى اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال: « **لا ضرر ولا ضرار** » حديث حسن رواه ابن ماجه والدارقطنى وغيرهما مسندا ، ورواه مالك فى الموطأ مرسلا ، عن عمرو بن يحيى ، عن أبيه، عن النبى ﷺ ، فأسقط أبا سعيد ، وله طرق يقوى بعضها بعضا .

تخريج الحديث :

حديث أبى سعيد لم يخرجه ابن ماجه ، وإنما خرجه الدارقطنى والحاكم والبيهقى من رواية عثمان بن محمد بن عثمان بن ربيعة : حدثنا الدراوردى عن عمرو بن يحيى المازنى ، عن أبيه عن أبى سعيد الخدرى ، عن النبى ﷺ قال: «لا ضرر ولا ضرار، من ضار ضرّه اللّه ، ومن شاق شق اللّه عليه » .

وقال الحاكم : صحيح الإسناد على شرط مسلم ، وقال البيهقى : تفرّد به عثمان عن الدراوردى ، وخرجه مالك فى الموطأ عن عمرو بن يحيى عن أبيه مرسلا .

وأما ابن ماجه فخرجه من رواية فضيل بن سليمان : حدثنا موسى بن عقبة ، حدثنا إسحاق بن يحيى بن الوليد عن عبادة بن الصامت ؛ أن رسول اللّه ﷺ قضى أن لا ضرر ولا ضرار .

ترجمة الراوى :

هو أبو سعيد سعد بن مالك بن سنان بن عبيد ، وقيل :عبد بن ثعلبة بن عبيد بن

لا : النافية للجنس واسمها بعدها وخبرها محذوف ويقدر تقديران :

ــ فإن قدّر ــ جائزان ــ كان الكلام إخبارا منه ﷺ بأن الضرر والضرار غير جائزين شرعا .

ــ وإن قدّر ــ موجودان ــ كان المقصود منه النهى أى لا توجد والضرر والضرار، وعلى التقديرين فالحديث يدل على تحريم الضرر والضرار .

الضرر : أن تلحق الأذى بغيرك ابتداء : فى نفسه ، أو عرضه ، أو ماله ، وقيل :الضرر : أن يدخل على غيره ضررا بما ينتفع هو به ، وقيل أيضا : الضرر أن يضر به من لا يضره .

الضرار : أن تلحق الأذى بمن ألحقه بك على سبيل المقابلة؛ وهذا لا يحرم إلا إذا زاد عن حقه فى القصاص.

وقيل: أن يدخل على غيره ضررا بلا منفعة له به كمن منع ما لا يضره ويتضرّر به الممنوع ، ورجح هذا القول طائفة منهم ، ابن عبد البرّ وابن الصّلاح وقيل فيه أيضا : الضرر أن يضر به من لا يضرّه.

الأبجر، وهو خدرة بن عوف بن الحارث بن الخزرج الأنصارى ، وكان أبوه من الصحابة الكرام الذين شهدوا معركة أحد واستصغر يومها فردّه رَسول اللّه ﷺ إلا أنّه كان من بين الذين خرجوا ليتلقوا رسول اللّه ﷺ حين رجوعه من الغزوة فنظر إليه رسول اللّه ﷺ وقال : «سعد بن مالك ؟» فقال : نعم بأبى أنت وأمى يا رسول اللّه ، فدنا منه وقبل ركبته ، فقال : «آجرك اللّه فى أبيك» ؛ لأنه كان من شهداء أحد ، وكان أبو سعيد من نجباء الصحابة ومن حفاظهم وعلمائهم شهد مع رسول اللّه ﷺ اثنتى عشرة غزوة أولها الخندق ، وكان من الرواة المشهورين وهو معدود من أهل الصفة ، روى عنه أنه قال : أصبحت وليس عندنا طعام وقد ربطت حجرا من الجوع ، فقالت امرأتى: ائت النبى ﷺ فاسأله فقد أتاه فلان فأعطاه وفلان فأعطاه فقلت: لا ، حتى لا أجد شيئا ، فطلبت فلم أجد شيئا فأتيت النبى ﷺ وهو يخطب فأدركت من قوله: « من يستغن يغنه اللّه ، ومن يستعفف يعفه اللّه » قال : فما سألت أحدا بعده وما زال اللّه يرزقنا حتى ما أعلم أهل بيت من الأنصار أكثر أموالا منا.

قلت : كان أبو سعيد من حفاظ الصحابة وعلمائهم حيث بلغت مروياته ألفا ومائة وسبعين حديثا ، اتفق البخارى ومسلم منها على ستة وأربعين ، وانفرد البخارى بستة عشر، ومسلم باثنين وخمسين، توفى بالمدينة سنة أربع وسبعين عن عمر يناهز أربع وتسعين سنة ودفن رضى اللّه عنه بالبقيع .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

الأصولية :

« لا ضرر ولا ضرار » .

استنبط الأصوليّون من هذا الحديث قاعدة أصولية شهيرة ، وهى :(الضرر يزال) وفرعوا عليها كثيرا من المسائل كالرد بالعيب ، وثبوت الخيار فى البيع ، ودفع الصائل، وقتال المشركين والبغاة ، وفسخ النكاح بالعيوب .

ويتعلق بهذه القاعدة ست قواعد :

الأولى : الضرورات تبيح المحظورات ؛ ولذا جاز أكل الميتة للمضطر ، والخمر للغاص.

الثانية : ما أبيح للضرورة يقدر بقدرها ، فلا يأكل المضطر إلا ما يسد رمقه، قال تعالى: ﴿ **فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ** ﴾[البقرة : ١٧٣] .

الثالثة : الضرر لا يزال بضرر يساويه ، فلا يأكل مضطر طعام مضطر آخر .

الرابعـة : إذا تعارضت مفسدتان روعى أعظمهما ضررا بارتكاب أخفهما ضررا .

الخامسة : درء المفاسد مقدّم على جلب المصالح .

السادسة : قد تنزل الحاجة العامة والخاصّة منزلة الضرورة فتبيح المحظور ، والعامة كجواز الإجارة مع عدم المنافع وقت العقد . والجعالة مع ما فيها من الجهالة .

الفقهية :

١ ــ المـضارة فى الوصية :

قال تعالى : ﴿ **مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍ** ﴾[النساء : ١٢] وفى الحديث عن أبى هريرة مرفوعا : « إن العبد ليعمل بطاعة اللّه ستين سنة ثم يحضره الموت فيضار فى الوصية فيدخل النار»، ثم تلا : ﴿**تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ** ﴾ إلى قوله: ﴿**وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ**﴾ [النساء : ١٣، ١٤] .

والإضرار فى الوصية يتمثل فى صورتين :

ــ **الصورة الأولى** : تخصيص بعض الورثة بزيادة على نصيبه الذى قدره اللّه وفرضه، وبهذا يتضرر بقية الورثة وفى هذا يقول ﷺ :«إن اللّه قد أعطى كل ذى حق حقه فلا وصية لوارث » .

ــ **الصورة الثانية** : ويحدث الضرر إذا وصى الموصى بأكثر من ثلث لأجنبى غير وارث لأنه ينقص حقوق الورثة ، ومن هنا فوصيته غير ناجزة ما لم يجزها الورثة قال عليه السلام : « . . . . الثلث والثلث كثير » .

٢ ــ المـضارة فى الرجعة فى النكاح :

كان الطلاق فى الجاهلية بلا حدود وكان الرجال يستغلونه تعسّفا وتلاعبا بالمرأة ، فأنزل اللّه تعالى : ﴿ **الطَّلاقُ مَرَّتَانِ** ﴾ [البقرة : ٢٢٩] وسبب نزول هذه الآية كما ذكره ابن كثير : أنه كان الرجل فى الجاهلية يطلق امرأته ما شاء من الطلاق ثم يراجعها قبل أن تنقضى عدتها ولو طلقها ألف مرة كان له الحق فى مراجعتها ، فعمد رجل لامرأته فقال لها : لا آوبك ولا أدعك تحلين ، قالت : وكيف ؟ قال : أطلقك فإذا دنا مضى عدتك راجعتك، فشكت المرأة أمرها للنبى ﷺ فأنزل اللّه: ﴿ **الطَّلاقُ مَرَّتَانِ**﴾ الآية.

وقال تعالى : ﴿ **فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ** ﴾ [البقرة : ٢٣١] ،وقال : ﴿ **وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا** ﴾ [البقرة : ٢٢٨] .

وذهب مالك إلى أن من راجع امرأته قبل انقضاء عدتها ثم طلقها من غير مسيس أنه إن قصد بذلك مضارتها بتطويل لم تستأنف العدة وبنت على ما مضى منها ، وإن لم يقصد بذلك استأنفت عدة جديدة .

وقيل : تبين مطلقا وهو قول عطاء وقتادة والشافعى فى القديم وأحمد فى رواية، وقيل : تستأنف مطلقا وهو قول الأكثرين منهم أبو قلابة والزهرى والثورى وأبو حنيفة والشافعى فى الجديد ، وأحمد فى رواية وإسحاق وأبو عبيدة وغيرهم .

٣ ــ المضارة فى الإيلاء :

وهو أن يحلف الرجل على امتناعه من وطء زوجته ومدّته أربعة أشهر ؛ لقوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٢٦ ، ٢٢٧] ، فإن فاء ورجع إلى الوطء كان ذلك توبته وإلا طلق وفق مذهب إمامنا مالك رضى اللّه عنه ، وهو قول على وابن عمر رضى اللّه عنهما .

وكما أن الزوج لو أطال السفر من غير عذر وطلبت امرأته قدومه فأبى فقال مالك وأحمد وإسحاق : يفرق الحاكم بينهما .

٤ ــ المضارة فى الرضاع :

قال تعالى : ﴿ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ﴾ [البقرة : ٢٣٣] قال مجاهد: لا يمنع أمّه أن ترضعه ليحزنها بذلك . وقال عطاء وقتادة والزهرى وسفيان والسدّى وغيرهم : إذا رضيت ما يرضى به غيرها فهى أحق به .

ويدخل فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ﴾ أن المطلقة إذا طلبت إرضاع ولدها بأجرة مثلها لزم الأب إجابتها إلى ذلك ، وسواء وجد غيرها أو لم يوجد ، هذا منصوص الإمام أحمد ، فإن طلبت زيادة على أجرة مثلها زيادة كثيرة ووجد الأب من يرضعه بأجرة المثل لم يلزم الأب إجابتها إلى ما طلبت لأنها تقصد المضارّة .

٥ ــ المضارة فى البيع :

خرج الإمام أبو داود من حديث على بن أبى طالب أنه خطب النّاس فقال : إنه سيأتى على النِاسِ زمانٍ عضوضٍ يعض الموسر على ما فى يديه ولم يؤمر بذلك . قال تعالى : ﴿ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٣٧] ويبايع المضطرون وقد نهى ﷺ عن بيع المضطر .

تطبيق

١ ــ طالت أيدى الكثير من مسلمى العصر إلى المحرمات ، وسمحت لنفسها أن تتخطى حدودها غير مكترثة بما تفعل محتجة بالقاعدة الأصولية : الضرورات تبيح المحظورات ، متناسية القاعدة الشائعة القائلة : ما أبيح للضرورة يقدّر بقدرها ، فلا يجوز الاسترسال فى الشرب بالنسبة للغاص الذى لم يجد ما يدفع به غصّته غير الخمر.

نعم ، يجوز للمضطر ، والمضطر هنا هو الغاص الذى خاف على نفسه الهلاك، ولم يجد ماء ونحوه أن يشرب جرعة تزيل ما به حفاظا على روحه ، وفى هذا ينص الشيخ خليل بن إسحاق المالكى فى مصنّفه : وجاز لإكراه وإساغة لا دواء . .

كما لا يجوز الأكل من الجيفة وغيرها أكثر من سدّ الرمق بالنسبة للمضطر ؛ لقوله تعالى : ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة : ١٧٣] .

٢ ــ فى أيامنا هذه أصبح التجاور فى كثير من الأحيان لا معنى له فلا يتخذ الجار حيطته وحذره أكثر ممّا يتخذها من جاره فى سكناه أو فى معمله ، أو فى مزرعته ، فى حين أن الإسلام ينزع الإيمان من رقبة من لا يأمن جاره بوائقه كما نصّ على ذلك رسول اللّه ﷺ .

والإسلام فى تشريعاته عمل على أن لا يضار أحد أحداً بأى حال من الأحوال ، وأوجه المضارة بين الجار وجاره كثيرة غير أننا نورد بعضها فى الأمثلة التّالية :

أ ــ كأنْ يكونَ غرضُ المضار صحيح بحيث يتصرّف فى ملكه بما فيه مصلحة له فيتعدّى ذلك إلى ضرر غيره .

فإن كان على غير الوجه المعتاد مثل أن يؤجّج فى أرضه نارا فى يوم عاصف فيحترق ما يليه فإنهّ متعدّ بذلك وعليه الضمان .

وإن كان على الوجه المعتاد ففيه للعلماء قولان مشهوران : أحدهما : لا يمنع من ذلك وهو قول الشافعى وأبى حنيفة وغيرهما . والثانى : المنع وهو قول أحمد ووافقه إمامنا مالك فى بعض الصور ، فمن صور ذلك أن يفتح كوّة فى بنائه العالى مشرفة على جاره ، ومنها أن يحفر بئرا بالقرب من بئر جاره فيذهب ماؤها فإنها تطم فى ظاهر مذهب مالك وأحمد .

ومنها أن يكون له ملك فى أرض غيره يتضرر صاحب الأرض بدخوله إلى أرضه، فإنّه يجبر على إزالته ليندفع به ضرر الدخول ، خرجه أبو داود فى سننه من حديث أبى جعفر محمد بن على أنه : حدّث سمرة بن جندب أنّه كان له عذق من نخل فى حائط

رجل من الأنصار ومع الرجل أهله ، وكان سمرة يدخل إلى نخله فيتأذّى به وشقّ عليه فطلب إليه أن يقابله فأبى ، فأتى النبى ﷺ فذكر ذلك له فطلب إليه النبى ﷺ أن يبيعه فأبى، فطلب إليه أن يناقله فأبى، قال: « فهبه له ولك كذا وكذا » أمراً رغّبه فيه، فأبى فقال : أنت مضارّ ، فقال النبى صلى اللّه عليه وآله وسلم : « اذهب فاقلع نخله».

ب ـ الصورة الثّانية : أن يضارّ الجار جاره من الانتفاع بملكه والارتفاق به ، فإن كان ذلك يضر بمن انتفع بملكه فله المنع كمن له جدار واه لا يحمل أن يطرح عليه خشب .

وأمّا إن لم يضر به فهل يجب عليه التّمكين ويَحْرم عليه الامتناع أم لا ؟

ذهب الإمام مالك ـ رحمه اللّه ـ إلى المنع ، وذهب أحمد فى طرح الخشب على جدار دار جاره إلى أنّه لا يجوز ، ووافقه الشافعىّ فى القديم وإسحاق وأبو ثور وداود وابن المنذر وعبد الملك بن حبيب المالكى وحكاه مالك عن بعض قضاة المدينة .

وفى الصّحيحين عن أبى هريرة رضى اللّه عنه عن النبىّ ﷺ قال : « لا يمنَعنّ أحدكم جاره أن يغرز خشبه على جداره » قال أبو هريرة : مالى أراكم عنها معرضين ، واللّه لأرمين بها بين أكتافكم ، وقضى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه على محمد بن مسلمة أن يجرى ماء جاره فى أرضه ، وقال : لتمرنّ به ولو على بطنك .

والإجبار على إجراء الماء فى أرض جاره إذا أجراه فى قناة فى باطن أرضه كما هو عليه مذهب أبى ثور .

الحديث الثالث والثلاثون

عن ابن عباس ــ رضى اللّه تعالى عنهما ــ أن رسول اللّه ﷺ قال : «**لَوْ يُعْطى الناس بدعواهم لادَّعى رجال أموال قوم ودمَاءهُم ، لكن البينة على المدعى واليمين على من أنكر**» حديث حسن ، رواه البيهقى وغيره هكذا . وبعضه فى الصحيحين .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

الاجتماعية :

تدور الأحكام الشرعية كلها على حفظ الكليات الست: المال ، الدين ، الروح ، العقل ، النسل ، العرض .

ويولى الإسلام عناية كبرى بالعرض ــ بالخصوص ــ حيث شرع الكثير من الأحكام الفقهية التى تضمن للمرء شرفه وتصون عرضه انطلاقا من مبدأ التكريم الذى حظى به الإنسان دون بقية المخلوقات الأخرى . قال تعالى : ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا**﴾ [الإسراء: ٧٠].

والإسلام يتحدى جميع الفلسفات والنظم الاجتماعية أن ترعى حرمة الإنسان كإنسان كما يحترمها هو ! .

ومهما أجهد المحللون الاجتماعيون أنفسهم ، ما استطاعوا الوصول إلى ما حققه الإسلام سبيلا؛لأن جهدهم قاصر ، واجتهاداتهم يجانبها الصواب فى كثير من الأحيان. ولا زال الإنسان فى الغرب كالآلة تقاس كرامته بقدر إنتاجه ، أو بما يملك فى حين أنّنا نجد ديننا يوجب هذه الحدود:

١ ــ حد الرجم والجلد : فى حق الزانى بحالتيه المحصن وغير المحصن صونا للأعراض وحفظا للأنساب .

٢ ــ حد القذف : فالذى يتّهم محصنة غافلة، أو عفيفا طاهرا بهذه الريبة ــ تهمة

الدعوى : لغة : الطلب ، وشرعا : إخبار بحق لك على غيرك عند حاكم .
المدعى : من خالف قوله الظاهر .
المدعى عليه : عكسه .

الزنا ــ يعتبر متعد على الكرامة والشرف ، وبموجبه يجلد صاحبه تأديبا له وتعزيرا وتبرئة للمعتدى عليه .

٣ ــ حرمة الغيبة والبهتان والإفك : ــ فى الإسلام ــ تضع سدًا منيعا لشخصية كل مسلم .

وها هو رسول اللّه ﷺ فى هذا الحديث : « البينة على من ادّعى » يعتبر المدعى فى موقف ضعف فلا يجوز له أن يتحامل على من ادّعى عليه وليس للقاضى بأى حال من الأحوال أن يسقط من كرامته أو يوجه اللوم له أو يوبّخه.

وما دام موقف المدعى كذلك اشترط الرسول الكريم ﷺ أن يعزز دعواه ببيّنة ساطعة وحجة واضحة ؛ بل والأبعد من هذا فإن لإمامنا فى هذا قولا طريفًا ورأيًا حكيما ، قال مالك : إنما تجب اليمين على المنكر إذا كان بين المتداعيين نوع مخالطة خوفا من أن يتبذل السفهاء على الرؤساء بطلب أيمانهم . وعنده : ولو ادعى على رجل أنه غصبه أو سرق منه ولم يكن المدعى عليه متهما بذلك لم يستحلف المدعى عليه. بل عنده أن المدعى عليه إن كان من أهل الفضل أو ممن لا يشار إليه بذلك أدّب المدعى.

الاقـتصادية :

لننظر كيف حفظ الإسلام الأموال ورعاها وصانها من الضَّياع والتلف فحد حدودا إذا أقيمت فى المجتمع الإسلامى تفشى الأمن على الأموال والمودعات ، وهذا ما يدفع بعجلة التكافل الاجتماعى ويحقق الأمن الغذائى والرخاء الاقتصادى عموما .

من تلك الحدود القطع ليد السارق ، والقتل للغاصب المحارب ، وها هو الإسلام يقعد قاعدة تشريعية جليلة بموجبها يطمئن المالك على ملكه ؛ لأن محض الدعاوى العارية من البينة الصادقة والدليل القوى لا يلقى لها الإسلام أدنى اعتبار فى حالة حلف المدعى عليه طبعا .

القانونية :

إن التقدم التشريعى الذى أحرزه نظام القضاء فى الإسلام منذ أربعة عشر قرنا لم تحقق أوربا معشاره . وعلى سبيل المثال لا الحصر إليك هذا التباين الكبير فى النظر إلى المتهم .

فالإسلام ينظر إلى أنّ المتهم برىء ما لم تثبت إدانته بالبينة ، ومن ثم فلا يسعى القضاء الإسلامى إلى استنطاقه بالقوّة وأخذ اعترافاته عنوة تحت أسواط التعذيب والتنكيل .بينما تنظر بعض القوانين الأرضية إلى المتهم وكأنه مدان حتّى تثبت براءته ، إن لم نقل : ولو ثبتت! .

فقه الدعوة

إن مؤهلات الدعوة إلى الإسلام لا تقف عند الفقه فى الشريعة والبلاغة فى العربية، والفصاحة فى اللسان ، بل تتطلب ذكاء وفطنة لا أقول : ألمعية ؛ لأنه ـ أى الداعية ـ يخاطب أناسا ويدعو فئات تتفاوت ثقافاتهم وتتفاوت مستوياتهم الفكرية ، وربما اعترضته خصومات وخلافات ، فلا يدرى بم يحكم إلا إذا كان عالما بالشريعة الإسلامية ، ولا لمن يحكم إلا إذا كان حكيما فى طرحه لاستفساراته ، وذكيا فى متابعاته وملاحظاته ولله در ابن فرحون الذى أفاض القول فى هذا فى كتابه (تبصرة الحكام) .

وللعبرة أسوق هذا المثال الذى جاء فى الحلية فى ترجمة عكرمة قال : كانت القضاة فى زمن بنى إسرائيل ثلاثة فمات أحدهم فولى مكانه غيره ، ثم قضوا ما شاء الله أن يقضوا ، ثم بعث الله تعالى لهم ملكا يمتحنهم فوجد رجلا يسقى بقرة على ماء وخلفها عجلة ، فدعاها وهو راكب فرسا فتبعتها العجلة فتخاصما ، فقالا : بيننا القاضى فجاءا إلى القاضى الأول ، فدفع إليه الملك درّة كانت معه وقال له : احكم بأن العجلة لى ، وقال : بماذا أحكم ؟ قال : ارسل الفرس والبقرة والعجلة ؛ فإن تبعت الفرس فهى لى ، فأرسلها فتبعت الفرس فحكم له بها .

وأتى إلى القاضى الثانى فحكم له كذلك وأخذ درّة ، وأما القاضى الثالث فدفع له الملك درّة وقال له : احكم بها ، فقال : إنى حائض ! فقال الملك : سبحان الله أيحيض الذكر ؟ ! فقال القاضى : سبحان الله أتلد الفرس بقرة ؟ ! وحكم بها لصالحه.

تطبيق

١ ـ بعض من أغناهم الله سبحانه أغواهم الشيطان ، فسخروا ما يملكون وما يتمتعون من سمعة وجاه للادعاء على الذين لا حول لهم ولا قوة ظلما وعدوانا واستكبارا فى الأرض ، قال تعالى : ﴿ **تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا**﴾ [القصص : ٨٣] واستعانوا فى تلفيق دعاويهم وتحقيق مآربهم بمن يمتهنون المحاماه استرزاقا أولئك الذين يتفننون فى حَبْك العبارات وسبكها ليجعلوا الباطل حقّا ، والحق باطلا ، ولا يكونون مع الحق ، وهذا الذى يفترض فيهم بل الكثير الكثير منهم يدور مع الدينار حيث دار ، ولله درّ القائل :

ما لقومى اليوم قد جاروا ... وعلى الدينار داروا

وله صلوا وصاموا ... وله حجوا وزاروا

لـو رأوه فـوق الثّـريّـا ولهم ريـش لطـاروا

٢ــ إننا نرى أناسا اتخذوا اللّه عرضة لأيمانهم ولا ذمة لهم ولا دين؛ تراه من أوّل الرّاكعين الساجدين بالمساجد الصوامين القوامين ، ولكن إذا ما اعترضه يمين وترتب عليه قسم ليأخذ متاعا من الدنيا لا يتورع أبدا فى أن يحلف عشرات المرات غير مبال بغضب اللّه والعياذ باللّه. جاء فى الصحيحين عن الأشعث بن قيس قال : كان بينى وبين رجل خصومة فى بئر فاختصمنا إلى رسول اللّه ﷺ، فقال رسول اللّه ﷺ: «شاهداك أو يمينه» قلت : إذا يحلف ولا يبالى ، فقال رسول اللّه ﷺ : « من حلف على يمين يستحـق بها مالا هو فيها فاجر لقى اللّه وهو عليه غضبان » فأنزل اللّه تصديق ذلك ، ثم قرأ هذه الآيـة : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [آل عمران: ٧٧] .

الحديث الرابع والثلاثون

عن أبى سعيد الخدرى رضى اللّه عنه قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان**» رواه مسلم .

تخريج الحديث :

هذا الحديث خرّجه مسلم من رواية قيس بن مسلم عن طارق بن شهبان عن أبى سعيد ، ومن رواية إسماعيل بن رجاء عن أبيه عن أبى سعيد .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

الفقهية :

يشترط فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ما يلى :

١ـــ أن يكون المنكر مجمعا عليه أو مختلفا فيه ، ومقترفه يرى تحريمه ، أما إذا كان يرى حله ، أو يقلد من يقول بذلك فلا . ففى شرح العلامة الدرديرى ما نصه : ويشترط فى النهى عن المنكر أيضا : أن يكون مجمعا عليه ، أو مختلفا فيه ، ومرتكبه يرى تحريمه ، لا إن كان يرى حله أو يقلد من يقول بالحل .

٢ ـــ أن يكون متفقا عليه : ففى (شرح المواق) ما نصه : وكان سيدى ابن سراج يقول: إذا جرى الناس على شىء له مستند صحيح ؛ وكان للإنسان مختار غيره لا ينبغى أن يحمل الناس على مختاره فيدخل عليهم شغبا فى أنفسهم، وحيرة فى دينهم؛ إذ من شرط التغيير أن يكون متفقا عليه . ا . هـ .

وانظر قول عياض فى (الإكمال): لا ينبغى للآمر بالمعروف والناهى عن المنكر أن يحمل الناس على مذهبه ، وإنما يغير ما اجتمع على إحداثه وإنكاره . وشرح هذا أيضا محيى الدين النووى فى منهاجه ، أما المختلف فيه فلا إنكار فيه وليس للمفتى ولا

منكرًا : ما أنكر الشارع فعله كالزنا ، أو تركه كالصلاة .

بلسانه : الإنكار باللسان يكون بالوعظ وإسداء النصح أو الزجر أو الاستغاثة ، أو رفع القضايا إلى المحاكم .

بقلبه : أى ببغض المنكر وفاعله ، والتمنى لو كان بوسعه شىء حتى يزيله .

للقاضى أن يعترض على من خالفه إذا لم يخالف نص القرآن أو السنة أو الإجماع ، ونحو هذا فى جامع الذخيرة للقرافى ، ونحوه فى قواعد عز الدّين .

٣ــ أن يكون المنكر مخالفا للقرآن أو السنة أو الإجماع [١] .

٤ ــ ألا يكون إنكار المنكر يؤدى إلى التحريم .

٥ ــ أن يكون إنكار المنكر والأمر بالمعروف فى حالة الوجوب ؛ لأنه قد يكون مندوبا فحسب ، كما فصّل ذلك العلامة البيجورى ــ رحمه اللّه ــ فى(شرح الجوهرة) فقال: فيندب الأمر بالمندوب ، والنهى عن المكروه ، ويجب الأمر بالواجب والنهى عن الحرام ، فالمكروه لا يشدّد فى النهى عنه كما يشدد فى النهى عن الحرام طبعا .

الاجتماعية :

أ ــ الإسلام عكس النظم الاجتماعية الأخرى التى يسود فيها قانون الغاب ، والسيادة مكرة على الأقوياء سواء كانت القوة مالية ، أو إعلامية ، أو حزبية ، بل يحرص النظام الاجتماعى الإسلامى على أن يكون البقاء فيه للأصلح والأطهر ؛ لأنه مجتمع نظيف طاهر لا مكان فيه للأمراض الاجتماعية الخطيرة ، ولا يعيش بينه مجرم محترف .

ولعل الفضل فى ذلك كله لا يعود إلى الحدود والقصاص قبل فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؛ لأنها هى التى تكتشف المرض وتقاومه فى مهده قبل استفحاله وانتشاره.

ب ــ من أهم الأسباب فى إفلاس النظم الاجتماعية الأرضية إهمالها لقاعدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر التى هى خاصية من خصائص النظام الاجتماعى الإسلامى، والإسلام بهذه القاعدة يشرف الإنسان ويكرمه ويرفعه إلى درجة سامقة ، ألا وهى درجة الاستخلاف فى الأرض فهو المنكر لما أنكره اللّه ، والمتقبل لما يعترف به الإسلام .

إذًا فالمسلم له كلمته وله وزن فى هذا الكون ؛ لأنه يمثل عدالة اللّه ، وهذا غاب عن ملائكة الرحمن حين قال اللّه لهم : ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة : ٣٠] .

جــ ــ إن الإنكار بالقلب لا يقف عند حد الانقباض فى النفس والاستياء ، بل له

---

(١) من القواعد الأصولية عند الإمام الشافعى .

وقعه وسلطانه إن فسّر هذا التفسير القرآنى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء : ١٤٠] .

إنه المقاطعة الجماعية لأرباب الفسق والفجور ، وها هو القرآن الكريم يصور لنا الحالة النفسية الحرجة ، والمأزق المتأزم الذى وقع فيه الثلاثة الذين خلّفوا عن غزوة تبوك مع رسول اللّه وهم : كعب ، وهلال ، ومرارة. قال تعالى : ﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ﴾ [التوبة : ١١٨] ، لقد دعا النبى ﷺ إلى مقاطعتهم وعدم مجالستهم حتى كان الواحد منهم يفشى السلام لأقرب أقربائه فلا يرد عليه ، وهجرتهم نساؤهم وأهلوهم وأهملوهم حتى تاب اللّه عليهم .

د ـ الأمة التى تتغاضى عن المنكرات ، وتعايش أرباب المعاصى وتتعامل معهم بلا تحفظ أمة تحارب اللّه ورسوله ، وهى مشتركة مع فجّارها بسكوتها وإقرارها ، قال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ [الأنفال : ٢٥] ، وصدق الشاعر فى قوله :

بنو ثقيف ألا فانهوا سفيهكم ... إن السفيه إذا لم ينه مأمور

وهى بذلك تسعى فى خرابها ، وتعمل على تقويض بنائها كما فعلت من قبل بنو إسرائيل . قال ربنا سبحانه : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة : ٧٨ ، ٧٩] .

هـ ـ لقد ضمن الإسلام حرية الفرد إذا لم تكن على حساب حريات الآخرين ، كما راعى حرمة بيته وصانها من أن تكون عرضة للمداهمات والتسور والتجسّس ، قال تعالى: ﴿وَلا تَجَسَّسُوا ﴾ [الحجرات : ١٢] .

إذًا فالتجسس كما قلت على عورات الناس والتطلع إلى أسرارهم حرام فى الإسلام، اللهم ما استثناه الماوردى : من ذلك ما إذا أخبره من يثق بقوله : إن رجلا خلا برجل ليقتله ، أو امرأة ليزنى بها ؛ فإنه يجوز له فى مثل هذه الحالة أن يتجسس ويقدم على الكشف والبحث حذرا من فوات ما لا يستدركه .

وللمتهالكين على القوانين الغربية المبهورين بالمجتمعات الأوربية أسوق ما ذكر عن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه أنه مشى بالليل فرأى نارا فى بيت فأتى إليها فإذا قوم يشربون ، وشيخ بينهم فاقتحم عليهم وقال : يا أعداء اللّه أمكن اللّه منكم . فقال الشيخ : ما نحن بأعظم منك ذنبا يا أمير المؤمنين ؛ إن عصينا اللّه فى واحدة فقد عصيته أنت فى ثلاث . فقال له عمر : وما هن ؟ فقال : تجسست وقد قال اللّه تعالى : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ [الحجرات : ١٢] ، وأتيت البيوت من ظهورها وقد أمر اللّه تعالى بإتيانها من أبوابها ، ودخلت بيتا غير بيتك من غير استئذان ولا تسليم وقد أمر اللّه تعالى بذلك؛ فاحتشم عمر وقال : صدقت ، استغفر لى ! فقال الشيخ : غفر اللّه لنا ولك .

وقد كان الحسن البصرى يقول : إياكم والتجسّس ، فواللّه لقد أدركت ناسا لا عيوب لهم فتجسسوا على عيوب الناس ، فأحدث اللّه لهم عيوبا .

فقه الدعوة

١ ــ الدعوة إلى دين اللّه وإلى نبذ الشركاء والطواغيت ليست حرفة يحترفها من يحترفها تكسبًا واسترزاقا ، وليست منصبا يتفاخر به المتفاخرون ، ويتباهون بمقعده الوثير ومرتبه الوفير ، بل هى مسؤولية كبرى وأمانة عظمى .

الداعية المخلص أعرف الناس بثقلها وجسيم تباعتها ؛ لذا يسعى هذا الصنف دوما أن يكونوا شموعا تحترق لتضىء على البشرية ، ويفجرون من أجسادهم ينابيع الدماء الزكية لتسقى شجرة العقيدة الإسلامية ، ولله درّ ذلك الداعية المخلص حين قال : وددت أن الخلق كلهم أطاعوا اللّه وأنّ لحمى قرض بالمقاريض .

كما كان عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز يقول لأبيه : وددت أنى غلت بى وبك القدور فى اللّه تعالى .

ما كانت هذه التضحيات لتكون لولا أن سيد الدعاة ورسول الهداة عليه السلام جسّد هذا الفداء فى أروع صوره حين كانت الدماء تنهمر من وجهه الشريف يوم أحد ، ومع كل هذا ظل يدعو لأعدائه : « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون » صلى عليك اللّه يا علم الهدى .

٢ ــ إن سلاح الداعية ليس هو السيف،بل هو الحكمة. قال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ [النحل:١٢٥] وكثير ما يكون للحكمة والأسلوب المهذب أبلغ الأثر فى تغيير المنكر وصرف فاعله عن وجهته بالرفق،وهذا غالبا ما يجدى مع ذوى الهيبة والوقار وأرباب الحكم والسلطان . روى أن رجلا من الصحابة أكثر شرب الخمر

بالشام فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه فكتب له : ﴿ **حمٓ . تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ**﴾ [غافر : ١ ـ ٣] ، فترك الرجل الخمر وتاب ، وحكى التاج السبكى عن أبيه أنه كان يجتمع ببعض الأمراء ، وكان الأمير يلازم الحرير فقال : يا أمير بكم الذراع من هذا ؟ فقال : بدينار ، فقال : فى الصوف ما يساوى كل ذراع منه دنانير ومماليك وخدمات يشاركونك فى لبس الحرير ولا يليق بشهامتك أو يساووك فاعدل إلى الصوف؛ فإنه أعلى وأغلى مع ما فيه من السلامة من العقاب الأخروى فاستحسن كلامه ، ولو قال له ابتداء : هذا حرام لم يفد .

٣ ــ انطلاقا من حديث أبى سعيد عن النبى ﷺ قال : « أفضل الجهاد كلمةُ حق عند سلطان أو أمير جائر » [(١)] .

وقف العلماء والدّعاة المخلصون فى وجْه الجور والظلم وكانوا بجرأتهم كالسدّ فى وجه السيل العرم . وذى بعض الأمثلة :

ــ أخرج مسلم فى حديث طارق قال : أوّل من بدأ بالخطبة يوم العيد قبل الصلاة مروان ، فقام إليه رجل فقال : الصلاة قبل الخطبة ، فقال : قد ترك ما هنالك ، فقال أبو سعيد : أمّا هذا فقد قضى ما عليه ، ثم روى هذا الحديث ــ الذى هو موضوع البحث .

ــ والدارس للتاريخ الإسلامى يجد الكثير من هذه المواقف الفياضة بالشجاعة الإيمانية كمواقف سعيد بن المسيب مع الحجاج بن يوسف الثقفى ، والإمام مالك مع الخليفة المنصور ، والعز بن عبد السلام الملقب بسلطان العلماء ، وابن باديس ومواقفه الصريحة من الاستعمار الفرنسى . . . وغيرهم كثير .

تطبيق

١ ــ يعانى الفرد المسلم اليوم فى كثير من المجتمعات الإسلامية انفصاما خطيرا فى شخصيته نظرا للتباين الكبير بين مبادئه ومعتقداته وبين ما يجرى حوله ، بين ما يقول وما يفعل ، بين ما يتصوره عن الإسلام وما يلمسه فى المسلمين ، بين ما يسمعه بالمسجد أو المدرسة وما يتعامل به فى المتجر والمصنع والبيت والشارع ، يعيش فى دوامة هذا التناقض بينه وبين المجتمع الذى يعيش فيه ، بل وربما بين ما بداخله وما بخارجه ،

(١) رواه أبو داود ، واللفظ له ، والترمذى ، وابن ماجه كلهم عن عطية العوفى عنه ، وقال الترمذى : «حديث حسن غريب » .

ومنشأ هذا فى اعتقادى الرضا بالمنكر وتجاهل المعروف وعدم الأمر به ، ومن ثم عدم ائتمار الآمر بالمعروف وانتهاء الناهى : ﴿ **أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُون** ﴾ [البقرة : ٤٤] .

٢ ــ الكثير من مجلات العالم الإسلامى وصحفه شيطان أخرس ، إذ تخوض هذه الوسائل الإعلامية فى كل مجال إلا مجال الدين الإسلامى ، اللهم إلا بعض الفقرات فى بعض أعمدة تكرس الشريعة الإسلامية فى الأخلاق فحسب ، وربّما تطرقت إلى الخلافات الفقهية والعراكات الكلامية ، ولكنها عما يجرى فى عالمنا الإسلامى عمياء ، وعن واقع المسلمين وما يحاك للدعوة الإسلامية من الغرب والشرق خرساء بكماء .

إننا لم نسمع عن أزمة المسلمين فى بلغاريا ، ومحنهم فى الفلبين ، وفى إريتريا ، وأندونسيا ، إلا من بعض أجهزة الإعلام الغربية ، نكاية بالكتلة الشرقية أو العكس ، ولم تنبس كثير من وسائل إعلامنا العربية أو فى ديار الإسلام ببنت شفة ولو بقول : اللهم إن هذا منكر .

الحديث الخامس والثلاثون

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « **لا تحاسدوا ، ولا تناجشوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، ولا يبع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخوانا ، المسلم أخو المسلم : لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يكذبه ، ولا يحقره . التقوى هاهنا** ــ ويشير إلى صدره ثلاث مرات ــ **بحسب امرئ من الشر أنْ يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وماله ، وعرضه** » رواه مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

التصوف السنى :

« بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم » .

١ ــ إن المخلص ــ مهما بلغ فى تعبده ــ لا يزهو بطاعته ولا تغريه عباداته ، وإن كثرت ؛ لأنه لا يأمن مكر الله ، ولا يضمن حسن خاتمته ، ولا يبتغى بما يفعل ثناء البشر وكسب ألسنتهم ﴿ **إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا** ﴾ [الإنسان:٩]، ولا يدرى أيضا لمن الأفضلية؛ لقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ** ﴾ [الحجرات:١١] ؛ ولأن المعصية التى تورث ذلا وافتقارا خير من الطاعة التى تورث عزا

لا تحاسدوا : الحسد : هو تمنى زوال نعم الغير .

لا تناجشوا: النّجش فى اللغة: هو إثارة الشىء بالمكر والمخادعة ومنه النجش فى البيع وهو: أن يزيد الرجل فى سلعة ما بلا هدف الشراء، وإنما بهدف نفع البائع بالثمن المزاد أو بنية إضرار المشترى بزيادة الثمن عليه.

لا تباغضوا : أى لا يبغض بعضكم بعضا .

لا تدابروا : أى لا يعرض بعضكم عن بعض فيولى أحدكم ظهره لأخيه .

لا يخذله : لا يدخر جهدا في نصرته ورد الظلم عنه .

لا يكذبه : أى لا يخبره بما يخالف الواقع .

بحسب : أى يكفيه من الشر .

واستكبارا، أما من نسى شيئا مما سبق ذكره وخالطه شىء من حظ نفسه ؛ احتقر من هم أقّل منه تنفّلا واستهان بهم ، وربما أفحش فى مخاطبتهم ، وانهال عليهم بالتّهم اللذعة كالفسق، والفجور ، والتفريط ، وربما أيضا بالزندقة ، والضلال :

فلا تحقرنّ شخصا من النّاس علـه   ولـىّ إلـه العالمين ولا تـدرى

فذو القدر عند الله خاف عن الورى   كما خفيت عن علمهم ليلة القدر

فى حين أن القرآن يفضّل الكلمة الطيبة عن الطاعة التى يعقبها التجنّى ﴿ **قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى** ﴾ [البقرة : ٢٦٣] .

وهذا الحديث النبوىّ الشريف يحمل مسؤولية ضياع الجماعات وضلال الأمة ، أولئك الذين يشرفون على الأمة من شرفات عاجية ويتحسرون على هلاكها دون أن يأمروا بمعروف ، أو ينهوا عن منكر ، فعن أبى هريرة رضى اللّه عنه عن النبىّ ﷺ قال: « من قال : هلك الناس فهو أهلكهم »(١) قال مالك: إذا قال ذلك تحزّنا لما يرى فى النّاس — يعنى فى دينهم — فلا أرى بأسا ، وإذا قال ذلك تعجبّا بنفسه وتصاغرا للنّاس فهو المكروه الذى نهى عنه . وقال الإمام الغزالى : لأنه مزدر بخلق الله مغتر بالله ، آمن مكره غير خائف من سطوته، وكيف لا يخاف ويكفيه شرا احتقاره لغيره؟!

٢ — « . . . لا تحاسدوا . . . » .

قد تدور بخلد المرء بعض المعاصى ، وتحدثه نفسه باقتراف إثم ما ، أو ربّما يزين له قرينه — إبليس اللعين — معصية من المعاصى، ويكون الدافع هنا هو الشيطان الرجيم. ولكل عدوّ — الشيطان ، والنفس ، والهوى — سلاح يدفع به وطريقة يتخلّص المؤمن من شرهما بما يلى :

أما إبليس : فقد كفانا المولى — عزّ وجل — شرّه إذا ما ابتعدنا عن نهجه ولم نترسّم خطواته واستعذنا بالله ولذنا بحصنه تعالى .

وأمّا النفس البشرية فسلاح مقاومتها هيّن على من أعانه الله تعالى على وساوسها، ولكن قبل تعرّضنا لذلك جدير بنا أن نبين الفارق بين وسْوسة الشيطان وتطويع النّفس لارتكاب المعاصى ، حيث إن إبليس اللعين لا يزال ينتقل بصاحبه من معصية إلى أخرى ؛ فيزين له القتل مثلا ، فإن لم يفلح فى الإيقاع بصاحبه نقله إلى الزنا مثلا . . ويظل يسوّل له حتّى يوقعه فى واحدة منها ، هنالك يكون قد حقّق هدفه ونفّذ غاية الإغواء : ﴿ **قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ [ص : ٨٢]﴿ **قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي** ﴾ [الأعراف:١٦] ، وأمّا النّفس البشرية فإنها تأمر صاحبها باقتراف إثم وتظلّ وتلحّ عليه

---

(١) صحيح مسلم .

ولا يهدأ لها بال إلا إذا أجاب مطلبها ، مهما ارتكب من المعاصى المختلفة ، والمؤمن متمكّن بعون الله من مقاومتها ، فإن هى تطلعت إلى ما فى أيدى الناس وراحت تمنىّ صاحبها بزوال نعم الغير وتحثّه إلى السعى فى انتقالها إليها أو إتلافها وحرمان المتنعّمين بها . أوقفها صاحبها ، بل وأشهر سلاح الإيمان لمقاومتها وصدّ هجومها وهو ذا الجهاد فى النّفس حيث يتبع فيه المراحل التالية :

أ ــ تذكير النفس بمضار الحسد الدنيويّة وعواقبه الأخروية الوخيمة باستعراض الأحاديث النبوية الشريفة التى تصورّ هو عقاب الحسد كحديث الزبير بن العوام رضى الله عنه عن النبىّ ﷺ قال : « دب إليكم داء الأمم قبلكم : الحسد والبغضاء ، والبغضاء هى الحالقة : حالقة الدّين لا حالقة الشعر . . . . . » (١) ، وحديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبىّ ﷺ قال : « إيّاكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » أو قال : « العشب » (٢) .

ب ــ ألا يعيد ما حدثته نفسه به اختيارا .

جـ ــ وألا يعمل بمقتضى حسده فيسعى إلى تحقيقه بالبغى على المحسود بقول أو فعل .

د ــ أن يسعى إلى رزالة ما علق بنفيه من الحسد بالإحسان إلى المحسود والدعاء له، وبث محامده ، ومن ثم يعمل على إبدال حسده إلى حب صادق ، وذى هى أعلى درجات المجاهدة التى هى قمة الإيمان السّامقة .

٣ ــ « . . ولا تباغضُوا . . . . » .

الحبّ فى الله والبغض فيه ميزة الأتقياء الأنقياء الذين خلصت نفوسهم من الاعتبارات الشخصية ، وسمت أرواحهم من الموازين الأرضية . وهو ــ أى الحبّ فى الله والبغض فى الله ــ غير داخل فى هذا النهى النبوىّ ، ولكن ينبغى التذكير أن الحبّ فى الله منبثق عن امتثال أمر الله تعالى واجتناب نهيه ، لا عن حقيقة إيمان المرء ودرجة إخلاصه مع ربه فمعرفة هذه من اختصاصات المولى ــ عز وجل . ومن ثم فبغضك لرجل ظهر منه شر ــ وهو فيه معذور ــ هو عينه البغض فى الله المأجور عنه ، ولهذا فى الأثر دليل حيث قال عمر رضى الله عنه : إنّا كنّا نعرفكم إذ رسول الله ﷺ بين أظهرنا وإذ ينزل الوحى ، وإنما نعرفكم بما نخبركم ، ألا من أظهر منكم لنا خيرا ظننا به خيرا وأحيناه عليه ، ومن أظهر منكم شرًا ظننا به شرًا وأبغضناه عليه ، سرائركم بينكم وبين ربكم تعالى . وقال الربيع بن خيثم : لو رأيت رجلا يظهر خيرا ويسرّ شرًا

(١) رواه الترمذى . (٢) رواه أبو داود .

أحببته عليه آجرك الله على حبك الخير ، ولو رأيت رجلا يظهر شرّا ويسر خيرا أبغضته عليه آجرك الله على بغضك الشرّ .

العقائدية :

الحاسد الذى يتمنّى زوال النعم ، ويسعى إلى نقلها لنفسه معترض على قضاء الله وقدره ، غير راض بما قسم الله له ولله درّ القائل :

ألا قل لمن ظل لى حاسدا أتدرى على من أسأت الأدب

أسأت على الله فى حكمه إذا أنت لم ترض لى ما وهب

الفقهية :

١ ـ « ولا تناجشوا . . . ولا يبع بعضكم على بيع بعض » .

ورد النهى عن ذلك فى روايات كثيرة وبصيغ عديدة ؛ ففى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبىّ ﷺ قال : « لا يبع المؤمن على بيع أخيه ، ولا يخطب على خطبة أخيه » . وفى رواية لمسلم : « لا يسم المسلم على سوم أخيه ، ولا يخطب على خطبته » . وخرج البخارى ومسلم من حديث ابن عمر عن النبىّ ﷺ قال : « لا يبع الرّجل على بيع أخيه ، ولا يخطب على خطبة أخيه إلا أنْ يأذن له»، والنهى هنا للتحريم غير أن فقهاء الإسلام اختلفوا فى صحّة البيع أو الخطبة ؟

(فقال أبو حنيفة والشافعى ـ رحمهما الله ـ وأكثر أصحابنا (١) : يصحّ ، وقال مالك فى النكاح : إنه إن لم يدخل بها فرق بينهما ، وإن دخل بها لا يفرق ، وقال أبو بكر من أصحابنا فى البيع والنكاح : إنه باطل على كل حال ، وحكاه عن أحمد ، ومعنى البيع على بيع أخيه أن يكون قد باع منه شيئا فيبذل للمشترى سلعته ليشتريها ، ويفسخ بيع الأول ، وهل يختصّ ذلك بما إذا كان البذل فى مدّة الخيار بحيث يمكن المشترى من الفسخ فيه أم هو عام فى مدّة الخيار وبعدها ؟

فيه اختلاف بين العلماء ، وقد حكاه الإمام أحمد فى رواية حرب ، ومال إلى القول بأنه عام فى الحالين ، وهو قول طائفة من أصحابنا .

ومنهم من خصه بما إذا كان فى مدة الخيار ، وهو ظاهر كلام أحمد فى رواية ابن مشيقص ومنصوص الشافعى ، والأوّل الأظهر ؛ لأن المشترى وإن لم يتمكن من الفسخ بنفسه بعد انقضاء مدة الخيار ؛ فإنه إذا رغب فى ردّ السلعة الأولى على بائعها فإنه

(١) رأى الحنابلة .

يتسبب فى ردّها عليه بأنواع من الطرق المستفيضة لضرره ، ولو بإلحاح عليه فى المسألة وما أدّى إلى ضرر المسلم كان محرمًا ، واللّه أعلم)(١) .

٢ ــ « ولا تباغضوا . . ولا تدابروا . . » .

التدابر كما عرفه علماء الإسلام : التقاطع ، وهو مأخوذ من الإعراض ؛ لأن كل واحد يولى صاحبه دبره .

وهو فى الأمور الدنيوية حرام ، فقد ورد فى الصحيحين عن أبى أيوب عن النبى ﷺ قال : « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، يلتقيان ؛ فيصد هذا ويصدّ هذا وخيرهما الذى يبدأ بالسلام » .

أما إذا كان الهجر فى الأمور الدينية فيجوز الهجر فيها أكثر من ثلاث :

أ ــ ومن قبيلها : هجر الزوج زوجته تأديبا ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلا ﴾ [النساء : ٣٤] كما هجر النبى ﷺ نساءه شهرا .

ب ــ ومنه هجر النبى ﷺ لكعب بن مالك وصاحبيه خمسين يوما لما تخلفوا عن غزوة تبوك بغير عذر ، وأمر أصحابه بهجرانهم .

جـ ــ وكذا هجر أهل البدع والضلالات .

وهناك لطيفة أخرى تفطن إليها ابن قيم الجوزية حيث قال معقبا على نهى النبى ﷺ عن مكالمة المخلفين عن غزوة تبوك :

(. . . وفيه دليل أيضا أنّ رد السلام على من يستحق الهجر ليس بواجب) (٢) . مستمدا ذلك من حكاية كعب رضى اللّه عنه لحاله حيث قال : فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين . . وآتى رسول اللّه ﷺ فأسلم عليه ، وهو فى مجلسه بعد الصلاة ، فأقول : هل حرك شفيته بردّ السلام علىّ أم لا ؟ .

واختلف فى انقطاع الهجر بالسلام ، روى عن مالك أن السلام لا يقطع الهجران بدون العودة إلى المودة ، ولا بأس أن نورد قصة لعائشة أم المؤمنين مع ابن اختها عبد الله بن الزبير ــ رضى اللّه عنهما ــ وقد استشكلها العلماء ؛ لأنها جمعت بين النذر والهجر، روى البخارى عن عائشة ؛ أن عبد الله بن الزبير قال فى بيع أو عطاء أعطته عائشة : واللّه لتنتهين عائشة ، أو لأحجرن عليها ، فقالت : أهو قال هذا ؟ قالوا :

(١) جامع العلوم والحكم ص ٣١٣ .

(٢) زاد المعاد فى هدى خير العباد ٣ / ٢٠ .

نعم ، قالت : هو للّه على نذر ألا أكلم ابن الزبير أبدا . فاستشفع ابن الزبير لها حين طالت الهجرة ، فقالت : لا ، واللّه لا أشفع فيه أبدا . ولا أحنث فى نذرى ،فلما طال ذلك على ابن الزبير كلم المِسْور بن مخْرَمَة ، وعبد الرحمن بن الأسْود بن عبد يغوث ، وهما من بنى زُهرة ، وقال لهما : أنشدكما باللّه لما أدخلتمانى على عائشة فإنها لا يحل لها أن تنذر قطيعتى ـ هى خالته ومرّ بيته ـ فأقبل به المسور وعبد الرحمن وهما مشتملين بأرديتهما حتى استأذنا على عائشة ، فقالا : السلام عليك ورحمة اللّه وبركاته، أندخل ؟ قالت عائشة : ادخلوا ، قالوا : كلنا ؟ قالت : نعم ادخلوا كلكم، ولا تعلم أن معهما ابن الزبير ، فلما دخلوا دخل ابن الزبير الحجاب فاعتنق عائشة ، وطفق يناشدها ويبكى وطفق المسور وعبد الرحمن يناشدانها : إلا ما كلمته ، وقبلت منه ، ويقولان : إن النبى ﷺ نهى عما قد علمت من الهجر ، وإنه لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال ، فلما أكثروا على عائشة من التذكرة بفضل صلة الرحم والعفو وكظم الغيظ ـ والتحريج ـ والتضييق ـ طفقت تذكرهما وتبكى ، وتقول : إنى نذرت ، والنذر شديد ، فلم يزالا بها حتى كلمت ابن الزبير ، وأعتقت فى نذرها ذلك أربعين رقبة ، وكانت تذكر نذرها بعد ذلك فتبكى حتى تبل دموعها خمارها .

٣ ـ « . . . كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » .

إن كتب الفقه الإسلامى قد أفاضت فى الحديث عن الجنايات وأحكامها ، والقصاص وأنواعه بما يشفى غليل الباحث فليعد إليها من شاء .

النفسية :

« . . . لا تحاسدوا . . . ولا تباغضوا . . . » .

ـ ليس صدفة أن يبدأ النبى ﷺ فى منهياته بالحسد ؛لأنه الداء النفسى الخطير والباعث للمرء على ارتكاب الإثم الكبير حيث يبدأ حديثا نفسيا ، ثم تتأجج نيرانه فى ميدان الواقع الملموس لتأتى على الأخضر واليابس ، ولإتلاف الزرع والضرع ، وهذه كفيلة بغرس الشحناء والتقاطع والتدابر .

والحاسد امرؤ حاله يرثى لها ؛ لأنه يرقب الناس صباحًا ومساء فلا يهدأ له بال ولا يقر به قرار بل ولا يغمض له جفن ولا يذق طعم الراحة والأمان ، وللّه درّ خليفة المسلمين عمر بن عبد العزيز حيث قال: ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من الحاسد غمّ دائم ونفس متتابع، ويرجع أمره هذا إلى تطلعه إلى من هم فوقه مالا أو سلطانا وجاها،

كان الأولى به أن يتمثل لأمر نبيه ﷺ ، فعن أبى هريرة رضى اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن تزدروا نعم الله عليكم » . وصدق الشاعر الناصح :

من رام عيشا رغيدا يستفيد به في دينه ثم فى دنياه إقبالا
فلينظـرن إلى من فوقـه أدبـا ولينظرن إلى من تحته مـالا

وعليه أن يروض نفسه على النظر إلى النعم التى ينعم بها الناس باعتبارها دليلا على المنعم ــ سبحانه وتعالى ــ ،وليصوب نظره إلى من هم دونه ليحمد اللّه على ما أولاه.

ــ والحاسد بطبيعته لا يصافيك وإن أفنيت عمرك فى استرضائه :

كـل العـداوة يـرتجى بـرؤهــا إلا عداوة من عاداك من حسد

ومن ثم فلا تسعى إلى لومه ؛ لأنك بذلك تشفى غليله ، بل إعراضك عنه يكفيك شره ويمنع عنك ضرره :

دع الحسود وما يلقاه من كمده يكفيك منه لهيب النار فى كبده
إن لمت ذا حسد فَرّجت كربتـه وإن سكـت فقـد عـذبتـه بيـده

ويقول شاعر آخر :

اصبر على كيد الحسود فإن صبـرك قاتلـه
كـالنـار تـأكل بعضهـا إن لم تجد ما تأكله

وأكبر حصن يلوذ به المرء هو قوله تعالى بعد البسملة : ﴿ **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ . مِن شَرِّ مَا خَلَقَ . وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ . وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ . وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ** ﴾ [سورة الفلق] .

ــ من طهر قلبه من الغل والحسد ضمن الحياة الكريمة والاستقرار والطمأنينة فى الدنيا والسعادة فى الأخرى كذلك، عن أنس بن مالك رضى اللّه عنه قال: كنا جلوسا مع رسول اللّه ﷺ فقال: «يطلع الآن عليكم رجل من أهل الجنة» فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه قد علق نعْليه بيده الشمال ، فلما كان الغدُ قال النبى ﷺ مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى ، فلما كان اليوم الثالث قال النبى ﷺ مثل مقالته أيضا، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأول، فلما قام النبى ﷺ تبعه عبد اللّه بن عمرو، فقال: إنى لاحيتُ أبى، فأقسمت أنى لا أدخل عليه ثلاثا؛

فإن رأيت أن تؤوينى إليك حتى تمضى فعلت ، قال : نعم ، قال أنس : فكان عبد اللّه يحدث أنه بات معه تلك الثلاث الليالى فلم يره يقوم من الليل شيئا غير أنه إذا تعارـ تقلب على فراشه ــ ذكر اللّه ــ عز وجل ــ ، وكبر حتى صلاة الفجر ، قال عبد اللّه: غير أنى لم أسمعه يقول إلا خيرا ، فلما مضت الثلاث ليال ، وكدت أن أحتقر عمله قلت: يا عبد اللّه لم يكن بينى وبين أبى غَضَبٌ ولا هجرة ، ولكن سمعت رسول اللّه ﷺ يقول لنا ثلاث مرار : « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » ، فطلعت أنت الثلاث مرار ، فأردت أن آوى إليك ، فأنظر ما عملك، فأقتدى بك ، فلم أرك عملت كبير عمل ، فما الذى بلغ بك ما قال رسول اللّه ﷺ؟ قال : ما هو إلا ما رأيت ، فلما وليت دعانى فقال: ما هو إلا ما رأيت غير أنى لا أجد فى نفسى لأحد من المسلمين غشًا ولا أحسد أحدًا على خير أعطاه اللّه إياه ، فقال عبد اللّه : هذه التى بلغت بك (١).

« ولا يكذبه . . » .

إن القرآن كفيل بتحليل شخصية الكاذب وكشفه عن حقيقته قبل أن يدلى علماء النفس بدلائهم فى هذا المجال (٢).

« ولا يحقره . . بحسب امرئ من الشرّ أن يحقر أخاه المسلم » .

احتقار الناس وازدراؤهم خسيسة متولدة عن التكبّر على خلق اللّه ، وعقدة المتكبّر أنه يرى نفسه بعين الكمال وإلى غيره بعين النقص ، يرى نفسه أنه الأفضل والأحسن والأجمل . . . والمبرّأ من كل نقيصة . . وغيره جمعوا الرذائل . أو أنه معقد نفسيًا من نقص مادى أو معنوى أو عيب خلقى فى شخصه فيسعى جاهدًا إلى تغطيته بالتعالى على الغير والتكبر عليهم غير أنه ــ فى حقيقة الأمر ــ لا يضر إلا نفسه وعقيدته، فهو محارب للّه ــ عز وجل ــ منازعٌ له فى خاصية من خصوصياته . روى مسلم عن النبى ﷺ : « قال تعالى : العز إزارى ، والكبرياء ردائى فمن نازعنى عذبته » .

ثم إن المتكبر عدوّ لنفسه ؛ لأنه يستنكف سماع النصح فيعمى التكبّر بصره ويصم سمعه ويضحى كالذى ورد فيه : ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ** ﴾ [البقرة : ٢٠٦]، وقال تعالى أيضا فى شأن هؤلاء: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا** ﴾[الفرقان : ٦٠] ، ﴿ **وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي**

(١) رواه أحمد بإسناده على شرط البخارى ومسلم والنسائى .

(٢) تعرضت لذلك فى كتاب : ماذا خسر العالم بالانحطاط الأخلاقى ص ٤٠ .

الأَرْض بغَيرِ الْحَقِّ ﴾ [القصص : ٣٩] .

وفى مسلم : قالت قريش لرسول اللّه ﷺ : كيف نَجْلس إليك وعندك هؤلاء؟ أشاروا إلى فقراء المسلمين فازدروهم وتكبّروا عن مجالستهم ،فأنزل اللّه تعالى : ﴿ **وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [الأنعام : ٥٢] .

والمتكبر مهما كانت دوافعه إنسانٌ مادى لا يدرك سرّ التفاضل الحقيقى الذى أشار إليه النبى ﷺ فى قوله : « التقوى ها هنا »(١) طبقا لقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ [الحجرات : ١٣] .

وإذا كان أصل التفاضل بالتقوى ، فإن أصل التقوى فى القلوب، ومن ثم فلا يطلع أحد على حقيقتها إلا اللّه تعالى ، وإذا كان ذلك كذلك ، فكيف يتفاضل أقوام ويتفاخرون على آخرين دون أن يشقوا على صدورهم ؟ !

كان الأجدر بهؤلاء وأمثالهم أن يعتبروا بما جاء فى صحيح البخارى عن سهل بن سعد قال : مرّ رجل على رسول اللّه ﷺ فقال لرجل عنده جالس : « ما رأيك فى هذا؟ » فقال : رجل من أشراف الناس : هذا واللّه حرى إن خطب أن ينكح ، وإن شفع أن يشفع ، وإن قال أن يسمع لقوله ، قال : فسكت النبى ﷺ ثم مرّ رجل آخر، فقال رسول اللّه ﷺ: ما رأيك فى هذا ؟ » قال : يا رسول اللّه هذا رجل من فقراء المسلمين هذا حرىّ إن خطب ألا ينكح ، وإن شفع ألا يشفع ، وإن قال لا يسمع لقوله، فقال رسول اللّه ﷺ : «هذا خيرٌ من ملء الأرض مثل هذا » .

« لا تحاسدوا ولا تناجشوا . . ولا يبع بعضكم على بيع بعض . . » .

حبّ المال فطرة أودعها اللّه فى الإنسان ﴿ **وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا** ﴾ [الفجر : ٢٠] ولكنه هذبها بالإيمان ، فبين الإسلام أن المادة ليست كل شىء، وإنما هى وسيلة فحسب، ولخطورتها تولى القرآن الكريم نفسه تبيان مصادر المال الحلال ومصارفه، وأشرف على توزيعه على الورثة بالتدقيق .كل ذلك حتى يربأ بالمجتمع الإسلامى أن تربطه خيوط المادة الواهية ، وتنهش مخالبها المبادئ السّامية ، والقيم الروحية الفاضلة؛ وساعتها لنْ تُفرق بين المجتمعات البشرية والتجمعات الوحشية الغابية .

« ولا يكذبه » .

(١) رواه مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب .

فى الحقيقة إن جرم الكذب شنيع جدًا لهذا وصفه القرآن الكريم بـ : ﴿ وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ [النور : ١٥] وشناعته فى قبح آثاره ، وجسامة مصائبه ، وفداحة أخطاره.

« . . لا يظلمه ولا يخذله . . » .

إن الفرد فى المجتمع الإسلامى لا يكف يده عن البطش ، ولسانه عن القذف ، وجوارحه عن الظلم فحسب ، بل يقف منافحا عن أعراض إخوانه ، ومدافعا عن دمائهم بكل ما أوتى من قوة وعزيمة ، وهكذا تتكافل لبنَات المجتمع الإسلامى مجسدة التلاحم فيما بينها ، مستمدة تماسكها من المبادئ الإسلامية المنصوص عليها فى العديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة ، وإذا أردت التمعن فانظر إلى هذا التصوير الدقيق ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف: ٤] . « مثل المؤمنين فى توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد » .

وبهذه المواقف يبرهن المؤمن على عدم أنانيته ، ومن ثم يستعصى على أعدائه القضاء عليه مهما أوتوا من منكر ؛ لأنه يضع الحكمة القائلة : أكلت يوم أكل الثور الأبيض دوما نصب عينيه .

أخرج أبو داود من حديث أبى طلحة الأنصارى وجابر بن عبد اللّه عن النبى ﷺ قال : « ما من امرئ مسلم يخذل امرأً مسلما فى موضع تنتهك فيه حرمته وينتقص فيه من عرضه إلا خذله اللّه فى موطن يحب فيه نصرته ، وما من امرئ ينصر مسلما فى موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك من حرمته إلا نصره اللّه فى موضع يحب فيه نصرته »(١) .

« . . لا تحاسدوا ولا تناجشوا . . . المسلم أخو المسلم . . . . . » .

إن الأخوة فى الإسلام ليست من تخيلات المدينة الفاضلة ولا من قبيل الفرضيات أو الشعارات الجوفاء ، بل هى حقيقة لمستها أيدى الأعداء فضلا عن الأصدقاء ، تجسدت على أرض الواقع وحققت المعجزات حتى إن الرائى لذلك المجتمع لا يرى أفرادًا أشتاتا، بل يرى أنسجة حيّة وعروقا نابضة وشرايين متدفقة وأعضاء متكاملة لجسم واحد ، مشاعره واحدة ، ومبادئه واحدة ،وأحاسيسه واحدة ،وأهدافه أيضا واحدة .

لقد أرسى الإسلام أسس ذلك المجتمع ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] ﴿ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ . وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي

(١) أبو داود : كتاب الأدب ٤٨٨٤ .

الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ [الأنفال : ٦٢ ، ٦٣] .

ومن خصوصيات المجتمع الإسلامى أنه خال من المقوضات ، فلا تعصف به العواصف ولا تزلزله الأحداث ؛ لأن الإسلام حرّم كل ما يوجب القطيعة من خمر ، وميْسر، وقمار ، وحسد ، وتناجش ، وخطبة على خطبة ، وصدق ربنا إذ يقول : ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ** ﴾ [المائدة : ٩١] .

وحثّ ــ أى الإسلام ــ على موجبات الألفة وكل ما يذهب الضغائن :

أولها : إفشاء السلام ، عن النبى ﷺ أنه قال :« والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنّة حتّى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم » (١) .

ثانيها : المصافحة ، قال الحسن رضى اللّه عنه : المصافحة تزيد فى المودة .

ثالثها : التهادى ، فعن أبى هريرة رضى اللّه عنه ، عن النبى ﷺ قال : «تهادوا فإن الهدية تذهب وحر الصدر » .

رابعها : أمر المسلمين بالسعى إلى إصلاح ذات البيْن وخول للطائفة المصلحة كل الصلاحيات لإرجاع الفئة الباغية إلى رشدها والإقلاع عن غيها . قال تعالى : ﴿ **وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا** ﴾ [الحجرات : ٩] ،﴿ **لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ** ﴾ [النساء : ١١٤] .

خامسها : وحرّم النميمة التى هى أكبر هادم للعلاقات الاجتماعية . عن أسماء بنت يزيد عن النبى ﷺ قال : « ألا أنبئكم بشراركم ؟» قالوا : بلى يا رسول اللّه ، قال : «المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الأحبّة الباغون البراء العيب » (٢)

« بحسب امرئ من الشرّ أن يحقر أخاه المسلم » .

مهما كانت دوافع الاحتقار الذى أفاض فيه حجة الإسلام الإمام الغزالى ــ رحمه اللّه ــ والتى تعرضنا لبعض منها فى الحديث عن الجانب النفسى ، فإن الاحتقار والتعالى على الناس يكرّس ظاهرة خطيرة فى المجتمعات ، وهى ظاهرة الطبقية المجحفة حيث ينقسم المجتمع إلى ثلة الأخيار المبَجّلين المترفين ؛لأنهم الأمراء الحكام أو الذين

---

(١) رواه مسلم .

(٢) أخرجه الإمام أحمد وغيره .

تزكيهم الدوائر الحزبية ــ فى بعض المجتمعات ــ وهؤلاء حقهم العيش الكريم والرخاء العميم ، والأجور المرتفعة ، والقصور العالية ، والمراكب الفخمة ، والكلمة الأولى لهم ، والمجالس الأولى من حقهم ؛ وكأنهم ولدوا وفى أفواههم ملاعق من ذهب .

وغالبية ساحقة مسحوقة تقتات على الفتات . . وليس لهم إلا المكاء والتصدية ، والويل لهم إن حدثتهم أنفسهم بأمر بمعروف أو نهى عن منكر ، أو حتى يئنوا من وطأة التمييز التى منها يعانون ؛ لأنهم يتدخلون فى أمور لا يفهمون فيها . . وليس لهم فيها نقير أو قطمير . . ولأنهم ليْسوا من أعضاء الكتلة السّائدة بل هم من الغالبية المسودة . . وهلم جرّا .

ووالله إن فتنة الطبقية هذه التى جعلت من أمراء العالم الإسلامى يُولدون أمراء ويموتون أمراء . .ويبعثون . . ؟ ! لهى ثمرة خبيثة بذرها أعداؤنا فى جسم هذه الأمة حتى أضحى الشريف ابن الشريف ــ كما يقال ــ يفعل ما يشاء فى أعراض مريديه وأتباعه وأموالهم وأنفسهم ما لا يفعله العدّو بعدوّه . . . ألا فسحقا وتبا لهؤلاء وأولئك المخلفين عن جلاء أسيادهم إلى وراء البحار .

الأخلاقية :

« كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وماله ، وعرضه » .

إن المسلم الحقيقى هو الذى يسعى جاهدا إلى كفّ جوارحه وكبح جماحها حتى لا تنهش أعراض الناس أو تدخل الأذى عليهم بأى وجه من الوجوه ، قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٥٨]،ومن أشد الأذى الغيبة، ورد فى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه سئل عن الغيبة فقال: «ذكرك أخاك بما يكره» قال: أرأيت إن كان فيه ما أقول؟ فقال: « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته».

ومن الأذى أيضا ترويع المسلمين ولو على سبيل المزاح عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال :حدثنا أصحاب محمد ﷺ أنهم كانوا يسيرون مع النبى ﷺ ، فنام رجل منهم، فانطلق بعضهم إلى حبل معه فأخذه ففزع ، فقال رسول الله ﷺ :« لا يحل لمسلم أن يروّع مسلما » .

ومن كلام يحيى بن معاذ الرازى : ليكن حظ المؤمن منك ثلاثة : إن لم تنفعه فلا تضره، وإن لم تفرحه فلا تغمّه ، وإن لم تمدحه فلا تذمه.

الفكرية :

ليس من البغض فى اللّه فى شيء أن نبغض من يخالفنا الرأى أو يقلد مذهبا لا نتبعه ، أو ينضوى تحت جماعة ما من الجماعات الإسلامية التى انتهجت منهجا للإصلاح يختص بها ، بل علينا أن نضع فى أذهاننا دوما القولة الحكيمة : كلكم رادّ ومردود عليه إلا صاحب هذا القبر عليه الصلاة والسلام .

وليتأكد كل حركى أيا كانت جماعته أن العصمة للمصطفين الأخيار ـ صلوات اللّه عليهم ـ مطمئنا أن قدوته أو إمامه أو شيخه لا يقمط حقه فى الاجتهاد فله الأجر حتى وإن جانب الصواب ما خلصت نيتّه وصحت وسيلته .

ثم أن الانتساب لحركة ما ، أو مذهب ما ؛ لا يعنى إطلاقا أن هذه الجماعة هى الجماعة الإسلامية . . وما عداها عار من ذلك وبالتالى يجب إعلان الحرب عليه ومدافعته . . وها هم الأئمة الأعلام أنفسهم يربؤون بالأمة أن تعتقد ذلك المعتقد الشاذ.

(ولما كثر اختلاف الناس فى مسائل الدين وكثر تفرقهم كثر بسبب ذلك تباغضهم وتلاعنهم ، وكل منهم يظهر أنه يبغض للّه .

وقد يكون فى نفس الأمر معذورًا ، بل يكون متبعا لهواه مقصّرا فى البحث عن معرفة ما يبغض عليه ، فإن كثيرا من البغض كذلك إنما يقع لمخالفة متبوع يظن أنه لا يقول إلا الحق ، وهذا الظن خطأ قطعا ، وإن أريد أنه لا يقول إلا الحق فيما خولف فيه، فهذا الظن قد يخطئ ويصيب ، وقد يكون الحامل على الميل إليه مجرّد الهوى والألفة أو العادة وكل هذا يقدح فى أن يكون هذا البغض للّه ، فالواجب على المؤمن أن ينصح لنفسه ويتحرز فى هذا غاية التحرّز ، وما أشكل منه فلا يدخل نفسه فيه خشية أن يقع فيما نهى عنه من البغض المحرّم .

وهاهنا أمر خفى ينبغى التفطن له ، وهو أن كثيرًا من أئمة الدين قد يقول قولا مرجوحا ويكون مجتهدا فيه مأجورا على اجتهاده فيه ، موضوعا عنه خطؤه فيه ، ولا يكون المنتصر لمقالته تلك بمنزلته فى هذه الدرجة ؛ لأنه قد لا ينتصر لهذا القول إلا لكون متبوعه قد قاله بحيث لو أنه قد قاله غيره من أئمة الدّين لما قبله ، ولا انتصر له، ولا والى من يوافقه ، ولا عادى من خالفه ، ولا هو مع هذا يظن أنه إنما انتصر للحق بمنزلة متبوعه وليس كذلك فإن متبوعه إنما كان قصده الانتصار للحق وإن أخطأ فى اجتهاده .

وأما هذا التابع فقد شابه انتصاره لما يظنه الحق إرادة علو متبوعه وظهور كلمته ، وأنه لا ينسب إلى الخطأ وهذه دسيسة تقدح فى قصد الانتصار للحق فافهم هذا فإنه مهم

عظيم والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) (١) .

التاريخية :

« . . لا تحاسدوا . . » .

الحسد داء قديم قدم هذه البشرية دخيل على الأمة الإسلامية . عن الزبير بن العوام عن النبى ﷺ : « دب إليكم داء الأمم قبلكم : الحسد والبغضاء » (٢) .

والقرآن الكريم يحدثنا عن أول حسد ؛ وأنه كان ذنب إبليس حيث حسد أبا البشرية آدم ــ عليه السلام ــ على ما أولاه من عناية وآتاه من نعم ميزه بها عن سائر المخلوقات ، فأبى السجود تعنتا وتكبرًا وأعلنها حربا شعواء لا هوادة فيها على آدم وأبنائه إلى يوم القيامة .

والقرآن نفسه يسجل حسد أبناء يعقوب لأخيهم يوسف عليه السلام فيقول : ﴿ **إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ** ﴾ [يوسف : ٨ ، ٩] .

وها هو ذا يصور لنا الطوائف اليهودية بالمدينة المنورة وهى تتربص ظهور النبى الجديد لتنقض على القبائل العربية المشركة ،وتمنّى نفسها بمبعثه الأمانى ، ولكنها فوجئت به من بنى هاشم ــ إحدى القبائل العربية ــ لا من بنى إسرائيل كما درجت على ذلك؛ فحملها الحسد على الكفر والجحود، قال محمد بن إسحاق عن ابن عباس: إن يهوداً كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه ، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه ، فقال لهم معاذ بن جبل : يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك وتخبروننا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته ، فقال سلام بن مشكم ــ أخو بنى النضير ــ : ما جاءنا بشيء نعرفه ، وما هو بالذى كنا نذكر لكم . وفيهم أنزل الله قوله : ﴿**وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾ [البقرة : ٨٩] . ويكفى فى كشف مكرهم قول الحق سبحانه : ﴿ **وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا** ﴾ [البقرة : ١٠٩] .

---

(١) جامع العلوم والحكم فى شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم ص ٣١١ .

(٢) رواه أحمد والترمذى .

الاقتصادية :

« ولا تناجشوا . . ولا يبع بعضكم على بيع بعض » .

ـ الأخلاق من أسس الاقتصاد الإسلامى حيث تقوم جميع المعاملات المادية من بيع وشراء ، وكراء ، ومزارعة ، ومساقاة . . . و . . و . . على الإخلاص والصدق والصفاء لا على الغش ، والمكر ، والتدليس ، وذى أحاديث النبى ﷺ تشهد بذلك: عن جابر بن عبد الله ـ رضى اللّه عنهما ـ أن رسول اللّه قال : « رحم اللّه عبدا سمحا إذا باع ، سمحا إذا اشترى ، سمحا إذا اقتضى » (١) . وعن أبى هريرة رضى اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ مرّ على صبْرَة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللاً ، فقال : « ما هذا يا صاحب الطعام ؟» قال : أصابته السماء يا رسول اللّه ، قال: «أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ، من غشنا فليس منا » (٢) .

وعن عقبة بن عامر رضى اللّه عنه عن النبى ﷺ قال: « المسلم أخو المسلم ، ولا يحل لمسلم إذا باع من أخيه بيعا فيه عيب ألا يبينه » (٣) .

وعن حكيم بن حزام رضى اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال : « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا ، فإن صدق البيعان وبينا ، بورك لهما فى بيعهما ، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما » (٤) ، « اليمين الفاجرة منفقة للسلعة ممحقة للكسب » .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى اللّه عنه عن النبى ﷺ قال :« التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء » (٥) .

وذلك لأن التاجر المسلم لا يسعى إلى الربح المادى المعجل فحسب بل ويضع نصب عينيه الربح فى الأخرى ، ويعمل على تحقيقه بامتثال الأحاديث النبوية السابقة ؛ لأن الخسارة الأخروية لا تعوض بأى ثمن بخلاف الخسارة المادية .

ـ التناجش أو بيع البعض على الآخر جريمة نكراء فى حق الاقتصاد العام للأمة ؛ لأنه يضعف القدرة الشرائية للفرد ، ويساعد فى التضخم النقدى ، ويشجع البضائع على حساب النوعية والإتقان والجودة حيث يصبح الرواج مضمونا للبضاعة التى عليها التناجش، والذى هو بمثابة الإشهار والإعلان ؛ لأن المتناجشين يلفتون الأنظار ، ويشدون الأسماع ويأسرون الأنفس للمادة التى عليها التناجش .

---

(١) رواه البخارى . (٢) رواه مسلم .

(٣) رواه البخارى .

(٤) رواه البخارى ومسلم .

(٥) رواه الترمذى .

السياسية :

« لا يظلمه ولا يخذله » .

ـ إن الحاكم المسلم مسؤول أمام اللّه ـ عز وجل ـ عن أوطان المسلمين وديارهم وأموالهم ، وأعراضهم ، وحرماتهم ، فإن خذلهم فى شىء من ذلك فقد خان أمانته، ونكث عهده ، وغدر أمته . . . وهذا الخليفة عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه يضرب المثل فى تحمله لأعباء المسؤولية التى أنيطت به فيقول صراحة : لو عثرت بغلة بالعراق لسألنى اللّه عنها : لمَ لم تصلح لها الطريق يا عمر ؟ !

وكان التعدى على كرامة المرأة المسلمة فى دكان اليهودى هو الشعرة التى قصمت ظهر البعير وجلبت لبنى قينقاع الحصار والنفى والتهجير جزاء لخيانتها وغدرها . روى ابن هشام عن عبد اللّه بن جعفر بن المسور بن مخرمة عن أبى عوانة : (أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها ، فباعته بسوق بنى قينقاع وجلست إلى صائغ بها ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها ، فأبت فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها ، فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوأتها ، فضحكوا منها ، فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وكان يهوديا ، وشدّت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على يهود فغضب المسلمون ، فوقع الشرّ بينهم وبين بنى قينقاع فكان هؤلاء أول يهود نقضوا العهد الذى بينهم وبين رسول اللّه ﷺ) (١) .

ولقد كانت غيرة الحكام المسلمين على دينهم ورعيتهم وأراضيهم تبث الرعب فى أعدائهم وتجعلهم يحسبون للأمة الإسلامية ألف حساب ، لقد استغاثت امرأة بالمعتصم: وامعتصماه ! فاهتز وأرعد وأبرق ، وجهز جيشه ، وأنذر قائد الروم برسالة خالدة كان الأجدر بحكام العرب أن يتخذوها قاموسا للعزة والكرامة . ومما جاء فيها : من المعتصم إلى كلب الروم . . إلى أن يقول له : إنى آتيك بجيش أوله عندك وآخره عندى .

هؤلاء حماة الحمى ، أما تاريخنا الحاضر الأغبر ،فحدث بل اندب حظ الإسلام فى كثير من حكام المسلمين ، ذى فلسطين وبقية الأوطان تستصرخ ، تستغيث مذ أربعين سنة. . وهذا قدسنا الشريف وأعراضنا ودماؤنا . . وتلك لبنان ، وأفغانستان التى ترزح من وطأة الدّب وذيوله . .و . . و !

الحناجر بحت ، والكلمات فقدت مصداقيتها وحتى هذه نفذت ، فمن لهذه المقدسات ؟ ومن لهذه الساحات ؟ ومن لهذه الردة ؟ ومن لهذا الاستبداد ؟ ومن

---

(١) سيرة ابن هشام ٢ / ٤٧ .

لأولئك الطغاة ؟ ومن لهذه الأقليات الإسلامية فى العالم : المهضومة ، المكلومة ؟ من يسترد كرامتها ، وأمنها ، وذاتيتها ؟ !

إن أمريكا والغرب برمته يقيم الدنيا ولا يقعدها ، ويراهن بأسلحته ، بنفوذه ، بدولاراته مقابل تخليص رهينة بلبنان ، لقد أضحى الرجل منهم كألف ، والألف منا كأف، للّه دّر من قال :

يسوس ساس سائس مسوس سياسة أساسها الفلوس

سياسة أساسها الفلوس سياسة الغربى هى الكبوس

ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلى العظيم .

« . . لا تحاسدوا . . ولا تناجشوا . . » .

ليس من التحامل أبدا على الحاكم إذا حملناه قسطا من تبعات الحسد ؛ لأن الحسد لا ينشأ من أسباب نفسية فحسب ، بل ويعود أيضا إلى الواقع المعاش والمحيط الاجتماعى، فإذا سُدت الأبواب أمام الكفاءات ووضعت أمام السواد الأعظم ـ الذين لا جاه لهم ولا سلطان ولا وسطاء ـ العراقيل ، وانفرد الأغنياء المحظوظون بما أوتوا من أموال وعقارات دون أن يؤدوا ما عليهم من واجبات ، هنالك نفوس فقراء المال والإيمان، وتتحرك سُموم الحسد بوجود بواعثه، ولعل الحق سبحانه أشار إلى هذا فى سرده لقصة الثرى المغرور ـ قارون ـ : ﴿ **فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ** ﴾[القصص : ٧٩] .

ولولا جور السلطان وفساد جهازه الإدارى وعدم تحكيمه لأمر ربه لما آل حال الأمة الإسلامية على الخصوص إلى الوضع الذى هى عليه الآن ؛ لأن ولى الأمر بمثابة القلب النابض ، فإذا صلح صلح الجسد كله ، وإذا فسد فسد الجسد كله ، وللّه در من قال : كما تكونوا يولى عليكم .

روى أن الوليد بن عبد الملك كان يحب العمران ، فكان الناس فى عهده يتساءلون بينهم عن العمران ويتنافسون فيه ، وكان أخوه سليمان ذا رغبة فى الأكل ، فكان حديث الناس فى عهده عن الطعام ، وكان سيدنا عمر بن عبد العزيز من أولى الصلاح والتقى ، فكان الناس على أيامه يتساءلون عن العبادة وتلاوة القرآن .

وانظر يرحمك اللّه إلى اهتمام عمر بن عبد العزيز بشؤون الأمة ، وتحرقه عليها فى وصف زوجته له حينما طلب منها عطاء ذلك: إن عمرـ رحمة اللّه عليه ـ كان قد فرغ للمسلمين نفسه ، ولأمورهم ذهنه فكان إذا أمسى لم يفرغ فيه من حوائج يومه ، وصل

يومه بليلته إلى أن أمسى مساء وقد فرغ من حوائج يومه فدعا بسراجه الذى كان من ماله فصلى ركعتين ، ثم أقعى واضعا رأسه على يديه، تسيل دموعه على خديه، يشهق الشهقة يكاد ينصدع قلبه لها ، وتخرج لها نفسه حتى برق الصبح فأصبح صائما .

فدنوت منه فقلت : يا أمير المؤمنين ،أليس كان منك ما كان ؟ قال : أجل فعليك بشأنك وخلينى بشأنى . قالت : فقلت : إنى أرجو أن أتعظ ، قال : إذًا أخبرك : إنى نظرت فوجدتنى قد وليت أمر هذه الأمة أسودها وأحمرها ، ثم ذكرت الفقير الجائع ، والغريب الضائع ، والأسير المقهور ، وذا المال القليل ، والعيال الكثير ، وأشباه ذلك فى أقاصى البلاد وأطراف الأرض ، فعلمت أن اللّه سائلى عنهم ، وأن رسول اللّه ﷺ حجيجى فيهم ، فخفت ألا يقبل اللّه منّى معذرة فيهم ، ولا تقوم لى مع رسول اللّه ﷺ حجّة ، فرحمت واللّه يا فاطمة نفسى رحمة دمعت لها عينى ، ووجع لها قلبى ، فأنا كلّما ازددت لها ذكرا ازددت منها خوفا فاتعظى إن شئت أو ذرى .

« كل المسلم على المسْلم حرام : دمه ، وماله ، وعرضه » .

إن الوضع الذى آلت إليه الأمّة الإسلامية اليوم هو تحقيق لقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِم** ﴾[الرعد : ١١] واللّه ما كانت إسرائيل ولا حلفاؤها لتتجرأ على حرمات المسلمين فتسفك دماءَهم بغير حساب لولا أن الطواغيت الذين تولّوا أمر هذه الأمّة فى فترات أليمة ولغوا فى دمائها ، واستحلّوا أرواح أبنائها ، وهذه دماء المسلمين زمن الحجاج تراق أنهارا قبل أن يتجاسر التتار على ذلك .

وتلك المضائق البحرية ــ كمضيق البسفور ــ شاهدة على التعسّف والجور حيث كان يؤتى بالرجل من فراش نومه ، ويثقّل بالحديد ثم يرمى فى عرض البحر ، وفى الصباح الموالى يرسل الحاكم تعازيه وتحياته إلى أولياء المقتول فتلهج الألسن بالدعاء والثناء .

وفى النصف الأوّل من هذا القرن ــ أى العشرين ــ مرت الأمة العربية بأحلك الأيام ، ومرّ الدعاة فيها بأقسى أشكال التعذيب والتّمثيل ، يعجز القلم عن وصفها ، ويندى الجبين من ذكرها !!

أين هى حرمة الدماء والأعراض ؟! يأيها الظلمة الأزلام أتقتلون رجلا لا لشىء إلا أن يقول : ربّى اللّه ؟ ! ﴿ **وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ . الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾[البروج : ٨ ، ٩] .

وهل تنتظرونه أن يستأذنكم كما ظن فرعون من قبل ؟ : ﴿ **قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ**

لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الشعراء : ٤٩] .

أما كان الأجْدر بكم أن تتأسّوا بنبيكم عليه الصلاة والسلام :

ـ عن ابن مسعود رضى اللّه عنه قال : كأنى أنظر إلى رسول اللّه ﷺ : يحكى نبيّا من الأنبياء ضربه قومه، فأدموه، وهو يمسح الدّم عن وجهه، ويقول: «اللهم اغفر لقومى فإنّهم لا يعلمون » (١) .

ـ وعن أنس رضى اللّه عنه قال : كنت أمشى مع رسول اللّه ﷺ وعليه برد نجرانى غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابى فجذبه بردائه جذبة شديدة ، فنظرت إلى صفحة عنق رسول اللّه ﷺ وقد أثر بها حاشية الرداء من شدة جذبته ثم قال : يا محمد مُر لى من مال اللّه الذى عندك ، فالتفت إليه فضحك ، ثم أمر له بعطاء (٢) .

فهل استحل النبى ﷺ دم الأعرابى الأجلف ؟ وهل أرعد وأبرق وأقام الدنيا وأقعدها . . وأهلك الحرث والنسل . . وأباد وشرّد ؟ حاشاه ﷺ .

ألا أيها الحاكم أيا كانت درجة مسؤوليتك إنك تتحمل أمانة عظمى ، فاتق اللّه فى أمانتك وفى أمتك ، بل وفى نفسك أولا .

ـ « كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وماله ، وعرضه » .

لقد اتخذت بعض أجهزة التعذيب : الاعتداء على الأعراض وسيلة من وسائل الاستنطاق . . فيؤتى بالرجل ويؤتى بقرينته أو كريمته ، ويعتدى عليهن علنا جهارا ، وهو يرسف فى الأغلال !

حقا إنها لأساليب جدّ حقيرة ، وأسلحة وضيعة كان الاستعمار الفرنسى فى بلادى وأعوانه ينكلون بحرمات بعض المجاهدين حينما يعجز عن الإمساك بهم أنفسهم .

يا قومنا : إنّنا لم نذل هذا الإذلال إلا بعد أن هانت علينا أنفسنا ، وخربنا بيوتنا بأيدينا . . واستحللنا حرماتنا ، وصدق كل من قال :

من يهن يسهل الهوان عليه ... فما لجرح بميت إيلام

إذا أنا خفت من أخوالى الروم خطة ... تخوفت من أعمامى العرب أربعا

وظلم ذوى القربى أشد غضاضة ... على المرء من وقع الحسام المهنّد

وخير من هذا كله قول أصدق القائلين ـ اللّه رب العالمين : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي

(١ ، ٢) رواه البخارى ومسلم .

الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص : ٤] .

« كل المسلم على المسلم حرام . . . ماله . . »

لسنا فى صدد ذكر المصادرات والمداهمات ، ولا نريدُ إحصاء الأراضى المغصوبة والدور المهدمة . .و. .و. . . فى هذا العالم الإسلامى ، بحجج واهية ، وفلسفات باطلة أفلست البلاد ، وقهرت العباد ، وخربت الاقتصاد . . ولسنا نريد مقابلة ما فعلته إسرائيل ، وما نحن فعلناه بأنفسنا ــ ولكننا أردنا فقط أن نلفت انتباه الحكام والأمراء وحواشيهم . . وأشياعهم ، وأصهارهم . .و. . إلى عدل الإسلام الذى يمثله خلفاء رسول اللّه ــ عليهم رضوان اللّه .

هذا عمر يأمر بهدم مسجد كان قد بنى على أرض يهودية، وإعادتها إلى صاحبتها، وذا حفيده ابن عبد العزيز ترد إليه رسالة من مصر بعثت بها فرتونة السوداء ــ مولاة ذى أصبح ــ تذكر فيها أن لها حائطا قصيرًا وأنه يقتحم عليها منه فيسرق دجاجُها فكتب : (بسم اللّه الرحمن الرحيم . من عبد اللّه عمر أمير المؤمنين إلى فرتونة السوداء مولاة ذى أصبح : بلغنى كتابك وما ذكرت من قصر حائطك ، وأنه يدخل عليك فيه فيسرق دجاجك ، فقد كتبت لك كتابا إلى أيوب بن شرحبيل ــ وكان أيوب عامله على صلاة مصر وحربها ــ أمره أن يبنى لك ذلك حتى يحصنه لك ممّا تخافين ــ إن شاء اللّه ــ والسلام).

وكتب إلى أيوب بن شرحبيل:(من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى ابن شرحبيل أما بعد: فإن فرتونة مولاة ذى أصبح كتبت إلى تذكر قصر حائطها ، وأنه يسرق منه دجاجها ، وتسأل تحصينه لها ، فإذا جاءك كتابى هذا فاركب أنت بنفسك إليه ، حتى تحصنه لها ،فلما جاء الكتاب إلى أيوب ركب ببدنه حتى أتى الجيرة يسأل عن فرتونة حتى وقع عليها وإذا هى سوداء مسكينة، فأعلمها بما كتب به أمير المؤمنين فيها وحصنه لها).

وفى عقب هذا لا بأس أن نذكر بلا تعليق هذه المظلمة التى رفعت إلى ابن عبد العزيز ضد عامله على مكة عروة بن عياض بن عدّى ، حيث خرج عمر رضى اللّه عنه من مكة ، وخرج معه عروة عامله عليها يشيّعه حتّى نزل (بمر) فجاء رجل فقال : أصلح اللّه أمير المؤمنين ، ظلمت ولا أستطيع أن أتكلم ، فقال عمر : ويحه أخذت عليه يمين ثم قال : إن كنت صادقا فتكلم ، فقال : أصلحك اللّه هذا ــ وأشار إلى عروة ــ سامنى بمال لىّ وأعطانى به ستة آلاف درهم فأبيت أن أبيعه فاستعداه علىّ غريم لى ، فحبسنى فلم يخرجنى حتى بعته مالى بثلاثة آلاف درهم، واستحلفنى بالطلاق إن

خاصمته أبدا ، فنظر عمر إلى عروة، ثم نكت بالخيزران بين عينيه فى سجدته وقال : هذه غرتنى منك ثم قال للرجل : اذهب فقد رددت عليك مالك ولا حنث عليك .

فقه الدعـوة

١ ــ « . . . لا تحاسدوا . . . » .

من أكبر المزالق التى تهوى بالدّاعية الغيرة القاتلة : (ومن الأسباب التى تؤدى إلى السقوط على طريق الدعوة الغيرة القاتلة من الآخرين وبخاصة من المتقدمين والمرموقين والموفقين والذين أوتوا نصيبا من لأهلية التى يفتقدها أولئك .

فالجماعات تضم بين صفرفها أصنافًا شتى من الناس ومستويات شتى من المؤهلات الشخصية ، والنفسية ، والعصبية ، والفكرية ، فالذكاء مستويات ، والثقافة مستويات ، والقدرة على الكتابة والخطابة مستويات . . وهذا ما يجعل العاملين متفاوتـين فى العطاء والتأثير والتفاعل وفى كل شىء ، وهو أمر طبعى وبدهى .

ولكن بسبب الغيرة أحيانا يرفض المحددون أن يلتزموا حدودهم ،فيعمدون إلى التسلق بشكل وبآخر فيجهدون أنفسهم بدون طائل . وقد يصاب بعضهم بصدمات نفسية تلقى بهم خارج الصف ، أو تدفعهم إلى الانتقام لأنفسهم ممّن يعتبرونهم سببا فى فشلهم . . وهنا قـد يقع المحذور حيث يتجاوز المرء حدود كل شىء ــ متفلتا من كل المثل والقيم والأخلاق ــ لينال من أخيه الذى أضحى عنده عدوا لدودا ، لا ترتاح نفسه قبل أن ينتقم منه)(١) .

والتحاسد بين العلماء ليس بدعا ؛ لأنه إذا كان كل ذى نعمة محسود ، فإن العلم من أجل النعم ، غير أنه لا غرابة فى حسد الجاهل للعالم :

حسـدوا الفتى إذ لم ينالوا سعْيه ... فالقوم أعداء له وخصوم
كضرائر الحسناء قلن لوجهها ... حسدا وبغضا إنه لـذميم

أما أن يحسد عالم عالما آخر فتلك هى الطامة ومردّ ذلك فى اعتقادى إلى : التطلعات الشخصية والحظوظ النفسية ، روى الرّاغب الأصفهانى فى كتابه (محاضرات الأدباء) هذه المقولة : هلاك العلماء بحسدهم .

وقال ابن عباس رضى اللّه عنه فى هذا المضمار : لا تقبلوا قول العلماء بعضهم على بعض ، فإنهم يتغايرون ، والغيرة فرع من الحسد إن لم تكنه .

---

(١) المتساقطون على طريق الدعوة : كيف ولماذا ؟ لفتحى يكن ص ١٠١ ، ١٠٢ .

والتاريخ يحدثنا أن كثيرا من المناظرات والحوارات التى كانت تنعقد مجالسها بحضرة الأمراء والخلفاء كانت تثير الحسد ويثيرها ،ولا بأس أن نورد بعضا منها لنتحسس عواقب الحسد الخطيرة :

أ ـــ حدث الحريرى فى كتابه (درّة الغواص) قائلا : جمع الرشيد بين أبى الحسن الكسائى وأبى محمد اليزيدى ليتناظرا عنده ، وقد علم اليزيدى أنه يقصر عن الكسائى فى النحو ، فابتدره فى اللغة قائلا : كيف تقول : تمرة مذنبة ــ بكسر النون المشددة ــ أو مذنبة ــ بفتح النون ؟فلم يأبه الكسائى لقوله ، بل ظن أنه قال : بسرة ، فقال : أقول : مذنبه ــ بكسر النون ــ فقال : إذا كان ماذا ؟ قال : إذا بدا الإرطاب من أسفلها، وضرب اليزيدى بقلنسوته الأرض ، وقال : أنا أبو محمد اليزيدى ، وقد أخطأت يا شيخ ، التمرة لا تذنب ، وإنما البسرة تذنب .

فغضب عليه الرشيد وقال : أتكتنى بمجلسى وتسفه على الشيخ ، واللّه إن خطأ الكسائى وحسن أدبه أحب إلى من صوابك مع قبح أدبك ، فقال : يا أمير المؤمنين إن حلاوة الظفر أذهبت عنى التحفظ ، فأمر بإخراجه .

ب ـــ وحكى ابن خلكان فى وفياته ما جرى مرة بين قطبى النحو : الكسائى وسيبويه فقال : ورد سيبويه إلى بغداد من البصرة والكسائى يعلم الأمين ــ ابن هارون الرشيد ــ فجمع هارون بينهما ، وتناظرا فى قول القائل : كنت أظن أن الزنبور أشد لسعًا من النحلة فإذا هو هى ، أو إياها . قال الكسائى : إياها ، وقال سيبويه : هى .

فأصر كل على رأيه حتى اتفقا على مراجعة عربى خالص لا يشرب كلامه شيء من كلام أهل الحضر .

وكان الأمين شديد العناية بالكسائى لكونه معلمه ، فاستدعى عربيا وسأله فقال كما قال سيبويه ، فقال له الأمين : نريد أن تقول كما قال الكسائى ، فقال : إن لسانى لا يطاوعنى على ذلك فإنه ما يسبق إلا الصواب ، فقرروا معه أن شخصا يقول : قال سيبويه كذا ، وقال الكسائى كذا فالصواب مع من منهما ؟ فيقول العربى : الصواب مع الكسائى، فقال : هذا يمكن ، وتم ما أرادوا .

فعلم سيبويه أنهم تحاملوا عليه وتعصبوا مع الكسائى ضده ، فخرج من بغداد مغموما وقد حمل فى نفسه لما جرى عليه .

وهكذا ضاع الحق ، وقيل : إنها كانت سبب وفاة سيبويه .

جـــ ـــ وجاء فى(درّة الغواص) للحريرى أيضا ، قال : لما شخص أبو عمرو

الجرمى إلى بغداد ثقل موضعه على الأصمعى إشفاقا من أن يصرف وجوه أهلها عنده، ويصير السوق له ، فأعمل الفكر فيما يغض منه ، فلم ير إلا أن يرهقه فيما يسأل عنه، فأتاه فى حلقته ، وقال له : كيف تنشد قول الشاعر :

قد كنّ يخبئن الوجوه تسترا   فاليوم حين بدأن للنظار

أو حين بدين ؟ فقال له : بدأن . قال : أخطأت ! فقال : بدين ، قال : غلطت! إنما هو : بدوْنَ ، أى ظهرن ، فأسرها أبو عمرو فى نفسه وفطن لما قصده واستأنى به إلى أن تصدر الأصمعى فى حلقته واحتف الجميع به فوقف وقال له : كيف تقول فى تصغير مختار ؟ قال : مخيتير ، قال : أنفت لك من هذا القول ؟ أما تعلم أن اشتقاقه من الخير وأن التاء فيه زائدة ؟ ولم يزل يندد به إلى أن انفض الناس من حوله !

إذا كانت هذه طبيعة علاقة بعض العلماء ففى المقابل نجد الإيثار والمروءة والتواضع بين أهل التقوى والفتوى والورع ، ويكفى للدلالة على ذلك علاقة الأئمة الأربعة . . . فمنهم ترسم أخى الداعية سبيلك واستلهم من تاريخهم سبل التحرر من الشخصانية والذاتية .

٢ ــ « ولا تدابروا . . . » . من الوسائل التربوية التى جاء بها الإسلام هجر المعاصى وأهلها وأرباب البدع المغلظة تأديبا لهم وزجْرًا لغيرهم ، ووقاية لضعفاء الإيمان من محاكاتهم واتباعهم . قال تعالى : ﴿ **وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ** ﴾ [الأنعام : ٦٨] ،وقال عز من قائل : ﴿ **فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا** ﴾ [النجم : ٢٩] وقال : ﴿ **فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا** ﴾ [النساء : ٦٣] ، ﴿ **وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا** ﴾ [المزمل : ١٠] .

٣ ــ « لا تحاسدوا . . . ولا . . وكونوا عباد اللّه إخوانا » .

يا أهل الدعوة . . إن خطاباتكم وكتاباتكم فى حقيقة الأخوة الإسلامية وتبيان آثارها وفضائلها عمل جليل تحمدون عليه .

ولكن ألستم معى أن أمرًا كهذا يتطلب تقديم التخلية على التحلية ؟ ألا ترون أن رسول اللّه ﷺ نهى عن أسباب القطيعة أولا قبل أن يأمر بتحقيق الأخوة !

فهلا سعيتم نحو هذا السعى بمحو آثار الفرقة ومسببات الاختلاف ودواعى التنافر ؟ وهلا أمعن المسلمون النظر فى الأخوة التى لم تكن على مدارج التخييل ، بل كانت

حقيقة ملموسة ، يشهد بها الأعداء قبل إقرار الأصدقاء بين الأوس والخزرج ، بين المهاجرين والأنصار ترى هل جاءت من العدم ، وتحققت من اللاشىء ؟ أم كانت نتائج لمقدمات ، وحصيلة لجهود مكثفة وجهاد طويل ؟ !

وهل تثمر سنين الدعوة بموطنها الأصلى ـ مكة ـ إلا أخوة صادقة ؟ !

تطبيق

١ ـ كثيراً ما أدى التناجش بين أرباب الثراء إلى ضرب حصار اقتصادى خانق على صغار التجار والحرفيين أدى لإفلاسهم .

٢ ـ عجزت جميع الفلسفات والنظريات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التى جربت خلال هذا القرن فى ربوع العالم العربى عن تحقيق الأخوة الصادقة والتكافل الاجتماعى ، واستقرئوا تاريخ هذه الأمة لتجدوا التناحر والتطاحن بين أبناء الوطن الواحد ، والقبيلة الواحدة ، والحزب الواحد .

٣ ـ إن الأخوة الإسلامية مظلومة اسما ومسمى ، ولم يشفع لها إلا قول الحق سبحانه: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** ﴾ [الحجرات : ١٠] ، ولا قول رسول اللّه ﷺ : «المسلم أخو المسلم » .

وأصبح ذكر هذا اللفظ من قبيل الممنوعات دوليا ! وإن تعجب فعجب قول سفير العصابة الصهيونية بباريس عام ١٩٨٨ م فى تعليقه على الانتفاضة الإسلامية المباركة للشعب الفلسطينى : إن المحرك الأساسى لهذه الانتفاضة هم الإخوان المسلمون ، وهم لا يشكلون خطرا علينا فحسب ، بل وعلى كثير من حكومات العالم العربى ، ومن ثم دعى السفير هذه الأخيرة إلى مساندة إسرائيل فى ملاحقة الإخوان . العدو المشترك على حدّ قوله !!

الحديث السادس والثلاثون

عن أبى هريرة رضى اللّه عنه عن النبىّ ﷺ قال : « **من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسّر على معسر يسّر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه ، ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنّة ، وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة وحفّت بهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده ، ومن أبطأ به عمله ، لم يسرع به نسبه** » رواه مسلم و اللفظ له .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

العقائدية :

أ ــ « كربة من كرب يوم القيامة . . » من المسلمات أن كرب يوم القيامة أشدّ وأخطر بكثير من كرب الدنيا . . ولقد تضافرت الآيات القرآنية الكريمة التى تتحدث عنها لتصور لنا ذلك الهول الكبير ؛ الذى هو فوق أىّ تصور تشيب منه الولدان ، ويذهل المراضع، وتسقط الحوامل أجنتها من الرعب والفزع .

قال الحسن : تذهل المرضعة عن ولدها بغير فطام ، وتضع الحامل ما فى بطنها بغير تمام.

إن أهوال يوم القيامة التى ورد ذكر بعضها فى الآيات الوارد ذكرها تذهل العقول،

نفس : أزال وكشف ، وأصل النفيس : فك خناق المخنوق حتى يأخذ نفسه بعد أن أشرف على الهلاك .

كربة : الشدة العظيمة .

ستر : بحيث لم يفضحْه فى عوراته الحسية والمعنوية .

سلك طريقا : حسّيا بأن ولى وجهته دور العلم ، وحجّ مجالسه ومواطن أهله ، أو معنويا : بأن اتّبع مناهج المذاكرة وسبل التحصيل .

علما : علما دينيّا أو ما ينفع الناس فى أمور معاشهم المختلفة .

السكينة : الطمأنينة والوقار .

غشيتهم : عمّتهم وشملتهم من جميع الجهات .

ذكرهم الله : أثنى عليهم فى الملأ الأعلى .

من بطأ به عمله : من أخره عمله عن الوصول إلى درجات الصالحين .

وتذهب التمييز، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج : ١ ، ٢] .

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا . وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا . وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا . يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا . بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا . يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴾ [الزلزلة: ١ ـ ٦].

﴿وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً . فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ١٤، ١٥].

﴿ إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا . وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا . فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا﴾ [الواقعة : ٤ ـ ٦].

وهى من أساسيات العقيدة الإسلامية منكرها جاحد قطعا بهذا الرصيد الكبير من الآيات القرآنية .

ولقد صوّرت لنا بعض الأحاديث الصحيحة جانبا هامّا من كرب يوم القيامة كحديث عائشة ـ رضى اللّه عنها ـ عن النبىّ ﷺ قال : « يحشر الناس حفاة عراة غرلا» قالت: فقلت: يا رسول الله ، الرجال والنساء ينظر بعضهم بعضا ؟! فقال : «الأمر أشدّ من أن يهمهم ذلك » (١) . وكحديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم فى الأرض سبعين ذراعا ، ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم»(٢) . قال ابن مسعود : الأرض كلها يوم القيامة نار ، والجنّة من ورائها ترى أكوابها وكواعبها ، فيعرق الرجل حتى يرشح عرقه فى الأرض قدرَ قامة ، ثم يرتفع حتى يبلغ أنفه وما مسّه الحساب ، قال : فمم ذلك يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : مما يرى الناس ما يصنع بهم .

ب ــ « . . والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه . . » معناه أن معونة الله لعباده المتمثلة فى هدايته لهم وتوفيقه إيّاهم متوقّفة على تعاونهم هم فيما بينهم ، وسعيهم فى قضاء حوائج بعضهم .

ومن ثم فشقاوة الإنسان وسعادته ، وهديه وضلاله لا يفرضان عليه فرضا ، وينزلان به قهرا ، بل لإرادته دخل ولاختياره جانب هام فى تحديد مصيره : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس : ٨ ـ ١٠] .

نعم الهداية لا توهب حتى نحابى بها من نشاء ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

(٢) رواه البخارى .

يَهْدِي من يَشَاءُ ﴾ [القصص : ٥٦] . كما أن إنبات الأرض وإخراجه للزرع والثمار لا يتوقف على الزرع والغرس فحسب ، بل ويعود أيضا إلى نوعية التربة وصلاحيتها للغرس . ولكن هذا يجب ألا يعجز الزراع ويثبط جهودهم ، كما أن القلوب القاسية والآذان الصّمّاء والأعين العمياء ، لا تخرس ألسنة العلماء وتقعس الدعاة عن القيام برسالة الدعوة فى سبيل الله، ولهم فى نوح عليه السلام الأسوة الحسنة كما حكى عنه القرآن الكريم : ﴿ **قَالَ رَبِّ إنِّي دعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا . فلَمْ يزِدْهُمْ دُعَائِي إلاَّ فِرارًا . وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا . ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا . ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا** ﴾ [نوح : ٥ - ٩].

ونخلص إلى أن تذرّع المتهاون فى أركان الإسلام بعدم الهداية عين الحماقة والجهل؛ لأن أسبابها مبينة وسبلها مرسومة معلومة فمن رامَ الهداية فليسْعَ فى معونة أخيه !

جـ ـ ورد فى الحديث اسمان من أسماء السّاعة العديدة : القيامة والآخرة .

وسميت بالقيامة ؛ لقيام الناس أولهم وآخرهم لرب العالمين : ﴿ **يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [المطففين : ٦] . وبالقارعة ؛ لأنها تقرع القلوب والأسماع بأهوالها ، والحاقّة ؛ لأنها ثابتة الوقوع ، وبالخافضة والرافعة ؛ لأنها تخفض أقواما بأعمالهم الرّزية وترفع آخرين بأعمالهم الطيّبة .

والطامة سميت بذلك ؛ لأنه لا يمكن ردّها ، وبالصاخّة ؛ لأنها تصخ الآذان ، والزلزلة بتزلزل الأرض ، كما يطلق عليها : اليوم الموعود ؛ لأن الله وعد فيه أقواما بالجنّة ، وأوعد آخرين بالنار ، ويوم العرض ؛ لعرض الناس على ربّهم حيث تعرض أعمالهم إلى آخر ذلك من الأسماء التى سميّت بها يوم القيامة فى كتاب الله تعالى .

د ـ « من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفّس اللهَ عنه كربة من كرب يوم القيامة » .

فى هذا التعبير النبوى الدقيق نستشف بشارة تثلج صدور الساعين إلى التيسير على الناس فى الدنيا وهى حسن الختام والموت على الإسلام ، وذى غاية كل مسلم ؛ لأن الكافر لا يرحم فى الدار الآخرة ، ومن رحمته تعالى تفريجه للكروب وتنفيسه على النّفوس فى ساعة لا ينفع فيها مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

هـ ـ « . . وذكرهم الله فيمن عنده . . ».

ذكر الله لهم : ثناؤه عليهم فى الملأ الأعلى بين ملائكته المقرّبين ، ومباهاته بهم وتنويهه بذكرهم ، والعندية المرادة هنا ليست هى العندية المكانية تعالى الله عنها علوّا كبيرا ، لتنزّهه عن المكان والزّمان ، وهذا من مقتضيات عدم المماثلة التى هى صفة من الصفات الواجبة لله تعالى : قال ابن عاشر فى مقدّمة منظومته الفقهية :

يجب لله الوجود والقدم كذا البقاء والغنى المطلق عم

وخلقه لخلقه بلا مثال ووحدة الذات ووصف والفعال

أى لا يماثله تعالى شىء منها مطلقا ، لا فى الذّات ولا فى الصفات ، ولا فى الأفعال قال تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[الشورى : ١١] ، فأول هذه الآية تنزيه وآخرها إثبات، فصدْرها يردّ على المجسّمة وأضرابهم ، وعجزها يردّ على المعطّلة النافين لجميع الصفات (١) ، وأوجه المماثلة كثيرة : (بأن يكون جرما أى تأخذ ذاته العلية قدرا من الفراغ أو يكون عرضا يقوم بالجرم ،أو يكون فى جهة للجرم أوله هو جهة ، أو يتقيّد بزمان أو مكان، أو تتّصف ذاته العليّة بالحوادث ، أو يتصف بالصغر أو الكبر ، أو يتصف بالأغراض فى الأفعال أو الأحكام) (٢) . وإنما المراد بالعندية : التشريف فحسب .

و ــ «نفّس اللّه عنه كربة من كرب يوم القيامة » . « يسّر الله عليه فى الدنيا والآخرة»... « ستره الله فى الدنيا والآخرة » . الاعتماد على الله فى تفريج الكروب وستر العيوب، وتيسير الأمور من صميم العقيدة الإسلامية : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ . وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ . وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ . وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ. وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّين ﴾[الشعراء : ٧٨ ــ ٨٢] .

فمن شاب عقيدته ريب فى ذلك أو التجأ إلى من سوى الله أو ما سواه سواء كان نبيّا مرسلا ، أو ملكا مقربا ، أو شجرا أو مدرًا وحجرا بالعبادة فقد أشرك بالله واتخذ معه ندّا لا يملك له ضرًا ولا نفعا ، قال تعالى : ﴿ يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ ﴾ [الحج : ١٢] .

التصوف :

١ ــ السّعى فى قضاء حوائج المسلمين ومعاونتهم فى شدائدهم ، والعمل على تيسير أمورهم من أسباب قبول الدّعاء، روى الإمام أحمد : « من أراد أن تستجاب

---

(١) الميارة الكبرى .

(٢) الميارة الصغرى .

دعوته وتنكشف كربته فليفرج عن معسر » .

٢ ــ إن المتّقين يجدون دوما فى الدّعاء فرجة وتنفيسا ؛ لأنهم يتسامون به من حضيض الدنيا وينطلقون من بوّابته إلى العالم الفسيح عالم الالتجاء إلى الله الذى لا يعجزه شىء ، قال تعالى : ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يجعَل لَّهُ مَخْرَجًا . وَيرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** ﴾ [الطلاق : ٢ ، ٣] .

وفى الحديث عن علىّ رضى الله عنه أن مكاتبا جاءه ، فقال : إنى عجزت عن مكاتبتى فأعنى فقال : ألا أعلمك كلمات علمنيهن رسول الله ﷺ ولو كان عليك مثل جبل ثبير دينا أدّاه الله عنك ، قل : «اللهم اكفنى بحلالك عن حرامك ، واغننى بفضلك عمّن سواك »[(١)] .

وعن أبى سعيد الخدرىّ رضى الله عنه قال : دخل رسول الله ﷺ ذات يوم المسجد، فإذا هو برجل من الأنصار يقال له : أبو أمامة جالسا فيه ، فقال :« يا أبا أمامة مالى أراك جالسا فى المسجد فى غير وقت صلاة ؟» قال : هموم لزمتنى وديون يارسول الله ! قال :« أفلا أعلمك كلاما إذا قلته أذهب الله ــ عز وجل ــ همك ، وقضى عنك دينك ؟ »فقال: بلى يا رسول الله. قال :« قل إذا أصبحت وإذا أمسيت : اللهم إنى أعوذ بك من الهّم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من البخل والجبن ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال » قال : فقلت ذلك؛ فأذهب الله ــ عزّ وجل ــ همّى ، وقضى عنّى دينى[(٢)] .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال : اللهم إنى عبدك ، وابن عبدك ، وابن أمتك ناصيتى بيدك ، ماض فىّ حكمك ، عدل فىّ قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحدا من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك: أن تجعل القرآن ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همّى ، إلا أذهب الله ــ عز وجل ــ همّه ، وأبدله مكان حزنه فرحا » قالوا :يا رسول الله ينبغى لنا أن نتعلم هؤلاء الكلمات ؟ قال : «أجل ينبغى لمن سمعهن أن يتعلمهنّ »[(٣)] .

٣ ــ ينزّل الله السكينة على حلق الذكر، ومدارسة القرآن الكريم عن البراء بن عازب قال : كان رجل يقرأ سورة الكهف وعنده فرس فتغشته سحابة فجعلت تدور وتدنو ، وجعل فرسه ينفر منها ، فلمّا أصبح أتى النبىّ ﷺ وذكر ذلك له، فقال :

---

(١) رواه الترمذى .   (٢) رواه أبو داود .   (٣) رواه أحمد .

«تلك السكينة تنزل للقرآن » (١) .

وروى ابن المبارك عن يحيى بن أيوب عن عبيد الله بن زحر عن سعد بن مسعود؛ أن رسول الله ﷺ كان فى مجلس فرفع بصره إلى السَّماء ثم طأطأ بصره ثم رفعه ، فسئل رسول الله ﷺ عن ذلك فقال : «إنّ هؤلاء القوم كانوا يذكرون الله تعالى ــ يعنى أهل مجلس أمامه ــ فنزلت عليهم السكينة تحملها الملائكة كالقبّة فلمّا دنت منهم تكلم رجل منهم بباطل فرفعت عنهم » . وفى الصحيحين عن أبى سعيد : أن أسيد ابن حضير بينما هو ليلة يقرأ فى مربده إذا جالت فرسه فقرأ ، ثم جالت أخرى فقرأ ثم جالت أيضا ، قال أسيد : فخشيت أن تطأ يحيى ــ يعنى ابنه ــ قال : فقمت إليها فإذا مثل الظلة فوق رأسى فيها مثل أمثال السرج عرجت فى الجوّ حتى ما أراها ، قال : فغدا على النبىّ ﷺ فذكر ذلك له ، فقال : « تلك الملائكة كانت تسمع لك ، ولو قرأت لأصبحت تراها النّاس ما تستر منهم » .

٤ ــ ليس فى الشريعة الإسلامية ما يحتكر لأناس دون الآخرين ، وليس فى الأذكار طلسمات وأسرار لا يفك رموزها ، ولا يطلع عليها إلا طوائف من الطرائق المبتدعة ، وقال رجل لأبى أمامة : رأيت فى المنام كأن الملائكة تصلى عليك كلما دخلت وكلما خرجت وكلما قمت وكلمّا جلست ، فقال أبو أمامة : وأنتم لو شئتم صلت عليكم الملائكة ، ثم قرأ ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا . وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً . هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُه** ﴾[الأحزاب : ٤١ ــ ٤٣] .

وصدق الله إذ يقرر عدله فى الجزاء ﴿ **فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ** ﴾ [آل عمران : ١٩٥] . ﴿ **إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلا** ﴾ [الكهف : ٣٠] .

الفقهية :

١ــ « ومن يسّر على معسر يسّر الله عليه فى الدنيا والآخرة » التيسير على المعسر من جهة المال بوجوه عدة كإنظاره ، أوالحط عنه ، أو بإعطائه مالا على سبيل الهبة أو الصدقة وقد ورد الحث إلى هذه كلها :

ــ أوجب الله تعالى إنظار المعسر إلى الميسرة ؛ لقوله تعالى : ﴿ **وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾[البقرة : ٢٨٠] .

(١) رواه البخارى ومسلم .

وقد وردت الأحاديث من طرق متعددة عن النبى ﷺ بذلك :

فعن محمد بن كعب القرظى ؛ أن أبا قتادة كان له دين على رجل ، وكان يأتيه يتقاضاه فيختبئ منه ، فجاء ذات يوم فخرج صبىّ فسأله عنه ، فقال : نعم هو فى البيت يأكل خزيرةً ، فناداه ، فقال : يا فلان اخرج ، فقد أخبرت أنك ها هنا ، فخرج إليه فقال : ما يغيبك عنّى ؟ فقال : إنّى معسر وليس عندى ، قال : آلله إنك معسر؟ قال: نعم . فبكى أبو قتادة ، ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من نفّس عن غريمه أو محى عنه كان فى ظل العرش يوم القيامة » (١) .

وعن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله ﷺ : « أتى الله بعبد من عبيده يوم القيامة قال : ماذا عملت لى فى الدنيا ؟ فقال : ما عملت لك يا ربّ مثقال ذرّة فى الدّنيا أرجوك بها ــ قالها ثلاث مرات ــ قال العبد عند آخرها : يا رب إنك كنت أعطيتنى فضل مال ، وكنت رجلا أبايع النّاس ، وكان من خلقى الجواز فكنت أيسّر على المعسر وأنظر المعسر ، قال : فيقول الله ــ عز وجل ــ: أنا أحقّ من ييسر ، ادخل الجنّة » (٢) .

وعن ابن عباس قال: خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد وهو يقول بيده هكذا ــ وأومأ عبد الرحمن بيده إلى الأرض ــ : « من أنظر معسرا أو وضع عنه وقاه الله من فيح جهنّم ، ألا إنّ عمل الجنّة حزن (٣) بربوة ــ ثلاثا ــ ألا أن عمل النار سهل بسهوة (٤) ، والسعيد من وقى الفتن ، وما من جرعة أحب إلى الله من جرعة غيظ يكظمها عبد ، ما كظمها عبد للّه إلا ملأ اللّه جوفه إيمانا » (٥) .

ــ ومن باب التيسير على أهل الكرب والتفريج عنهم إهداء الهدايا لهم والتصدّق عليهم ، وقد جاءت السنة بحشد هائل من الأحاديث النبوية التى تحثّ على التصدّق فليعد إليها من شاء فى مظانها .

٢ ــ « وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله إلا . . . . والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه . . . . » .

اختلف فقهاء الإسلام فى الطاعات التى يقتصر عليها المعتكف فى بيت من بيوت الله وذهبوا فى ذلك إلى رأيين :

---

(١) رواه أحمد ، والإمام مسلم .
(٢) أخرجه البخارى ، ومسلم وابن ماجه .
(٣) حزن : ما غلظ من الأرض .
(٤) سهوة : أرض لينة ملائمة.
(٥) رواه أحمد .

الرأى الأول :مذهب ابن القاسم القائل : إن المعتكف يقتصر على الصلاة والذكر وقراءة القرآن لا غير ذلك من أعمال البرّ والقرب .

الرأى الثانى :وقيل : جميع أعمال القرب والبر المختصّة بالآخرة ، وهو مذهب ابن وهب ، فعلى هذا المذهب يشهد الجنائز ويعود المرضى ويدرس العلم .

والذى أميل إليه هو مذهب ابن وهب؛ لأنه ما دام الإمام مالك رضى الله عنه يجيز للمعتكف البيع والشراء كما نقل عنه ابن رشد الحفيد : (وأجاز مالك له البيع والشراء وأن يلى عقد النكاح وخالفه غيره فى ذلك) (١) .فمن باب أولى خروجه لأعمال القرب المختلفة كقضائه لحوائج الناس والصلح بينهم وعيادة المريض منهم . . و . . و . .

وشفيعى فى هذا الميل ما رواه الطبرانىّ فى الأوسط والبيهقى بهذا اللفظ ، والحاكم عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ أنه كان معتكفا فى مسجد رسول الله ﷺ فأتاه رجل فسلم عليه ثمّ جلس ، فقال له ابن عباس : يا فلان أراك مكتئبا حزينا، قال : نعم يا ابن عمّ رسول الله. لفلان علىّ حقّ ولاء (٢)، وحرمة صاحب هذا القبر(٣) ما أقدر عليه، قال ابن عباس: أفلا أكلمه فيك؟ فقال: إن أحببْت؟ قال: فانتعل ابن عباس، ثم خرج من المسجد فقال له الرجل: أنسيت ما كنت فيه؟ قال: لا، ولكنى سمعت صاحب هذا القبر ﷺ، والعهد به قريب فدمعت عيناه وهو يقول: «من مشى فى حاجة أخيه وبلغ فيها كان خيرا له من اعتكاف عشر سنين ، ومن اعتكف يوْما ابتغاء وجه الله تعالى جعل الله بينه وبين النار ثلاثة خنادق أبعد ممّا بين الخافقين » .

وفى الصحيحين : أنّ صفية بنت حيى كانت تزور النبىّ ﷺ وهو معتكف فى المسجد فتحدثت عنده ساعة ، ثم قامت لترجع إلى منزلها ، وكان ذلك ليلا ، فقام النبىّ ﷺ ليمشى معها حتى تبلغ دارها ، وكان منزلها فى دار أسامة بن زيد فى جانب المدينة ، فلما كان ببعض الطريق لقيه رجلان من الأنصار ، فلمّا رأيا النبىّ ﷺ أسرعا ــ وفى رواية : ــ تواريا ــ أى : حياءً من النبىّ ﷺ لكون أهله معه، فقال لهما ﷺ : « على رسلكما إنّها صفيّة بنت حيى » ــ أى : لا تُسْرعا واعلما أنها صفية بنت حيى زوجتى ــ فقالا : سبحان الله يا رسول الله !

فقال ﷺ : « إنّ الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدّم ، وإنّى خَشيت أن يقذف فى قلوبكما شيئا » أو قال : « شرّا » (٤) .

---

(١) بداية المجتهد ١ / ٢٣٢ .
(٢) ولاء : صحبة ومودّة ، ولكن بينهما خلاف وشقاق ، وهو حريص على إبقاء الأخوة .
(٣) رسول الله عليه الصلاة والسلام .　　(٤) رواه البخارى ، ومسلم .

وقد فهم الحسن البصرى هذا الفهم حينما بعث قوما من أصحابه فى قضاء حاجة لرجل وقال لهم :مروا بثابت البنّانى فخذوه معكم ، فأتوا ثابتا فتعلل بالاعتكاف ، فرجعوا إلى الحسن وأخبروه الخبر ، فقال :قولوا له : يا أعمش أما تعلم أن مشيك فى حاجة أخيك المسلم خير لك من حجّة بعد حجّة، فرجعوا إلى ثابت فأخبروه ، فترك اعتكافه وذهب معهم .

٣ ــ « وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه » .

أولا : فضل القرآن :

ورد فى فضل القرآن الكثير من الأحاديث النبويّة الشريفة وكذا فى فضل تعلمه وتلاوته ، كما جاء الترهيب من عدم قراءته ونسيانه، فعن عثمان بن عفان رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه »(١) .وجَاء فيه أيضا عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول : الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف »(٢) .

وعن أبى موسى الأشعرىّ رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأتْرجّة ريحها طيّب ، وطعمها طيّب ، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التّمرة لا ريح لها وطعمها حلو ، ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن مثل الريْحانة ريحها طيّب ، وطعمها مر ، ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر»(٣) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ــ رضى الله عنهما ــ قال : قال رسول اللّه ﷺ : «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا، فإنّ منزلك عند آخر آية تقرؤها »(٤) . وعن عبد الله بن عمرو ــ رضى الله عنهما ــ أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ القرآن فقد استدرج النبّوة بين جنبيْه غير أنه لا يوحى إليه. لا ينبغى لصاحب القرآن أن يجد مع من وجد ، ولا يجهل مع من جهل وفى جوفه كلام الله»(٥) . وفى الترهيب من نسيانه ورد عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :«عرضت علىّ أجور أمّتى حتى القذاة يخرجُهَا الرجل من المسجد،وعرضت علىّ ذنوب أمّتى فلم أر ذنبا أعظم من سورة من القرآن،أو آية أوتيها رجل ثم نسيها»(٦) .

---

(١) رواه البخارى ، ومسلم .

(٢) رواه الترمذى .

(٣) رواه البخارى ، ومسلم،والنسائى ، وابن ماجه .

(٤) رواه الترمذى .

(٥) رواه الحاكم .

(٦) رواه أبو داود ، والترمذى وغيرهما .

ثانيا: آداب التلاوة :

ــ الطهارة : تجب الطهارة الكبرى للقراءة ، وتستحب الصغرى هذا بالنسبة للتلاوة عن ظهر قلب ، وأما حمل المصحف فيحرم على من فقد الطهارتين على حدّ سواء قال تعالى : ﴿ **إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ . لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ** ﴾ [الواقعة : ٧٧ ـ ٧٩] وللحائض أن تقرأ القرآن الكريم بلا مسّ هذا إن لم ينقطع عنها الدّم ، فإذا انقطع تأتّى لها رفع المانع بالغسل ، ومن ثمّ تحرم عليها التلاوة إلى حين تغتسل .

ــ استحضار عظمة الخالق ؛ لأنه يتلو كلام المولى ـ عز وجل .

ــ الترتيل ، لقوله تعالى : ﴿ **وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً** ﴾[المزمل : ٤] . قال ابن عبّاس رضى الله عنه: لأن أقرأ البقرة وآل عمران وأرتّلهما وأتدبرهما أحبّ إلىّ من أن أقرأ القرآن كله هذرمة (١) .

ــ تحسين الصوت وتزينه عند تلاوته عن البراء بن عازب رضى اللّه عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « زيّنوا القرآن بأصواتكم » (٢) .

وعن ابن أبى مليكة قال : قال عبيد الله بن أبى يزيد ـ رضى الله عنهما ـ مرّ بنا أبو لبابة فاتّبعناه حتى دخل بيته فدخلنا عليه ، فإذا رجل رثّ الهيئة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن» قال : فقلت لابن أبى مليكة: يا أبا محمّد : أرأيت إن لم يكن حسن الصّوت؟ قال: يحسّنه ما استطاع (٣).

ــ وعلى التالى أن يتدبّر فيما يتلو، وليستشعر أنّه المخاطب والمقصود ، قال الإمام ابن قدامة المقدسى فى كتابه (مختصر منهاج القاصدين) : (وينبغى لتالى القرآن العظيم أن ينظر كيف لطف الله تعالى بخلقه فى إيصال معانى كلامه إلى أفهامهم ، وأن يعلم أن ما يقرأه ليس من كلام البشر ، وأن يستحضر عظمة المتكلم سبحانه ، ويتدبّر كلامه، فإنّ التدبّر هو المقصود من القراءة وإن لم يحصل التدبّر إلا بترداد الآية فليردّدها، فقد روى أبو ذّر رضى الله عنه عن النبىّ ﷺ أنه قام ليلة بآية يردّدها ﴿ **إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ** ﴾ [المائدة : ١١٨] ، وقام تميم الدارى بآية وهى قوله: ﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ [الجاثية : ٢١] . وكذلك قام بها الربيع بن خيثم ليلة .

وينبغى للتالى أن يستوضح من كل آية ما يليق بها ، ويتفهّم ذلك ، فإذا تلا قوله

---

(١) الهذرمة : هى السرعة فى القراءة والكلام . (٢) رواه أبو داود ، والنسائى ،وابن ماجه.
(٣) رواه أبو داود .

تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ [الأنعام : ١] فليعلم عظمته ويتلمّح قدرته فى كل ما يراه ، وإذا تلا ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴾ [الواقعة : ٥٨] فليتفكر فى نطفة متشابهة الأجزاء كيف تنقسم إلى لحم وعظم وعرق وعصب ، وأشكال مختلفة من رأس ويد ورجل ، ثم إلى ما ظهر منها من الصفات الشريفة كالسّمع والبصر والعقل ، وغير ذلك فليتأمّل هذه العجائب)(١) .

هذه بعض آداب التلاوة وقد أفاض فى ذكرها الإمام القرطبى فى الجزء الأوّل من تفسيره : (لا يمسّه القارئ إلا طاهرا ، وأن يقرأه وهوعلى طهارة، وأن يستاك، ويتخلل فيطيب فاه ، وأن يلبس كما يلبس للدخول على الأمير لأنه مناج ، وأن يستقبل القبلة لطهارته، وأن يتمضمض كلما تنخع ، وإذا تثاءب يمسك عن القراءة ؛ لأنه إذا قرأ فهو مخاطب ربّه ومناج ، والتّثاؤب من الشيطان ، وأن يستعيذ بالله من الشيطان الرّجيم عند ابتدائه للقراءة ويقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ،وإذا أخذ فى القراءة لم يقطعها ساعة فساعة بكلام الآدميين من غير ضرورة ، وأن يخلو بقراءته حتى لا يقطع عليه أحد بكلامه فيخلطه بجوابه ، وأن يقرأه على تؤدة وترسل وترتيل ، وأن يستعمل ذهنه وفهمه حتّى يعقل ما يخاطب به ، وأن يقف على آية الوعد فيرغب إلى الله تعالى ويسأله من فضله ، وأن يقف على آية الوعيد فيستجير بالله منه ، ومن حرمته أن يقف على أمثاله فيمتثلها ، ومن حرمته أن يلتمس غرائبه ، ومن حرمته أن يؤدّى لكل حرف حقّه من الأداء حتى يبرز الكلام باللفظ تماما ، فإن له بكل حرف عشر حسنات ، ومن حرمته إذا انتهت قراءته أن يصدق ربّه ، ويشهد بالبلاغ لرسوله ﷺ ويشهد على ذلك أنّه حقّ ، فيقول : صدقْت ربّنا وبلغت رُسلك ونحن على ذلك من الشّاهدين ، اللهّم اجعلنا من شهداء الحقّ القائمين بالقسط ، ثم يدعو بدعوات، وإذا قرأه لا يلتقط الآى من كل سورة فيقرأ : ـ أى يقرأ على السور ـ وإذا وضع المصحف ألا يتركه منشورا ، وألا يضع فوقه شيئا من الكتب حتىّ يكون أبدا عاليّا ، وأن يضعه فى حجره إذا قرأه ، أو على شىء بين يديه ، ولا يضعه بالأرض ، وألا يمحوه من اللوح بالبصاق، بل يغسل بالماء ، ويتوقّى النجاسات ؛ وكان السلف الصالح يستشفى بغسالته ، وألا يتّخذ الصحيفة وقاية للكتاب ، وألا يخلى يوما من أيّامه عن النظر فى المصحف مرة ، وأن يعطى عينيه حظها منه ، قال رسول الله ﷺ : « أعطوا أعينكم حظها من العبادة »، قالوا : يا رسول الله، وما حظها من العبادة ؟ قال : « النظر فى المصحف والتفكر فيه والاعتبار عند عجائبه»، وألا يتأوّله عندما يعرض له شىء من أمر الدنيا، أى :إذا جاءك أحد فلا تقل : ﴿ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴾ [طه : ٤٠] أو﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا

(١) مختصر منهاج القاصدين ، لابن قدامة المقدسى ص ٤٦ .

أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة : ٢٤] وألا يتلى منكوسا ، كفعل معلمى الصبيان، وألا يقعر فى قراءته ، وألا يقرأه بألحان الغناء كلحون أهل الفسق ، ولا بترجيع النصارى ، ولا نوح الرهبانيّة وأن يجلل تخطيطه إذا خطه ، وألا يجهر بعض على بعض فى القراءة فيفسد عليه حتى يبغض إليه ما يسمع كهيئة المغالية ، وألا يمارى أو يجادل فيه فى القراءات ، وألا يقرأ فى الأسواق ، ولا فى مواطن اللغط واللغو ومجمع السفهاء ، ألا ترى أن الله تعالى ذكر عباد الرحمن ، وأثنى عليهم بأنّهم إذا مرّوا باللغو مرّوا كراما هذا لمروره بنفسه فكيف إذا مرّ بالقرآن الكريم تلاوة بين ظهرانى أهل اللغو ومجمع السفهاء؟! وألا يتوسّد المصحف ولا يعتمد عليه ، ولا يرمى به إلى صاحبه إذا أراد أن يناوله ، وألا يصغر المصحف ـ مصيحف كمسيجد ـ وألا يخلط فيه ما ليس منه ، وألا يحلى بالذهب ، ولا يكتب بالذهب ، فتخلط به زينة الدنيا . قال ﷺ : «إذا زخرفت مساجدكم ، وحليت مصاحفكم فالدبار عليكم » : الدبار : الهلاك ، وألا يكتب على الأرض ، ولا على الحائط كما يفعل بهذه المساجد المحدثة .

مرّ رسول الله ﷺ بكتاب فى أرض، فقال لشاب من هذيل: « ما هذا ؟» قال: من كتاب الله كتبه يهودىّ ، فقال ﷺ : « لعن الله من فعل هذا لا تضعوا كتاب الله إلا موضعه » . ورأى عمر بن عبد العزيز ابنا له يكتب القرآن على حائط فضربه ، وأن يفتتحه كلمّا ختمه حتى لا يكون كهيئة المهجور كما كان ﷺ إذا ختم يقرأ من أول القرآن قدر خمس آيات لئلا يكون فى هيئة المهجور ، ويستحب له إذا ختم القرآن أن يجمع أهله ـ أى دعا ـ وألا يكتب التعاويذ منه ،ثم يدخل فى الخلاء به إلا أن يكون فى غلاف من أدم ، أى : جلد أو فضة أو غيره فيكون كأنّه فى صدرك ، وإذا كتبه وشربه سمىّ الله تعالى على كل نفس وعظّم النية فيه ، فإن الله تعالى يعطيه على قدر نيّته ، وعن أبى جعفر قال : من وجد فى قلبه قساوة فليكتب يس فى جام بزعفران ثم يشربه)[1] ا . هـ .

ثالثا : حكم القراءة جماعة :

الذى أثر فى هيئة قراءته ﷺ أنّه كان يأمر أحيانا من يقرأ القرآن ليسمع قراءته كما كان ابن مسعود يقرأ عليه، وقال: «إنى أحبّ أن أسمعه من غيرى» وكان عمر يأمر من يقرأ عليه وعلى أصحابه وهم يستمعون فتارة يأمر أبا موسى، وتارة يأمر عقبة بن عامر .

وعليه فاجتماع القوم فى قراءة سورة ما بصوت واحد أمر مخالف للسنّة وأنكره

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١ / ٢٦ .

أعلام الأمة ذكر ابن علان فى شرحه لهذا الحديث هيئة المدارسة ما نصّه : («ويتدارسونه بينهم » أى : يتوازعون دراسته ، والأولى فيها أن يقرأ الثانى ما قرأ الأوّل، قيل: إنه هكذا كانت مدارسة النبىّ ﷺ مع جبريل)(١) .

وقد فصّل الحكم فيها كل من أبى البركات أحمد الدرديرى فى شرحه الكبير لمصنّف أبى الضّياء خليل ، والعلامة شمس الدين الشيخ محمد عرفة الدسوقى فى حاشيته على الشرح المذكور آنفا :حيث ذكرا فى معرض الحديث عن سجود التّلاوة : (ككراهة قراءة جماعة يجتمعون فيقرؤون معا إن لم يؤدّ إلى تقطيع وإلا حرم) .

قوله: يجتمعون فيقرؤون معا ـ: (إنّما كرهت القراءة على هذا الوجه ؛لأنه خلاف العمل وللزوم تخليط بعضهم على بعض، وعدم إصغاء بعضهم لبعض وهو مكروه ، وأمّا اجتماع جماعة يقرأ واحد ربع حزب مثلا ، وآخر ما يليه وهكذا ، فذكر بعضهم الكراهة فى هذه الصّورة، ونقل النووى عن مالك جوازها قال : بن (٢) وهو الصواب إذ لا وجه للكراهة) (٣) .

وحكى ابن حجر فى فتحه الإجماع على الهيئة الفردية فى القراءة فقال :(نقل الإجماع استحباب سماع القرآن من ذى الصّوت الحسن ، وأخرج أبو داود من طريق ابن أبى مسجعة قال: كان عمر يقدّم الشّاب الحسن الصوت لحسن صوته بين يدى القوم)(٤) .

وليس للقائلين بالقراءة الجماعية دليل حيث يلجؤون إلى الأحاديث الواردة فى الذكر، أو إلى قول قائلهم : هذا ما درج عليه سلفنا منذ أزمنة بعيدة ولم ينكره علينا ناكر، ويحتجّون أيضا بالأوقاف التى أوقفها محبّسُوها على قراءة ـ الحزب ـ ولعمرى إن هذه الحجة الواهية هى ملاذ أرباب البدع والمنكرات فى أيّامنا هذه ، وليس فى الأمر جديد بل هذه قريش نفسها تحتّج بها ﴿ **بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ** ﴾ [الزخرف : ٢٢] .

(ذكر حرب أنه رأى أهل دمشق ، وأهل حمص ، وأهل مكّة ، وأهل البصرة ، يجتمعون على القرآن بعد صلاة الصبْح ، ولكن أهل الشام يقرؤون القرآن كلهم جملة من سورة واحدة بأصوات عالية ، وأهل البصرة ،وأهل مكة يجتمعون فيقرأ أحدهم

---

(١) دليل الفالحين ٣ / ١٠٢ .
(٢) (بن) هو مختصر لاسم العلامة : محمد البنانى محشى الشيخ عبد الباقى الزرقانى .
(٣) حاشية الدسوقى ١ / ٣٠٨ ، مج ١ .
(٤) فتح البارى ٩ / ٧٤ .

عشر آيات والنّاس ينصتون ، ثم يقرأ آخر عشر آيات حتى يفرغوا . قال حرب : وكل ذلك حسن جميل ، وقد أنكر مالك ذلك على أهل الشام ، قال زيد بن عبيد الله الدمشقى : قال لى مالك بن أنس : بلغنى أنكم تجلسون حلقا تقرؤون ، فأخبرته بما كان يفعل أصحابنا، فقال مالك : عندنا كان المهاجرون والأنصار ما نعرف هذا)(١) .

وفوق كل هذا ، فالذين يجتمعون للقراءة لا يتدارسونه غالبا ولا يتفهّمونه ، وأنّى لهم ذلك وقراءتهم فى كثير من الأحيان هذرمة !

رابعا : حكم الاجتماع على القراءة بعد صلاة الصبح :

روى حرب الكرمانى بإسناده عن الأوزاعى أنه سئل عن الدراسة بعد صلاة الصبح فقال : أخبرنى حسان بن عطية أن أوّل منْ أحدثها فى مسجد دمشق هشام بن إسماعيل المخزومى فى خلافة عبد الملك بن مروان فأخذ الناس بذلك .

وقال أبو مصعب وإسحاق بن محمد القروى: سمعنا مالك بن أنس يقول: الاجتماع بكرة بعد صلاة الصبح لقراءة القرآن بدعة ، ما كان أصحاب رسول الله ﷺ ولا العلماء بعدهم على هذا ، كانوا إذا صلوا يخلو كل بنفسه، ويقرأ ويذكرالله تعالى، ثم ينصرفون من غير أن يكلم بعضهم بعضا اشتغالا بذكر اللّه فهذه كلها محدثة.

خامسا : حكم القراءة فى الأماكن المختلفة :

« وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله » خصّ النبى ﷺ ذكر المساجد هنا لا على سبيل التقييد ،لكنّه خرج مخرج الغالب لشرفها وعلوّ قدرها ، والعبادة فيها أفضل من غيرها .

ولا بأس أن ننقل هنا من محاضرة العلامة الشيخ محمّد بخيت المطيعى ــ مفتى الديار المصرية سابقا ــ جانبا من حديثه عن الأماكن التى يتنزه القارئ فيها عن القراءة ، نقول : إذا صدرت تلك الكلمات القرآنية بواسطة الراديو دون خلل فى القراءة ، ومع مراعاة أحكام التجويد ، ولو لم يقصد القارئ التعبّد بتلاوتها ، وإسماعها للعظة والاعتبار والتدبّر ؛ وفى محل غير ممتهن فلا شك فى الجواز ، وفى أن كلا من القراءة والسماع عبادة ؛ أما إذا اختلت حروف تلك الكلمات ولم تصدر مستوفية لما ذكرناه، أو قصد بقراءتها وإسماعها اللهو واللعب، والعبث والتلهّى مثلا، أو كانت فى محل ممتهن كالخمّارات والقهاوى ، وأماكن الرقص ، ومواضع الملاهى ، وفى كل موطن لا يليق قراءة القرآن فيه ولا سماعه ، فلا شك فى منع ذلك وعدم جوازه ؛ لأنّ ذلك

(١) جامع العلوم والحكم ص ٣٢٥ .

استهزاء وإخلال بكلمات اللّه جل شأنه) (١) .

سادسا : حكم القراءة على الأموات :

اختلف الفقهاء فى حكم القراءة على الأموات ووصول ثوابها ــ إذا لم يخرج مخرج الدعاء ــ وسنعرض رأى كل فريق وأدلته التى اعتمد عليها ، وسيزهق الحقّ الباطل :

أولا : أدلة القائلين بالجواز :

(. . . وقال الإمام أحمد وبعض المالكية ، وبعض الحنفية ، وبعض الشافعية : إنّ القراءة مشروعة على الأموات وينتفعون بها لعموم الحديث ، ولعمل الأمّة الآن) ، وهذا هو الظاهر الذى ينبغى الاعتماد عليه للأمور الآتية :

١ ــ أن لفظ موتى فى الحديث نص فيمن مات فعلا ، وتناوله للحى المحتضر مجاز ولا يأتى المجاز إلا بقرينة ولا قرينة هنا .

٢ ــ أن من حكم القراءة التخفيف وهو كما يطلب للمحتضر يطلب للميت .

٣ ــ القياس على القراءة الفاتحة فى صلاة الجنازة الآتية ، وإلا كان تحكّما .

٤ ــ القياس على السلام المطلوب للموتى فى زيارة القبور الآتية ، فإذا كان الميّت يأنس بالسّلام الذى هو من كلا البشر ،فكيف لا يأنس ويسر بكلام الرحمن جل شأنه؟!

٥ ــ أن السكينة والرحمة ينزلان فى محل قراءة القرآن والميّت والمحتضر بل كل مخلوق فى أشد الحاجة إلى رحمة اللّه تعالى (٢) .

وقبل أن نناقش هذه الأدلة يتحتم علينا ــ من قبل الأمانة العلمية ــ أن نورد الأدلة التى يستند عليها أصحاب هذا الرأى من الفقهاء ، جاء فى تعليق للدرديرى ــ رحمه الله ــ أثناء شرحه للمكروهات فى أحكام الجنائز ما نصّه : (لكن المتأخرون على أنه لا بأس بقراءة القرآن والذكر وجعل ثوابه للميت ويحصل له الأجر إن شاء الله وهو مذهب الصالحين من أهل الكشف) (٣) .

وينحُو المحشى نفسه ــ الدسوقى ــ هذا المنحى فيقول : (تنبيه : قال فى التوضيح فى باب الحج : المذهب أن القراءة لا تصل للميّت حكاه القرافى فى قواعده ، والشيخ ابن أبى جمرة) . ا . هـ .

---

(١) الترغيب والترهيب ٢ /٣٩١ .

(٢) التاج الجامع للأصول ١ / ٣٤٠ ، ط : دار الفكر.

(٣) حاشية الدسوقى ١ /٤٢٣ .

وفيها ثلاثة أقوال : تصل مطلقا ، لا تصل مطلقا ، والثالث : إن كانت عند القبر وصلت وإلا فلا .

وفى آخر نوازل ابن رشد فى السؤال عن قوله تعالى : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم : ٣٩] قال : وإن قرأ الرجل وأهدى ثواب قراءته للميت جاز ذلك وحصل للميت أجره . ا . هـ .

وقال ابن هلال فى نوازله : الذى أفتى به ابن رشد ، وذهب إليه غير واحد من أئمتنا الأندلسيين : أن الميت ينتفع بقراءة القرآن الكريم ويصل إليه نفعه ويحصل له أجره إذا وهب القارئ ثوابه له ، وبه جرى عمل المسلمين شرقا وغربا ، ووقفوا على ذلك أوقافا واستمر عليه الأمر منذ أزمنة سالفة ثم قال : ومن اللطائف أن عزّ الدّين بن عبد السلام الشافعى رؤى فى المنام بعد موته فقيل له : ما تقول فيما كنت تنكر من وصول ما يهدى من قراءة القرآن للموتى ؟ فقال : هيهات وجدت الأمر على خلاف ما كنت أظن . ا . هـ .

مناقشة أدلتهم :

١ ــ لفظ الميت الوارد فى الحديث المشار إليه فى الحديث السابق مجاز ؛ قرينته الحالية : الاحتضار والحشرجة ــ فصاحبها آيل إليه لا محالة ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ [الزمر : ٣٠ ، ٣١] .

٢ ــ ينكرون أنّ المراد بالقراءة على الموتى هو : ــ المحتضر ــ ثم يستدلون على جواز طلب التخفيف على الميت بمشروعية التّخفيف على المحتضر ؛ ويكون هذا بقراءة «يس » .

إذًا فينقضون ما بنوه بأنفسهم من جهة ، ومن جهة أخرى يتأولون لفظ الموتى خلاف تفسير شراح الحديث وأنّى لهم هذا التمحل !

٣ ــ القياس على الفاتحة باطل من وجوه ؛ لأن القراءة فى الصلاة ــ أى صلاة الجنازة ــ لم تسلم هى الأخرى من الخلاف ، وهى لصحة الصلاة مراعاة للحديث : «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » (١) . لا للميت نفسه فتدبّر .

٤ ــ والقياس على السلام باطل .

ومن عادة أهل البدع والأهواء تأصيل أصول خاصة بهم لا يقرها ذو عقل بله عن

(١) رواه البخارى ، ومسلم وغيرهما .

صاحب علم ؛ فمن ذلك قولهم :

أ ــ ما جرى به العمل منذ أزمنة سالفة !

ب ــ الرؤى المنامية ، كاستدلالهم هنا برؤية العز بن عبد السلام ــ رحمه الله .

جـ ــ مذهب الصالحين من أهل الكشف : يا غوثاه ؟ !

ثانيا : القائلون بالكراهة :

أهل السلف أن القراءة على الميّت ليست مشروعة ، وهذا هو ظاهر كلام مالك ، والشافعى وغيرهما ، ويذهب أصحاب هذا الرأى فى تفسير الحديث النبوى الشريف المروى عن معقل بن يسار عن النبىّ ﷺ قال : « اقرؤوا يس على موتاكم » (١) . إلى أن المقصود من لفظ : « موتاكم » الذين حضرهم الموت ، وذلك ليستأنسوا بما جاء فيها من ذكر اللّه ، وأحوال البعث والقيامة والجنّة والنّار وما اشتملتْ عليه ، والتحذير من فتنة الشيطان .

والقراءة على الأموات ليست من السّنّة فى شىء ، ولا عمل الصحابة الكرام وسلف هذه الأمّة من الأعلام ، وإنما الذى أثر فعله هو الدعاء والاستغفار لهم قال تعالى مؤدّبا الأبناء : ﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾ [الإسراء : ٢٤] . وقال أيضا : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ ﴾ [الحشر : ١٠] .

وهذا رسولنا عليه الصلاة والسّلام يعلمنا الدعاء للأموات عن طريق أم سلمة ــ رضى الله عنها حيث قالت : قال رسول اللّه ﷺ : « إذا حضرتم المريض أو الميّت فقولوا خيرا ، فإن الملائكة يؤمّنون على ما تقولون » قالت : فلمّا مات أبو سلمة أتيت النبىّ ﷺ فقلت : يا رسول الله إنّ سلمة قد مات قال : « قولى : اللهّم اغفر لى وله، واعقبنى منه عقبى حسنة » قالت : فقلت فأعقبنى الله من هو خير لى منه محمداً ﷺ(٢).

وعن عثمان بن عفّان رضى اللّه عنه قال : كان رسول اللّه ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال : « استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل » (٣) .

وعن أبى هريرة رضى اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال: «إذا مات الإنسان انقطع

---

(١) رواه أبو داود ، والنسائى ، وأحمد ، وابن ماجه وصححه .

(٢) رواه مسلم ، والترمذى ، وابن ماجه ، والنسائى .

(٣) رواه أبو داود .

عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع له ، أو ولد صالح يدعو له » (١) .

ويعلمنا ﷺ ما نقوله عند زيارة القبور، فعن سليمان بن بريدة عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ عن النبىّ ﷺ قال : « أتانى جبريل فقال : إن ربّك يأمرك أن تأتى أهل البقيع فتستغفر لهم » ، قالت : قلت : كيف أقول لهم يا رسول الله ؟ قال : « قولى: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منّا والمستأخرين، وإنا إن شاء اللّه بكم للاحقون » (٢) .

وعن أبى هريرة رضى اللّه عنه أن النّبى ﷺ أتى المقبرة فقال : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء اللّه بكم لاحقون » (٣) .

وعن سعد بن عبادة رضى اللّه عنه أنه قال : يا رسول اللّه ، إن أمّ سعد ماتت فأىّ الصدقة أفضل ؟ قال : « الماء » ، قال : فحفر بئرا وقال : هذه لأم سعد (٤) .

هذه الأحاديث وغيرها تدل ــ بما لا يدع للشك مجالا ــ على أنّ قراءة القرآن على الأموات ليست من عمل السلف الذين هم أجْدرُ بالاتباع من الخلف .

ودّلت أيضا على أن الدعاء بالألفاظ الواردة فى القرآن والسّنة هو العمل الذى لا خلاف بين رجال المذهب فى وصول ثوابه إلى الميت ، بعكس القراءة التى لم تسلم من الخلاف ، قال أبو الضياء خليل بن إسحاق المالكى فى مختصره فى باب الجنائز : وكره حلق شعره ، وقلم ظفره وهو بدعة .... ــ إلى قوله ــ : .... وقراءة عند موته كتجمير الدار وبعده وعلى قبره .

قوله : لأنه ليس من عمل السلف ، أى : فقد كان عملهم التصدّق ، والدعاء لا القراءة .

ونصّ المصنف فى التوضيح فى باب الحج على أن مذهب مالك كراهة القراءة على القبور ، ونقله ابن أبى جمرة فى شرحه على مختصر البخارىّ قال : لأنا مكلفون بالتفكر فيما قيل لهم وماذا لقوا ومكلفون بالتدبّر فى القرآن فآل الأمر إلى إسقاط أحد العملين.ا . هـ . وهذا صريح فى الكراهة مطلقا (٥) .ولم يقف الأمر عند قراءة «يس» وحدها على الأموات فى عصرنا الحاضر ، بل اقترنت القراءة ببدع كثيرة ؛ كاجتماعهم للقراءة بأصوات مرتفعة ومتفاوتة على سبيل القراءة الجماعية التى سبق حكمها آنفا ،

(١)رواه مسلم .
(٢)رواه مسلم .
(٣)رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائى .
(٤)رواه أبو داود، وأحمد، والنسائى.
(٥)حاشية الدسوقى على الدرديرى ٢ / ٤٢٣ .

وقد تكون بأثمان وأجور يتعارفون عليها إن لم يشترطوها ، ولله درّ سفيان بن عيينة حين روى هذا الأثر فقال : بلغنا عن ابن عباس أنّه قال : لو أن حملة القرآن أخذوه بحقّه وما ينبغى لأحبّهم الله ، ولكن طلبوا به الدنيا فأبغضهم الله وهانوا على النّاس . وجاء فى (بلغة السالك لأقرب المسالك) للشيخ أحمد الصّاوى على شرح سيدى أحمد الدرديرى فى الصفحة الثانية والأربعين بعد المائة من الجزء الأوّل ما نصّه : أمّا قراءة القرآن على الأبْواب وفى الطرق قصدا لطلب الدنيا فحرام ، ولا يجوز الإعطاء لفاعل ذلك لما فيه من الإعانة على المحرّم ، لا سيما فى مواضع الأقدار فكادت أن تكون كفرا، والرضا بها من أولى الأمر ضلال مبين (١) .

سابعا : التداوى بالقرآن :

التداوى بالقرآن ، أو ما يسمى ـ بالرقى ـ جمع رقية ، أمر جائز بشروط ، وقد حكى الإجماع بالجواز ابن حجر فى فتحه فقال : أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاثة شروط : أن يكون بكلام الله تعالى ، أو بأسمائه أو بصفاته ، وباللسان العربى ، أو بما يعرف معناه من غيره، وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بتقدير اللّه تعالى . ولا يجوز الاسترقاء بغير القرآن الكريم ، أو بغير ما أثر عن النبىّ عليه الصلاة والسّلام من الأدعية الصحيحة ، ولا تعارض بين هذا وبين الأثر الذى ورد فى وصف أهل الجنّة : « لا يسترقون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكّلون » وذلك لسببين اثنين :

ـ لأن المسترقى بالقرآن الكريم مسترق بكلامه تعالى ، ومن ثمّ فلا يرجو رفع البأس وجلب الشفاء إلا من اللّه تعالى .

ـ ثمّ إن الوصف الذى ورد ربّما يختّص بالذين لا يأمَنُونَ على أنفسهم إن فعلوا ذلك من الركون إلى الأسباب والاعتماد عليها ، أو هو وصف ـ ربّما ـ لمن كمل إيمانهم وصدق توكّلهم على ربّهم (٢) .

وقد ثبت عن رسول اللّه ﷺ أنّه كان يسترقى بسُور من القرآن الكريم، فعن عائشة ـ رضى اللّه عنها ـ قالت: كان رسول اللّه ﷺ إذا مرض أحدٌ من أهله نفث عليه بالمعوذات(٣). وعن أبى سعيد رضى اللّه عنه أن رهطا من أصحاب النبى ﷺ انطلقوا فى سفرة سافروها حتى نزلوا بحىّ من أحياء العرب فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم.

---

(١) نعم قد لا ينطبق هذا على كثير من القراء .

(٢) قد يبدو التعارض أيضا بين هذا التعليل وبين تداوى النبى ﷺ واسترقائه وأمره بهما ، ولكن كان ذلك منه لبيان الجواز والتشريع لأمته .

(٣) رواه البخارى ومسلم .

فلدغ سيّد ذلك الحى فسعوا له بكل شيء لا ينفعه فقال بعضهم : لو أتيتم هؤلاء الرّهط الذين نزلوا لعله أن يكون عند بعضهم شيء ، فأتوْهم فقالوا : إنّ سيّدنا لدغ فسعينا له بكل شيء فلم ينفعه فهل عند أحد منكم شيء ؟ فقال بعضهم : نعم إنّى واللّه لراق ، ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيّفونا فما أنا براق لكم حتىّ تجعلوا لنا جعلا ، فصالحوهم على قطيع من الغنم ، فانطلق فجعل يتْفل عليه ويقرأ : ﴿ الْحمْدُ للَّه رَبّ الْعَالمينَ ﴾ [سورة الفاتحة] ، فكأنّما نشط من عقال فانطلق يمشى ما به قَلَبَة ، قال : فأوْفَوْهُم جُعْلهم الذى صالحوهم عليه ، فقال بعضهم : اقسموا ، فقال الذى رقى : لا تفعلوا حتى نأتى رسول اللّه ﷺ فنذكر له الذى كان فننظر ما يأمرنا ، فقدموا على رسول اللّه ﷺ فذكروا له فقال : « وما يدريك أنّها رُقية ؟ أصبتم اقْسِموا واضربوا لى معكم بسهم» (١) .

النفسية :

كرب الدنيا ومصائبها كثيرة ، وما من فترة تمرّ على الإنسان إلا وهى حبْلى بالمكاره تتعاقبه فيها سنن الحياة من موت ، وولادة ومرض ، وفقر وعنت وشقاء ، والتى لا يختلف فى شدتها وحدة آلامها غنى على فقير ، أو مأمور على أمير ولا حتى بين المسلم وغيره ، قال تعالى : ﴿ وَلا تَهِنُوا فِي ابْتغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء : ١٠٤] .

إذًا هنا يكمن الاختلاف ، أى : فى التلقى ، وفى الأثر الذى يحدثه الكرب ، والنتيجة التى يرقبها صاحبه ؛ فيؤدى الابتلاء بالمنافق أو من على شاكلته إلى الضجر والملل ، ثم إلى اليأس والقنوط . . وربّما إلى الانتحار ! والواقع الغربى على ما أقول شهيد .

ويرتفع الابتلاء نفسه بالمحتسبين الصابرين إلى أعلى علّيّين أرأيت أن المصيبة الواحدة تجعل أقواما فى أسفل الدركات ، وآخرين فى قمّة الدّرجات ؟ !

إنها معجزة الإيمان وهل الإيمان الكامل إلا الصبر فى أتم معانيه ، والصبْر أنجع علاج نفسانى على الإطلاق !

ـ قال تعالى : ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة : ٤٥] .

وليصبر المبتلى عليه أن يعرف لماذا يصبر ، وما النتيجة المشجعة له والتى تستحّق التضحيات ، وتستحق منه أيضا أن يوّجه فكره ومشاعره وأحاسيسه تشوّقا إليها

(١) رواه البخارى ، ومسلم وغيرهما .

وانتظارا لنيلها :

١ ــ عليه أن يدرك الفارق الكبير بين كربته وبين كرب يوم القيامة التى تفوق أىّ تحجيم وتعدو التصوّر البشرى وله فى هذا خير العزاء .

٢ ــ وليعلم أن هناك من هو أشد منه حرجا وضيقا وأكثر ألما وشقاء .

٣ ــ وليدرك أن الموت ليس هو الخلاص ممّا يقاسيه ويحاذره ، فلا يدعو على نفسه بالهلاك ؛ لأنه لا يدرى مصيره مع أهوال الأخرى .

٤ ــ وليطمئن إلى أنه لم يبتل بما ابتلى به إلا لأن ربّه يحبّه ليغفر زلته أو ليرفع درجته .

فعن أنس رضى اللّه عنه عن النبىّ ﷺ قال : « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن اللّه تعالى إذا أحبّ قوما ابتلاهم فمن رضى فله الرضا ومن سخط فله السخط»(١).

٥ ــ وليجعل جزاء الصبر نصب عينيه قال تعالى فى فضل الصابرين : ﴿ **إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ [الزمر : ١٠] ، ﴿ **أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا** ﴾ [القصص : ٥٤] ، ﴿ **وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ . الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** ﴾ [البقرة : ١٥٥ ، ١٥٦] ، ﴿ **أُوْلَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا** ﴾ [الفرقان: ٧٥] .

ولله در القائل :

إن الأمــور إذا اشـتـدت مسالـكهـا　　فالصبْر يفتح منها كل مـا ارتجـا
لا تيـأسـن وإن طـالــت مطـالبــه　　إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا
أخلق بذى الصبْر أن يحظى بحاجته　　ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

الاجتماعية :

١ ــ « من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا . . . . . . واللّه فى عون العبد . . . . . » .

يقوم المجتمع الإسلامى على التكافل والتكامل تحقيقا لمبدأ ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** ﴾ [المائدة : ٢] حيث يعول غنيه فقيره ، ويرحم

---

(١) رواه ابن ماجه ، والترمذى .

فيه كبيره صغيره، ويوقر صغيره كبيره ، وجاهله عالمه ، والمصاب فى المجتمع الإسلامى مواسى، والمكروب مفرّج عنه . تلك هى مبادئ الإسلام التى حققها فى مجتمع المدينة وترجمها إلى واقع معاش وحقيقة ملموسة ، ولم تكن أبدا محض خيال كأحلام أفلاطون فى مدينته الفاضلة ، أو كارل ماركس فى نظريته المتهافتة .

بل ها هو الرسول ﷺ نفسه يتكفّل بأعمال ربّما ازدراها تكبرا بعض السّاسة والقادة، من ذلك ما رواه أحمد :

أن خباب بن الأرت رضى الله عنه خرج فى سرية وكان له عنز فكان ﷺ يحلبها لعياله حتى قدم .

وسار على نهجه ــ عليه السلام ــ خلفاؤه من بعده ، فهذا أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه كان يحلب للحىّ أغنامهم وذلك قبل توليه الخلافة فلما قلدّها قيل : الآن لا يحلبها فبلغه ذلك ، فقال : إنّى لأرجو ألا يغيّرنى ما دخلت فيه عن شىء كنت أفعله. ورأى طلحة عمر بن الخطاب زمن خلافته يدخل بالليل بيت امرأة فدخل إليها طلحة نهارا ، فإذا هى عجوز عمياء مقعدة ، فسألها : ما يصنع هذا الرجل عندك ؟

قالت : هذا مذْ كذا وكذا يتعاهدنى يأتينى بما يصلحنى ، ويخرج عنى الأذى فقال طلحة : ثكلتك أمك يا طلحة ، أعورات عمر تتبع ؟ !

وقال أبو مجاهد : صحبت ابن عمر فى السّفر لأخدمه فكان يخدمنى ،وفى الصحيحين عن أنس قال : كنّا مع النبىّ ﷺ فى السّفر فمنّا الصائم ومنّا المفطر قال : فنزلنا منزلا فى يوم حارّ أكثرنا ظلا صاحب الكساء، ومنّا من يتقى الشمس بيده، قال: فسقط الصوّام وقام المفطرون وضربوا الأبنية وسقوا الركاب فقال رسول اللّه ﷺ: «ذهب المفطرون اليوم بالأجر » .وعن أبى قلابة أنّ ناسا من أصحاب النبى ﷺ قدموا يثنون على صاحب لهم خيرا ، قالوا : ما رأينا مثل فلان هذا قط ما كان فى مسير إلا كان فى قراءة ، ولا نزلنا فى منزل إلا كان فى صلاة ، قال : فمن كان يكفيه ضيعته(١)؟ حتى ذكر ، ومن كان يعلف جمله أو دابته ؟ قالوا : نحن ، قال : «فكلكم خير منه»(٢) .

٢ ــ الإسلام أحْرَصُ الشرائع على حفظ إنسانية الإنسان وشرفه وكرامته ،ولصيانة ذلك شرع أحكاما وحدودا سبق وأن أشرنا إليها ، وتوعّد الساعين إلى كشف عورات الناس بالعذاب الأليم فى الأخرى ، قال الله تعالى : ﴿ **إنَّ الَّذينَ يُحبُّونَ أن تَشيعَ**

---

(١) أى يقوم بإصلاح أرضه .

(٢) أخرجه أبو داود .

الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور : ١٩] .

وعن أبى برذة رضى الله عنه عن النبىّ ﷺ أنه قال : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان فى قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنّه من اتّبع عوراتهم تتبّع الله عورته ، ومن تتبّع الله عورته يفضحه فى بيته » (١) .

فالمجتمع الإسلامى مجتمع نظيف طاهر، مجتمع يسعى إلى إرساء الفضيلة وطمس معالم الرذيلة، ويحافظ على شعور أفراده وأحاسيسهم، فلا يتعرّض لإحراجهم وإبداء مساوئهم وأغلاطهم بل يسْدل عليها ستارا ، ويفرض عليها حصارا ما دامت الخطيئة بين المخطئ وربّه لا تتعلق بحقوق الآخرين ، وما دام مرتكبها من الذين لم يشتهروا ويجاهروا بها وما دام الأمر لا يتعلق بشهادة أو رواية .

إذًا فالستر يكون على مستورى الحال الذين لم يعرفوا بشىء من المعاصى وزلوا زلة مّا، جاء فى الحديث عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ : « أقيلوا ذوى الهيئات عثراتهم»(٢) . قال بعض الوزراء الصّالحين لبعض من يأمر بالمعروف : اجتهد أن تستر العصَاة ، فإنّ ظهور معاصيهم عيب فى أهل الإسلام .

وجاء ماعزٌ إلى النبىّ ﷺ فأقَرّ عنده بالزنا أربع مرّات فأمر برجمه وقال لهزّال الذى أشار عليه بالاعتراف : « لو سترته بثوبك كان خيرا لك » (٣) .

٣ ــ والسترلا يكون على أهل الفسق والفجور بل تجب محاربتهم ؛ لأن الإسلام دين الطهارة والعفّة فلا يرضى بالفحش والخنا ، ودين الأمانة والصدق فلا يرضى بالكذب والخيانة ، ودين العدل فلا يرضى بالظلم والجور ، قال تعالى فى وصف المؤمنين :﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ [التوبة : ٧١] .

ووصف المنافقين قبل هذا فقال : ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ﴾ [التوبة : ٦٧] .

إذًا (من كان مشتهرا بالمعاصى معلنا بها ولا يبالى بما ارتكب منها ولا بما قيل له، هذا هو الفاجر المعلن ، وليس له غيبة كما نصّ على ذلك الحسن البصرى وغيره ، ومثل هذا لا بأس بالبحث عن أمره لتقام عليه الحدود ، وصرح بذلك بعض أصحابنا

(١) أخرجه الإمام أحمد ، وأبو داود .
(٢) أخرجه أبو داود ، والنسائى .
(٣) رواه أبو داود ، والنسائى .

واستدل بقول النبىّ ﷺ : «واغْد يا أنيس على امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها»)(١) .

٤ ــ من نافلة القول أن نشير ــ استنباطا من قوله ﷺ : «ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه» ــ إلى أن النسب لا يرفع من الكسالى الخاملين على حساب العاملين، ولا يقوم أبدا مقام العدل أو الأمانة أو الصدق فى تقييم الرّجال عند إسناد المهام لهم ، ولا يقدّم الرّجل إلى مراكز القيادة ومواضع الريادة نسبُه ودمه وعرقه وقرابته لأولى الأمر ومصاهرته إيّاهم طبقا للقاعدة الأساسية فى الإسلام : الناس سواسية كأسنان المشط ﴿إنَّ أَكْرَمَكُمْ عندَ اللَّه أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] ولذا تسقط يوم القيامة جميع الروابط العرقية ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخيه . وَأُمِّه وَأَبيه . وَصَاحبَته وَبَنيه . لكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئذٍ شَأْنٌ يُغْنيه ﴾ [عبس : ٣٤ ــ ٣٧] ،﴿ فَإِذَا نُفخَ في الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠١] وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ حين أنزل عليه ﴿ وَأَنذرْ عَشيرَتَكَ الأَقْرَبينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] : «يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله لا أغنى عنكم من الله شيئا ، يا بنى عبد المطلب لا أغنى عنكم من اللّه شيئا، يا عبّاس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئا ، يا صفية عمة النبىّ ﷺ لا أغنى عنك من اللّه شيئا، يا فاطمة بنت محمّد سلينى ما شئت لا أغنى عنك من اللّه شيئا»(٢) .

الثقافية :

« ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما » .

لم يهتم نظام ولا شريعة بالعلم اهتمام الإسلام به ويكفى أن أوّل كلمة من السّماء تطرق مسامع النبىّ ﷺ هى كلمة : اقرأ ، ويكفى أيضا أن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذى أقسم بالكتابة وأدواتها وسمّى سورة بأكملها باسم «القلم » الأداة الأساسية للكتابة، قال تعالى : ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [القلم : ١] . وجاء فى فضل العلماء الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة والآيات القرآنية المنزّلة منها قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨] ، وقوله: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ . وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ . وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ . وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ ﴾ [فاطر: ١٩ ــ ٢٢]، ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩] ،كما ورد فى فضل طلب العلم والسّفر إليه والتماسه من أهله الكثير أيضا ؛ لقوله تعالى : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ

(١) جامع العلوم والحكم ص ٣٢١ .

(٢) رواه البخارى ، ومسلم .

الذِّكر إن كُنتُمْ لا تَعْلَمُون ﴾[النحل : ٤٣ ، الأنبياء : ٧] .

ولما ورَدَ أنّ الخارج لطلب العلم تحتفل به ملائكة الرحمن ، فعن زرّ بن حبيش قال: أتيتُ صفوان بنَ عسّال المرادىّ رضى الله عنه قال : ما جاء بك ؟ قلت : أنبط العلم (١)، قال : فإنّى سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : «ما من خارج خرج من بيته فى طلب العلم إلا وضعت له الملائكة أجنحتها رضا بما يصنع » (٢).

وعن أبى أمامة عن النبىّ ﷺ قال : « من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيرا أو يعلمه كان له كأجر حاج تامّا حجته » (٣).

وعن أنس قال : قال رسول اللّه ﷺ : « من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتىّ يرجع » (٤). وعن أبى الدرداء قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: « من غدا يريد العلم يتعلمه لله ، فتح الله له بابا إلى الجنّة ، وفرشت له الملائكة أكتافها ، وصلت عليه ملائكة السموات وحيتان البحر ، وللعالم من الفضل على العابد كالقمر ليلة البدر على أصغر كوكب فى السماء ، والعلماء ورثة الأنبياء ، إن الأنبياء لم يورّثوا دينارا ولا درهما ولكنهم ورّثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظه ، وموت العالم مصيبة لا تجبر وثلمة لا تسدّ، وهو نجم طمس، موت قبيلة أيسر من موت عالم» (٥).

ولخطورة العلم فى بقاء المجتمعات بيّن الإسلام دور العلماء باعتبارهم المصابيح التى تشع على السالكين درُوبهم . ففى المسند عن أنس عن النبىّ ﷺ قال : « إن مثل العلماء فى الأرض كمثل النّجوم فى السماء يهتدى بها فى ظلمات البرّ والبحر ، فإذا انطمست النّجوم أوشك أن تضل الهداة » ، وكما فى الصحيحين عن عبد اللّه بن عمرو عن النبىّ ﷺ قال : « إنّ الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من صدور الناس، ولكن يقبضه بقبض العلماء، فإذا لم يبق عالم اتخذ النّاس رؤساء جُهّالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا » .

والعلم الذى يرحل طالبه إليه علمان :علمٌ دينى ، وعلم دنيوىّ وكلاهما موصل إلى الله تعالى إن أخْلص صاحبه النّية ، وعلى ذكر النيّة فإنّى أميل إلى تقسيم آخر يقوم عليها :

١ ــ علم غاية طالبه دينية .

٢ ــ علم غاية طالبه دنيوية .

---

(١) أنبط العلم : أطلبه وأستخرجه .
(٢) رواه الترمذى وصححه .
(٣) رواه الطبرانى فى الكبير .
(٤) رواه الترمذى .
(٥) رواه أبو داود، والترمذى، وابن ماجه، وابن حبان فى صحيحه، وليس عندهم: « موت العالم . . . .» إلى آخره .

فما كانت غاية صاحبه دينية فهو المعرف بالله تعالى الهادى إلى سبيله سواء كان فهما لآية منّزلة من القرآن الكريم، أو تدبّرا وتفكرا فى آية كونية لمعرفة دقائق صنع الله فى كونه، ومعجزاته فى خلقه من كواكب ضخمة تسير وفق مسار ونظام دقيق وتوقيت لا تأخير فيه ولا تقديم ﴿ **لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴾ [يس : ٤٠] .

وكذا التدبّر فى سنن اللّه التى قال عنها سبحانه: ﴿ **فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً** ﴾ [فاطر : ٤٣] .... إلخ الآيات القرآنية العديدة التى يضيق المقام بذكرها ونحن فى حل من استعراضها هنا كلها .

وأمّا العلم الذى يطلب به صاحبه أمرا دنيويّا ويسعى به لتحقيق مأرب مادى فلا يناله من الفضل والجزاء شيء .

وشفيعى فى هذا التقسيم حديث رسول اللّه ﷺ الذى رواه أبو هريرة رضى اللّه عنه عن النبىّ ﷺ قال : « من تعلم علما ممّا يبتغى به وجْه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة » (١) .

وعن كعب بن مالك عن النبىّ ﷺ قال : « من طلب العلم ليجارى به العلماء أو ليمارى به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النّار » (٢) .

التربوية :

١ ــ « ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما .... وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله » .

لا بأس أن نورد ولو على سبيل الإشارة طرفا من آداب المعلم والمتعلم فى الإسلام وجدوى هذه الآداب .

إنّ التّاريخ يحدّثنا أن قانون التعليم عند اليونانيّين بلغ فى صرامته حدّ الإعدام لكل من يدخل بيت المدْرَاس (٣) دون استئذان، فلا عجب إذًا أن تلد اليونان سقراط، وفيثاغورس، وأفلاطون وأبيقور ، وغيرهم !

وهذه الآداب الإسلامية فى طلب العلم أو تعليمه تثمر رجالا عمالقة بل موسوعات علمية لا قبل للحضارات الأخرى أن تلد مثلهم ، هؤلاء الذين بنوا حضارة إسلامية مزدهرة عمّرت قرونا طويلة ولا زال العالم المتقدّم اليوم يعود إلى رصيدها .

(١ ، ٢) رواهما أبو داود وابن ماجه .

(٣) التدريس .

إذًا من هذه الآداب :

آداب المتعلم :

أ ــ أن يتطهّر الطهارة الخارجية والطهارة المعنوية بأن يطهر نفسه من الرذائل وأن يخْلص فى نيته؛ لأنه فى عبادة ، ولله درّ الإمام الشافعىّ حين قال :

شكوت إلى وكيع سوء حفظى فأرشدنى إلى ترك المعاصى

وأخبرنى بأن العلم نور ونور الله لا يعطى لعاصى

ب ــ وينبغى له قطع العلائق الشاغلة ،فإنّ الفكرة متى توزّعت قصرت عن إدراك الحقائق ،وقد كان السّلف يؤثرون العلم على كل شىء،فروى عن الإمام أحمد ــ رحمه الله ــ أنه لم يتزوّج إلا بعد الأربعين ، وأهديت إلى أبى بكر بن الأنبارى جارية ، فلمّا دخلت عليه تفكر فى استخراج مسألة، فعزبت عنه ،فقال : أخرجوها إلى النّخاس ، فقالت : هل لى من ذنب؟ قال : لا ، إلا أن قلبى اشتغل بك ، وما قدر مِثلك أن يمنعنى علمى !

جـ ــ وعلى المتعلم أن يلقى زمامه إلى المعلم إلقاء المريض زمامه إلى الطبيب فيتواضع له ، ويبالغ فى خدمته إن كان من أهل الصلاح .

فقد كان ابن عباس يأخذ بركاب زيد بن ثابت ــ رضى الله عنهما ــ ويقول : (هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء) (١) .

وروى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :« تعلموا العلم ، وتعلموا للعلم السكينة والوقار ، وتواضعوا لمن تعلمون منه » (٢) .

وقد أجمل الإمام على رضى الله عنه آداب المتعلم فقال : إنّ من حقّ العالم عليك أن تسلم على القوم عامة ، وتخصّه بالتحيّة وأن تجلس أمامه ، ولا تشير عنده بيدك، ولا تغمز بعينك ، ولا تكثر عليه السؤال ، ولا تعينه فى الجواب ، ولا تلح عليه إذا كسل ، ولا تراجعه إذا امتنع ، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض ، ولا تفشى له سراً ، ولا تغتابنّ عنده أحدا ، ولا تطلبن عثرته ، وإن زل قبلت معذرته ، ولا تقولن له : سمعت فلانا يقول كذا ، ولا أن فلانا يقول خلافك، ولا تصفن عنده عالما ، ولا تعرضنّ من طول صحبته ، ولا ترفع نفسك عن خدمته ، وإذا عرضت له حاجة سبقت القوم إليها، فإنما هو بمنزلة النخلة تنتظر متى يسقط عليك منها شىء .

---

(١) جاء هذا فى مختصر منهاج القاصدين ص ١٤ .

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط .

(وحكى عن أبى الضياء خليل بن إسحاق صاحب المختصر أنه جاء يوما لمنزل بعض شيوخه فوجد كنيف المنزل مفتوحا ولم يجد الشيخ هناك فسأل عنه فقيل له : إنه يشوّشه أمر هذا الكنيف ، فذهب يطلب من يستأجره على تنقيته فقال خليل : أنا أولى بتنقيته فشمّر ونزل ينقيه ، وجاء الشيخ فوجده على تلك الحال والناس قد حلقوا عليه ينظرون إليه تعجّبا من فعله فقال الشيخ : من هذا ؟

قالوا : خليل فاستعظم الشيخ ذلك وبالغ فى الدعاء له على قريحة ونية صادقة فنال ببركة دعائه ووضع الله تعالى البركة فى عمره) (١) .

آداب المعلم :

أ ــ أن يخاطب طلابه بما يفهمون فيتخير الألفاظ الواضحة الخالية من التعقيد ، ويمثل للمعانى المجردة بأمثلة تقريبية ، فعن على رضى الله عنه : « حدثوا النّاس بما يفهمون أتحبّون أن يكذّب الله ورسوله (٢) .

وانظر إلى حرص النبىّ ﷺ على إفهام صحابته ، فعن أنس عن النبى ﷺ ؛ أنه كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا حتى تفهم منه (٣) .

ب ــ أن يجنْح إلى التيسير والتبشير ، فعن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: « يسّروا ولا تعسروا ، وبشّروا ولا تنفروا » (٤) .

جـ ــ وعليه التثبت مما يقول بالرجوع إلى الأمهات والمصادر لئلا يغرس فى أذهان طلابه الأخطاء الفاحشة ، والأكاذيب الملفقة قال أنس : إنه ليمنعنى أن أحدثكم حديثا كثيرا أن النبىّ ﷺ قال : « من تعمّد علىّ كذبا فليتبّوأ مقعده من النار » (٥) .

د ــ وعليه أن يختار الوقت المناسب الذى يكون فيه لعلمه أكبر الأثر حتى تتجمع الأذهان ، وتخلو القلوب من الشواغل ، وتنشرح النفوس ؛ لأنه ــ أى المعلم ــ كالفلاح الذى يترقب المواسم ليزرع بذور كل موسم فى حينها ثم يتعهدها بالسقى بانتظام فإن هو أخَل بهذه الشروط لا يجنى زرعا ولا يقطف ثمرا .

وكذلك الحال بالنسبة للمعلم، عن أبى وائل قال : كان عبد اللّه ــ يعنى ابن مسعود ــ يذكّر النّاس فى كل خميس ، فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن لوددت أنّك ذكّرتنا كل يوم ، قال : أما إنّه يمنعنى من ذلك أنّى أكره أن أملكم وإنّى أتخولكم بالموعظة كما كان النبىّ ﷺ يتخوّلنا بها مخافة السامة علينا (٦) .

---

(١) جاء هذا فى المختصر .
(٢) أخرجه البخارى .
(٣) رواه البخارى ، وأبو داود .
(٤) رواه الشيخان .
(٥) رواه البخارى ، ومسلم .
(٦) رواه الشيخان ، والترمذى .

هـ ــ وعليه ألا يدّخر جهدا فى إخلاص نصحهم وإرشادهم إلى مفاتيح العلم ومواطن الصواب ، عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « من أفتى بغير علم كان إثمه على من أفتاه ، ومن أشار على أخيه بأمر يعلم أن الرشد فى غيره فقد خانه »(١) .

و ــ وأنْ يحسن إلى من يعلمهم ويلاطفهم وكأنّهم أبناؤه، فهذا أبو هارون العبْدىّ قال : كنّا نأتى أبا سعيد فيقول : مرحبا بوصية رسول الله ﷺ إن رسول الله ﷺ قال: «إنّ الناس لكم تبع وإن رجالا يأتونكم من أقطار الأرضين يتفقهون فى الدين ، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرا »(٢) .

هذه بعض آداب المعلم والمتعلم فى الإسلام التى لم ترق إليها الدراسات التربوية الحديثة اليوم ، ولم تنجح فيما نجحت هى فيه من إيجاد الرّوابط المتينة والصّلات الوثيقة بين المتعلمين ومشايخهم ، حين كان العلماء لا يرقبون جزاء ولا شكورا ، ولا يطمحون إلى الدرجات والمكافآت المادية بل كانوا يبرون بالمواثيق التى أخذت عليهم ، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران : ١٨٧]. ويقدّرون كذلك هذا التهديد والوعيد الوارد فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾ [البقرة : ١٧٤، ١٧٥] .

ولما رواه أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نّار »(٣) .

٢ ــ « وما اجتمع قوم . . . . يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم » .

ممّا سبق رأينا أن شرّاح الحديث اختلفوا فى معنى قوله ﷺ : « ويتدارسونه » فمنهم من ذهب إلى أنها عطف مرادف لقوله : « يتلون » كالنّبراوى .

ومنهم من ذهب إلى أنّ المُدَارسة هى تفهّم معانيه ومعرفة أحكامه والاتعاظ بمواعظه، ومنهم من فسّر المدارسة باعتبارها الطريقة المثلى فى تحفيظ كتاب الله وهى غير

---

(١) رواه أبو داود ، وابن ماجه .
(٢) رواه الترمذى ، وابن ماجه .
(٣) رواه أبو داود ، والترمذى .

التلاوة ، وإلى هذين الرأيين الأخيرين أميل .

فالمدارسة إذًا هى أن يقرأ هذا شيئا ويعيد الآخر ما قرأه صاحبه وهى نفسها التى كان يدارس بها جبريل عليه السّلام سيّدنا محمدا عليه الصلاة والسلام. عن ابن عباس ــ رضى اللّه عنهما ــ قال : كان النبىّ ﷺ أجود الناس بالخير ، وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان جبريل ــ عليه السلام ــ يلقاه كل ليلة فى رمضان حتى ينسلخ يعرض عليه النبىّ ﷺ القرآن ، وفى رواية : فيدارسه القرآن فإذا لقيه جبريل ــ عليه السلام ــ كان أجْود بالخير من الريح المرسلة (١) .

قال صاحب (غاية المأمول شرح التاج الجامع للأصول) فى شرحه للمدارسة : يقرأ جبريل أوّلا والنبىّ ﷺ يسمع، ثم يسكت جبريل والنبىّ ﷺ يقرأ ثانيا هذه الطريقة فى التلقين تسمّى اليوم عندنا بالمتابعة وهى أضمن الطرق وأحرصها على كتاب اللّه وصيانته من التّحريف والتّغيير ؛ وذلك لأن فى القرآن الكريم ألفاظا لا يتأتى للقارئ أن ينطقها كما هى مهما كانت ثقافته وبلاغته إلا إذا تلقّنها من فِى الحافظ لكتاب اللّه .

والنقول متواترة من مقرئ لآخر إلى أن نصل فى العد التصاعدى إلى التّابعين ثم إلى الصحابة الكرام ، ثم إلى الرسول ﷺ ثم إلى جبريل ــ عليه السّلام ــ ثمّ إلى اللوح المحفوظ ﴿ **هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ . فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ** ﴾ [البروج: ٢١ ، ٢٢] ﴿ **لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ . فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ** ﴾ [القيامة : ١٦ ــ ١٨] وذى إحدى معجزات القرآن الكريم الخالدة بخلوده إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ولله درّ علماء الأمّة وسلفها ــ ورضى اللّه عنهم ــ حينما احتاطوا فى حفظ كتاب الله تعالى ، ومن جملة تدابيرهم ما نص عليه الشيخ خليل ــ رحمة اللّه عليه ــ فى مصنّفه فى فصل سجود التلاوة : وفى كره قراءة الجماعة على الواحد روايتان .

وجاء فى الشرح الكبير لأبى البركات أحمد الدرديرى قوله :

وفى كره قراءة الجماعة مجتمعين (على) الشيخ (الواحد) مخافة .. التخليط وجوازها (روايتان) عن الإمام .

وفى حاشيته قال الدسوقى : قوله : (قراءة الجماعة) المراد بها : ما زاد على الواحد قوله : (مخافة التخليط) أى : ولأنه لابد أن يفوت الشيخ سماع ما يقرؤه بعضهم حين الإصغاء لغيره فقد يخطئ القارئ الذى لم يصغ الشيخ لقراءته فى ذلك الحين ، ويظن ذلك القارئ أن الشّيخ سمعه فيحمل عنه الخطأ ويظنه مذهبا له .

---

(١) رواه الشيخان .

قوله : (وجوازها) أى : للمشقة الداخلة على القراء بانفراد كل واحد بالقراءة عليه إذ قد يكثرون فلا يعمّهم فجمعهم أحسن من القطع لبعضهم .

قوله : (روايتان عن الإمام) أى : فكان أوّلا يكره ذلك ولا يراه صوابا ثم رجع وخفّفه ، فإن قلت : حيث رجع عن الكراهة فالمعمول به الجواز ، فكان الأولى للمصنّف الاقتصار عليه ؛ لأن الكراهة مرجوع عنها فلا تنسب لقائلها ، وأجيب بأنّ قواعد المذهب لما كانت تقتضيها صح نسبتها للإمام وإن رجع عنها .

قال شيخنا العدوى : والظاهر من الروايتين الكراهة ؛ لأن كلام اللّه ينبغى مزيد الاحتياط فيه ، ومحل الخلاف إذا كان فى إفراد كل قارئ بالقراءة مشقة فإن انتفت المشقة فالكراهة اتفاقا(١) .

القانونية :

« من نفس . . . نفس الله عنه ، ومن ستر . . . ستره الله . . . ومن يسّر على معسر يسّر الله عليه . . . . » .

أولا : جاء هذا الحديث يقرّر قاعدة ذهبية فى الشريعة الإسلامية ألا وهى : الجزاء من جنس العمل . قال تعالى : ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** ﴾ [الزلزلة : ٧ ، ٨] ، ﴿ **هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ** ﴾ [الرحمن : ٦٠] . هذه القاعدة الجليلة تنطبق أوّل ما تنطبق على علاقة المخلوق بالخالق ــ سبحانه وتعالى ــ الذى صوّر الإنسان فى أحسن صورة وجمله ، وأنعم عليه وتعهّده وسخّر له آلاءه ، وأمدّه بما لا قبل له به من الحمد والثناء .

ثم لا يلبث أن يقف على قدميه فيجاهر بالعصيان ويقابل ربّه المتفضل عليه بالجحود والنكران .

إنه بشكره وحمده وإن ظل طوال حياته لن يجازى ربه ــ حاشا للّه ــ وأنّى للعبد المملوك من أملاك حتى يجازى بها ؟ !

ولكنه على الأقل يعترف بالجميل ومن ثمّ لا يظلم الحقيقة : ﴿ **يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ . الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ . فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ** ﴾ [الانفطار:٦ ــ ٨]، ﴿ **فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ**

(١) حاشية الدسوقى ١ / ٣٠٩ .

وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٤٩] .

وتنطبق هذه القاعدة كذلك على علاقة المخلوق بالمخلوق وما ينبثق عنها من جزاء فى الدنيا أمام القضاء الإسلامى والعرف الاجتماعى، وفى الأخرى أمام الحاكم الأعلى ـ عز وجل ؛ لأن الإسلام لا يغمط الحقوق ، ولا ينكر لذوى الجهود الطيبة والبر والإحسان ؛ لأنّ الذى لا يحمد الناس لا يحمد الله ، وعليه فليس من المنطق السليم ولا من المنهج القويم أن نجازى المحسنين جزاء سنمّار ، ولا يستسيغ عاقل تطبيق ذلك ناهيك عن شريعة العدل السَّمْحة .

فهل يستقيم أن نقلد الخونة ومن ثبتت مقاتلتهم لأهل الإسلام مع أعدائهم ، أو من أدينوا بالجرائم الموبقة ، وتلبّسوا بالكبائر المهلكة ، قلت : أيستقيم أن نقلدهم المناصب العالية فى الأمّة والأرائك المرتفعة !

أفلا يكون من جنون (١) الجنون أن نكرّم اللصوص الكبار ونتعقّب أرباب الأموال باللوّم والتقريع ؛ لأنهّم لم يحفظوا أموالهم فى البنوك الربوية (٢) . . إلخ .

وقد جاءت نصوص كثيرة تقرّر تلك القاعدة السالفة: منها قوله ﷺ : «إنّما يرحم الله من عباده الرحماء»، وقوله: «إن الله يعذّب الذين يعذّبون الناس فى الدنيا».

وأخرج الترمذى من حديث أبى سعيد الخدرى مرفوعا :« أيّما مؤمن أطعم مؤمنا على جوع أطعمه الله يوم القيامة من ثمار الجنة ، وأيّما مؤمن سقى مؤمنا على ظمأ سقاه اللّه يوم القيامة من الرحيق المختوم ، وأيما مؤمن كسا مؤمنا على عرى كساه اللّه من خضر الجنّة » .

وروى ابن أبى الدنيا بإسناده عن ابن مسعود قال : يحشر الناس يوم القيامة أعرى ما كانوا قط ، وأجوع ما كانوا قط ، وأظمأ ما كانوا قط ، وأنصب ما كانوا قط ، فمن كسا لله كساهُ الله ، ومن أطعم لله أطعمه الله ، ومن سقى لله سقاه الله ، ومن عفى لله أعفاه اللّه .

ثانيا : «ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة». حدّ الإسلام حدودا كسرًا لشوكة الظالمين ، وردْعا لأهل الشرّ والمفسدين وإقامة للعدل ، وحفظا للأرواح،

---

(١) أشير بهذا إلى قول الشافعى ـ رحمه الله ـ : جنونك مجنون ولست بواجد .

(٢) هذه حقيقة واقعية وقعت للوالد « الشيخ عبد الحميد تاتاى » سنة ١٩٨٥ م . بمحكمة باتنة بالجزائر ، حيث ترك القاضى الجائر السارق المحتال طليقا ، وراح يلوم الوالد ومن معه على عدم إيداعهم أموالهم المسروقة بالبنوك الربوية . فانظر إلى ذلك المنطق المقلوب والعدل الموؤود .

والأموال والأعراض ، وصدق اللّه العظيم إذ يقول : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ [البقرة: ١٧٩] ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة : ٣٢] .

ومن أجل ذلك حث النبىّ ﷺ على إقامة هذا الواجب الأساسى فى التشريع الإسلامى ، فعن أبى هريرة رضى اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « لحدٌّ يُقام فى الأرض خيرٌ لأهل الأرض من أن يمطروا ثلاثين صباحا » .

وما دام الحديث على العفو والستر ، فإننا سنتناول إقامة الحدود من هذا الجانب ، وعليه فهل تنفع الشفاعة فيمن أصاب حدّا من حدود اللّه ؟ والجواب يحتّم علينا استعراض الخلاف الفقهى بين الأئمة ـ رحمة اللّه عليهم ـ فى هذا الشأن ، واختلافهم لا يدور حول ما بلغ للسلطان وما لم يبلغ بل فى حال المذنب نفسه .

قال أبو عمرو بن عبد البر : لا أعلم خلافا أنّ الشفاعة فى ذوى الذنوب حسنة جميلة ما لم تبلغ السّلطان ، وأن على السلطان أن يقيمها إذا بلغته .

وذكر الخطّابى وغيره عن مالك أنه فرّق بين من عرف بأذى الناس ومن لم يعرف . فقال : لا يشفع للأوّل مطلقا سواء بلغ الإمام أم لا ، وأمّا من لم يعرف بذلك فلا بأس أن يشفع له ما لم يبلغ الإمام ، وتمسك بحديث الباب من أوجب إقامة الحدّ على القاذف إذا بلغ الإمام ، ولو عفا المقذوف وهو قول الحنيفة والثورى والأوزاعى ، وقال مالك والشافعى وأبو يوسف : يجوز العفو مطلقا ، ويدرأ بذلك الحدّ ؛ لأنّ الإمام لو وجده بعد عفو المقذوف لجاز أن يقيم البيّنة بصدق القاذف فكانت تلك شبهة قويّة(١).

الاقتصادية :

١ ـ إنّ التباعد الكبير والفرق والشاسع بين الاقتصاد الإسلامى ، والاقتصاد فى النظم المختلفة الرأسمالية والشيوعية لا يتجلى فى الأبعاد والأهداف التى يسعى كل إلى تحقيقها بل وفى المنطلقات الأساسية الأولى ـ وهذا هو الأصل ـ حيث يعتبر المال فى النظام الاقتصادى الإسلامى ليس هو المتحكم فى قوانين التعامل المادى ، بل يقوم التعامل على الأخلاق وهى ما يشار إليها فى الأحاديث النبوية بالصّدق ، والأخلاق ، والسماحة ، والرحمة ، كما أنّه لا يعتبر رأس المال وسيلة للربح المادى والثراء المالى مثلما تنظر إليه النظم الأخرى بشعارها : دعه يعمل دعه يربح ، بل يعتبره وسيلة للربحين المادى المعجل ، والأخروى المؤجّل ، ووسيلة لتنفيذ إرادة اللّه على حدّ سواء؛

(١) الترغيب والترهيب ٣ / ٢٤٧ .

لذا حثّ الإسلام على القرض واعتبره من قبيل التيسير على المعسر الذى ورد فيه قوله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ٢٨٠] .

والقرض فى النظام الاقتصادى الإسلامى مخالف لجميع أنواع القروض فى جميع النظم الأخرى ؛ لأنه بلا مقابل مادّى ، بل حرّم الإسلام أن يجلب السلف أدنى منفعة فى حين أن القرض فى الاقتصاد العالمى اليوم يقوم أساسا على الفوائد الربوية ، وهذه العملية لم تستجدّ فيها الشيوعية أو الرأسمالية شيئا بل هى امتداد للنظام الربوى الجاهلى الذى كان سائدا قبل الإسلام فى المجتمعات الجاهلية .

عن عبد الله بن أبى ربيعة رضى الله عنه قال: استقرض منّى النبى ﷺ أربعين ألفا فجاءه مالٌ فدفعه إلىّ وقال : « بارك الله فى أهلك ومالك إنما جزاء السلف الحمد والأداء » (١) .

وجاء أيضا فى فضل القرض عن عبد الله بن مسعود رضى اللّه عنه أنّ النبىّ ﷺ قال: « ما من مسلم يقرض مسلما قرضا مرة إلا كان كصدقتها مرتين » (٢) .

وعن البراء بن عازب ــ رضى الله عنهما ــ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من منح منيحة لبنٍ ، أو ورق ، أو هدى زُقاقا كان له مثل عتق رقبة » (٣) .

ولضمان أموال الدائنين نظّم الاقتصاد الإسلامى عملية الاستدانة والتوثيق والإشهاد وبالتحذير من المماطلة وعدم التسديد ، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ﴾ [البقرة : ٢٨٢] .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبىّ ﷺ قال: « مطْل الغنىّ ظلم » (٤) .
وعن أبى موسى عن النبى ﷺ قال : « إنّ أعظم الذنوب عند اللّه أن يلقاه بها عبد بعد الكبائر التى نهى اللّه عنها أن يموت رجل وعليه دين لا يدع له قضاء » (٥) .

وعن جابر رضى اللّه عنه قال : كان رسول اللّه ﷺ لا يصلى على رجل مات وعليه دين فأتى بميت فقال : « أعليه دين ؟ » قالوا : نعم ديناران ، قال : « صلوا

(١) رواه النسائى .
(٢) رواه ابن ماجه ، وابن حبان فى صحيحه ، والبيهقى مرفوعا وموقوفا .
(٣) رواه أحمد ، والترمذى . (٤) رواه البخارى ، ومسلم .
(٥) رواه أبو داود .

على صاحبكم » ، قال أبو قتادة : هما علىّ يا رسول اللّه فصلى النبىّ ﷺ ، فلما فتح الله على رسوله قال : « أنا أوْلى بكل مؤمن من نفسه فمن ترك دينا فعلىّ قضاؤه ومن ترك مالا فلورثته » (١) .

٢ ــ كما أنّ الإسلام فى تشريعه الاقتصادىّ عمل على تحرير الفقراء من ربقة الاستغلال والاستعباد ، فحرّم استغلال حاجة المعوز واستنزاف طاقته وجهده واغتنام أرباب الأموال لساعات ذله واستدانته منهم حتى يفرضوا عليه شروطهم الربوية مقابل أيام الدين ، فتربوا ثرواتهم وتتضخّم عائدات قروضهم ، وهم على فرش بطائنها من إستبرق على حساب المسكين المستدين .

فقه الدعوة

١ ــ إنّ القاصرين فى الفهم قصروا كلمة العلم على فهم الشريعة الإسلامية مثلما قيّدوا مصطلح الفقه على أحكام العبادات والمعاملات ، وهم بهذا التضييق والتخصيص جنوا جناية كبرى على الأمة الإسلامية ، وضربوا عليها حصارا شديدا كبّل معارفها وجمح أذهان أبنائها وعقولهم . . . وظلت ترزح تحت الجهل بحقائق الكون وسنن الحياة طيلة هذه القرون المتأخرة . . . فى حين نشطت حركة التأليف وإعادة التأليف فى الأحكام الفقهية وأعنى بإعادة التأليف أى نظم أمهات الكتب ، وجمع بعضها ، وفصل البعض الآخر أى أن الحركة فى حلقة مفرغة .

وتعطلت الجهود ، وأجهضت الطاقات الفكرية التى عرف بها علماء الموسوعات فى العصر الذهبى للحياة الثقافية فى الإسلام ، بل وأهملت البحوث والأمّهات العلمية والمراجع الثقافية فى زمن حرّم أهله ــ علم الكيمياء والمنطق ــ وأداروا ظهورهم لابن النّفيس ، والحسن بن الهيثم ، وابن سينا ، والفارابى ، وابن خلدون وكأنهم لم يمرّوا يوما على قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال : ٦٠]، ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [الحديد: ٢٥]، ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا . قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا . قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا . آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا .

(١) رواه البخارى ، ومسلم .

فما اسْطَاعُوا أَن يظْهَرُوهُ وَما اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ [الكهف: ٩٣ ـ ٩٧] .

والحقيقة أن لفظة العلم التى وردتْ فى الحديث : « يلتمس فيه علما » جاءت هكذا نكرة ، والنكرة تفيد العموم .

ولكن ـ ويا أسفاه ـ الذين جنوا على ماضى الأمة القريب ظلوا فى فهمهم الخاطئ يعممهون ، وحسبوا خطأً أن الدّعوة لا تستقيم إلا بفهم الشريعة الإسلامية خاصّة، وأنه لا شأن له بالطب ولا بالهندسة ولا بالمعطيات التكنولوجية الحديثة .

لذا تزايد الأطباء والمهندسون المسيحيون فى مصر فى أواسط هذا القرن . . . بينما يتوجّه المسلمون إلى الأزهر الشريف وإلى معاهد اللغة العربية والعلوم الاجتماعية .

٢ ـ إذا كانت العلوم الشرعية تهدى صاحبها سبيل الجنة ؛ لأنّها تعرّفه الحلال من الحرام ، والفرض من السّنة ، و. . و. . فإنّ العلوم الأخرى ـ النظرية والتطبيقية ـ تزيد فى إيمان المؤمن واطمئْنانه ، ولله درّ شيخ الأنبياء عليه الصلاة والسلام حين سأل ربه فقال : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٦٠] . كما تُرِى الباحث آيات الله الكبرى ، وتوقفه أمام القوّة العليا وتجعله يلمس الدقّة غير المتناهية فى الخلق والإبداع ، والنظام البديع هنالك تقف جميع القوى أمام التحدّى الإلهى ، فيقرّ من شرح الله صدره بعظمة الخالق ووحدانيته وهذا مصير الكثير من علماء الغرب اليوم الذين اهتدوا بهدى الله سبحانه وتعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ . ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك : ٣ ، ٤] .

وجدْوَى هؤلاء ـ إن فقهوا الدين الجديد بالنسبة للدّعوة فى أوساط بنى جلدتهم ومواطنيهم ـ أكثر بكثير من دعوة داع لا يملك غير فهم أحكام بعض العبادات من سلاح .

٣ ـ يعتقد الكثير من طلبتنا أن جهودهم لا طائل من ورائها للدعوة الإسلامية ، ومن ثم يهملون البحث العلمى ، ويعكفون على البحث فى آراء الأشاعرة والمعتزلة ويزجّون أنفسهم فى متاهات الخلاف فى تحديد مفهوم ما . . . كالقضاء والقدر . . . والتنفل قبيل صلاة المغرب . . وطول الجلباب ـ والكولونيا . . والقبض والسّدل . .

وغير ذلك ، ولا يعلمون أنهّم بذلك يحققون مآرب أعداء هذا الدِّين بقعودهم عن العمل واهتمامهم بالجدل .

بل وضررهم فى تضييع هذه الفروض الكفائية أشدّ من المتربّصين بالإسلام ؛ لأنهم يكرسون أغلوطة طالما حاول الغربيون الذين كابدوها أن يصمونا بها . . . ألا وهى عداوة الدين للعلم !

تطبيق

١ ــ قال ﷺ : « من نفّس عن مؤمن كرْبة من كرب الدنيا »، وفى رواية: «من فرّج عن مؤمن كربة من كرب الدنيا » .

بعض ضعاف الإيمان اليوم يسْعون حين تنزل بساحاتهم الكرب وتحل بهم ضائقة إلى:

أ ــ تعليق التمائم والحروز مستعيذين بها مستعينين ، تاركين الاستعانة من الذى بيده كل شىء قال تعالى : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [يونس : ١٠٧] .

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٣ ، ٨٤].

وقال تعالى حاكيا عن إبراهيم : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ . وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ . وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ . وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ . وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [الشعراء : ٧٨ ــ ٨٢] .

وهذا عبد الله بن مسعود يصحح عقيدة أهله ، فعن ابن مسعود رضى اللّه عنه أنه دخل على امرأته وفى عنقها شىء معقود فجذبه فقطعه ثم قال : لقد أصبح آل عبد اللّه أغنياء عن أن يشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا، ثم قال: سمعت رسول الله **ص** يقول: « إن الرقى والتمائم ، والتَولة شرك » قالوا : يا أبا عبد الرحمن هذه الرقى والتمائم قد عرفناهما فما التّولة ؟ قال : شىء تصنعه النساء يتحبّبْن إلى أزواجهنّ(١) .

وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه ، والحاكم باختصار عنه ، وقال : « صحيح الإسناد » .

علق تَميمَة فلا أتمّ الله له ، ومن علق ودعة فلا ودع الله له » (١) .

والتميمة هى خرزات كانت العرب تعلقها على أولادهم يتّقون بها العين كما يدّعون.

ب ــ أو ربّما استغاثوا بولىّ أو قبر عسى أن يفرج عنهم، وييسر عسرهم ، وينذرون له النذر ويذبحون . . و . .

٢ ــ التفريج مثلما يكون بالمال يكون أيضا بالجاه والنفوذ، بينما نجد العالم الإسلامى اليوم لا يحرك ساكنا ، ولا يبذل جهدا فى التنفيس على الأقليات الإسلامية فى العالم، والتى آلت أوضاعها المزْرية وأحوالها المتردية إلى مصير مجهود وسبيل مسدود، فهذه جهود البلغرة قائمة على قدم وساق . . . وهذه محاولات التعقيم والتهويد فى فلسطين . . . والتنصير والتّشريد فى أفريقيا وأندونيسيا . . . وهلمّ جرّا ، فهل كنا مع هؤلاء حتى ننتظر أن يكون النصر حليفنا . « . . والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه».

٣ ــ « وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله » .

إن للمسجد فى الإسلام مكانة عظمى ورسالة كبرى إذ هو مصنع الرّجال ومحل العبادة ، ومهد الحضارة الإسلامية ، وهو الثكنة العسكرية والمدرسة الجامعية، ولخطورة أدواره كان المسجد أوّل عمل يقوم به رسول الله ﷺ فى مهجره .

والمسجد فوق هذا دار عبادة وتهجّد وتلاوة تحقيقا لأمر الحق سبْحانه : ﴿ **وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ** ﴾ [الحج : ٢٦] ﴿ **فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ** ﴾ [النور: ٣٦].

لكن مصيبة الإسلام اليوم فى المسجد المهمّش عظيمةٌ ، حيث تبارى النّاس فى تشييد المساجد وزخرفتها وتعدّد مداخلها ومآذنها ومكبرات الصوت المعلقة فيها ، ومصابيحها ، وملحقاتها ؛ ولكنها رغم شموخها ظلت خاوية إلا من بعض المصلين ، وأضحت كثيرٌ من المساجد العتيقة ــ التى صقلت فى أرجائها المواهب ، وانطلقت من ساحاتها نجوم الهدى، ومصابيح العلم والإيمان اليوم ــ معْلما من المعالم الأثرية التى تجوبها القوافل الغربية السياحية ، والواقع على ما أقول شهيد .

٤ ــ من العجب العجاب ، والأهوال التى تشيب الغراب ، وتدهش ذوى الألباب أنّ أقواما من أهل الإسلام اليوم يعتقدون أنّ عمارة المسجد لا تتمّ إلا بالموائد والثرائد ، وإن كانت بلا فوائد ، ناسين أو جاهلين أنّ المساجد بنيت لما بنيت له ، وأنّه لو كانت العمارة بمثل ذلك فمن يطعم الحجاج ، وينفق على العمّار أثناء الزّيارة للبيت الحرام ؟ !

---

(١) رواه أحمد .

وهل الطعام (١). هو وحده الذى تحّن إليه القلوب وتتشوّق النُّفوس وتنشط الأرواح والجوارح ؟ فأين هؤلاء إذًا من قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ** ﴾ [التوبة : ١٨] .

وفى مثل أولئك قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه أبو هريرة رضى اللّه عنه : أن رسول اللّه ﷺ فقد ناسًا فى بعض الصلوات فقَال : « لقد همَمت أن آمر رجُلا يصلى بالناس ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها فآمر بهم فيحرّقوا عليهم بحزم الحطب بيوتهم، ولو علم أحدهم أنه يجد عظما سمينا لشهدها » ــ يعنى العشاء (٢) .

٥ ــ « يتلون كتاب اللّه ويتدارسونه فيما بينهم » .

لتلاوة القرآن الكريم آداب سبق وأن تعرضنا لبعضها فى مقامها ، ولكن بالمقابل نجد أنّ هذه الآداب لا تراعى فى كثير من الأحوال ، فقارئ القرآن بلا ترتيل أو تدبّر أنّى له أن يَعِيَ شيئا ممّا يقول ، لأنّ الهذْرمة تؤدى إلى خلط كلماته ، وتداخل حروفه ، وتذهب بحلاوته ، وتمنع من بقاء أثره فى النفس .

بيْد أن بعض القراء وأئمة التراويح يتبارون ويتسابقون ، ويفتخر أهل هذا المسجد على ذلك بسرعة قارئهم وخفته وعدم استغراقه لثلث الساعة فى التراويح فى رمضان .

٦ ــ يعتمد البعض على هذا الحديث وعلى أحاديث أخرى أوردناها فى مظانّها فى التحلق للذّكر وقراءة أوراد معينة ثم ينتحلون صفة أخرى وهى التمّوج والتّمايل ، وهزّ البطون ودّق الطبول وهو ما يسمى عند البعض بـ (الحضرة) . ﴿ **وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً** ﴾ [الأنفال : ٣٥] .

٧ ــ « ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل اللّه له به طريقا إلى الجنة » .
سلكت البعثات العلمية من العالم الإسلامى والعربى منه على الخصوص طرقا عديدة تلتمس فيها مفاتيح العلم، وأسرار التكنولوجيا، وذلك بتموين ورعاية من بلدانها الأصلية أى بعرق أبناء أمتها ومن خالص أموالها العامّة التى اقتطعتها من أرزاقها ، وهى تنتظر عودة هذه الكوكبة لتؤمّن لها إدارة معاملها وتحريك دواليب مصانعها ، ولتخرجها من العدّو الثلاثى المقيت : (الفقر، الجهل ، الجوع) .

ولكن طائفة من هذه البعثات خيبت آمال الأمّة فتنمّرت لأبناء دينها ، وردت لها صنيعها مثلما قيل : جزاء سنمار . . . وسهّل لها تكوينها ودراستها طريقا لا إلى الجنّة

(١) المراد به الكسكس الذى تشتهر به منطقة المغرب العربى .
(٢) رواه البخارى ، ومسلم ، وأبو داود، والترمذى ، والنسائى .

وإلى استرداد عزّة الأمّة الإسلامية وهيبتها بإعدادها ما أمرَها ربها به ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

بل إلى خليلة أوربيّة لتسوية أوضاعه الإدارية وأوراقه الثبوتية ثم إلى المصانع الغربية والمعامل الأوربية ، وقد انهزم الكثير من أبنائنا أمام هذه المغريات ، وخارت قواه المعنوية أمام البهرجة المزّيفة . ومن ثمّ خسرت أمتهم خسارتين .

الخسارة الأولى : الخسارة المادية بنفقاتها وأموالها ، والثانية : بتملص هذه الطاقات من أيديها ، بدلا من أن يحلوا محل الأيدى الفنية الأجنبية التى ثبتت خطورتها .

٨ ــ « ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه » .

يصدق هـذا فى المجتمع الإسلامى المنشـود الـذى يحـكم المنهـج القرآنى ، ويتحقق بلا ريب أيضا ساعـة العرض على الديّان عز وجل : ﴿ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠١] ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾ [عبس: ٣٤ ــ ٣٦].

ولكنّه فى واقعنا المتمرد عن أحكام اللّه من قبيل الثلاثة التى لا وجود لها كما يقول الشاعر :

ثـلاثـة ليـس لهـن وجـود الغول والعنقاء والخل الودود

فكم من طلاب بطأت بهم جهودهم ، وأسْرعت بهم أنسابهم ، وإلا فهل من الصدفة أن يكون النجاح دوما حليف أبناء الذين لا يخفضون بأدوات الجر كلها . . . وكم من إداريين . . . . ووزراء . . . . وأمراء فلا حول ولا قوة إلا باللّه الذى بيده تغيير الحال والمآل.

الحديث السابع والثلاثون

عن ابن عبّاس ـ رضى اللّه عنهما ـ عن رسول اللّه ﷺ فيما يرويه عن ربّه تبارك وتعالى، قال : « إنّ اللّه كتب الحسنات والسيئات ، ثم بين ذلك ، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها اللّه عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها اللّه عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبَهَا اللّه عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها اللّه سيئة واحدة » رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما بهذه الحروف .

لمحة عن الراوى :

إضافة لما نقلناه فى الحديث التاسع عشر عن ابن عباس رضى اللّه عنه الذى ولد قبل الهجرة بثلاث سنين بالشعب الذى حوصر فيه بنو هاشم .

وتوفى رسول اللّه ﷺ وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وثبت عنه أنّه قال: رأيت جبريل مرّتَيْن .

روى له ألف حديث وستمائة وستون حديثا ، اتّفق منها البخارى ومسلم على خمسة وتسعين ، وانفرد البخارى بثمانية وعشرين ، ومسلم بسبعة وأربعين .

مات بالطائف ودفن بها سنة ثمان وخمسين فى خلافة ابن الزبير ، وصلى عليه محمد بن الحنفية ، وقال: مات ربانى هذه الأمة .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

مصطلح الحديث :

جاء هذا الحديث مبيّنا مقادير الحسنات والسّيئات ليقطع دابر مبالغة الوضّاعين ، وليميز بين الأحاديث الصحيحة والموضوعة .إذ الإفراط بالوعيد الشديد على الأمر الصغير ، أو الوعيد العظيم على الفعل اليسير هو ضرب من ركاكة المعنى التى تعدّ

فمن هم : الهمّ أقل من العزم ، وهو : تغليب فعل الشيء على تركه .
كتبها اللّه عنده : أى فى المنزلة العالية .
عشر حسنات : وهى أقل التضعيف .
فلم يعملها : أى تخوف من اللّه تعالى .

إحدى ضوابط معرفة الحديث الموضوع ، كما قال ابن الجوزى : . . وإنّى لأستحيى من وضع أقوام وضعوا : من صلى كذا فله سبْعون دارا فى كل دار سبعون ألف بيت فى كل بيت سبعون ألف سرير ، على كل سرير سبعون ألف جارية .

وإن كانت القدرة لا تعجز ، ولكن هذا تخليط قبيح ، وكذلك يقولون : من صام يومًا كان كأجر ألف حاج وألف معتمر، وكان له ثواب أيوب ، وهذا يفسد مقادير موازين الأعمال .

وفى مضاعفة الأعمال المبالغ فيها ورد الكثير من الأحاديث الضعيفة . فقد أخرج التّرمذى من حديث ابن عمر موقوفا :

« من دخل السوق فقال : لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت ، وهو حىّ لا يموت بيده الخير وهو على كل شىء قدير ، كتب اللّه له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة ورفع له ألف ألف درجة » .

كما خرج الطبرانى بإسناد ضعيف أيضا عن ابن عمر مرفوعا : « من قال : سبحان اللّه كتب اللّه له مائة ألف حسنة » .

علم السلوك :

١ ــ قوله ﷺ : « وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها اللّه عنده حسنة كاملة » .

فمن عقد العزم على فعل معصية مّا وحال دونه وإيّاها اطلاع الناس عليه لا مراقبة منه للهّ ــ عز وجل ــ فلا يثاب على هذا التَّرك بل قيل : يعاقب على تركه لها بهذه النّية .

ومما ينسب فى هذا الباب إلى ابن عباس ــ رضى اللّه عنهما ــ قوله : خوفك من الريح إذا حرّكت ستر بابك وأنت على الذنب ، ولا يضطرب فؤادك من نظر اللّه إليك أعظم من الذنب إذا فعلته ؛ لأن تقديم خوف المخلوقين على خوف الخالق مَذْمُوم قال تعالى : ﴿ **يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا** ﴾ [النساء : ١٠٨] ، ﴿ **أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [التوبة : ١٣] .

قال الفضيل بن عياض : كانوا يقولون : ترك العمل للناس رياء ، والعمل لهم شرك. من أجل هذا حرص العارفون باللّه على أن يتمحّضوا فى الرغبة والرهبة ، والخــوف والرجاء للّه تعالى ، فكانوا يرقبون الله فى كل شىء فى فعل الواجب ،

واجتناب المحرم وكلاهما طاعة قال تعالى : ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ﴾ [الكهف : ١١٠] . والشرك خطورته على عقيدة المؤمن غير خفيّة وتشمل خطورته فيما تشمل دقة منافذه وتشعب سبله ؛ لهذا شدد النبىّ ﷺ فى التحذير منه ، فعن أبى موسى الأشعرى رضى اللّه عنه قال : خطبنا رسول اللّه ﷺ ذات يوم فقال : « يأيها الناس اتّقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النّمل » فقال رجل: وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول اللّه ؟ قال : « قولوا : اللهّم إنّا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئا نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلمه »(١) .

٢ ـ « . . . وإن همّ بها فعملها كتبها اللّه سيئة واحدة » .

من فضل اللّه تعالى علينا أن كتب على فعل السيئة سيئة واحدة بلا مضاعفة ، ولكن قد تتضاعف السيئات وذلك بحسب شرف فاعلها ، وقوّة معرفته باللّه تعالى وقربه منه ؛ ولهذا توعّد اللّه سبحانه وتعالى عباده المخلصين على المعصية بمضاعفة الجزاء ـ ولو كانوا معصومين ـ وما ذلك إلا ليبيّن لهم فضله عليهم بعصمتهم ، وحفظه لهم كما قال تعالى : ﴿ **وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً . إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ** ﴾ [الإسراء : ٧٤ ، ٧٥] ، وكما قال أيضا : ﴿ **وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ . لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ** ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧] .

فحسنات الأبرار إذًا سيئات المقرّبين ـ كما يقول العارفون بالله ـ ولما كان شرف نساء النبىّ ﷺ من شرفه استحقّ مقامهُن التضعيف فنزل فيهن قول الحق سبحانه: ﴿ **يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا . وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا** ﴾ [الأحزاب : ٣٠ ، ٣١] .

العقائدية :

١ ـ « . . . إنّ اللّه كتب الحسنات والسيئات . . . » .

إن الكتابة هنا بمعنى قدّر، أى: أن الله تعالى قدّر أفعال العباد وأمر الملائكة بكتابتها على نحو ما جاء فى الحديث: «إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمّه . . . . ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بكتب أربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله،

---

(١) رواه أحمد ، والطبرانى .

وشقىّ أو سعيد » (١) .

وقد ذهب فريق إلى تأويل الآيات القرآنية التى توهم التشبيه، تعالى اللّه علوا كبيرا عن الشبيه والنظير ، قال الشيخ إبراهيم السّهائى صاحب كتاب (ترغيب المريد السّالك فى مذهب الحبر الإمام مالك) :

وكل ما جاء بلفظ يوهم أوّله أو قل فيه ربّى أعلم !!

وعن السلف المثبتين للصفات أو الأسماء بلا تأويل أو تشبيه أو تكييف ـ ممن أطلق عليهم ـ ظلمًا وعدوانًا ـ المشبّهة الحشوية، تحدث أبو الفضل عبد اللّه بن الصّديق الغمارى فى كتابه (إتقان الصنعة فى تحقيق معنى البدعة) فقال :

يشبهون اللهّ بخلقه ، أجازوا عليه الماسة والمصافحة ، وأجروا ما جاء فى الآيات والأحاديث من ألفاظ الاستواء والوجه واليدين والعين والجنب، والمجىء والإتيان، والفوقية، وغير ذلك على ظاهرها الذى يفهم عند إطلاقها على الأجسام ، حتى قال داود الخوارى منْ زعمائهم : اعفونى عن الفرج واللحية واسألونى عمّا وراء ذلك ، ومعنى هذه العبارة أنّه يثبت للّه جميع الجوارح غير اللحية والفرج !!

قال التاج السّبكى فى طبقات الشافعية : إنّ أبا إسماعيل عبد اللّه بن محمد الهروى الذى تسّميه المجسّمة شيخ الإسلام، قال : سألت يحيى بن عمار عن ابن حبان، قلت: رأيتَه ؟ قال : وكيف لم أره ؟ ونحن أخْرجناه من سجستان كان له علم كثير ، ولم يكن له كبير دين . قدم علينْا فأنكر الحدّ للّه ، فأخرجنْاه من سجستان .

قال السبكى : انظر ما أجهل هذا الجارح ! وليت شعرى من المجروح ؟ ! مثبت الحدّ للّه أو نافيه ؟ !

وذكر فى الطبقات أيضا فى ترجمة أبى عثمان الصابونى : أنّ المجسّمة بمدينة هراة لقبوا أبا إسماعيل عبد اللّه بن محمد الأنصارى المشار إليه بشيخ الإسلام ، قال : وكان الأنصارى المذكور كثير العبادة محدّثا ، إلا أنّه كان يتظاهر بالتجسيم والتشبيه ، وينال من أهل السّنة فى كتابه (ذمّ الكلام)حتى ذكر أن ذبائح الأشعرية لا تحل .

وله أيضا كتاب الأربعين ، سمتها أهل البدعة (الأربعون فى السّنة) يقول فيها : باب إثبات القدم للّه ، باب إثبات كذا وكذا ، يعنى الأعضاء كاليد والجنب قال : وكان أهل هراة فى عصره فئتين : فئة تعتقده وتبالغ فيه ، لما عنده من التقشّف والعبادة . وفئة تكفره ، لما يظهره من التشبيه . ا . هـ .

---

(١) راجع : الحديث الرابع فى هذه السلسلة .

قال : ومن مصنفاته التى فوّقت نحوه سهام الملام كتاب (ذمّ الكلام) وكتاب (الفاروق فى الصفات)، وكتاب (الأربعين) وهذه الكتب الثلاثة ، أبان فيها عن اعتقاد التشبيه وأفصح .ا.هـ [١] .

وهذا الذى ذكره الغمارى عن الهروى وغيره مجانب للصواب ، فقد كان ابن تيمية يثنى على مصنّفات الهروى هذا ويحضّ على قراءتها؛ لأن هذا قول السلف .

٢ ــ يجب الاعتقاد بأن كل أفعال العباد الاختيارية ــ أى أقوالهم ، وأفعالهم ، واعتقاداتهم ، ونياتهم ــ تكتب فى الصحائف بواسطة الحفظة من الملائكة الذين فى ضمنهم الكاتبان اللذان يكون أحدهما عن يمين العبد ، والثانى عن يساره ، وكل منهما يسمى رقيبا عتيدا : أى حاضرا حافظا ، فالذى يكتب الحسنات صاحب اليمين ، والذى يكتب السّيئات صاحب الشمال ، فإذا فعل العبد حسنة كتبها صاحب اليمين فى الحال ، وإذا فعل سيئة وأراد أن يكتبها صاحب الشمال أمره صاحب اليمين بالتأخير إلى خمس ساعات لأن له عليه إمارة ، رجاء أن يتوب العبد فإن لم يتب كتبت عليه من غير تضعيف [٢] .

والأدلة على ذلك كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ **وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ . كِرَامًا كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ** ﴾ [الانفطار : ١٠ ـ ١٢] ، ﴿ **إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ . مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ** ﴾ [ق : ١٧ ، ١٨]. وخبر : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ». والحكمة من الكتابة هى إظهار عدل اللّه ــ عزّ وجل ــ يوم القيامة من جهة وزجر العبد حينما يعلم أنه مراقب وأن أعماله تسجل بدقة من جهة أخرى .

وكل أفعال العباد تكتب   للعدل لا عن علم ربّى تعزب

الفقهية :

« وإن همّ بها فعملها كتبها اللّه عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة » .

من فضل اللّه على عباده مضاعفته للحسنة بعشر أمثالها أوْ بأضعاف مضاعفة قال

---

(١) نقلا عن كتاب : إتقان الصنعة فى تحقيق معنى البدعة ، لأبى الفضل عبد اللّه بن الصديق الغمارى ص٣٠، ٣١ ط : عالم الكتب عام ١٩٨٦ م .

(٢) من كتاب : سراج السّالك شرح أسهل المسالك بتصرف .

تعالى : ﴿ وَإِن تَكُ حسَنَةً يُضَاعِفْهَا ويُؤْتِ من لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٠].

ومضاعفة الحسنة بعشر أمثالها لازم لكل الحسنات : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام : ١٦٠] .

وأمّا زيادة المضاعفة على العشر لمن شاء اللّه أن يضاعف له فدلّ عليه قوله تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [البقرة : ٢٦١] :

أ ــ بعض الطاعات المضاعفة :

ــ من الطاعات التى يضاعف اللّه ــ سبحانه وتعالى ــ حسناتها فوق العشر : الصدقة : للآية السابقة ، ولما رواه عبد اللّه بن مسعود رضى اللّه عنه حيث قال : جاء رجل بناقة مخطومة ، فقال : يا رسول اللّه هذه فى سبيل اللّه ، فقال :« لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة » (١) .

والصبر هو الآخر لا يعلم أجره إلا اللّه : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[الزمر : ١٠] ، ومثله الصيام ، فعن أبى هريرة رضى اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : «قال اللّه ــ عز وجل ــ : كل عمل ابن آدم له إلا الصّوم فإنه لى وأنا أجزى به، والصيام جُنّة» (٢)، ومنها الجهاد فى سبيل اللّه، وصلاة الجماعة، وقراءة القرآن الكريم . . وغيرها كثير .

ب ــ أسباب المضاعفة :

١ــ تكون المضاعفة بحسب إخلاص المؤمن وحسن إسلامه، جاء فى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى اللّه عنه عن النبىّ ﷺ قال : « إذا أحسن أحدكم إسلامه فكل حسنة يعملها تكتب بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، وكل سيئة تكتب بمثلها حتى يلقى اللّه عز وجل » .

٢ ــ وتكون بحسب الحاجة إلى ذلك العمل وفضله كالنفقة فى الجهاد وفى الحجّ وفى الأقارب وفى اليتامى والمساكين ، وأوقات الحاجة إلى النّفقة ويشهد لذلك ما روى عن عطية عن ابن عمر رضى اللّه عنه قال : نزلت ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام : ١٦٠] فى الأعراب ، قيل له : فما للمهاجرين ؟ قال : ما هو أكثر ، ثمّ تلا قوله تعالى : ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا ويُؤْتِ من لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ .

---

(١)صحيح مسلم .

(٢)رواه البخارى ــ واللفظ له ، ومسلم

٣ ــ وتتضاعف أيضا بحسب الأزمنة وبعض الأمكنة كشهر رمضان وليلة القدر التى هى خير من ألف شهر ، وكالأشهر الحرم . . . ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ [التوبة : ٣٦] .

وبالنسبة للأمكنة كالحرم المكّى والمسجد الحرام ، ثم المسجد النبوى ، ثم الأقصى الذى بارك اللّه حوله وهى التى تشدّ إليها الرحال دُونَ غيرها .

جـ : دور النية فى صحة الصدقة والزكاة :

لا نـقصد بهذا عدم اشتراط النيّة فى الصّدقة أو الزكاة ، وصحتها بدونها كلا ؛ لأن مدار صحة العبادات وقبولها يتوقف أساسا على النيّة .

ولكن نُريد أن نبيّن أن النية فى الصدقة على الفقراء والمحتاجين تكفى ولو لم تصادف محلها ويثبت الأجر ــ إن شاء اللّه ــ لصاحبها فعن معن بن يزيد ــ رضى اللّه عنهما ــ قال : كان أبى يزيد أخرج دنانير يتصدق بها فوضعها عند رجل فى المسجد فجئت فأخذتها فأتيته بها فقال : واللّه ما إيّاك أردت فخاصمته إلى رسول اللّه ﷺ فقال: «لك ما نويت يايزيد ولك ما أخذت يا معن »(١) .

وعن أبى هريرة رضى اللّه عنه ،أن رسول اللّه ﷺ قال: «قال رجل: لأتصدّقنّ الليْلة بصدقة ، فخرج بصدقته فوضعها فى يد سارق ، فأصبحوا يتحدثون : تصدّق الليلة على سارق ، فقال : اللهم لك الحمد على سارق ، لأتصدقنّ بصدقة ، فخرج بصدقته فوضعها فى يد زانية فأصبحوا يتحدثون: تصدّق،الليلة على زانية ،فقال: اللهم لك الحمد على زانية ، لأتصدقن بصدقة فخرج بصدقته فوضعها فى يد غنى فأصبحوا يتحدثون : تصدّق الليلة على غنى ، فقال: اللهم لك الحمد على سارق وزانية وغنى ، فأتى فقيل له: أما صدقتك على سارق فلعله أن يستعفف عن سرقته ، وأما الزانية فلعلها أن تستعفّ عن زناها ، وأما الغنى فلعله أن يعتبر فينفق مما أعطاه اللّه»(٢) .

هذا فى الصّدقة أمّا الزكاة فلا تصح إلا إذا كانت فى الأصناف الثمانية الوارد ذكرهم فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ﴾ [التوبة: ٦٠]. فلا يكفى المزكى ما دفعه فى غير مستحقها ولو باجتهاد منه حيث تبين العكس .

(١) رواه البخارى فى الزّكاة .

(٢) رواه البخارى ــ واللفظ له ــ ومسلم ، والنسائى .

د ـ حكم من هم بحسنة :

من هم بحسنة وعقد العزم على فعلها ومنعه مانع قهرى فالأدلة على أنه يعطى ثواب من فعلها .

أما من همّ بها وتكاسل عن أدائها فإن اللّه يكتبها له حسنة كاملة جزاء نيته الطيّبة، ففى حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه : « إذا تحدّث عبدى بأن يعمل حسنة فأنا أكتبها له حسنة » .

قال أبو الدرداء : من أتى فراشه وهو ينوى أن يصلى من الليل فغلبته عيناه حتى يصبح كتب له ما نوى .

وروى عن سعيد بن المسيب قال : من هم بصلاة أو صيام أو حجّ أو عمرة أو غزوة فحيل بينه وبين ذلك بلغه اللّه تعالى ما نوى .

وهذه نصيحة جليلة ذكرها زيد بن أسلم : كان رجل يطوف على العلماء يقول : من يدلنى على عمل لا أزال منه للّه عاملا فإنى لا أحبّ أن يأتى علىّ ساعة من الليل والنهار إلا وإنىّ عامل للّه تعالى ؟ فقيل له : قد وجد، حاجتك فاعمل الخير ما استطعت فإذا فتَرتَ أو تركت فهم بعمله فإن الهام بفعل الخير كفاعله .

ويؤكد كل ذلك ما رواه أبو كبْشة عن النبىّ ﷺ قال : « إنمّا الدنيا لأربعة نفر : عبد رزقه اللّه مالا وعلما فهو يتقى فيه ربّه ويصل فيه رحمه ويعلم للّه فيه حقا فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه اللّه علما ولم يرزقه مالا فهو صادق النيّة فيقول : لو أن لى مالا لعملت بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء ، وعبد رزقه اللهّ مالا ولم يرزقه علما فهو يتخبّط فى ماله بغير علم لا يتقى فيه ربّه ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم فيه للّه حقا فهذا بأخبث المنازل ، وعبد لم يرزقه اللّه مالا ولا علما وهو يقول : لو أن لى مالا لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فوزرهما سواء » (١) .

وتحمل كلمة : « فأجرهما سواء » على أصل الأجر لا على التضعيف للأدلة السابقة ، وإلا فما الفائدة من العمل ، قال تعالى : ﴿ **فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا . دَرَجَاتٍ مِّنْهُ** ﴾[النساء : ٩٥ ، ٩٦] .

قال ابن عباس وغيره : القاعدون المفضّل عليهم المجاهدون درجة القاعدون من

(١)أخرجه الإمام أحمد ، والترمذى ، وابن ماجه ، واللفظ له .

أهل الأعذار ، والقاعدون المفضّل عليهم المجاهدون درجات هم القاعدون من غير أهل الأعذار .

وهاؤم البكاؤون من أصحاب الأعذار فى غزوة تبوك يصفهم الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام بقوله : « إن بالمدينة أقواما ما سرتم مسيرا ، ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم » ، قالوا : يا رسول اللّه : وهم بالمدينة ؟ ! قال : « وهم بالمدينة ! حبسهم العذر » .

الثقافية :

« . . . وإن همّ بسيئة . . . » .

حينما أيس الأعداء من النيّل من القرآن الكريم ووجدوا دونه سدا منيعا وحصنا حصينا ولوّا معاولهم قبل المراجع الدينية الأخرى ، فسعوا إلى كتب الحديث النبوى الشريف وحاولوا حشوها بالموضوعات والمفتريات غير أن سهامهم قد طاشت ، وأمانيهم قد خيبّتها جهود رجال الحديث الذين قيّضهم اللّه لصون شريعته وحفظ سنّة نبّيه ؛ لأن حفظها من حفظ القرآن الكريم لما لها من دور فعّال فى شرحه ، وتقييد مطلقه ، وتخصيص عامّه . .فشمّروا عن ساعد الجدّ والتّفانى ، فكان الرجل يقطع المفاوز ويتجشم الصعاب ليتأكد من سلسلة حديث واحد ، حتى أثمرت جهودهم ــ رضوان اللّه عليهم ــ هذه الأمهات الصّحاح ، فأزاحوا عن هذه الجوهرة النفيسة ما علق بها من غبار ، وفرزوا الغثّ من السمين ، والصحيح من السّقيم ، وفوّتوا على أعداء الإسلام عامّة والمناوئين للمصدر الثانى من مصادر التشريع الإسلامى كل الفرص .

غير أنهم ــ أى الأعداء ــ لم يغمدوا سيوفهم ، ولم يغمضوا أعينهم فحملوا كرّة أخرى على القرآن الكريم ولكن هذه المرة بوسيلة أخبث وتأكدّوا من أنها الأنجع والأفجع فجهزوا جيشا كبيرا وجحفلا عظيما مهمّته الدسّ فى كتب التفاسير، والحشو ؛ حشو الإسرائيليات الخطيرة والتى تناقلتها بعض كتب التفسير على أنها حقائق فكانت السم الزعاف فى الدسم ــ كما يقال ــ فروت من جملة ما روت ؛ ما ينال شرف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ويهمز كرامتهم ، ويلمز مقامهم الرفيع كل ذلك على طريقة بنى إسرائيل الذين لا يتحرجون من اتهام نبىّ من أنبياء اللّه المصطفين الأخيار بالزنا، وبمن؟! بابنتيه الكبرى والصغرى . . . وهلم جرّا .

وقريب من هذا ما وقع فيه بعض المفسرين حين تعرضهم لقول اللّه تعالى : ﴿**وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا**﴾ من سورة يوسف عليه السلام [الآية : ٢٤] حيث اتفقوا على أن همّ

امرأة العزيز: كان بالمعصية ، واختلفوا حول همّ نبىّ اللّه يوسف عليه السلام ، فمن قائل يقول : إنها همّت به تقصد المعصية ، وهمّ بها يقصد المعصية ولم يفعل .

ومن قائل : إن الهمّ بينهما كان قبل هذا الحادث كان حركة نفسية داخل نفس يوسف فى السن التى اجتاز فيها فترة المراهقة .

(وقد فنّد العلماء المحققون هذه التأويلات الباطلة من وجوه :

١ــ إنّ الهم لا يكون إلا بفعل للهام ، والوقاع ليس من أفعال المرأة حتى تهم به، وإنما نصيبها منه قبوله ممّن يطلبه منها بتمكينه منه .

٢ــ إن يوسف لم يطلب منها هذا الفعل حتىّ يسمىّ قبولها لطلبه ورضاها بتمكينه همّا لها ، فالآيات قبل هذه وبعدها تبرئه من ذلك بل من وسائله ومقدّماته .

٣ــ إنّه لو وقع ذلك لوجب أن يقال : (ولقد هم بها وهمت به) ؛ لأن الهّم الأوّل هو المقدّم بالطبع وهو الهّم الحقيقى ، والهّم الثانى متوقّف عليه .

٤ــ إنه قد علم من هذه القصّة أن هذه المرأة كانت عازمة على ما طلبته طلبا جازما ومصرة عليه ، فلا يصح أن يقال : إنها همّت به ، إذ الهم مقاربة الفعل المتردّد فيه ، بل الأنسب فى معنى الهّم هو ما فسرناه به أولا ، وذلك لإرادة تأديبه بالضرب، وقد رووا هنا أخبارا من الإسرائيليات عن تهتك المرأة وتبذّلها مما لا يقع مثله من أوقح الفسّاق الذين تجرّدوا من جلابيب الحياء فضلا عمن ابتلى بالمعصية أوّل مرة من سليمى الفطرة الذين لم تغلبهم ثورة الشهوة الجامحة على حيائهم الفطرى وحيائهم من نظر ربهم إليهم) [١] .

والخلاصة : أنّ الفارق بين همها وهمّه : أنها أرادت الانتقام منه شفاء لغيظها إذ فشلت فيما تريد ، وأراد هو الاستعداد للدفاع عن نفسه ، وهمّ بها حين رأى أمارة وثوبها عليه ، فكان موقفهما موقف المواثبة والاستعداد للمضاربة ، ولكنه رأى من برهان ربّه وعصمته ما لم تر مثله ، إذ ألهمه أن الفرار من هذا الموقف هو الخير الذى به تتم حكمته فيما أعدّه له ، فاستبقا باب الدّار وكان من أمرهما ما يأتى بيانه فى سياق الآيات القرآنية الساردة لهذه القصة ، هذه خلاصة رأى نقله ابن جرير ، وأيّدهُ الرازى، وأبو بكر الباقلانى وهناك تفسير آخر للحادثة يرى أن فى الآية تقديمًا وتأخيرًا ، قال أبو حاتم :كنت أقرأ غريب القرآن على أبى عبيدة ، فلما أتيت على قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ

---

(١) تفسير المراغى ٤ / ١٣١ ، بتصرف قليل .

﴿ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾ [يوسف : ٢٤] قال أبو عبيدة : هذا على التقديم والتأخير بمعنى ولقد همّت به .. ولو أن رأى برهان ربّه لهّم بها .

النفسية :

« فمن هم بحسنة .... » إلخ الحديث .

من خلال هذا الحديث النبوّى الشريف يتبين لنا أن ما يقع فى النفس من قصْد للمعصية أو الطاعة له خمس مراتب ، منها ما لا أجْر فيه ولا وزر ، ومنها ما لا إثم فيه ويثبت فيه الثواب وهى على هذا النحو كما رتّبها بعضهم فى قوله :

مراتب القصد خمس هاجس ذكروا فخاطر فحديث النفس فاستمعا

يليه همّ فعزم كلها رفعت سوى الأخير ففيه الأخذ قد وقعا

أولا : الهاجس : وهو ما يلقى فى النفس ويمر مرّ السحاب ، ولا يؤاخذ به إجماعاً ؛ لأنه ليس من فعل العبد وإنما هو وارد لا يستطيع دفعه .

ثانيا : الخاطر : وهو جريانه فيها فيركن قليلا ثم يذهب .

ثالثا : حديث النفس : وهو ما يقع فيها من التردّد هل يفعل أم لا .

رابعا : الهم : وهو خطور الشىء بالبال وترجيح فعله بدون تصميم ، وفى هذه المرتبة تفرق الحسنة والسيئة فالحسنة تكتب به ، والسّيئة لا تكتب للحديث « وإن همّ بسيئة فلم يعملها كتبها اللّه عنده حسنة كاملة » .

خامسا : العزم : وهو قوّة القصد والعزم به ويدوم فى النّفس ويستريح إليه صاحبها .

وأكثر المحققين على المؤاخذة به وممّن قال بذلك القاضى أبو بكر ، قال القاضى عياض فى الإكمال : عامّة السلف وأهل العلم من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين على ما ذهب إليه القاضى أبو بكر .

وقال ابن المبارك : سألت سفيان الثورى : أيؤاخذ العبد بالهّم ؟ فقال : إذا كانت عزْما أوخذ، واستدلوا بنحو قوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ﴾ [البقرة : ٢٣٥] . وقوله تعالى :﴿ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٥] . وبنحو قول النبىّ ﷺ : « الإثم ما **حاك** فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس » .

وحملوا قوله ﷺ : « إن اللّه تجاوز لأمتى عمّا حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل » على الخطرات : وقالوا : ما أكنّه العبد وعقد عليه قلبه فهو من كسبه وعمله فلا يكون معفوًا عنه .

كيف عالج الإسلام الهواجس النفسية ؟ :

١ ــ أمرنا بالاستعاذة باللّه من الشيطان الرّجيم قال تعالى : ﴿ **وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ** ﴾ [الأعراف : ٢٠٠] .

فإذا حدثتك نفسك بما تستعظم ذكره فاعلم أنّ ذلك هو تلبيس إبليس ، وحربٌ من حروبه على عقيدتك ومن ثمّ بادر بالاستعاذة باللّه منه لتحصّن قلبك من مكايده ، فعن أبى هريرة رضى اللّه عنه عن النبىّ ﷺ قال : « يأتى الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا ؟ من خلق كذا ؟ حتى يقول : من خلق ربّك ؟ فإذا بلغ ذلك فليستعذ باللّه ولينته»(١) .

٢ ــ وليؤكد النبىّ الكريم عليه الصلاة والسلام أن هذه الوساوس لا تضرُّ المؤمن مادام مستعيذا باللّه ، اعتبرها محض الإيمان ما دامت النفس تدفعها ولا يقر قرارها وهى تجول فى الخاطر حتى يردّها عن عبد اللّه رضى اللّه عنه قال : سئل رسول اللّه ﷺ عن الوسوسة قال : « تلك محض الإيمان » (٢) .

وعن أبى هريرة رضى اللّه عنه عن النبىّ ﷺ قال : « يأتى الشيطان أحدكم فيقول: من خلق السماء ؟ من خلق الأرض ؟ فيقول : اللّه ، فمن وجد من ذلك شيئا فليقل :آمنت باللّه ورسوله » (٣) .

وعن أنس بن مالك،عن النبىّ ﷺ قال: «قال اللّه ــ عز وجل ــ : إن أمتك لا يزالون يقولون : ما كذا ما كذا حتى يقولوا : هذا اللهّ خلق الخلق فمن خلق اللّه»(٤).

فقه الدعوة

لا نجاح للدّعوة إلا إذا قرن أصحابها بين الأسْلوبَيْن : الترغيب والترهيب ، وهنا تبرز الحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتى هى أحسن. . . وتظهر نتائجها. . . ولكن تبقى هذه الوسائل قوالب فحسب إذا كانت بمنأى عن المضامين أو المادّة الخامّة التى عبر القرآن الكريم عنها بقوله: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ**﴾ [يوسف:١٠٨] .

إنّ البعض من رجال الدعوة اليوم يملكون الكثير من المادّة الأساسية ، أى أنّهم

(١)رواه البخارى ، ومسلم ، وأبو داود . (٢)رواه مسلم .

(٣ ، ٤)رواهما البخارى ومسلم .

على بصيرة من دينهم ويتمتّعون باطلاع واسع على الأحكام الفقهية والعقائدية . . . بل ويحفظون المصنفات من الأمّهات .

ولكنهم ينادون علنا جهارا : ما للّه للّه ، وما لقيصر لقيصر ، وهم فى هذا لا يخشون حاكما جبّارا ، ولا يرجون له عزّا ولا وقارا بل عن حسن نيّة وصفاء طويّة ، فهم يرفعون أصواتهم ويصرفون أوقاتهم لتحكيم كتاب اللّه ، الذى لا يفهمون منه إلا قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا** ﴾ [النساء : ١٠٣] ﴿ **وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا** ﴾ [المائدة : ٣٨] ﴿ **الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ** ﴾ [النور : ٢] .

وهؤلاء وإن كانوا على بصيرة من أحكام دينهم فليسوا على بصيرة من دعوتهم ، وضررهم على الإسلام أكبر من نفعهم ، وإليهم يسعى الرؤساء والأمراء فتراهم يتصدّرون مجالس الإفتاء الرّسمى فتزل أقدام الكثرة الكثيرة منهم ، فينقلبون إلى فبركة الفتاوى وصياغة الأدعية لولىّ الأمر وأمير المؤمنين الأمين . . . فهم فى سخط اللّه وسخط من أرضوهم فى سخطه تعالى .

وترى طائفة أخرى لا تملك من الدعوة إلا اللحى المسدلة والثياب الصّوفية تجوب أرجاء أوربا خاصة وأمريكا ، وليس لها من الزّاد إلا النيّة الطيبة والوجه البشوش . . . وهذه وإن كثرت من أتباعها وأقول : أتباعها فلم تكثر فى الإسلام شيئا .

ولقد حاورت الكثير من أتباع هذه الطائفة التى لم أكن أحمل أى فكرة مسبّقة ضدّها ، لأنّى أمقت التحيز والتعصب والانتماء الحركى للانتماء ! حتى يصبح الرجل داعية لجماعته لا لدينه ويتكرّس فى ذهنه : أن الصّديق هو من كان داخل حركته وعدوه من كان خارجها .

قلت : حاورتهم فى كثير من مساجد فرنسا حيث يفدون من شتى بقاع العالم ، والحق يقال : إنهم يتجشمون الصعاب ويتحملون الأتعاب فلم أجد عندهم إلا عواطفهم . . . حتى أن قائدا من قادتهم قال بالحرف الواحد : أنّ الصحابة كانوا يدعون بنياتهم فقط .

ومن مصائب الدّعوة الإسلامية أيضا فى هذا العصر أنها ابتليت بفرقة تنفر أكثر ممّا تبشّر ، وتشوّه ولا تصحّح فضررها معلوم ونفعها معدوم . . . فهى تخاطب الناس من أبراج عالية وتنظر إليهم نظرة استعلاء ، نظرة الصالح للطالح ، والسيد للعبيد وتكرّر على مسامع الناس أن العالم كله فى ضلال . . . واضمحلال . . . وأنهم هم ربان

سفينة الخلاص ولا يملكون إلا الفضاضة والغلظة فى الخلق والقول .

أما كان الأجدر بهؤلاء جميعا ممّن نصبوا أنفسهم دعاة حماة أن يستقوا الحكمة والموعظة الحسنة والعلم الصحيح من النبّع الصافى والمعين الذى لا ينضب القرآن الكريم، وأن يقتدوا بإمام المرسلين الأسوة الحسنة ـ صلوات ربىّ وسلامه عليه .

وأن يستقرئوا تاريخ اللآلئ المضيئة والدّرر المنيرة من علماء الإسلام ليعلموا أن الدعوة ليست نية فحسب . . . ولا تبسم فقط . . . ولا علم وثقافة مجردة . . . وهذا الإمام النّووى الجهبذ يبرز لنا تعليقه على هذا الحديث ما يتمتع به من فقه للغة ، ودراية بالحديث ، وإحاطة بأساليب التشويق والترغيب والتحبيب :

فانـظر يـا أخى ـ وفقنا اللّه وإيّاك ـ إلى عظيم لطف اللّه تعالى بعبده وتأمّل هـذه الألفاظ ، وقوله : عنده إشارة إلى الاعتناء بها وقوله : كاملة ؛ للتأكيد وشدة الاعتناء بها ، وقال فى السيئة التى هم بها ثم تركها : كتبها اللّه عنده حسنة كاملة ، فأكدها بكاملة وإن عملها كتبت سيئة واحدة ، فأكد تقليلها بواحدة ، ولم يؤكدها بكاملة ، فللّه الحمد والمنّة، سبحانه لا نحصى ثناء عليه وباللّه التوفيق .

تطبيق

ممّا سبق عرفنا أن مكّة المكرمة ، أو بالأحرى الحرم المكّى هو المكان الذى تتضاعف فيه الطاعات والسّيئات كذلك لقوله تعالى : ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ [البقرة : ١٩٧] .

قال ابن عمر : الفسوق إتيان معاصى اللّه فى الحرم .

وقال تعالى : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الحج : ٢٥]، أى ومن يرد أن يعدل عن الاستقامة ويميل إلى الظلم فى المسجد الحرام يكون مصيره العذاب الموجع، وكان جماعة من الصحابة يتقون سكنى الحرم خشية ارتكاب الذنوب فيه: منهم ابن عباس وعبد اللّه بن عمرو بن العاص، وكذلك كان عمر بن عبد العزيز يفعل، وكان عبد اللّه بن عمرو بن العاص يقول: الخطيئة فيه أعظم ، وروى عن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه قال : لأن أخطئ سبعين خطيئة ـ يعنى بغير مكة ـ أحبّ إلىّ من أخطئ خطيئة واحدة بمكة .

وعن مجاهد قال : تضاعف السّيئات بمكة كما تضاعف الحسنات. وقال ابن جريج: بلغنى أن الخطيئة بمكة بمائة خطيئة ، والحسنة على نحو ذلك ، وقال إسحاق بن منصور : قلت لأحمد فى شىء من الحديث : إنّ السيئة تكتب بأكثر من واحدة ؟ قال:

لا . ما سمعنا إلا بمكة لتعظيم البلد ، ولو أن رجلا بعدن أبين هم ، وقال إسحاق بن راهويه كما قال أحمد .

وقال الضحاك : إن الرجل ليهم بالخطيئة بمكة وهو بأرض أخرى ولم يعملها فتكتب عليه .

وروى السدّى عن مرة عن عبد اللّه بن مسعود قال : ما من عبد يهم بخطيئة فلم يعملها فتكتب عليه ، ولو هم بقتل الإنسان عند البيت وهو بعدن أبين أذاقه اللّه من عذاب أليم، وقرأ عبد اللّه : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[الحج : ٢٥] (١). أوردت هذا كله لأستدل على كبير ما يقترفه بعض الحجاج اليوم داخل الحرم المكى من الجدال والخصام والسباب . . والاقتتال . . فنسأل اللّه السلامة والعافية .

(١)أخرجه الأمام أحمد وغيره .

الحديث الثامن والثلاثون

عن أبى هريرة رضى اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ « **إنّ اللّه تبارك وتعالى قال : من عادى لى وليّا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلىّ عبدى بشىء أحبّ إلىّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرّب إلىّ بالنّوافل حتى أحبّه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه**» رواه البخارى ومسلم .

الحديث تفرد بإخراجه البخارى فى ـ باب التواضع ـ عن محمد بن عثمان بن كرامة قال: حدثنا خالد بن مخلد ، قال :حدثنا سليمان بن بلال قال : حدثنى شريك ابن عبد اللّه بن أبى نمر عن عطاء عن أبى هريرة عن النبىّ ﷺ : « إن اللهّ تعالى قال: . . » الحديث ،وزاد فى آخره : « وما ترددت فى شىء أنا فاعله تردّدى عن نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته » .

دروس وعبر من كلام سيّد البشر

علم السلوك :

حقيقة الولاية والطّريق إليها :

الولى بصيغة فعيل : إمّا بمعنى فاعل؛ لأنه تولى اللّه بالطاعة والتقوى ، وإمّا بمعنى

عادى لى : آذى وليّا من أجل دعوته لدينى .

وليـا : وردت كلمة « ولىّ » فى القرآن الكريم لمعان عدة :

١ ـ جاءت بمعنى : الولد فى قوله تعالى : ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا . يَرِثُنِي ﴾ [مريم :٥، ٦] .

٢ ـ وجاءت بمعنى : الصاحب من غير قرابة فى قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ ﴾ [الإسراء: ١١١] .

٣ ـ « القريب » كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا ﴾ [الدخان:٤١] أى : لا يغنى ولا ينفع الكافر قريبه الكافر.

٤ ـ العصبة : كما فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي ﴾ [مريم :٥] .

٥ ـ الولاية فى الدين كقوله تعالى : ﴿ لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ﴾ [المائدة :٥١] .

وقال ابن حجر فى الفتح: المراد بولىّ اللّه العالم باللّه تعالى المواظب على طاعته، المخلص فى عبادته.

آذنتـه : أعلمته .

بالحرب : بأن أنتقم منه سريعا .

كنت سمعه : أى حافظ سمعه ، وبصره ، ويده .

مفعول؛ لأن اللّه تولاه بالحفظ والهداية . والولىّ من الولى وهو القرب ؛ يقال : تباعد بعد ولى ، أى بعد قرب والولىّ بالمعنى العام : هو المؤمن لقوله تعالى : ﴿ **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** ﴾[البقرة : ٢٥٧] .

وبالمعنى الخاص هو كل من اتقى اللّه عز وجل فواظب على الطاعات واجتنب المنهيات ، وأعرض عن المشتبهات ، وقد أفاضت الآيات القرآنية فى وصف الولى وبيان حقيقته منها قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ . وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ** ﴾ [المائدة : ٥٥ ، ٥٦] .

كما ورد وصف حالهم فى الدنيا وبشارتهم وأمنهم فى الأخرى فى قول الحقّ سبحانه : ﴿ **أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ . لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ** ﴾[يونس : ٦٢ ــ ٦٤] .

وفى قوله أيضا : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ** ﴾[فصلت : ٣٠ ، ٣١] .

ومن خلال استعراضنا لما سبق من الآيات القرآنية التى بينت حقيقة الولىّ وصفاته من الإيمان والتّقوى ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، واستقامة فى العقيدة ، وفى السلوك والأخلاق . يتبين لنا أنّ الولاية شىء مكتسب [1] ، ما دام الطريق إليها مبين فمن سلكه واتصف بصفات الولاية فقدّم الولاء المطلق للمَوْلى ــ عزّ وجل ــ وتبرأ ممّا عداه كان وليّا ولوْ لم يتعمم بالعمامة الخضراء ، ولم يطلع عليه أحد للحديث : « رب أشعث أغبر . . . » إلخ .

درجات الأولياء :

« وما تقرّب إلىّ عبدى . . . ولا يزال » .

وفى هذا الحديث بيان لدرجتى الولاية :

أولهما : الأوْلياء المقرّبون إلى اللّه بأداء الفرائض وهم المقتصدون : ﴿ **وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ** ﴾[فاطر:٣٢] وهؤلاء قد اختاروا السبيل الأفضل لقول عمر

---

(١) كل ذلك بتوفيق اللّه تعالى .

ابن الخطاب رضى اللّه عنه : أفضل الأعمال أداء ما افترض اللّه ، والورع عمّا حرّم اللّه، وصدق النيّة فيما عند اللّه تعالى . ولقول عمر بن عبد العزيز فى خطبته : أفضل العبادات أداء الفرائض واجتناب المحارم .

ثانيهما : والدّرجة الثانية هى درجة الأولياء السابقين وهم الذين سلكوا الطريق الأكمل حيث تقربوا إلى اللّه بعد الفرائض بالاجتهاد فى النوافل، والابتعاد عن المكروهات خوف الوقوع فى المحرمات .

أولياء الله أحباؤه :

إن محبّة اللّه لعبده جزاء مترتّب على تقرّب العبد لربّه ؛ لقوله تعالى فى هذا الحديث القدسى : « ولا يزال عبدى يتقرّب إلىّ بالنوافل حتى أحبّه » .

والحبّ ينبثق عن الإعجاب بالمحبوب غالبا ، غير أن محبّة المؤمن تمتاز بالعمق والاقتناع ، وأهم شىء فى هذا الكون يلفت الأنظار ويشد الأبصار هو ذلك الجم الهائل من الدلائل القاطعة والبراهين الساطعة الناطقة بعجيب صنع خالقها الذى أتقن كل شىء : ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ** ﴾ [آل عمران : ١٩٠] ؛ لهذا فإن قلب المؤمن عامر بحبّ اللّه قبل كل شىء لأنه عرف اللّه كما يجب أن يعرف .

ومحبّة اللّه ليست هياما وشغفًا ولا ادعاء فارغا، بل لها دلائل تثبت صدق صاحبها، ولوازم تدل عليها :

أ ــ طاعته تعالى وامتثال أمره ، والانتهاء عند نهيه .

ب ــ اتباع الرسول ﷺ : ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ** ﴾ [آل عمران : ٣١] .

جـ ــ أن يكون حبه للّه تعالى فوق أى اعتبار ، وأولى من المصالح والأهل ، والأولاد، والعشيرة ، والأموال، قال تعالى : ﴿ **قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ** ﴾ [التوبة : ٢٤] .

نتائج محبة الله لوليه :

من نتائج محبّة العبد لربّه محبّته تعالى لعبْده ، وتتمثّل محبتّه كما ورد فى الحديث القدسى فيما يلى :

١ ـ « كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده . . . ورجله».

والمعنى إمّا بتقدير مضاف ، أى :حافظ سمعه ، وحافظ بصره ، وحافظ يده ، ورجله ، وحفظها ، أى :صونها عن الوقوع فى المعاصى . أو أنّ إيمان المؤمن وإحسانه يصلان به إلى مراقبة اللّه فى كل حركة يتحرّكها فلا تملك جارحة من جوارحه أن تتحرّك إلا فيما يرضى اللّه ــ عز وجل ــ ومن هذا قول بعض السلف كسليمان التيمى: إنّه لا يحسن أن يعصى اللّه . وقول على بن أبى طالب ــ كرم اللّه وجهه ــ : إنا كنّا نرى أن شيطان عمر ليهابه أن يأمره بالخطيئة .

٢ ــ « ولئن سألنى لأعطينّ ولئن استعاذنى لأعيذنّه » . « إن دعانى أجبته ، وإن سألنى أعطيته » .

ولقد نقلت إلينا كتب التاريخ والسير أمثلة حيّة عن الكثير من السّلف الصّالح المعروفين بإجابة الدعوة ، غير أنهّم لم يستغلوا هذه الكرامة للاستكثار من متاع الدّنيا وكنوزها فهم عنها عازفون وما سألوا شيئا أكثر من سؤالهم حبّ المولى ــ عز وجل .

فكان سيدنا داود عليه السلام يقول فى دعائه : اللهّم إنّى أسألك حبّك وحبّ من يحبك وحب العمل الذى يبلغنى حبّك ، اللهم اجعل حبك أحبّ إلىّ من نفسى وأهلى ومالي ومن الماء البارد .

وروى عن النبىّ ﷺ أنه كان يدعو: « اللهم اجعل حبّك أحبّ الأشياء إلىّ ، وخشيتك أخوف الأشياء عندى ، واقطع عنّى حاجة الدنيا بالشّوق إلى لقائك ، فإذا أقررت أعين أهل الدّنيا من دنياهم فأقرّ عينى من عبادتك » .

والأمثلة على استجابة الدعاء من الأولياء لا حصر لها ، ولا بأس من ذكر ما تيسّر ففى الصحيح : أن الربيع بنت النضر كسرت ثنية جارية فعرضوا عليهم الأرش فأبوا ، فطلبوا منهم العفو فأبْوا ، فقضى بينهم رسول اللّه ﷺ بالقصاص ، فقال أنس بن النضر : أتكسر ثنية الربيع ؟ ! والذى بعثك بالحق لا تكسر ثنيتها ، فرضى القوْم وأخذوا الأرْش ، فقال رسول اللّه ﷺ :« إن من عباد اللّه من لو أقسم على اللّه لأبره» .

وفى صحيح الحاكم عن أنس عن النبىّ ﷺ قال : « كم من ضعيف متضاعف ذى طمرين لو أقسم على اللّه لأبّره ، منهم البراء بن مالك » .

وفعلا كان له ذلك حيث لقى زحفا من المشركين ، فقال له المسلمون : اقسم على ربك فقال : « أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم » ، فمنحهم أكتافهم ، ثم التقوا

مرّة أخرى ، فقالوا : اقسم على ربّك ، فقال : أقسمت عليك يا ربّ لما منحتنا أكتافهم وألحقنى بنبيّك ﷺ فمنحوا أكتافهم وقتل البراء .

العقائدية :

« من عادى لى وليّا » .

إن بغض الروافض وغلاة الشيعة للخليفة أبى بكر الصديق هو معاداة لولىّ من أفضل أولياء اللّه ؛ لأن الإيمان بهذا التفضيل مما يجب اعتقاده والجزم به كما قال صاحب منظومة: ترغيب المريد السالك فى مقدمة كتابه :

وأفضل الخلق جميعا أحمد ... صلى عليه اللّه نعم السّيد
وبعده الخليل فالمكلم ... فنوح فالروح أولو العزم هم
فالرسل ثم الأنبياء ثم الملك ... الخاص فالصديق ثم ذو النسك

(فالصّديق : أى ويجب الإيمان بأن أفضل الخلق من الأمم السّابقة واللاحقة بعد من ذكر من الأنبياء وخواصّ الملائكة أبو بكر الصّديق خليفة رسول اللّه ﷺ وصاحبه فى الغار . . . . .) (١) .

وقد ورد فى مناقبه الكثير ويكفيه شرفا أنه المعنى بقوله تعالى : ﴿ **ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** ﴾ [التوبة : ٤٠] .

وهو أوّل من دخل إلى الإسلام من الرجال، وصهر رسول اللّه ﷺ وخليفته من بعده، عن أبى سعيد رضى اللّه عنه قال : خطب رَسول اللّه ﷺ النّاس وقال :« إن اللّه خيّر عبْدا بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ذلك العبد ما عند اللّه » قال : فبكى أبو بكر فعجبنا لبكائه فكان رسول اللّه ﷺ هو المخير وكان أبو بكر أعلمنا به ، فقال رسول اللّه ﷺ :« إنّ من أمنّ الناس علىّ فى صحبته وماله أبا بكر ولو كنت متخذا خليلا غير ربّى لاتخذت أبا بكر ولكن أخوة الإسلام ومودّته ، لا يبْقين فى المسجد باب إلا سدّ إلا باب أبى بكر » (٢) .

وعن أبى هريرة رضى اللّه عنه عن النبىّ ﷺ قال:« أتانى جبريل ــ عليه السلام ــ فأخذ بيدى فأرانى باب الجنّة الذى تدخل منه أمّتى » فقال أبو بكر : يا رسول اللّه وددت أنى كنت معك حتى أنظر إليه فقال رسول اللّه ﷺ : « أما إنّك يا أبا بكر أوّل من يدخل الجنّة من أمتى » (٣) .

---

(١) سراج السالك شرح أسهل المدارك ٢ / ٣٢ .

(٢) رواه الشيخان .

(٣) رواه أبو داود .

وعنه عن النبىّ ﷺ قال : « ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافيناه ما خلا أبا بكر فإن له عندنا يدا يكافئه اللّه به يوم القيامة ، وما نفعنى مال أحد قط ما نفعنى مال أبى بكر»(١) .

وعن ابن عمر ـ رضى اللّه عنهما ـ عن النبىّ ﷺ أنه قال لأبى بكر : « أنت صاحبى على الحوض وصاحبى فى الغار »(٢) .

وعن عائشة ـ رضى اللّه عنها ـ قالت : دخل أبو بكر على رسول اللّه ﷺ فقال: «أنت عتيق اللّه من النّار »(٣) قالت : فمن يومئذ سمّى عتيقا .

وعنها عن النبىّ ﷺ قال: « لا ينبغى لقوم فيهم أبو بكر أن يؤمهم غيره »(٤) .

ولو لم يكن لأبى بكر من هذا الفضل إلا صحبة الرسول الأعظم ﷺ لكفته شرفا وفخرا ، فهلا عرف الحاقدون على أبى بكر لصحبته فضلا ؟ !

عن عبد اللّه بن مغفّل رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « اللّه اللّه فى أصحابى، اللّه اللّه فى أصحابى لا تتخذوهم غرضا بعدى فمن أحبّهم فبحبّى أحبّهم ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى اللهّ ومن آذى اللهّ فيوشك أن يأخذه »(٥) .

« . . . فقد آذنته بالحرب . . . » .

طبيعة الحرب أنها لا تتأتى من جانب واحد مع أن المخلوق فى قبضة الخالق لا حول له ولا قوّة ؛ فالتعبير هنا إذًا ليس على حقيقته بل من باب المخاطبة بما يفهم ، ومن باب إطلاق الشىء وإرادة لازمه . فأطلق الحرب وأراد بها لازمها وهو الإهلاك ، أى أن الذى يعادى وليّا من أولياء اللّه لولايته متعرّض لإهلاك اللّه له لا محالة .

« . . . كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به » .

لقد اتخذت بعض الطرائق الصوفية الضالة هذا الحديث مطية إلى تحقيق أهوائها الضالة ومحاولة التدليل على ما تعتقده من الاتّحاد والحلول .

غير أن شرح الحديث لا يكون بمعزل عن القرآن الكريم الذى أجلى الأصول وأرساها ، وىما جاء فى تأويلهم الباطل ما نقله الشبرخيتى فى شرحه للأربعين النووية ما نصه : (وحمله بعض متأخّرى الصوفية على ما يذكرونه من مقام الفناء والمحو ، وأنه الغاية التى لا شىء وراءها .وهو أن يكون قائما بإقامة اللّه تعالى له محبا لمحبته له،

(١ ـ ٥) رواها الترمذى .

ناظرا بنظره له من غير أن يبقى معه بقية تناط باسم أو تقف على رسم أو تتعلق بأمر أو توصف بوصف) (١) .

ومع وضوح هذا الإلحاد يأتى من يدافع عنه ويتخذ له تأويلات وتصريفات ولأهله الأعذار فيقول قائلهم : (وما وقع فى عبارات بعض العارفين مما يوهم ذلك فليس مرادًا لهم وفهم ذلك منه من قصور فهم النّاظر ، وإلا فهم مطهّرون من ذلك الاعتقاد الفاسد كما طهّرهم اللّه تعالى بكمال محبّته من سائر المفاسد) (٢) .

وانظر إلى هذا التحكم : (وزعم الاتحادية والحلولية أن الحديث على حقيقته ، وأن الحق عين العبد أو حال فيه ، فهو ضلال مكفّر إجماعا ويرد حملهم قوله فى بقية الحديث : «ولئن سألنى لأعطينه ولئن استْعاذنى لأعيذنّه ») (٣) .

« كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبْصر به . . . » .

وجاء فى بعض الروايات: «فبى يسمع، وبى يبصر، وبى يبطش، وبى يمشى» أى أنا أقدرته على هذه الأفعال وخلقتها فيه ، فأنا الفاعل لذلك ، وليس للإنسان أن يخلق أفعال نفسه بخلاف المعتزلة القائلين :إن العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية .

والجبرية المعتقدين : أن العبد مجبور كخيط معلق فى الهواء تميله الرياح حيثما توجهت فكلا المذهبين باطل ، قال صاحب الجوهرة :

فليس مجبورا ولا اختيارا ... وليس كلا يفعل اختيارا

وعقيدتنا نحن أهل السنّة فى ذلك ما قرره صاحب الجوهرة أيضا :

وعندنا للعبد كسب كلفا ... به ولكن لم يؤثر فاعرفا

فأفعال العبد وأقواله كلها مخلوقة للّه تعالى ، وإنما للعبد فيها نسبة الميل إلى الفعل أو الترك ؛ ولذا فهو مكلف يجازى عن الطاعات ويعاقب عن السيئات .

وجاء فى بعض الرّوايات : « وما ترددت فى شىء أنا فاعله تردّدى عن نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته » .

الموت الذى هو مفارقة الروح للجسد ، هذه المفارقة التى من أشد الآلام التى تصيب الحىّ فى الدنيا ، وقد وصفها بعض من احتضر بأوصاف تطير لها الأفئدة ، وتقشعر لهولها الأبدان .

---

(١) الشبرخيتى ص ٢٦٦ .

(٢) دليل الفالحين شرح رياض الصالحين لابن علان ٢/ ٦٥ .

(٣) الشبرخيتى ص ٢٦٦ .

قال عمر لكعب : أخبرنى عن الموت ؟ قال : يا أمير المؤمنين هو مثل شجرة كثيرة الشوك فى جوف ابن آدم فليس منه عرق ولا مفصل ، وهو كرجل شديد الذراعين فهو يعالجها ينتزعها ، فبكى عمر .

ولما احتضر عمرو بن العاص سأله ابنه عن صفة الموت فقال : واللّه لكأن جنبى فى تخت، ولكأنى أتنفس من سم إبرة ، وكأن غصن شوك يجرّ به من قدمى إلى هامتى.

وقيل لرجل عند الموت : كيف تجدك ؟ فقال : أجدنى اجتذب اجتذابا ، وكأن الخناجر مختلفة فى جوفى ، وكأن جوفى فى تنّور محمى يلتهب توقدا .

وقيل لآخر : كيف تجدك ؟ قال : أجدنى كأن السموات منطبقة على الأرض علىّ، وأجد نفسى كأنها تخرج من إبرة .

الفقهية :

نستخلص من الحديث القدسى دروسا فقهية عديدة منها :

أولا : « من عادى لى وليا » درجت عادة كثير من المسلمين أنّه إذا مات فيهم العالم الصالح دفنوه فى المسجد الذى غالبا ما يكون من تأسيس هذا العالم ، أو من اشتغل بالعلم فيه لعمارته ؛ فهل هذا من قبيل اتخاذ القبر مسجدا الذى شدّد النبىّ ﷺ فى النهى عنه فى آخر حياته فى ما روته عائشة ـ رضى اللّه عنها ـ : أن أم سلمة ذكرت لرسول اللّه ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة يقال لها : مارية ، فذكرت له ما رأت فيها من الصوّر فقال رسول اللّه ﷺ :« أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح أو الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوّروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند اللّه تعالى » (١).

وعنها قالت : لما نزل برسول اللّه ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه فقال وهوكذلك:«لعنة اللّه على اليهود والنصارى اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذر مثل ما صنعوا (٢).

قال العلماء : وإنّما نهى النبى ﷺ عن اتخاذ قبره وقبر غيره مساجد خوفا من المبالغة فى تعظيمه لحد الافتتان به كما وقع لكثير من الأمم السابقة .

قال الإمام النووى: (ولما احتاج الصّحابة ـ رضوان اللّه عليهم ـ والتابعون إلى الزّيادة فى مسجد رسول اللّه ﷺ حين كثر المسلمون وامتدّت الزّيادة إلى أن دخلت بيوت أمهات المؤمنين فيها ، ومنها حجرة عائشة ـ رضى اللّه عنها ـ مدفن رسول اللّه ﷺ

(١ ، ٢)رواهما البخارى ، ومسلم .

وصاحبيه أبى بكر وعمر ــ رضى اللّه عنهما ــ بنوا على القبر حيطانا مرتفعة مستديرة حوله لئلا يظهر فى المسجد فيصلى إليه العوام ويؤدىّ إلى المحذور ، ثم بنوا جدارين على ركنى القبر الشّماليين وحرّفوهما حتى التقيا ، حتى لا يتمكّن أحد من استقبال القبر) (١) .

وهل النهى فى الحديث السابق عن اتخاذ القبور مساجد أو العكس أى اتخاذ المساجد على القبور ؟

ذلك ما اشتبه على الكثير غير أن أبا الفضل عبد اللّه بن الصّديق قد فصل القول فيه فى كتابه المسّمى : (إتقان الصنعة فى تحقيق معنى البدعة) ومما جاء فيه :

استدل الذين قالوا بكراهة بناء المسجد على القبر وهم الأكثر أو بمنعه بحديث : «لعن اللّه اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » . والحديث صحيح لكن الاستدلال به لقولهم غير صحيح :

١ ــ أن معنى اتخاذ القبور مساجد : الصّلاة إليها تعبّدا ، أو السجود لها ، وهذا غير بناء مسجد عليها كما هو ظاهر ، وقد تفطّن الكرمانى لهذا ، فإن البخارى ترجم بقوله : باب ما يكره من اتخاذ المسجد على القبر ، وروى فيه حديث : « لعن اللّه اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » .

قال الكرمانى : مفاد الحديث منع اتخاذ القبر مسجدا ، ومدلول الترجمة : اتخاذ المسجد على القبر ، ومفهومهما متغاير ، ويجاب بأنهما متلازمان وإن تغاير المفهوم . ا.هـ .

وإيراده صحيح ، وجوابه بالتلازم بينهما ليس بصحيح ، بل لا وجود للتلازم بينهما أصلا ، لا فى اللغة ، ولا فى الشرع ، ولا فى الواقع .

٢ ــ أنّ عائشة لما روت قوله ﷺ : « لعن اللّه اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » أعقبته بقولها : ولولا ذلك لأبرزوا قبره ، غير أنّى أخشى أن يتخذ مسجدا .

قال الحافظ فى الفتح : قولهما : لأبرزوا قبره ، أى : لكشف قبر النبى ﷺ ولم يتخذ عليه الحائل ، والمراد : الدفن خارج بيته ، وهذا قالته عائشة قبل أن يوسع المسجد النبوى ؛ ولهذا لما وسع المسجد ، جعلت حجرتها مثلثة الشكل محددة ، حتى لا يتأتى لأحد أن يصلىّ إلى جهة القبر ، مع استقبال القبلة . ا.هـ .

---

(١) النووى على مسلم ٥ / ١٣ ، ١٤ .

تبيّن من هذا أن اتخاذ القبر مسجدا معناه: الصلاة إليه والسجود له لا بناء مسجد عليه.

٣ ــ قال ابن سعد : أخبرنا علىّ بن عبد الله بن جعفر ــ هو ابن المدينى ــ أخبرنا سفيان ــ يعنى ابن عيينة ــ أخبرنا حمزة بن المغيرة عن سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « اللهمّ لا تجعل قبرى وثنا ، لعن الله قوما اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » .

وقال أيضا : أخبرنا معن بن عيسى أخبرنا مالك بن أنس عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « اللهمّ لا تجعل قبرى وثنا يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» .

وقال ابن أبى شيبة : حدثنا أبو خالد الأحمر عن ابن عجلان عن زيد بن أسلم ، قال : قال رسول الله ﷺ : « اللهمّ لا تجعل قبرى وثنا يصلى له ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » . ورواه عبد الرزاق عن معمر عن زيد .

فهذه الأحاديث صريحة فى أن اتخاذ القبر مسجدا معناه: الصلاة له تعبّدا والسجود له ، لا بناء مسجد عليه .

٤ ــ قال البيضاوى : لما كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور الأنبياء تعظيما لشأنهم ويجعلونها قبلة يتوجّهون فى الصلاة نحوها ، واتخذوها أوثانا ، لعنهم ومنع المسلمين عن مثل ذلك فأمّا من اتخذ مسجدا فى جوار صالح ، وقصد التبرّك بالقرب منه لا التعظيم له ، ولا التوجّه نحوه ، فلا يدخل فى ذلك الوعيد .ا.هـ . نقله الحافظ فى فتح البارى .

وقال التوريشتى فى شرح المشكاة فى الكلام على حديث : « لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » هو مخرج على وجهين :

أحدهما : كانوا يسجدون لقبور الأنبياء تعظيما لهم وقصد العبادة فى ذلك .

وثانيهما : أنهّم كانوا يتحرّون الصلاة فى مدافن الأنبياء والتوجّه إلى قبورهم فى حالة الصلاة والعبادة لله؛ نظرا منهم أن ذلك الصنع أعظم موقعا عند الله، لاشتماله على أمرين : عبادة ، والمبالغة فى تعظيم الأنبياء ، وكلا الطريقتين غير مرضية، أما الأولى: فشرك كلى ، وأما الثانية : فلما فيها من معنى الإشراك بالله ــ عز وجل ــ وإن كان خفيا، والدليل على ذمّ الوجهين قوله ﷺ : « اللهمّ لا تجعل قبرى وثنا، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد »والوجه الأوّل أظهر وأشبه .ا .هـ .

فتحصل من هذه الوجوه أن اتخاذ القبر مسجدا معناه : السجود له ، والصّلاة إليه.

والاستدلال به لمنع بناء المسجد على القبر أو كراهته خطأ ظاهر ، لتباين المعنيين وتغايرهما .

بقى أمر لابد أن ننبّه عليه ، وهو : إذا كان مسجدٌ مبنيا ثم دفن فيه ميت أو أدخل فيه قبر ، فلا يدخله الخلاف فى بناء المسجد على القبر ؛ لأنه لم يبْن عليه ، والدليل على ذلك أمور :

١ ــ قال ابن سعد : أخبرنا محمد بن عبد اللّه الأنصارى أخبرنا محمد بن محمد ابن عمرو ، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب ، قالا: قال أبو بكر : أين يدفن رسول اللّه ﷺ ؟ قال قائل منهم : عند المنبر ، وقال قائل منهم: حيث كان يصلى يؤم الناس . وقال أيضا : أخبرنا معن بن عيسى ، أخبرنا مالك ابن أنس : أنّه بلغه أن رسول اللّه ﷺ لما توفى ، قال ناس : يدفن عند المنبر، فهؤلاء الناس لم يشيروا بدفنه ﷺ عند المنبر أو حيث كان يؤم الناس ، إلا لعلمهم بأن هذا لا يشغله بناء مسجد على قبر وهؤلاء كانوا صحابة.

٢ ــ وقال ابن حزم فى (المحلى) : قد أنذر عليه السّلام بموضع قبره بقوله : «ما بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة » . واعلم أنه فى بيته بذلك ، ولم ينكر عليه السلام كون القبر فى البيت ، ولا نهى عن بناء قائم وإنما نهى عن بناء على القبر قبة فقط . ا.هـ .

وحديث : « ما بين قبرى . . . » ، رواه البزار من حديث سعد بن أبى وقاص ورجاله ثقات، ورواه الطبرانى من حديث ابن عمر ، قاله الحافظ فى الفتح .

قلت : ورواه الخطيب فى (الموضح) من حديث أبى سعيد الخدرى ١ / ٤١٩ . ورواه البزار من حديث على وأبى هريرة وإسناده ضعيف ، ومعنى الروايتين واحد فإن قبره فى بيته ؛ ولهذا ترجم البخارى فى صحيحه باب فضل ما بين القبر والمنبر .

وروى الحديث بلفظ : « البيت » والحديث يدل على فضل هذا المكان ، وفضل الصلاة فيه وهو يومئ إلى جعله مسجدا يصلى فيه ، كما هو حاصل الآن .

٣ ــ أن القبر الشريف أدخل فى المسجد النبوى ، فى عهد الوليد بن عبد الملك على يد عمر بن عبد العزيز ولم يغير عمر ذلك فى خلافته بأن يفصل بين الحجرة الشريفة والمسجد بجدار ، ولم يفعل ذلك خلفاء بنى العباس ولا أرشدهم إليه أحد ،

مع كثرة من زار المسجد النبّوى من الأئمة والحفاظ والفقهاء والزّهاد وغيرهم ، وكان الإمام مالك مسموع الكلمة عند المنصور ولو أشار عليه بإقامة حاجز بين القبر والمسجد لفعله .

وما ذلك إلا لأن إدخال قبر فى مسجد ليس كبناء المسجد عليه ، وهو فى المسجد النبّوى إجماع من الأمّة بجميع طبقاتها والنبىّ ﷺ يقول : « لا تجتمع أمتى على ضلالة» وباللّه التوفيق (١) .

ثانيا : « . . . وما تقرّب إلى عبدى بشىء أحب إلى ممّا افترضته عليه . . . وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل . . . . » .

١ــ تعريف الفرض فى المصطلح الفقهى ــ عند المالكية ــ : هو ما يثاب فاعله ويعاقب تاركه ، أو ما يمدح فاعله ويذّم تاركه ، والعبرة بمدح الشارع أو ذمّه .

ــ والنفل هو : ما يثاب فاعله ولا يعاقب تاركه .

والنفل فى اللغة : الزّيادة ، والمراد به هنا ما زاد على الفرض وعلى السّنة وعلى الرغيبة، وتتعلق بالنفل أحكام تطلب فى مظانها ، ونقتصر هنا على هذه اللطيفة ، قال ابن دقيق العيد : فى تقديم النوافل على الفرائض وتأخيرها عنها معنى لطيف مناسب ، أما فى التقديم فلأن النّفوس لاشتغالها بأسباب الدنيا بعيدة عن حالة الخشوع والحضور التى هى روح العبادة ، فإذا قدمت النوافل على الفرائض أنست النفس بالعبادة وتكيفت بحالة تقرب من الخشوع ، وأمّا تأخيرها عنها فقد ورَد أن النّوافل جابرة لنقص الفرائض فإذا وقع الفرض ناسب أن يقع بعده ما يجبر الخلل الذى يقع فيه .

٢ ــ « . . . من عادى لى وليّا فقد آذنته بالحرب . . » .

سبق وأن قلنا : إن المؤمن يوالى أولياء اللّه ويتبرأ من أعدائه فلا يتولاهم ؛ لأنه بولائهم سيكون منهم لقوله تعالى :﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ** ﴾ [المائدة : ٥١] .

إذًا فمن اتخذ عدوّا من أعداء اللّه وصافاه فقد باء بإثم عظيم ، ومن هذا المنطلق يجب علينا أن نبيّن ما يلى :

أ ــ ليس من الولاء أن يدخل المسلم فى حماية غير المسلمين إذا دعت الضرورة الأمنية إلى ذلك كدخول المهاجرين الأوّلين إلى الحبشة تحت حكم النجاشى وحمايته،

---

(١) إتقان الصنعة فى تحقيق معنى البدعة ، لأبى الفضل عبد اللّه بن الصّديق الغمارى .

وكدخوله ﷺ مكّة فى حماية المطعم بن عدى حين عودته من الطائف عام الحزن .

ولكن ذلك بشرط ألا يكون فى ذلك مساس بالعقيدة ، ولا على حساب الدعوة إلى هذا الدين ، وأنت ترى موقف النبىّ ﷺ الجلى من عمّه حينما عرض عليه ما عرضت قريش .

ب ـ حكم الاستعانة بغير المسلمين فى القتال :

ذهب جمهور كبير من العلماء إلى أنه لا يجوز الاستعانة بالكفّار فى القتال ودليلهم على ذلك قول النبىّ ﷺ : « لا نستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك » . حينما اقترح عليه بعض الأصحاب الاستنصار باليهود فى غزوة بدر طبقا للمعاهدات التى كانت بينهم وقد روى مسلم أن النبىّ ﷺ قال لرجل تبعه فى يوم بدر ليقاتل معه : « أتؤمن باللّه؟» قال : لا، قال :« فارجع فلن نستعين بمشرك ».

جـ ـ حكم الاستعانة بالمشركين فيما دون القتال :

لقد استعان النبىّ ﷺ ببعض أفراد المشركين فيما دون القتال كاتخاذهم عيونا وجواسيس، أو أدلاء ، وعلى كل فالاستعانة من هذا الباب تبعا لحال المستعان به بحيث يكون ممن يطمأن إليه .

فقد استعان النبىّ ﷺ فى صلح الحديبية ببشر بن سفيان من قبيلة خزاعة ليأتيه بخبر أهل مكة .

كما استعان بأسلحة صفوان بن أمية فى غزوة أحد ، وكان صفوان فى موقف الضعف لا القوّة حيث سأل صفوانُ نفسه : أغصبا يا محمّد ؟ ! فأجابه النبىّ ﷺ: « بل عارية وهى مضمونة حتّى نؤديّها إليك » .

وفى هجرته مع الصدّيق استأجر رجلا من المشركين وهو عبد اللّه بن أريقط كدليل يدلهما على الطرق الخفيّة إلى المدينة بعد أن اطمأن إليه ، وعلى هذا فالاستعانة فى غير الحرب جائزة .

الاجتماعية :

« . . . من عادى لى وليّا . . . » .

إنّ مفهوم هذه العبارة أنه من والى عدوّ اللّه فقد أذنه اللّه بحرب أيضا .

واليهود والنصارى من ألدّ أعداء اللّه بحكم طبائعهم التى وصفهم القرآن بها ، وأثبتتها لهم الأحداث التاريخية المتتالية بدءا من عهد الرسالة الخالدة وما كابده صاحبها

عليه الصلاة والسلام منهم إلى عصرنا الحاضر الذى هو شاهد عليهم ، ومن ثمّ فموالاتهم على حساب المؤمنين تعتبر خيانة كبرى ، ومخالفة للتوجيهات الإسلامية ، وهذا القرآن الكريم يبيّن لنا السّبب فى ذلك :

١ ـ لأنهم أعداء اللّه ، وبالطبع فمن عادى صاحب الفضل الأكبر عليه وولىّ نعمه لا يكبر عليه أن يعادى الناس أجمعين ، وعداوتنا لهم ليست تهيّجا عاطفيا ، وتشنّجا عصبيا بل هى من قبيل معاداة أعداء اللّه فحسب قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ ﴾ [الممتحنة : ١] .

٢ ـ ومن والاهم وناصرهم على المسلمين فهو منهم ، وقد أعلن الحرب على أولياء اللّه مع أعدائه ، قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ . وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴾ [المائدة : ٥١ ـ ٥٣] .

قال ابن جرير : إن اللّه تعالى نهى المؤمنين جميعا أن يتخذوا اليهود والنّصارى أنصارا أو حلفاء على أهل الإيمان باللّه ورسوله ، وأخبر أن من اتخذهم نصيرًا وحليفًا ووليًا من دون اللّه ورسوله فهو منهم فى التحزّب على اللّه ورسوله والمؤمنين ، وأن اللّه ورسوله منه بريئان إلى أن قال : غير أنه لا شك أن الآية نزلت فى منافق كان يوالى يهود أو نصارى جزعا على نفسه من دوائر الدهر ؛ لأن الآية التى بعد هذه تدل على ذلك . ا.هـ .

وكان ذلك حينما حاصر رسول اللّه ﷺ بنى قينقاع مدة من الزمن حتى نزلوا على حكمه، فقام إليه عبد اللّه بن أبى بن سلول فقال : يا محمّد أحسن فى موالىّ فلم يلتفت إليه رسول اللّه ﷺ ،وكرر ثانية فأعرض عنه رسول اللّه ﷺ حتى رأوا لوجهه ظللا ، ثم قال له :« ويحك أرسلنى»، قال: لا واللّه لا أرسلك حتى تحسن فى موالىّ : أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعونى من الأحمر والأسود ، تحصدهم فى

غداة واحدة ؟ إنّى واللّه امرؤ أخشى الدّوائر ، فقال له رسول اللّه ﷺ «هم لك». وأمرهم أن يخرجوا من المدينة ولا يجاوروه بها ، فخرجوا إلى أذرعات الشام وهلك أكثرهم فيها .

وكان لعبادة بن الصّامت من المحالفة مع هؤلاء اليهود مثل الذى لعبد اللّه بن أبىّ فمشى إلى رسول اللّه ﷺ قائلا : إنّى أتولى اللّه ورسوله والمؤمنين وأبرأ من حلف هؤلاء الكفّار وولايتهم .ا . هـ (١).

إذًا خلص لدينا أن من والى اليهود أو النصارى على المؤمنين فهو منهم ؛ لقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾[الحشر : ١١] .

وهؤلاء هم الذين يمثّلون الطابور الخامس فى الأمة الإسلامية وهم كثير يترصّدُون أحوال المسلمين وتحرّكاتهم ويتسمّعون أخبارهم ويسرون بها إلى من يوالونهم من أعداء الأمّة الإسلامية ، فقد أدّوا دوْر الأدلاء للاستعمار الغربى والمترجمين له وكانوا له عونا وسندا فى التنكيل بأبناء الإسلام ، واستلاب خيرات بلدانهم واستذلالهم كل ذلك ليستدرّوا عطف المستعمر الغاصب وليستجلبوا رضاه ولكن أنّى لهم ذلك والقرآن يبيّن : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ ! ! [البقرة : ١٢٠] .

لقد استخدم العدوّ هذا الصنف من الناس كاستخدامه للآلة الحديدية ساعة صلاحها وأدائها لمهمتها الميكانيكية ، فإن تخلت عن أدائها لحظة لخللٍ مّا ، سارع باستبدالها على الفور ، وهكذا كان مصير الكثير فلم ينالوا رضا من والوهُ ، ولا رضى عنهم أبناء جلدتهم وعقيدتهم وصدق اللّه إذ يقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ . هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ﴾ [آل عمران : ١١٨ ـ ١٢٠] .

٣ ـ إنّ التبرّء من موالاة المشركين وعدم مناصرتهم على المسلمين لا يمنع أبدا العدْل فيهم والإحسان إليهم ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ

(١)فقه السيرة للبوطى ص ١٧٩ .

أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة : ٨] ، ولقوله تعالى :﴿ **لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾ [الممتحنة: ٨] .

روى أحمد عن عبد اللّه بن الزبير قال : قدمتْ قتيلة بنت عبد العزّى على ابنتها أسماء بنت أبى بكر بهدايا صناب ـ صباغ يتخذ من الخردل والزبيب ـ وأقط وسمن وهى مشركة ، فأبت أسماء أن تقبل هديتها أو تدخل بيتها، حتّى أرسلت إلى عائشة ـ رضى اللّه عنها ـ أن تسأل رسول اللّه ﷺ عن هذا فسألته فأنزل اللّه : ﴿ **لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ** ﴾ الآية ، فأمرها أن تقبل هديتها وتُدخلها بيتها .

٤ ـ إذا كانت الحرب من اللّه تعالى فى جانب المعاداة ـ أى معاداة أولياء اللّه تعالى ـ فإن ضدّها ثابت فى جانب الموالاة .

فمن أحبّ أولياء اللّه فى اللّه حشر معهم ، ففى سنن أبى داود عن عمر قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إن من عباد اللّه أناسا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء بمكانهم من اللّه تعالى » قالوا : يا رسول اللّه من هم ؟

قال : « هم قوم تحابّوا بروح اللّه على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها ، فواللّه إن وجوههم لنور ، وإنّهم لعلى منابر من نور ، ولا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس » ثم تلا هذه الآية : ﴿ **أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [يونس : ٦٢] .

السياسية :

« من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب » .

١ ـ إنّ من ينصب العداء لأولياء اللّه وأىّ ولاية أقرب ممّن دعا إلى اللّه وعمل صالحا وقال : إننّى من المسلمين ، فهو محارب للّه ـ عزّ وجل ـ شأن الطغاة المتجبرّين الذين يسومون علماء الإسلام ودعاته ألوانا قاسية من التعذيب والتنكيل من تكميم الأفواه ، والزجّ فى غياهب السجون ، والتعذيب بالكرابيج والكهرباء . . و . . و . . مرورا بالاعتداء على المحارم ،وهتك الأعراض،والنفى ،والمتابعات ،والملاحقات. . . وانتهاء بالإعْدامات ، والاغتيالات .

هؤلاء الحكام وأتباعهم من كلاب النّار محاربون للّه ـ عز وجل ـ وحربهم الخاسرة هذه مدعاة إلى ذل أممهم ، وانهزام دُوَلهم ، وانكسار شوكتهم ، وانحسار نفوذهم ؛ روى الإمام أحمد فى كتاب الزّهد بإسناده عن وهب بن سنبه قال : إنّ اللّه

تعالى قال لموسى ـ عليه السلام ـ حين كلمه : « اعلم أن من أهان لى وليّا أو أخافه فقد بارزنى بالمحاربة وعادانى وعرّض نفسه ودعانى إليها وإن أسرع شىء إلىّ نصرة أوليائى ، أفيظن الذى يحاربنى أن يقوم لى ؟! أو يظن الذى يعادينى أنّه يعجزنى ؟! أم يظن الذى يبارزنى أن يسبقنى أو يفوتنى؟! وكيف وأنا الثائر لهم فى الدنيا والآخرة، فلا أكل نصرتهم إلى غيرى ؟!».

وفوق هذا سوء خاتمتهم حيث قال بعض العارفين : إيذاء أولياء اللّه علامة على سوء الخاتمة ــ والعياذ باللّه .

كان الأجْدرُ بحكّام العالم أجمع وبأولى الأمر فى عالمنا الإسلامى على الخصوص أن يعتبروا بمن سبقهم فى حرب أولياء اللّه فهذا نمرود ، وفرعون ، وهامان ، وقارون، . . وأبو جهل ، وعتبة بن ربيعة ، والحجاج بن يوسف الثقفى . . والمأمون. . وغيرهم كثير .

٢ ــ قامت معاملة الإسلام لأهل الذّمة على قاعدة (لهم ما لنا وعليهم ما علينا). وليس هذا من الموالاة السابقة لأنها من قبيل : ﴿ **لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ** ﴾ [الممتحنة : ٨] .

لأنّ الإسلام لم يكن حربا على اليهود ليهوديتهم ، أو النصارى لنصرانيتهم ولا على نياتهم المبيّتة ، بل على جهودهم المتضافرة للنيل من الإسلام والإطاحة بحكمه ، والاستهزاء بتشريعاته ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ** ﴾ [المائدة : ٥٧] .

ويكفى دليلا على اهتمام الإسلام بأهل الذّمة وحرصه على صيانة دمائهم وأعراضهم وأموالهم ما قاله سيّدنا محمد عليه الصلاة والسلام : « من قتل رجلا من أهل الذمّة لم يجد ريح الجنّة ، وإن ريحها توجد من قدر سبعين عاما » .

وكذلك قوله:« من ظلم معاهدا ، أو انتقصه حقّه ، أو كلفه فوق طاقته ، أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس ، فأنا حجيجه يوم القيامة » .

وما حفظه التاريخ لقادة الفتح الإسلامى وخلفاء الإسلام بعد الرسول عليه السلام من حسن المعاملة والتعهّد والرّعاية لهذه الطوائف التى ساكنتهم الكثير .

فقد روى أبو يوسف فى كتاب الخراج أنّ عمر مرّ على قوم قد أقيموا فى الشمس فى بعض أرض الشام ، فقال : ما شأن هؤلاء ؟ فقيل له : إنهم أقيموا فى الجزية !

فكره ذلك ، وقال : هم وما يعتذرون به ، قالوا : يقولون : لا نجد . قال :

دعوهم ولا تكلفوهم ما لا يطيقون ثم أمر بهم فخلى سبيلهم .

وقال أبو يوسف : وحدث أنْ مرّ عمر بباب قوم وعليه سائل يسأل وكان شيخا ضرير البصر ، فضرب عمر عضده ، وقال له : من أىّ أهل الكتاب أنت ؟

فقال : يَهُودىّ ، قال : فما ألجأك إلى ما أرى ؟

قال : أسأل الجزية والحاجة والسّن ، فأخذ عمر بيده ، وذهب به إلى منزله وأعطاه ممّا وجده ! ثم أرسل به إلى خازن بيت المال وقال له : انظر هذا وضرباءَهُ ، فو اللّه ما أنْصفناه إذْ أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم ، ﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ** ﴾ [التوبة: ٦٠]. والفقراء هم الفقراء المسلمون ، وهذا من المساكين من أهل الكتاب ثم وضع عنه الجزية .

هذه مواقف عمر الإسلامية تجاه أهل الذّمة ، وهى بحق مواقف مشرّفة وشاهدة على ساسة العالم اليوم ، والغربى منه على الخصوص حيث تعانى الأقليات الإسلامية فيه جهود التمسْيح والمسخ بل والإبادة .

روى يحيى بن آدم فى كتاب الخراج : أنّ عمر لما تدانى أجله أوصى من بعده وهو على فراش الموت بقوله :

أوصى الخليفة من بعدى بأهل الذّمة خيرا ، وأن يوفى لهم بعهدهم ، وأن يقاتل من وراءهم ، وألا يكلفهم فوق طاقتهم .

وقد أعطى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه عهدا إلى نصارى القدس عند فتحها ، وهو المعروف بالعهدة العمرية ونحن ننقل نصّه كما جاء فى تاريخ الطبرى (جـ٣ ص٦٠٩).

(بسم اللّه الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد اللّه : عمرُ أميرُ المؤمنين أهل إيلياء من الأمان ؛ أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها ؛ أنه لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم، ولا يُنقص منها ولا من حيّزها، ولا من صليبهم ، ولا من شىء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضارّ أحد منهم . ولا يَسْكُنُ بإيلياء معهم أحدٌ من اليهود ، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن ، وعليهم أن يُخرجوا منها الرومَ واللصوتَ ــ اللصوص ــ فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ؛ ومن أقام منهم فهو آمن؛ وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بِيَعَهم وصُلُبَهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم،

حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن كان بها أهل الأرض قبل مقتل فلان ــ هكذا ــ فمن شاء منهم قَعَد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يُحْصَدَ حصادُهم ؛ وعلى ما فى هذا الكتاب عهد اللّه وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين ، إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية .

شهد على ذلك : خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبى سفيان ، وكتب وحضر سنة خمسة عشرة) .

كل ذلك استمده أمير المؤمنين عمر من مبادئ الإسلام السّمحة التى قررها القرآن الكريم وبينتها السنّة النبوية الحكيمة من ذلك ما رواه العرباض بن سارية قال : نزلنا مع رسول اللّه قلعة خيبر ومعه من معه من المسلمين ، وكان صاحبُ خيبر رجلا ماردا متكبّرا فأقبل إلى النبىّ ﷺ فقال : يا محمّد !لكم أن تذبحوا حمرنا ، وتأكلوا ثمرنا، وتضربوا نساءنا ؟ فغضب رسول اللّه ﷺ لما حدث وقال :« يا بن عوف اركب فرسك، ثم ناد : إنّ الجنة لا تحل إلا لمؤمن ، وأن اجتمعوا للصلاة » فاجتمعوا، ثم صلى بهم، ثم قام فقال :

« أيحسب أحدكم متكئا على أريكته قد يظن أن اللّه تعالى لم يحرّم شيئا إلا ما فى القرآن ، ألا وإنّى واللّه لقد وعظت وأمرت ونهيت عن أشياء ، إنها لمثل القرآن أو أكثر وإنّ اللّه لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن ، ولا ضرْب نسائهم ، ولا أكل ثمارهم ، إن أعطوا الذى عليهم » .

فقه الدعوة

١ ــ تتفشى فى بعض أقطار العالم الإسلامى خرافات وأباطيل لا أصل لها تتعلق بالولاية والأولياء ، وتجد لها أنصارا ومصدّقين ومنافحين بل ومقاتلين ومدافعين لإثباتها فيتحدّثون عن الذى تنزّلت إليه ملائكة السّماء باللوح المحفوظ فيمحو منه ما يشاء ويثبت فيه ما يشاء : ــ أستغفر اللّه العظيم ــ ويحدثك آخرون عن دفاع صاحب القبر الفلانى عن أهالى البلدة وإبادته لأعدائها .

وتسمع عن صومعة مسجد الضريح التى سقط من علوّها الشاهق أناس لم يصابوا بأذى ، وهلم جرّا .

ومن البدهى أن معتقدات ضالة كهذه لا يعضدّها إلا الجهل والتعصّب ، وهنا تكمن براعة الداعية وفطنة حماة العقيدة فى الذّود عن جوهرها وإظهار نصاعتها وبساطتها مقابل زيف الخرافة ، وزغل أرباب البدع .

أتذكّر فى حداثتى أنّى كنت ألازم زيادة معلم من معلمى القرآن الكريم حيث آنس لحديثه وزهده وإرشاده . . حتى سمعته يحكى يوما أن ظالما متجبّرا ولكنه كان كريما ، شكاه مرة ضحية من ضحايا بغيه إلى اللّه تعالى ، فرأى فى منامه قائلا يقول له :

إنه وليى وحبيبى فلا أضرّه ، وساعتها ضربت عن الإنصات لهذا الشيخ صفحا ، سبحان اللّه إلى هذا الحدّ تنحدر مداركنا ! .

إن تغيير هذه الضلالات لا يكمن فى هدم القباب وتسويتها بالأرض ، ولا بقلع الشجر وتفتيت الحجر كما يرى بعض الحمقى من مجسّمة عصرنا .

بل يكمن أساسا فى تقويض الاعتقادات الفاسدة فيها ؛ لأن الطيش والتهوّر لا يؤدّى إلا إلى نتائج عكسية . فقد عمد بعض الفتيان الأحداث إلى تحريق الأضرحة وهدمها ظنا منهم أن هذا سبيل إلى تغيير المنكر ؟ !

وليعلم هؤلاء وأمثالهم أن تصرفا طائشا كهذا لا يفقد ثقة العامّة فيمن تعتقد ولا يؤثر فى تقديسها وولائها له بل يزيدها علوقا ووثوقا .

لقد همنى فى بداية طريقى ما كنت ألحظهُ على مقربة من بيتنا حيث تنتصب حلقة نسائية كل ليلة خميس حول شجرة تحوم حولها الخرافات ، وتقرّب لها القرابين ، وتوقد لها الشموع فجندت لها بعض التلاميذ . . واقتلعناها من جذورها . . رغم التهديدات. . . وكنا نظن بحكم المرحلة أن كل شىء انتهى !

ولكن حدث ما لم يكن فى حسباننا . . حيث تطايرت الإشاعات فازدادت الشجرة قداسة ــ وهى مقطوعة ــ أكثر من ذى قبل،وهكذا يجنى التهوّر،وعدم الحنكة والحكمة على الإسلام من حبث يريد أصحابه الإحسان،وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

٢ ــ كان الدّعاة المخلصون لا يستغلون استجابة اللهّ لدعائهم فى ملذات فانية ، ومصالح عاجلة بل يتحلى بالصبّر ترقّبا للأجْر ، فقد روى أن سعد بن أبى وقّاص كان يدعو للناس لمعرفتهم له باستجابة الدعاء ، فقيل له : لو دعوت اللّه لبصرك ــ وكان قد أضر ــ فقال : قضاء اللّه أحبّ إلى من بصرى .

وابتلى بعض العارفين بالجذام فقيل له : بلغنا أنك تعرف اسم اللّه الأعظم ، فلو سألته أن يكشف ما بك ؟ فقال : يا بن أخى إنه هو الذى ابتلانى وأنا أكره أن أردّه .

وقيل لإبراهيم التيمى وهو فى سجن الحجاج : لو دعوت اللّه تعالى ؟ فقال : أكرهُ أن أدعوه أن يفرّج عنّى ما لى فيه أجرٌ،وقد صبر سعيد بن جبير على أذى الحجاج حتى قتله.

تطبيق

١ ـ « . . من عادى لى وليا . . وما تقرب إلى عبدى . . . »

تبين لنا هذه الفقرة أنه لا سبيل إلى الولاية سوى طاعة اللهّ ـ عز وجل ـ التى جاء بها رسوله ﷺ ، فمن ادعى أن طريقته التى أخذها عن شيخه أو وليّه المخالفة لصريح القرآن وصحيح السنة توصله إلى محبة اللّه فهو كاذب .

ومن زعم أنه ولىّ الله بقرابته من الإمام على كرم ـ اللّه وجهه ـ وأن ذلك يغنيه عن الامتثال والاعتدال فهو كاذب .

٢ ـ « من عادى لى وليا . . . » . ها نحن نعيش فى عصر تكاتفت فيه الجهود وتضافرت فى حربها للإسلام وأهله . . . رغم تباين مواطنهم واختلاف مذاهبهم ومشاربهم ولا يجمعهم إلا العداء للإسلام .

فمن منّا يتصورّ أن اليهود يسالمون النصارى ويتحالفون معهم وهم الذين أجّجوا معارك ضارية على مرّ التاريخ . . . من منا يتصور أن الأمم النصرانية سترضى يوما عمّن تتهمهم بقتل المسيح عليه السلام ، أو أن تتلاقى جموع الكاثوليك مع البروتستانت . . ومع ذلك يجمعهم العداء ـ كما قلت ـ للإسلام .

وصدق من قال : الكفر ملة واحدة . . يؤيّد هذا تلك الهجمة الغربية الشرسة على الإسلام هذه الأيّام التى أقام فيها الغرب الدنيا وأقعدها من أجل ترويج كتاب مملوء بالدسائس والأكاذيب والسباب الهدف منه النيل من الإسلام وجرح مشاعر أهله ، ثم أعقبها بملاحقات للمسلمين أبناء الجاليات الإسلامية ، ولكن عزاءنا فى قول ربنا : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [التوبة: ٣٢].

الحديث التاسع والثلاثون

عن ابن عباس ــ رضى اللّه عنهما ــ أن رسول اللّه ﷺ قال : « **إن اللّه تجاوزَ لى عن أمّتى الخطأ والنّسيان وما استكرهوا عليه** » حديث حسن رواه ابن ماجه والبيهقى وغيرهما.

دروس وعبر من كلام سيد البشر

العقائدية :

« . . وما استكرهوا عليه . . » .

لقد ابتلى المؤمنون الأوّلون بألوان من العذاب يعجز القلم عن وصفها ، والذهن عن إدراكها على أن يعطوا الدنية فى دينهم أو يتراجعوا عن عقيدتهم . . ومع ذلك صبر الكثير منهم وصابر كبلال بن رباح رضى اللّه عنه الذى لم يشف غليل أعدائه ، وظل صامدا يردّد أحد أحد ويقول: واللّه لو أعلم كلمة أغيظ لكم منها لقلتها .

وكذلك حبيب بن زيد الأنصارى لما قال له مسيلمة الكذاب : أتشهد أن محمدا رسول اللّه ؟ فيقول : نعم ، فيقول : أتشهد أنى رسول اللّه ؟ فيقول : لا أسمع ! فلم يزل يقطعه إربا إربا وهو ثابت على ذلك . وذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة عبد اللّه بن حذافة السهمى ــ أحد الصحابة رضوان اللّه عليهم ــ أنه أسرته الروم ، فجاؤوا به إلى ملكهم ، فقال له : تنصر وأنا أشركك فى ملكى وأزوجك ابنتى ، فقال له : لو أعطيتنى جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب أن أرجع عن دين محمد ﷺ طرفة عين ما فعلت ، فقال : إذًا أقتلك ، فقال : أنت وذاك .

قال : فأمر به فصلب ، وأمر الرماة فرموه قريبا من يديه ورجليه وهو يعرض عليه دين النّصرانية فيأبى ، ثم أمر به فأنزل ، ثم أمر بقدر ، وفى رواية : بقدرة من نحاس فأحميت ، وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر فإذا هو عظام تلوح، وعرض عليه

تجاوز لى : إكراما لى تجاوز أى رفع ومنع .

عن أمتى : أمة الإجابة .

الخطأ : فعل الشىء عن غير قصد .

والنسيان : وهو عدم الذكر والحفظ لذهول أو غفلة .

وما استكرهوا عليه : أى ما أكرههم الغير عليه : فعلا أو تركا .

فأبى، فأمر به أن يلقى فيها، فرفع فى البكرة ليلقى فيها فبكى، فطمع فيه ودعاه فقال: إنى إنما بكيت لأن نفسى إنما هى نفس واحدة تلقى فى هذا القدر الساعة فى اللّه، فأحببت أن يكون لى بعدد كل شعرة فى جسدى نفس تعذب هذا العذاب فى اللّه.

وفى رواية : أنه سجنه ، ومنع عنه الطعام والشراب أياما ، ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير فلم يقربه ، ثم استدعاه فقال : ما منعك أن تأكل ؟ فقال : أما إنه قد حل لى ولكن لم أكن لأشمتك فىّ .

فقال له الملك : فقبل رأسى وأنا أطلقك ، فقال : تطلق معى جميع أسارى المسلمين ؟ فقال : نعم ، فقبل رأسه فأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده ، فلما رجع قال عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه : حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله ابن حذافة وأنا أبدأ فقام فقبل رأسه ــ رضى اللّه عنهما[(١)] .

لأن العقيدة أمر جلل لا يوضع للمساومة والمتاجرة وغير قابل على الإطلاق للتراجع والتنصل تارة والعودة تارة أخرى .

لكن قد تضعف المقاومة الشخصية تحت وطأة التعذيب أو التهديد والإكراه فينطق الرجل بلسانه ما لا يعتقده بقلبه ولا يتفوه به فى غير هذا المقام ، مقابل افتداء نفسه فلا إثم عليه ولا حرج ؛ لقول النبى ﷺ لعمار بن ياسر حينما نطق للمشركين ما أرادوا منه من الكفر ، وكانوا قد عذبوه هو ووالديه : « وإن عادوا فعد » وفيه نزل قول الحق سبحانه : ﴿ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ﴾ [النحل : ١٠٦] . هذا فى الإكراه على القول، وأما الإكراه على فعل مظهر من مظاهر الشرك فقد اختلف العلماء ــ رحمهم اللّه ــ فيه .

فروى عن الحسن فيمن قيل له : اسجد لصنم وإلا قتلناك ، قال : إن كان الصنم تجاه القبلة فليسجد ويجعل نيته للّه ، وإن كان إلى غير القبلة فلا يفعل وإن قتلوه .

وقال ابن حبيب المالكى : وهذا قول حسن .

وقال أبو عطية : وما يمنعه أن يجعل نيته للّه ، وإن كان لغير القبلة وفى كتاب اللّه: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ١١٥] ، وقد أجاز العلماء التنفّل للمسافر إلى غير القبلة .

الأصولية :

« الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

---

(١) ابن كثير فى التفسير .

يقسّم علماء الأصول الأهلية ــ أى صلاحية الشخص للإلزام والالتزام ــ إلى قسمين: أهلية الوجوب ، وأهلية الأداء، والأصل فى ثبوت الأهلية الأولى : الإنسانية، وفى الثانية التمييز، ولأهلية الأداء التى هى مناط التكليف ما ينقصها من عوارض ، وتنقسم هذه العوارض بدورها إلى قسمين : عوارض سماوية ــ أى ليست بعمل من أعمال الإنسان ــ وهى الجُنون ، والعته ، والنسيان ، والنّوم ، والإغماء .

والقسم الثانى : عوارض بفعل الإنسان وهى أيضا قسمان :

أحدهما : من ذات المكلف ، وهى السفه ، والجهل ، والسكر ، والخطأ .

والثانى : من غيره وهو الإكراه .

وسنتعرض بشىء من التفصيل للعوارض الثلاثة التى تطرّق إليها الحديث النبوى الشريف الذى هو منطلق بحثنا : الخطأ ، النسيان ، الإكراه .

أولا : الخطأ :

اتفق الفقهاء على أن الخطأ يرفع الإثم الأخروى ، والخطأ هو وقوع الفعل أو القول على خلاف ما يريد الفاعل أو القائل ؛ وقد يكون الخطأ ناشئا عن الجهل كمن يأكل بعد الفجر ، ظانا أنه لم يطلع وينوى الصيام على ذلك .

أما بالنسبة للمعاملات بين العباد فإنه لا يعذر المخطئ إلا فيما يتعلق بالعقوبات البدنية ، وعلى ذلك تكون عقود المخطئ صحيحة على مقتضى المذهب الحنفى .

وبعض الفقهاء لا يلزم بآثار العقود إذا كانت خطأ .

ثانيا : النسيان :

النسيان حال تعترى الشخص تجعله لا يتذكّر التكليف الذى كلفه الشارع إياه ، أو تجعله لا يقوم بحق عبادة قد نواها كالصائم الذى يأكل ناسيا ، ومن ذلك ترك أداء الصلاة فى وقتها .

والحقوق بالنسبة للنسيان تنقسم إلى قسمين :

١ ــ قسم أسقط اللّه الإثم فيه وهو نسيان حقوق اللّه تعالى لقوله ؛ ﷺ : «من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها » .

٢ ــ وقسم لا يسقط وهو حقوق العباد .

ثالثا : الإكراه :

هو حمل الشخص على فعل أو قول لا يريد مباشرته ، وما دام لا يريده فهو لا يرضى به ؛ ولذلك كان الإكراه والرضا غير متلاقيين .

الفقهية :

فى الحقيقة يدخل هذا الحديث فى جملة عديدة من أبواب الفقه قد لا نأتى على حصرها ، وإن كنا لا نغادره حتى نعدد جلّها فهو ـ أى النسيان ـ يطرأ فى الطهارة ، والصلاة، والصيام ، والحج ، واليمين ، والزكاة ، والدماء ، والحدود ، والطلاق. . . . . إلخ .

الطبية :

قسم الأصوليون الخطأ إلى ثلاثة أقسام :

خطأ فى الأفعال ، وخطأ فى القصد ، وخطأ فى التقدير .

(ومن ذلك بعض أخطاء الأطباء ، وذلك على صور منه :

١ ـ أن يتعرف الداء ، ثم يصف الدواء ، ثم يتبين من بعد أن الداء غير ما وصف، وأن الدواء فى غير موضعه ، فلو مات المريض نتيجة ذلك بعد أن بذل الطبيب أقصى الجهد، فإنه لا مسؤولية على الطبيب ؛ لأن الفعل فى الأصل مأذون فيه فلا موضع للضمان لأنه الاعتداء ، ولو ضمن لأدى ذلك بالأطباء أن يجمحوا عن التطبيب وبذلك تضيع مصلحة عامة ، هى من فروض الكفاية .

٢ ـ أن يؤدى خطأ التقدير إلى قطع طرف من الأطراف بأن يقول : إنه أصابته الآكلة ، ثم يتبين أنه لم يكن ثمة حاجة إلى القطع ، ففى هذه الحال لا تبعة فى هذا الخطأ لأنه اعتداء ما دام قد بذل الجهد .

٣ ـ أنه يقرر أنه لا علاج إلا بقطع عضو من الأعضاء لآفة فيه ، ثم يتبين أنه كان يمكن أن يعالج بغير القطع ، وهذا كالقسمين السابقين ، وشرطه كشرطهما وهو أن يبذل أقصى الجهد .

٤ ـ أن يقدر على الشفاء فى دواء معين مع معرفة نوع المرض ثم يتبين أن الدواء ليس لمثل هذه الحال فإن الخطأ فى كل هذا مرفوع ، وأنه يكون مع هذا الخطأ بعض الجهل بالحالة التى يعالجها الطبيب أو بالدواء .

وقد يكون خطأ الطبيب فى جراحة، ومثاله أن يجرح جراحة فتؤدى إلى موت

المجروح كمن يختّن طفلا ، فيترتب على ذلك موته فإنه لا تبعة .

وأن هذا النوع من الخطأ كان الخطأ فى التقدير أدى إلى الأذى أو القتل أو قطع الأطراف ، لا مسؤولية فيه باتفاق الفقهاء . هذا ولا ننسى أن نقرّر أن كل ذلك بالنسبة للطبيب الحاذق المتخصص الذى بذل أقصى الجهد ، واللّه ولىّ التوفيق) (١) .

القـضائية :

تشترط فى القاضى ــ الذى يقضى بين المسلمين ــ شروط تؤهله القضاء من أهمها :

الإسلام .

الذكورية .

الحرية .

عدم الفسق .

الاجتهاد والقدرة على الاستنباط من المصادر التشريعية .

الفطانة .

النزاهة .

وأن يكون صاحب علم بما يحكم فيه .

فلا يعذر الجاهل بجهله فى هذا الباب . عن أبى بريدة عن أبيه رضى اللّه عنه عن النبىّ ﷺ قال : « القضاة ثلاثة : واحد فى الجنة واثنان فى النار ، فأما الذى فى الجنة فرجل عرف الحق فقضى به ، ورجل عرف الحق فجار فى الحكم فهو فى النار ، ورجل قضى للناس على جهل فهو فى النار » (٢) .

وأما الخطأ بعد التحرى والاجتهاد وكان صاحبه من أهله (٣) ، فهو مأجور غير مأزور إن شاء اللّه تعالى .

عن عمرو بن العاص رضى اللّه عنه عن النبىّ ﷺ قال : « إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر » (٤) .

ويؤيد هذا ثناء القرآن الكريم على الوالد والولد ــ عليهما السلام ــ رغم اختلاف حكم كل منهما على الآخر فقال سبحانه : ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ

(١) أصول الفقه ، الإمام محمد أبو زهرة ص ٢٨١ ، ٣٨٢ ط : دار الفكر ، القاهرة .

(٢) رواه الترمذى .

(٣) أى من أهل الاجتهاد .

(٤) البخارى ومسلم .

نَفَشتْ فيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ . فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [الأنبياء : ٧٨ ، ٧٩] .

قال الحسن : لولا ما ذكر اللّه من أمر هذين الرجلين : يعنى داود وسليمان لرأيت أن القضاة قد هلكوا ، فإنّه أثنى على هذا بعلمه وعلى هذا باجتهاده .

وقد روى الرواة فى تفصيل القصة : أن رجلين دخلا على داود أحدهما صاحب حرث ، والآخر صاحب غنم ، فقال صاحب الحرث : إنّ هذا الرجل أرسل غنمه فى حرثى فلم تبق منه شيئا ، فقال داود : اذهب فإن الغنم كلها لك ، ومرّ صاحب الغنم بسُليمان فأخبره بالذى قضى به داود ، فدخل سليمان على داود فقال : يا نبىّ اللّه إن القضاء سوى الذى قضيت ، فقال : كيف ؟ قال : ادفع الغنم إلى صاحب الحرث فيكون له منافعها من درّها وأولادها وأشعارها ، والحرث إلى صاحب الغنم ليقوم عليه حتى يعود كما كان، ثم يترادان فيأخذ صاحب الحرث حرثه وصاحب الغنم غنمه ، فقال داود : القضاء ما قضيت وأمضى الحكم بذلك .

ولا يشفع للقاضى خطؤه عن التراجع عنه ؛ لأن حكمه لا يحل حراما ولا يحرم حلالا .

قالت أم سلمة ــ رضى اللّه عنها ــ : أتى النبىّ ﷺ رجلان يختصمان فى مواريث لهما ليست لهما بينة إلا دعواهما ، فقال النبىّ ﷺ :« من قضيت له من حق أخيه بشىء فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار » فبكى الرّجلان وقال كل واحد منهما : حقى لك ! فقال لهما النبىّ ﷺ : « أما إذا فعلتما ما فعلتما فاقْتسما وتوخّيا الحق » ثم استهما ثمَّ تحالا .

وفى رواية : « إنما أقضى بينكما برأيى فيما لم ينزل على فيه » (١).

وأما الإكراه بحقّ فهو غير مانع من لزوم ما أكره عليه ، فلو أكْره الحربى على الإسلام فأسلم صحّ إسلامه .

وكذا لو أكْره الحاكم أحدا على بيع ماله ليوفى دينه فالبيع ناجز .

فقه الدعوة

١ ــ لا يعذر الجاهل الذى نصّب نفسه داعية فى سبيل اللّه بجهله الذى يُعرقل سير الدّعوة ، يسود وجهها للعالم ، ولا يناله الأجر بل هو حقيق بالوزر فقد تبّوأ مقعده من النار بإفتائه بغير علم .

(١) رواه أبو داود .

٢ ـ تعانى الدعوة اليوم من ثلة ممّن تُحسب على الدعاة تسعى لفرض مفاهيمها وتصوراتها فرضا ، وتحكيمها فى الناس قهرا ، فلا تشم منهم رائحة الحكمة ، ولا تعرف معاملتهم اللين والرفق فنفروا أكثر ممّا بشروا فاتت جهودهم نتائج عكسية غير مرضية .

٣ ـ يحاول بعض المتعصّبين لرؤوس معيّنة وشخصيات دعوية محدّدة أن يفرضوا على من يتْبعُون هالة من القداسة لا تقبل المناقشة فضلا عن المراجعة ، بل وقد وصل الأمر بطائفة كبيرة من شبابنا اليوم ـ أرشدنا اللّه وإيّاهم ـ أن يتجرّأ على أئمّة هذه الأمّة الأعلام ناهيك عن الانتقاص من أقدارهم وانتقاد آرائهم عن جهل حتى بلغت الوقاحة ببعضهم أن يعلن على المنبر قائلا : قال مالك وأقول . . ! !

لكن الدنيا تقام ولا تقعد ، ويعصفون ويبرقون إذا نبّهت إلى بعض الأخطاء التى وقع فيها بعض الزعماء الحركيّين . . وأقول : أخطاء وأخطاء كبيرة لا ينبغى الدفاع عنها، وأصحابها يعنون ما يقولون ، ويقصدون ما يفعلون . . . ولا أظن أنّها من قبيل الخطأ الذى تجاوز اللّه فيه لنبيه عن هذه الأمة : « إن اللّه تجاوز . . . » .

وإنّى وإن كنت أعلم مسبّقا ما تثيره هذه اللفتة من نقع فلا يزيدنى ذلك إلا حرصا وإصرارا على الكتابة فى هذا الجانب فى موضوع مستقل بحول اللّه تعالى .

تطبيق

إذا كان حكم القاضى المسلم ـ على خطأ ـ لا يحرم حلالا ولا العكس فما بالنا بحكم من لا يحكم شرع اللّه أصْلا ، وهل الحق إلاّ كتاب أو سنة فماذا بعد الحق إلا الضّلال ؟ !

لقد وصل الأمر فى عصرنا هذا ببعض الأمصار الإسلامية إلى تحكيم قوانين الأحوال الشخصية المستنبطة من الأصول القانونية الغربية والغريبة عن مجتمعاتنا الإسلامية . فقد حدث ويحدث مرات ومرات أن يردّ القاضى المرأة لزوجها بعد تطليقات عديدة كما ينصّ قانون بعض الدول العربية على الخصوص بجواز التبنى وحرمة التعدّد . . وتحبيذ التحديد ـ تحديد النسل لدوافع اقتصادية .

يُحاول البعض ممن ولغوا فى دماء المسلمين أن يبرّروا صنائعهم بأنهم جُنّدوا تحت الإكراه والضغط الرسمى لتحقيق أغراض معينة ولكن أنّى لهم من نجاة ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣].

الحديث الأربعون

عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبى فقال: «كن فى الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل»، وكان ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك. رواه البخارى.

دروس وعبر من كلام سيد البشر

التصوف الإسلامى:

أولا: سبق وأن تعرّضنا للحديث عن حقيقة الزهد، ولا بأس أن نشير هنا إشارة بسيطة إلى لازم الزّهد وهو عدم الحرص وطول الأمل؛ فالمؤمن الصادق لا ينظر إلى الحياة الدنيا إلا كوسيلة فحسب، ولا يطلبها إلا تحقيقا لأهدافه الأخروية.. لا حرصا على ملذّاتها، وركونا إليها وأملا فى سرابها الخادع، وذلك للأسباب الموضوعية التّالية، والتي لا يتدبّرها إلا عاقل:

١ ـ لأن الإنسان إنسان بروحه فهى مناط التّكليف لا بجسمه وثيابه ونياشينه، ومن ثم فلا يسعى إلى خدمة هذه الكتلة المادّية وإشباع رغباتها وتلبية احتياجاتها غير الضرورية.. ثم هو يطمع فى الثناء والجزاء بل يعمل على تهذيب روحه وعقل شهواتها وكبح جماحها وتطويعها لأمر ربّها، ولله درّ الإمام محمد بن إدريس الشافعى حيث يقول:

كن فى الدنيا: أى فى حال إقامتك فيها.
كأنك غريب: مشبّها نفسك وأنت بين أهلك بحال الغريب.
أو عابر سبيل: للتنويع أو للترقى؛ لأن عابر السبيل أقل استقرارا من سابقه.
وكان ابن عمر يقول: أى من شدة تأثره بهذا الحديث كان كثيرا ما يقول لغيره.
إذا أمسيت: دخلت فى المساء.
فلا تنتظر الصباح: بل اعتقد ان الموت أقرب إليك من الصباح.
وخذ من صحتك: من زمن صحتك أوقاتا للطاعات تنفعك.
لمرضك: لزمن مرضك الذى تعجز فيه عن العمل.
ومن حياتك: أى خذ من أيام حياتك أعمالا صالحة تنفعك.
لموتك: لما بعد موتك حيث تنقطع الأعمال والآمال.

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته أتطلب الربح بما فيه خُسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

وفى هذا روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبىّ ﷺ قال : « تعِسَ عبد الدينار وعبد الدّرهم ، وعبد الخميصة إن أعطى رضى ، وإن لم يعط سَخط ، تعس وانتكس. . . » (١) .

٢ ـ ولأن ملكيّة الإنسان للمال ليست ملكية حقيقية بل هى ملكية إضافية ، قال تعالى : ﴿ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد:٧] عن عبد الله بن الشخير رضى الله عنه ، قال : أتيت النبىّ ﷺ وهو يقرأ : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ [سورة التكاثر] قال : «يقول ابن آدم : مالى مالى ، وهل لك يابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت ، أو تصدّقت فأمضيت » (٢) .

٣ ـ كما يدرك أن كثرة لمال ابتلاء من المولى ـ عز وجلّ ـ ، فقد تطغى بعض النفوس بما فتح الله عليها وأمدّها من مال ، وإن كان لا يمنع العكس عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال النبىّ ﷺ : « ما طلعت شمس قط إلا بعث بجنبتيها ملكان يناديان يُسمعان أهل الأرض إلا الثقلين : يأيّها الناس هلمّوا إلى ربكم ، فإن ما قل وكفى خير ممّا كثُر وألهى » (٣) .

وذى حادثة أخرى تبيّن أن من الناس من يصلحه الفقر ويفسده الغنى فعن نُقَادة الأسدى رضى الله عنه قال: بعثنى رسول الله ﷺ إلى رجل يستمنحه ناقة فرده، ثم بعثنى إلى رجل آخر يستمنحه، فأرسل إليه بناقة فلمّا أبصرها رسول الله ﷺ قال: «اللهم بارك فيها وفيمن بعث بها» قال نقادة : فقلت لرسول الله ﷺ: وفيمن جاء بها؟ قال: «وفيمن جاء بها» ثمّ أمر بها فحلبت فدرّت ، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم أكثر مال فلان ـ للمانع الأوّل ـ واجعل رزق فلان يوما بيوم » للذى بعث بالناقة(٤).

٤ ـ وفوق هذا فسيسأل عما ملك وإن قل من أين اكتسبه وبأى طريق جمعه وفيم أنفقه ؛ لقول الحق سبحانه: ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ [التكاثر: ٨]، ولقوله ﷺ: « إنّ أوّل ما يسأل عنه العبد من النعيم أن يقال له : ألم نصح لك بدنك ونروك من الماء البارد؟!» (٥) .

---

(١) رواه البخارى .
(٢) رواه مسلم ، والترمذى ، والنسائى .
(٣) رواه أحمد .
(٤) رواه ابن ماجه بسند حسن .
(٥) أخرجه الترمذى ، وابن حبان .

وروى ابن جرير عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : بينما أبو بكر وعمر جالسان إذ جاءهُما النبىّ ﷺ فقال : « ما أجلسكُما ههنا ؟ » قالا : والذِى بعثك بالحق ما أخرجنا من بيوتنا إلا الجوع ، قال : « والذى بعثنى بالحق ما أخرجنى غيره » فانطلقوا حتّى أتوا بيت رجل من الأنصار ، فاستقبلتهم المرأة . فقال لها النبىّ ﷺ : « أين فلان ؟ » فقالت : ذهب يستعذب لنا الماء ، فجاء صاحبهم يحمل قربته ، فقال : مرحبا ما زارَ العبادَ شيء أفضل من نبى زارنى اليوم ، فعلق قربته بكرب نخْلة ، وانطلق فجاءهم بعذق ، فقال النبىّ ﷺ : « ألا كنت أجتنيت ؟ » فقال : أحببت أن تكونوا الذين تختارون على أعينكم ، ثم أخذ الشّفرة ، فقال له النبىّ : « إيّاكَ والحلوب » فذبح لهم يومئذ ، فأكلوا فقال النبىّ ﷺ : « لتسألن عن هذا يوم القيامة أخرجكم الجوع ، فلم ترجعوا حتى أصبتم هذا ، فهذا من النّعيم » [١] .

٥ ــ العاقل لا يقيم للدنيا وزنا فما هو عند الله أهون من الجيفة النتنة ، بله من أن يعبدها ويفنى شبابه فى خدمتها وجمعها من الحرام والحلال .

ولقد شبّه النبىّ ﷺ الدنيا لصحابته بما يقزز النفوس ، عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ مرّ بالسوق ، والناس في كنَفَتيه ، فمرّ بجدى أسكّ ميّت ، فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال : « أيكم يحبّ أن هذا بدرهم ؟ » فقالوا : مَا نحبّ أنه لنا بشيء ، وما نصنع به ؟ قال : « أتحبون أنه لكم ؟ » قالوا : والله لو كان حيّا لكان عيبا فيه لأنه أسَكٌّ ، فكيف وهو ميت ؟ فقال : « واللّه للدّنيا أهون على الله ، من هذا عليكم»[٢].

وعن سهل بن سعد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء » [٣] .

٦ ــ ولنا فى حياة النبىّ ﷺ المثل الأعلى والدليل الأقوى على أن بهرجة الدنيا لا وزن لها ولا قيمة مقابل النعيم الأبدى والخير السرمدى ، وحتى نقف على جانب من حياة المصطفى ﷺ نورد هذه المجموعة من الأحاديث النبوية :

ــ فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : ما شبع آل محمد ﷺ من طعام ثلاثة أيام تباعا حتّى قبض .

ــ وفى رواية قال أبو حازم : أرأيت أبا هريرة يشير بإصبعه مرارا يقول : والذى

(١) أخرجه ابن جرير ، ورواه مسلم وأصحاب السنن الأربعة بنحوه .
(٢) رواه مسلم . (٣) رواه الترمذى ، وابن ماجه .

نفس أبى هريرة بيده ما شبع نبى الله ﷺ ثلاثة أيّام تباعا من خبز حنطة حتى فارق الدنيا(١) .

ـ وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : إن فاطمة ـ رضى الله عنها ـ ناولت النبى ﷺ كِسرة من خبز شعير فقال لها: «هذا أوّل طعام أكله أبوك منذ ثلاثة أيّام»(٢) .

ـ وعن أبى أمامة رضى الله عنه عن النبىّ ﷺ قال : « عرض علىّ ربى ليجعل لىَ بطحاء مكة ذهبا ، قلت : لا ياربّ ، ولكن أشبع يوما ، وأجوع يوما » ، وقال : ثلاثا أو نحو هذا : « فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك وإذا شبعت شكرتك وحمدتك»(٣) .

ـ وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه مرّ بقوم بين أيديهم شاة مصلية فدعوْه فأبى أن يأكل ، وقال : خرج رسول الله ﷺ من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير (٤) .

ـ وعن عروة عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنها كانت تقول : والله يا ابن أختى إن كنّا لننظر إلى الهلال ، ثم الهلال ثلاثة أهلّه فى شهرين ، وما أوقد فى أبيات رسول الله ﷺ نار . فقلت : يا خالة ، فما كان يعيشكم ؟ قالت : الأسودان التّمر والماء إلا أنّه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار وكانت لهم منَايحُ فكانوا يرسلون إلى رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقيناه (٥) .

ـ وعن عبد اللّه بن مسعود رضى اللّه عنه قال : نام رسول الله ﷺ على حصير فقام وقد أثّر فى جبه قلنا : يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء ؟ فقال : « مالى وللدنيا ما أنا فى الدّنيا إلا كراكبٍ استظل تحت شجرة ثم راح وتركها » (٦) .

ـ وعن عمرو بن الحارث رضى الله عنه قال : ما ترك رسول الله ﷺ عند موته درهما ولا دينارا ، ولا عبدا ، ولا أمة ، ولا شيئا إلا بلغته البيضاء التى كان يركبها وسلاحه ، وأرضا جعلها لابن السبيل صدقة (٧) .

ثانيا : يورث الحرص وطول الأمل نتائج سلبية خطيرة :

أولها : يسبّب قلة الحياء من المولى ـ عز وجل ـ ، فقد روى عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : قال رسول الله ﷺ على المنبر والنّاس حوله : « أيها النّاس استحيوا من الله حَق الحياء » فقال رجل : يا رسول الله إنّا لنستحيى من الله تعالى ،

(١) رواه البخارى ومسلم .
(٢) رواه أحمد والطبرانى .
(٣) رواه الترمذى .
(٤) رواه البخارى والترمذى .
(٥) رواه البخارى ومسلم .
(٦) رواه الترمذى وابن ماجه .
(٧) رواه البخارى

فقال : « من كان منكم مستحييا فلا يبيتنّ ليلة إلا وأجله بين عينيه ، وليحفظ البطن وما وعى ، والرأس وما حوى ، وليتذكر الموت والبلى ، وليترك زينة الدنيا » (١) .

ثانيها : وطول الأمل ونسيان الأجل أمارة على الشقاء والعياذ بالله كما بين ذلك ﷺ فيما رواه عنه أنس رضى الله عنه : « أربعة من الشقاء : جمود العين ، وقسوة القلب ، وطول الأمل ، والحرص على الدنيا » (٢) .

وثالثها : يسبب الحرص قسوة القلب التى تناولنا البحث فيها بشىء من التفضيل فى بعض الأحاديث السابقة .

الفقهية :

« . . . . أو عابر سبيل » .

قال تعالى : ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [التوبة : ٦٠] .

فتعطى الزكاة الواجبة إذًا لابن السبيل الذى تغرّب فى غير معصية شريطة أن يكون حرّا ، مسلما ، غير هاشمى يحتاج إلى ما يوصله إلى بلده ، ولو كان غنيّا ببلده لكنه لم يجد مقرضا ، ويصدّق الغريب فى ادعائه الغربة بلا يمين ، وتنزع منه الزكاة إن جلس فى بلد الغربة وكان غنيا فى بلده .

الاجتماعية :

شأن الغريب عن أهله ووطنه ، وكذا عابر السبيل الذى نزل فى طريقه بمكان مّا للاستراحة وليجدّد قوته ، الإعراض عن كل ما يلهيه عن مقصده أو يطيل فى غربته ، وذَا هو حال المؤمن الكيّس ، فلا ينافس الناس متاع الدنيا الزائل ، ولا يخاصم فى سبيل عَرَضها الحائل .

ومن ثم فتذكّر الموت خير واعظ ، ومن لم يعظه هادم اللذات كما سمّاه رسول الله ﷺ فلا واعظ له ، عن ابن عمرو ــ رضى الله عنهما ــ قال : قال رسول الله ﷺ : «أكْثروا ذِكر هادم اللذات ــ يعنى الموت ــ فإنه ما كان فى كثير إلا قلّله ، ولا قليل إلا جزأه »(٣) .

لقد سما الصحابة الكرام عن بهرج الحياة الدنيا ، وآثروا ما يبقى على ما يفنى، فنبذوا الخلاف فيها والتنازع عليها ، بل وآثر كلّ منهم صاحبه على نفسه ، فأثنى عليهم

---

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط . (٢) رواه البزار . (٣) رواه الطبرانى بإسناد حسن.

ربهم بقوله تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : ٩] ، وأخرج البخارى ومسلم والترمذى ، والنسائى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :

أتى رجلٌ رسول الله ﷺ فقال : أصابنى الجهد ، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهنّ شيئا ، فقال عليه الصلاة والسلام : « ألا رجل يضيف هذا الرجل الليلة رحمه الله ؟ » .

فقال أبو طلحة : أنا يا رسول الله ، فذهب إلى أهله ، فقال لامرأته : أكرمى ضيف رسول الله ﷺ قالت : والله ما عندى إلا قوت الصبية ، قال : إذا أراد الصبية العشاء فنوّميهم وتعالى فأطفئى السّراج ونطوى الليلة لضيف رسول الله ﷺ ففعلت ، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ ، فقال عليه الصلاة والسلام : « لقد عجب الله الليلة من فلان وفلانة وأنزل فيهما : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾» [الحشر : ٩] .

ولقد كان رسول الله ﷺ يبشّر صحابته بفتح الأمصار واغتنام الغنائم ، وفى نفس الوقت يحذرهم من الافتتان بها ، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : نظر رسول الله ﷺ إلى الجوع فى وجوه أصحابه فقال : « أبشروا ، فإنّه سيأتى عليكم زمان يُغدى على أحدكم بالقصعة من الثريد ويراح عليه بمثلها » قالوا : يا رسول الله : نحن يومئذ خير ؟ قال : « بل أنتم اليوم خير منكم يومئذ » (١) .

ويبيّن لهم أنّها السبب فى إهلاك الأمم السابقة ، عن عمرو بن عوف الأنصارى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجرّاح رضى الله عنه إلى البحرين يأتى بجزيتها فقدم بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدوم أبى عبيدة فوافَوْا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ فتبسم حين رآهم ثم قال : « أبْشروا وأمِّلوا ما يسرّكم فوالله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم » (٢) .

والتنافس والتطاحن نتيجة للحرص القاتل على الدنيا يُضرّان بالأمّة ويهدّدان أمنها وأخلاقها واستقرارها ، ويبْتران العلاقات الاجتماعية والروابط الأسرية ، ويزعزعان كيان الأمة بأكملها ؛ فتصبح الروابط المادّية فوق أىّ اعتبار ، وتوزن العلاقات الاجتماعية بميزان المصلحة ، وتكال المحبّة ، والإخاء ، والرحمة ، والأبوة ، والبنوة ، والزوجية بمكيال الدينار والدرهم .

---

(١) رواه البزار بإسناد جيّد .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

عن كعب بن عياض قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنّ لكل أمّة فتنة، وفتنة أمتى المال » (١) .

وعن أبى سنّان الدّؤلى أنه دخل على عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعنده نفرٌ من المهاجرين الأوّلين ، فأرسل عمر إلى سَفَط أتى به من قلعة العراق ، فكان فيه خاتم فأخذه بعض بنيه فأدخله فى فيه ، فانتزعه عمر منه ، ثم بكى عمر رضى الله عنه ، فقال له من عنده : لم تبكى وقد فتح الله عليك ، وأظهرك على عدوّك وأقرّ عينك؟! فقال عمر : سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تفتح الدنيا على أحد إلا ألقى الله ـ عز وجل ـ بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ، وأنا أشفق من ذلك » (٢) .

ـ وعن جابر بن عبد الله ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتّقوا الشحّ فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلّوا محارمهم » (٣) .

وقريب من هذا ما رواه عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « اتقوا الظلم فإنّ الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الفحش فإن الله لا يحبّ الفحش ولا التفحّش ، وإيّاكم والشحّ فإنه فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، أمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالفجور ففجروا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا » (٤) .

ـ وعن كعب بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما ذئبان جائعان أرسلا فى زريبة غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»(٥) .

النفسية :

١ ـ إن للشيطان ـ أعاذنا الله منه ـ دراسةً وافية عن نفسية البشر ، ومعرفة كاملة بمكامن الضعف والثغرات الخطيرة التى يدلف منها الإنسان لاستهوائه ، ومن بين هذه الثغرات الأمل وعبْره ينفث سمومه ووساوسه لإغواء النّاس تحقيقا للعهد الذى أخذه على نفسه حين أقسم بربّ العزّة ألا يدّخر جهدا فى سبيل صدّ العباد عن صراط ربّهم المستقيم ، قال تعالى حكاية عن وسوسة إبليس لوالدى البشرية ـ آدم وحوّاء ـ : ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ . وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ .

(١) رواه الترمذى .
(٢) رواه أحمد بإسناد حسن ، والبزّار ، وأبو يعلى .
(٣) رواه مسلم والإمام أحمد .
(٤) رواه أحمد وأبو داود .
(٥) رواه الترمذى .

فَدَلاَّهُما بِغُرُورٍ ﴾ [الأعراف : ٢٠ ــ ٢٢] .

وها هو نفسه يكشف عن هدفه ووسائل تحقيق ذلك الهدف الخبيث كما بيّنها لنا القرآن الكريم أيضا :

﴿ إن يَدْعُونَ من دُونِه إلاَّ إنَاثًا وَإن يَدْعُونَ إلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا . لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا . وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّه وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّه فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا . يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إلاَّ غُرُورًا . أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴾ [النساء : ١١٧ ــ ١٢١] .

فعلى المؤمن أن يسدّ هذه المنافذ وأن يشدد الحراسة على هذه الثغور النفسية حتى لا يؤتى من قبلها فتزلق به الأماني .

٢ ــ الحرص على الدنيا يورث الغفلة عن النّعم ، والنّعم ابتلاء ومصيرها إلى الزّوال ، فلا يلبث الغافل أن يندَم عليها ولات حين مناص فلا ينفع السخط ولا التأفّف، بل يزيدان الغافل الحرج والحسرة فلا يفتأ أن يأكل يده ، ففي صحيح البخاري عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ قال: « نعمتان مغبونٌ فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ » . وفي صحيح الحاكم عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لرجل وهو يعظه: « اغتنم خمسا قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » .

وتوالت الآيات القرآنية في وصف النّادمين كقوله تعالى :

﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ . أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ . أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الزمر : ٥٥ ــ ٥٨] .

وقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ . لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون : ٩٩، ١٠٠].

وقوله عزّ وجل : ﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ . وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا

وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المنافقون : ١٠ ، ١١] .

والندّم يورث القلق والأرق وأمراضا عصبية أخرى لا يكون الإنسان فى أمان منها إلا إذا اغتنم فراغه وصحته ، وشبابه وحياته فى صالح دينه ودُنْياهُ قبل أن يجهز عليه أضْدَادها .

فقه الدعوة

١ ــ أخذ النبىّ ﷺ بمنكبى عبد اللّه بن عمر فى بداية حديثه له ، ووصيته إلَيْه؛ إيناسًا له وإعلامًا بمزيد محبته ، وجمعا لِفكْره .

وذى صلة الدّاعية بمدعويه التى تضمن فعاليتها فى النفوس وتأثيرها فى القلوب ، فهو القريب إليهم لا ينظر إليهم نظرة استعلاء واستهجان من أبراج عالية وضع نفسه فيها، أو رفعته المنابر والأرائك إليها ، شأن بعض المحسوبين على الدّعوة اليوم .

٢ ــ من مقولة سيدنا ابن عمر رضى اللّه عنه : إذا أمسيت فلا تنتظر . . المستخلصة من الحديث النبوى نستفيد أن دعوة الداعية يجب أن تنطلق من منطلقها الأساسى : القرآن والسنة النبوية الشريفة .

تطبيق

قد يبدو لبعض منّا التّعارض بين ذمّ طول الأمل والحثّ على العمل ، والحقيقة الجليّة ألا تعارض قط ؛ لأن المرء منا مركب من قبضة الطين ونفخة الروح .

والإسلام بوسطيته يعدل بين هذه وتلك ، وما ذمّ طول الأمل إلا علاج نبوىّ شريف لمن انساق وراء شهواته فمالت به إلى كفة المادّة على حساب الجانب الأسْمى ، ويَبْرز هذا قويّا فيما أثر عن عمر بن الخطاب ــ رضى الله تعالى عنه ــ : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبَدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا .

وعدم الموازنة بين شطرى الإنسان إفساد فى الأرض كما حذّر منه الصالحون من بنى إسرائيل : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ . وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٧٦ ، ٧٧].